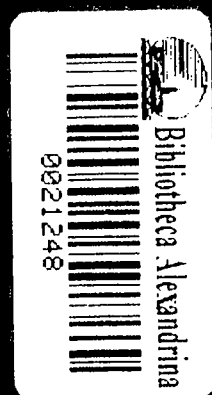


تاریخ مصر
الحکومت العام
1014 - 1914 م

مکتب
عمر عبد الوہاب

دارالوہاب



تاريخ مصر الحديث والمعاصر

تاريخ مصر الحديث والمعاصر

١٩١٩ - ١٥١٧

الدكتور عمر عبد العزيز عمر

أستاذ التاريخ الحديث
ومدرسة الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

الناشر
دار المعرفة الجامعية

إهداء

الى وطنى ... الى مصر الخالدة
رمز الحب والوفاء والعطاء ...

مقدمة

يتناول هذا الكتاب مرحلة مهمة من تاريخ مصر الحديث والمعاصر تبدأ بمجىء العثمانيين الى مصر عام ١٥١٧ وتنتهى بقيام ثورة ١٩١٩ • حقيقة أن تاريخ مصر الحديث يمثل - منذ مطلع القرن التاسع عشر - مرحلة هامة من مراحل التطور الفكرى والاجتماعى والسياسى ، الا أنه يكمن وراء ذلك خطورة اهمال تطور واستمرار حركة التاريخ المصرى • فلا يستطيع أى باحث أن يفهم تطور تاريخ مصر وتكوين المجتمع الجديد خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين دون أن يدرس بالتفصيل احوال المجتمع التقليدى وتقلباته السياسية منذ القرن السادس عشر • ولهذا فان القسم الاول من هذا الكتاب يغطى الفترة الممتدة من عام ١٥١٧ حتى عام ١٧٩٨ ، وتعرف فى التاريخ المصرى الحديث باسم «مصر العثمانية» ، وهى الفترة التى لم تنل عناية كافية من جانب معظم الباحثين حيث اتسمت بالجمود والركود والتخلف الفكرى والخضوع المطلق للسلطة • من ثم كان التركيز فى هذا القسم على دراسة مصادر تلك الفترة ، وأوضاع مصر المالية والادارية ، وكذلك الفئات الاجتماعية التى سيطرت على المجتمع المصرى فى العصر العثمانى •

أما القسم الثانى من الكتاب فيعالج تاريخ الفترة الممتدة من عام ١٧٩٨ الى عام ١٩١٩ • فبعد ما يقرب من ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية ، واجهت مصر وشعبها وحدهما أول اعتداء غربى مسلح على البلاد فى العصر الحديث ، وانكسر للمرة الاولى جدار العزلة التى فرضت عليها • وافتتحت الحملة الفرنسية مرحلة طويلة من التنافس الانجليزى - الفرنسى على مصر انتهت بالاحتلال البريطانى لها فى عام ١٨٨٢ • وقد غالى البعض فى تقييم النتائج الأخرى للحملة الفرنسية ، وخيل اليهم أن حركة التجديد والتغيير

فد بدأت فى مصر أثناء وجود الحملة • ولكن ما يمكن أن نتصوره هو أن الحملة الفرنسية قد ضعفت البنيان الاجتماعى القائم ، وهزت المفاهيم الفكرية والاجتماعية التى كان المجتمع المصرى يخضع لها • فلم يكن فى إمكانها ، بسبب قصر المدة التى قضتها فى البلاد ، أن تحدث تغيرا جوهريا فى حياة المجتمع وتطوره ، كما أن الحواجز التى تفصل المصريين عن حكاهم الفرنسيين المخالفين لهم فى اللغة والدين والقيم الاجتماعية قد حدث من تفاعلهم بالمؤثرات الغربية • وان المتتبع لكتابات المؤرخ عبد الرحمن الجبرى ليدرك أن أوضاع مصر العامة فى السنوات القليلة التى تلت الحملة لا تكاد تختلف عن أوضاعها العامة فى السنوات السابقة للحملة •

أما حركة الـ Westernization أو الاقتباس من الغرب فقد بدأت فى الحقيقة عندما استقر حكم محمد على فى البلاد ، ووقع المجتمع المصرى تحت تأثير العلم والتكنولوجيا والاقتصاد وأساليب التنظيم الحديثة • ومما ساعد محمد على على تحقيق ذلك أنه قضى على المؤسسات الوطنية القديمة وأحل محلها قوة الدولة الحديثة بجيشها الجديد وأنظمتها الجديدة • وفى ظل الدولة الحديثة التى أنشأها محمد على ذابت الحواجز التى كانت قائمة بين طوائف المجتمع ، ونما بينها الشعور بالتضامن ، أو ما نسميه بالوعى ، وحل ولاء الانتماء للأمة الواحدة محل ولاء الانتماء للطائفة • وهكذا تعتبر ألوان النشاط التى شهدها عصر محمد على أول استجابة لاحتساس المصريين بالغرب • فغير محمد على معالم مصر بحيث اختلفت اختلافا أساسيا عما كانت عليه فى أوائل حكمه ، فاختلف الانسجام القائم بين الأيديولوجية الإسلامية والواقع • ولكن محمد على عندما فتح أبواب مصر أمام المؤثرات الغربية ، لم يدر أنه بذلك قد فتح الباب على مصراعيه أمام تدفق الطوفان الذى دمر الأسس التقليدية التى كان يقوم عليها المجتمع المصرى ، مما أدى الى اضمحلال ثم انهيار النظام السياسى القديم وتفكك القوالب الاجتماعية والثقافية القديمة •

الشعبية المتكاملة بين عناصر الأمة على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومذاهبهم الدينية . وتمثل ثورة ١٩١٩ مرحلة جديدة أكثر نضوجا وتطورا من كل جانب وأكثر ملاءمة للظروف الدولية التي تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى . فسعد زغلول يخلف مصطفى كامل في الزعامة ، والوفد المصرى يخلف الحزب الوطنى فى القيادة ، وجماهير الشعب تنتقل من العمل تحت راية الحزب الوطنى الى راية الوفد المصرى .

وفى النهاية ، فاننى لا أدعى أن هذا الكتاب يغطى كل جوانب الموضوع ، لكنه يمثل محاولة أردت أن أسهم بها فى إبراز بعض الجوانب الهامة من تاريخ مصر الحديث والمعاصر بتجرد وموضوعية ، والله ولى الهدى والتوفيق .

الاسكندرية فى ١٦ جماد أول ١٤١٣ هـ

١١ نوفمبر ١٩٩٢ م

عمر عبد العزيز عمر

القسم الأول
مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨)

الفصل الأول

دراسة عن بعض مصادر تاريخ مصر الحديث

- ١ — بعض المصادر العربية عن تاريخ مصر العثمانية •
- ٢ — بعض مصادر التاريخ المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر •

١ — بعض المصادر العربية عن تاريخ مصر العثمانية :

أسباب إهمال دراسة تاريخ مصر العثمانية :

تقتصر الغالبية العظمى من دارسى تاريخ مصر الحديث على دراسة تاريخ مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر فقط ، وأصبح هناك شبه إجماع ضمنى فيما بينهم على هذا التحديد . وعلى ذلك فإننا نلاحظ أن معظم الدراسات التى ظهرت حتى الآن تبدأ عرضها لتاريخ مصر الحديث بمجىء الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ أو بتولى محمد على مقاليد الحكم فى عام ١٨٠٥ . وتغفل تماماً الفترة المعروفة فى التاريخ المصرى الحديث باسم « مصر العثمانية » وهى الفترة الممتدة من عام ١٥١٧ — أى منذ السنة التى فتح فيها سليم الأول مصر — حتى عام ١٧٩٨ . وهناك أسباب قوية حالت دون أن ينال العهد العثمانى فى مصر عناية كاملة من جانب المشتغلين بدراسة التاريخ الحديث . فلقد نظر البعض الى تلك الفترة على أنها امتداد للعصور الوسطى وأن عهد التجديد فى مصر لم يبدأ الا بمقدم الحملة الفرنسية . وحيث ان العصر العثمانى اتسم بالجمود والركود فهو لذلك أقرب فى نظرهم الى طبيعة العصور الوسطى فى أوروبا التى تميزت بنفس المظهرين الى جانب التخلف الفكرى والخضوع المطلق للسلطة . لذلك رأى البعض أن أوائل القرن التاسع عشر فى مصر كانت بداية ما يشبه عصر النهضة فى أوروبا . فلقد بدأت مصر منذ بداية القرن التاسع عشر مرحلة هامة من مراحل التطور الادارى والاجتماعى والاحتكاك بالفكر الغربى (أو ما يعرف باسم حركة الاستغراب أى الاقتباس من الغرب) عن طريق البعثات العلمية التى أخذت مصر توفدها الى مختلف دول أوروبا ، والاهتمام بترجمة الكتب الأوروبية فى شتى فروع المعرفة الى اللغة الغربية . ولقد أدى ذلك الى حدوث اختلاف كبير بين الحياة التى عاشتها مصر

أن في الامكان دراسة التاريخ المصرى قائما بذاته ومنعزلا عن غيره من تاريخ الشرق الأوسط ، ولكن تاريخ مصر الحديث حتى عام ١٨٨٢ لا يمكن فهمه منفصلا عن التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية . فتراخى السيطرة العثمانية على مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتركز السلطة في أيدي رجال محليين لم يشكلا تطورا فريدا من نوعه ، بل كان مظهرا من الممكن أن نتنبهه — مع الفارق — في كل من الولايات العربية والتركية . وعندما حصلت الحكومة المصرية في عهد محمد على وخلفائه على درجة كبيرة من الاستقلال الذاتى عن السلطان العثماني ، سارت انتطورات التاريخة — مثل مركزية الإدارة أو تقبل الأفكار الغربية الصحيحة — في اتجاه واحد تقريبا في كل من القاهرة واستانبول . وماتزال الاتصالات الشخصية والرسمية بين السلطان وحكومة مصر التي استمرت حتى عام ١٩١٤ تحتاج بالتأكيد الى المزيد من الدراسة والبحث .

وهكذا تركزت دراسات جمهرة المؤرخين حول تاريخ مصر في القرن التاسع عشر وبخاصة حول تاريخ أسرة محمد على . ولقد شجعت الملكية المصرية السابقة في أواخر العشرينات وفي الثلاثينات من القرن الحالي عددا من المؤرخين الأجانب (مثل الايطاليين والفرنسيين) على دراسة تاريخ الأسرة العلوية للدفاع عن سلوكها ، وقام هؤلاء الأجانب بنشر أبحاثهم ودراساتهم تحت اشراف «الجمعية الجغرافية الملكية»^(١) .

(١) انظر على سبيل المثال :

G. Douin, Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807); Société royale de geographie d'Egypte. Publications speciales, Cairo 1930; E. Driault, La formation de l'empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan (1814—1823), Société royale de géographie d' Egypte, Cairo 1927, A Smmarco. II regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani Vol. VIII:

=

وهكذا أهمل المؤرخون المصريون والغربيون على السواء دراسة العصر العثماني نتيجة للاعتقاد الشائع عن ندرة وقلّة مصادر هذا العصر . ولكن المصادر متوفرة في دور الوثائق والمكتبات المختلفة . وما ينبغي أن نقوله بالفعل هو أن دراسة تاريخ تلك الفترة تحتاج الى معرفة جيدة باللغة التركية حتى يتسنى للباحث قراءة الجزء الأكبر من الوثائق الخاصة بها والتي كتبت باللغة التركية . ولما كانت الغالبية العظمى من الباحثين ليست لها دراية كافية باللغة التركية فانها أهملت تماما دراسة تاريخ العصر العثماني أو اعتمدوا في دراستها على بعض المصادر العربية والمخطوطات الموجودة في المكتبات المختلفة . ولاشك أن الاعتماد على المصادر العربية خطوة هامة لاماطة اللئام عن حقائق تلك الفترة ، ولكنها لا تكفى بغير الرجوع الى الوثائق والمصادر التركية المعاصرة . ولقد أكد أحد المؤرخين المصريين أهمية الوثائق التركية وقال ان معلوماتنا عن تلك الفترة الطويلة ستظل قاصرة وناقصة حتى يوجد من يتعلم قراءة خط القيرمة ، ويتمكن من دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من معلومات . وخط القيرمة هو أحد الخطوط التي كتبت بها الوثائق العثمانية ، وهو معقد فكّر الزرايا والننايا ، ويمكن أن تكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق فضلا عن الأرقام الخاصة به . ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الادارية والمالية ، ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكنمان والسرية^(١) .

Genesie primo svolgimento della Crisi egiziano — orientale del 1831-1833. (gennaio 1831-gennaio 1832). Société royale de géographie d'Egypte. Rome. 1931.

(١) قرمة من قبرمق التركية ، بمعنى الثنى والتكسير ، وشاع استعمال هذا الخط في مصر ابتداء من القرن ١١ هـ . (انظر : حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٦ - ٢٧) .

الدراسات المنسوبة عن مصر العثمانية :

على أن السنوات الأخيرة بدأت تشهد فعلا اهتماما بالغا من جانب قلة من أشهر أساتذة التاريخ في مصر والغرب وجهوا الأنظار الى تلك الفترة المهملة من تاريخنا وقدموا دراسات رائدة في هذا الميدان . ومن هؤلاء :

١ - د . محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ،

معهد الدراسات العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ويهتم الدكتور أنيس في بحثه بتقسيم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة الى أنواع ثلاثة وهي الوثائق الرسمية (الوثائق المصرية والتركية والأوروبية)^(١) . والكتاب المعاصرون وهؤلاء ينقسمون الى مجموعتين : مجموعة الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خلال العصر العثماني وكتبوا عن أحوالها^(٢) ، ومجموعة المؤرخين المصريين المعاصرين . والجانب الأكبر من بحث الدكتور أنيس يقدم حصرا شاملا لهذه الكتب كعمل تمهيدى لجمعها والقيام على نشرها . ثم يعود المؤلف في بحثه الى الحديث عن هؤلاء المؤرخين والتعريف بهم وبمؤلفاتهم ويقسمهم الى ثلاثة أقسام :

(١) قام الدكتور محمد أنيس بدراسة الأرشيف الانجليزي في العصر العثماني وكتب رسالة للدكتورة بعنوان :

The development of British interests in the Late 18 th Century, Ph. D. Thesis, Liverpool, 1951:

كما قام بدراسة وثائق المحكمة الشرعية وكتب مقالا بعنوان « حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية » في المجلة التاريخية ، ١٩٦٢ .

(٢) محمد أنيس ، مدرسة التاريخ المصري ، ص ١٨ .

أ — مجموعة المؤرخين الذين ظلوا في كتاباتهم لتاريخ مصر العثمانية متأثرين بمدرسة التاريخ الاسلامى مثل ابن اياس والجبرتي وغيرهم *

ب — مجموعة المؤرخين الذين اعتنوا بكتابة السير وينتسب الى هؤلاء في القرن العاشر العيني وفي القرن الحادى عشر المحبى ثم الزبيدى والجبرتي في القرن التالى له *

ج — مجموعة المؤرخين الأجناد ،وهؤلاء لم يكونوا ممن يستغلون بالعلم أو ممن كانت صناعتهم كتابة التاريخ ، وانما كانوا من الأجناد الذين مارسوا كتابة التاريخ كنوع من الهواية * وكانت هذه المجموعة من الكتاب الأجناد تبتعد كثيرا عن مدرسة الكتاب العلماء في فهمها للتاريخ وفي طريقة كتابته * ويمثل هؤلاء الكتاب ابن زنبل الرمال في القرن العاشر الهجرى ثم الدمرداشى كتخدا عزبان ومصطفى ابن الحاج ابراهيم في القرن التالى *

٢ — د • محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ •

والكتاب في الأصل رسالة قدمت الى كلية الآداب (بجامعة القاهرة) لنيل درجة الماجستير • وهو يعالج فترة غامضة حقا من تاريخ مصر في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فيلقى الضوء على لون من ألوان الحكم المملوكى تحت السيادة العثمانية ويبين كيف استفحل نفوذ على بك الكبير في مصر على حساب الدولة العثمانية الضعيفة ، ويوضح أثر ذلك في أحوال مصر السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الخارجية عندما تطلع الى ضم الحجاز وشرع في غزو سورية بالتحالف مع صديقه ظاهر العمر • ولقد بحث المؤلف في مقدمة كتابه نشأة البيوت المملوكية في العصر العثمانى ، ثم اختتم بحثه بمناقشة العوامل التى أدت الى فشل الحركة وعودة مصر ترزخ تحت عسف المماليك وأطماع العثمانيين

العوامل فيما يلي : دسائس الدولة العثمانية وغدر المماليك وأخطاء على بك نفسه وعدم كفاية مدد ظاهر العمر وتأخر المساعدات الروسية . أما الشق الثانى من خاتمة هذه الدراسة الموضوعية فيتناول أثر حركة على بك فى تاريخ مصر • ويقول المؤلف فى هذا الصدد « وفى عهد على بك أصبحت لمصر شخصية ممتازة ، ولأول مرة فى العصر العثمانى الأول حاول على بك عقد معاهدات سياسية مع روسيا وجمهورية البندقية ، كما نجح فى عقد اتفاقات جمركية مع الانجليز • وتطلع حاكم البنغال وارن هاستنجز الى عقد معاهدة تجارية مع مصر لمصلحة التجارة الانجليزية»^(١) .

أما الأهمية الثانية لهذا البحث القيم فتتمثل فى استعمال الباحث لمصادر كثيرة ترجع الى أصول مختلفة أهمها : الوثائق الرسمية والنقوش التاريخية (الموجودة فى داخل القبة الرئيسية بمسجد الامام الشافعى وعلى مقبرة على بك) والمخطوطات ، والمطبوعات العربية والتركية ثم المطبوعات الانجليزية والفرنسية • ولقد اعتمد الباحث اعتمادا كبيرا على وثائق العصر العثمانى الموجودة فى « المخزن التركى » بدار المحفوظات العمومية بالقلعة • ولقد اعترفت الباحث بصعوبات جمّة فى جمع مادته مثل تشتت كثير من وثائق العصر ، وعدم وجود بعض أنواع من « الدفاتر » سنة أو سنتين منها وفقد أنواع بأكملها من تلك السجلات وصعوبة قراءة خط « القيرمة » ولكنه تمكن من التغلب عليها واستعان بأهم وثائق دار المحفوظات التى تتلخص فى الآتى :

أ — دفاتر التزامات الولايات القبلية والبحرية للفترة من ١٧٥٦م الى ١٧٧٤م التى ألفت الضوء على نظام الالتزام فى العصر السابق

(١) رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص ٢٣٢ .

لعلى بك وفى أثناء عصره وفى الفترة اللاحقة به •

ب — مجموعات من الفرمانات الصادرة « من الباب العالى لمصر المحروسة » وهى خاصة بالمسائل المالية فقط التقاسيط^(١) الديوانية (أى تقاسيط الالتزام) وتذاكر المرتبات التى مكنت بياناتها من تصحيح آراء المؤرخين فيما يتعلق بسياسة على بك فى صرف رواتب رجال الأوجاقات العثمانية ، وغير ذلك من الشؤون المالية لتلك الفرق •

ج — « دفاتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحروسة مصر » وتشتمل على بيانات تفصيلية دقيقة عن كل ما يتعلق بالقلاع المصرية وخاصة فى عهد على بك مثل اسم القلعة ومكانها وعدد رجال حاميتها والفئات التى تتكون منها الى آخره^(٢) • وأثبتت هذه الدفاتر للباحث وجود أوجاق «متفرقة» فى عهد على بك •

د — دفاتر جراية وعليق وهى خاصة بالجراية والعليق الذى يحصل عليه بعض فئات من « خدمة الديوان » والتى كانت قاصرة فى السنوات الأولى للعصر العثمانى على الطوائف العسكرية ولكن انضمت اليها فئات مدنية مختلفة بطرق شتى حتى أصبح من يتقاضى الجراية من العسكريين فدهم قضاة ومماليك وأمراء جراكسة • وهكذا أثبتت الوثائق التركية — على عكس ما يدعيه المؤرخون — وجود الأوجاقات فى عهد على بك وان لم تكن فى شكل قوى منظم^(٣) •

واستطاع الباحث عن طريق هذه الدفاتر أن يثبت وجود أوجاق عزبان • ولكن مما لا شك فيه هو تناقص عدد رجال الفرق تدريجيا بدليل وجود

(١) حجة اسجار أو سند •

(٢) رفعت رهضان ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ — ١٠٩ •

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ •

١١٩٧هـ^(١) وتعرض لعلی بك وحركته فی الفصل السادس فی بیان حوادث عام ١١٨٨هـ • ومن المخطوطات العربية التي اعتمد عليها المؤلف أجوبة حسين أفندي عن ترتيب الديار المصرية فی عهد الدولة العثمانية والتي سیأتی ذكرها عند الحديث عن المؤرخ محمد شفيق غربال • ولم يقتصر جهد الباحث على ذلك فقد استخدم أيضا مؤلفات الرحالة الأجانب لأهميتها فی دراسة تاریخ مصر السیاسی والاقتصادی والاجتماعی • وقدم عرضا طيبا للرحالة المعاصرين لفترة بحثه مثل جيمس بروس ، كما وضع قائمة بأسماء الرحالة السابقين لعصر علی بك وتاریخ زيارتهم لمصر • ومن هؤلاء جان دي تيفينو الفرنسی الذي زار مصر من عام ١٦٥٧ الى عام ١٦٥٩ ثم فی عام ١٦٦٣^(٢)، وفانسليب الألمانى الأصل والفرنسی الجنسية وقد زار مصر فی خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر^(٣) • وبالإضافة الى هذه القائمة الطويلة من المصادر احتل كتاب « عجائب الآثار فی التراجم والأخبار » للجبرتی مكانا بارزا بين مصادر هذا البحث لما له من أهمية بالغة فی دراسة العصر العثماني فی مصر • وفى صدد الحديث عن المصادر التاريخية التي تتحدث عن بلوت قبان على بك اشتمل كتاب الدكتور عبد الكريم رافق الذى صدر حديثا بعنوان « ولاية دمشق ١٧٢٣ — ١٧٨٣ » على قائمة كاملة بالمصادر السورية واللبنانية التي تعالج مسألة تدخل علی بك فی شؤون سورية •

(١) وهو مخطوط بقلم الرقعة مسطرة ١٧ ، رقم ٧٧٣٨ تركى بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢) Jean Thevenot The travels of Monsieur de Thevenot into the Levant, 3Parts, London. 1987.

(٣) Vansleb, Nouvelle relation en Forme de Journal d'un voyage fait en Egypte. Paris, 1672.

٣ - د. حسن عثمان ومحمد محمد توفيق : تاريخ مصر في العهد
العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) نشر في كتاب المجمل في التاريخ
المصري ، القاهرة ، ١٩٤٢ (ص ٣٣١ - ٢٨٤) .

وقد اعتمد المؤلفان على بعض الوثائق التركية ، اذ قام المرحوم
محمد محمد توفيق بترجمة مجموعة قيمة من الوثائق التركية الموجودة
في دار المحفوظات المصرية تتعلق بصفة خاصة بتاريخ الادارة العثمانية .
وقام الباحثان بفحص بعض السجلات الموجودة مثل « دفاتر كشيدة
مصر » (أى دفاتر قيد ديوان مصر) ، وهى تحتوى مثلاً على صور
الفرمانات السلطانية الصادرة الى باشوات القاهرة لحكم هذه البلاد .
كما مكنتهما الوثائق الموجودة في دار المحفوظات مثلاً من تحديد عدد
وحدات الحامية العثمانية في مصر في ١٦٩٤^(١) . واستعاننا أيضاً
ببعض دفاتر القيد الخاصة بالفرمانات والأوامر الباشوية الصادرة من
الباشا التركى في القاهرة الى حكام الأقاليم . وساعدتهما دراسة تلك
الوثائق من ناحية أخرى في تحديد اختصاصات كل من الباشا العثماني
وأعوانه من الموظفين ، واختصاصات هيئة المسالك المصريين ،
واختصاصات الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة^(٢) . ولقد قام
الأستاذ محمد توفيق - الذى كان يعمل مفسراً و مترجماً للوثائق
التركية بدار المحفوظات المصرية بالقلعة في أواخر الثلاثينات وأوائل
الأربعينات من القرن الحالى - بدراسات هامة في هذا الميدان ولكن

(١) انظر : حسن عثمان ، تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ -
١٧٩٨) ، في كتاب المجمل في التاريخ المصري ، نشر حسن ابراهيم حسن ،
القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٦٣ . (أوجاقات جمع أوجاق
وهى في التركية بمعنى الموقد واستعملت بمعنى فرق العسكر) .

الجهات المعنية بالدراسات التاريخية لم تهتم بهذا النوع من الدراسة فتوقف عن متابعتها • وتتخلص الجهود التي قام بها محمد توفيق فيما يلي :

أ — مقال في مجلة الهلال عدد مايو ويونيو ١٩٤١ عن « الحلقة المفقودة في وثائق تاريخ مصر الحديث » • وقدم في هذا المقال موجزا عاما من مضمون هذه الأصول التاريخية •

ب — نشر كتيباً عن « الغاء نظام الالتزام في عهد محمد علي الكبير » في القاهرة ، عام ١٩٤١ واعتمد فيه على الوثائق المحفوظة بالقلعة •

ج — وضع رسالة بعنوان « مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر » ، فضلا عن قاموس خاص بمصطلحات الموضوع ، ونال بها درجة الماجستير في الآداب من كلية الآداب بجامعة القاهرة في عام ١٩٤٣ ، ولكنها لم تنشر لعدم الاهتمام بمثل هذه الدراسات ، كما أشرت الى ذلك سابقا •

٤ — محمد شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ، ١٧٩٨ — ١٨٠١ ، رسالة حسين أفندي الروزنامجي (المقالة الاولى) — مجلة كلية الآداب — القاهرة — المجلد الرابع — الجزء الأول مايو ١٩٣٦ (ص ١ — ٧١) •

ومؤلف المخطوط الذي قام الأستاذ غربال بنشره هو حسين أفندي ، أحد أفندية الروزنامة في مصر العثمانية • وقد ألقى عليه استيف مدير المالية في عهد الاحتلال الفرنسي عدة أسئلة لمعرفة أحوال مصر الادارية والمالية في العصر السابق للحملة • وقد تولى حسين أفندي الإجابة

عليها ، ونظم اجاباته في ستة عشر بابا وحررها في أواخر مايو ١٨٠١م،
أى قبل خروج الفرنسيين من مصر .

وقد قام أيضا أحد المهتمين بدراسة العصر العثماني في مصر وهو
الدكتور ستانفورد شو Stanford Shaw الأمريكي بتحقيق هذا المخطوط
ونشره في عام ١٩٦٤ في كتاب بعنوان Ottoman Egypt in the Age
of the French Revolution ومقدمة كتاب شو تعالج التكوين الإداري
والاجتماعي لمصر العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر ، ثم يشير المؤلف
بعد ذلك الى الاحتلال الفرنسي لمصر ويناقش شو في نفس المقدمة
شخصية حسين أفندي ويرى انه لم يكن واحدا من المماليك أو
أصدقائهم ، ويتعرض لمناقشة التقرير ويبين ان حسين أفندي تحدث
في بعض الأحيان عن الوضع الذي آلت اليه أنظمه مصر الادارية والمالية
في العصر العثماني في نهاية القرن الثامن عشر . ثم قام شو بترجمة
التقرير وأتبعه بتعليق واف عن كل الموضوعات التي وردت في التقرير
ونذكر منها على سبيل المثال :

- أ — وصف ترتيب القاهرة ونظامها وأمرائها .
- ب — وصف صنایع مصر وعدتهم وخدعتهم .
- ج — تنظيم الأوجاقات السبعة وأسمائهم .
- د — تعريف الحكام القائمين بالأحكام الشرعية مثل القاضي وغيره .
- هـ — تعريف الأفندية واختصاصاتهم .
- و — تعريف الولايات وبلاد الأقاليم المصرية .
- ز — تعريف التزام الملتزمين .

وقد نظمت هذه الموضوعات وغيرها في ستة عشر فصلا .
هـ — كما أعد شو Shaw رسالة للدكتورة عن « النظام المالي

والادارى وتطور مصر العثمانية من ١٥١٧ — ١٧٩٨ » •

The financial and administrative organisation and development of ottoman Egypt, 1517-1798 (Princeton, N. J. 1962).

وهذا الكتاب عبارة عن دراسة واقية للنظم الادارية فى العصر العثمانى ، ولقد تولت جامعة برنستون نشر هذه الرسالة • وفى سبيل اعداد تلك الرسالة زار شو مصر والشام وتركيا خلال أعوام ١٩٥٥ — ١٩٥٦ ، وأفاد كثيرا من خبرة محمد محمد توفيق المصرى بالوثائق العثمانية فى مصر • وتقديرا لجهود محمد توفيق وعرفانا بالمساعدات القيمة التى قدمها له كتب شو اهداء كتابه Ottoman Egypt. in the age of the French revolution الى محمد توفيق ووصفه بقوله «آخر الروزنامجية» — ولقد كشف كتاب النظام المالى والادارى النقاب عن وثائق محفوظة فى السجلات الباقية من العهد العثمانى ، وظهر بفضل هذا الكتاب تاريخ مصر العثمانية فى ضوء جديد • ولم تقف جهود شو عند هذا الحد بل استمر فى بحوثه القيمة عن مصر العثمانية ووثائقها فكتب مقالا بعنوان :

«Archival Sources for Ottoman History : The Archives of Turkey, in Journal of the American Oriental Society»

كما كتب عن أرشيف القاهرة مقالة أخرى بعنوان :

«Cairo's Archives and the History of Ottoman Egypt, Report on Research, Spring. 1956 Middle East Institute. (Washington, D. C. 1956). 59—72».

هذا بالإضافة الى مقال آخر بعنوان :

«The Ottoman Archives as a Source for Egyptian History», in JAOS, Vol. IXXXIII (1963); 447-52.

واستمرت جهود شو الخاصة بالعصر العثمانى فنقدم الى مؤتمر

تاريخ مصر الحديث الذى عقد بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن فى عام ١٩٦٥ بمقالتي هاهن عن تلك الفترة • ولقد نشرت المقالتان فى كتاب جمع كل المقالات التى قدمت الى هذا المؤتمر، وأشرف على جمعه وتحقيقه الأستاذ ب.م. هولت (P.M.Holt) أستاذ التاريخ العربى بجامعة لندن والمشرى على المؤتمر • والمقال الأول يعالج أيضا مسألة المصادر التركية الخاصة بالعصر العثمانى وهو بعنوان :

Turkish Source-materials for Egyptian History, in P. M. Holt, ed., Political and Social change in Modern Egypt, London, 1968, PP. 28—48.

أما المقال الثانى فيعالج أحد جوانب التاريخ الاقتصادى فى مصر العثمانية بعنوان :

Landholding and land — tax Revenues in Ottoman Egypt, in Ibid, PP., 90-102.

ولا يفوتنا قبل أن ننهى الجزء الخاص بدراسات شو أن نشير الى المزيد من أبحاثه التى أمدتنا بمعلومات مفيدة عن تاريخ تلك الفترة، وأخص بالذكر مقالته بعنوان :

The land law of Ottoman Egypt (960-1553). A contribution to the study of landholding in the early years of Ottoman rule in Egypt, in Der Islam, Vol XXXVIII (1962). PP, 106-137.

وقام أيضا بنشر وترجمة وثيقة تركية هى تقرير كتبه أحمد الجزار ونشر هذا التقرير فى كتاب بعنوان :

Ottoman Egypt in the eighteenth Century, Cambrige (Mass) 1962.

٦ — أما المؤرخ الآخر الذى أمدنا بمجموعة هامة وقيمة من الأبحاث والمقالات فهو البروفسور بيتر م. هولت • فبعد أن أنهى

نراسته عن المهدية في السودان ونال بها درجة الدكتوراة من جامعة أكسفورد أخذ يهتم بتاريخ العصر العثماني في مصر لأن المؤرخ الناجح ناعلا هو الذي يبحث عن الموضوعات غير المطروقة ويحاول أن يضيف جديدا الى الدراسات التاريخية ويسد الثغرات الموجودة فيها * ولقد مكنته معرفته الجيدة باللغة العربية من الاطلاع على المخطوطات العربية الموجودة في المتحف البريطاني بلندن ومكتبة البودليان بأكسفورد Bodleian ، والـ Bibliothèque Nationale بباريس والـ National Bibliothek بفيينا وغيرها من المكتبات الأخرى * ويؤمن هذا المستشرق الانجليزي ايمانا قويا بحاجة تلك الفترة الى المزيد من الدراسة والبحث وخاصة أن الغالبية العظمى من دارسي التاريخ المصري قد ركزت على دراسة تاريخ القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وأهملت جزءا مهما من التاريخ المصري * ولقد بادر بالدعوة الى عقد مؤتمر تاريخ مصر الحديث — الذي سبق ذكره — واهتم اهتماما بالغا هو ونخبة من المؤرخين (من بينهم شو) بدراسة ذلك العصر سواء من ناحية مصادره التاريخية أو من ناحية تطوراته السياسية والاجتماعية^(١) * ولقد ناشد أساتذة التاريخ المصريين الذين شاركوا في هذا المؤتمر أن يوجهوا طلاب التاريخ المصري الى الاهتمام بتلك الفترة ، وحتى يتسنى لهم ذلك أكد على ضرورة تدريس اللغة التركية بحيث يستطيعون الاطلاع على الوثائق التاريخية الهامة الموجودة في كل من القاهرة واستانبول * ولقد نادى بعض الأساتذة المصريين

(١) من أهم الدراسات التاريخية عن الحياة الفكرية والثقافية في مصر في القرن الثامن عشر تلك الدراسة التي قدمها الدكتور جمال الدين الشبال بعنوان :

Some aspects of intellectual and social life in eighteenth century Egypt. in Political and Social change in modern Egypt ed. P. M. Holt. PP: 117-132.

بنفس الفكرة منذ عدة سنوات لأنهم أيقنوا أيضا أن المهمة الأولى للباحثين اليوم في التاريخ العثماني يجب أن تتجه الى نشر كل هذه المخطوطات التاريخية ، فبدونها لا يمكن أن يكتمل بناء التاريخ المصري في العصر العثماني^(١) .

ويتبقى الآن أن نشير الى الأبحاث والمقالات التي كتبها البروفسور هولت والتي تعتبر عملا جديدا مدعما بالمصادر ، يظهر فيه الجهد والمثابرة على تتبع الأحداث واعطاء صورة مفصلة عن ظروف هذا المجتمع سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وفيما يلي بيان بهذه الأبحاث التي قام بنشرها في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية

Bulletin of the School of Oriental and African studies (BSOAS)

— أ —

the exalted Lineage of Ridwan Bey—some observations on a seventeenth - century Mamluk genealogy BSOAS, XXII 2, 1959, (PP,222—30)

وهي وثيقة رضوان بك الفقاري أمير الحج في القرن السابع عشر ، عن أصل المماليك الجراكسة .

ب — والمقال الثاني عن « الباكوية في مصر العثمانية في القرن السابع عشر » .

The beylicate in Ottoman Egypt during the seventeenth century. BSOAS, XXIV /2, 1961, (PP. 214—48).

أما الجزء الأول من المقال فيستله بمقدمة ببليوجرافية عن المصادر الهامة في العصر العثماني (ص ٢١٤ — ٢١٦) ، ثم يلي ذلك

(١) محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري ، ص ٥٨ .

عرض مختصر لتاريخ مصر السياسى فى العهد العثمانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (ص ٢١٦ - ٢١٩) * ويتحدث على الصفحات التالية فى مقالته (ص ٢١٩ - ٢٢٧) عن الباكوية فى مصر العثمانية * ثم يختتم هذا الجزء بملحق عن المولاة العثمانيين فى مصر فى القرن السابع عشر ، ويذكر المصادر التى اعتمد عليها فى تحديد بداية فترات حكمهم وانتهائها * والملحق يبدأ بالمرالى محمد الثانى (شوال ١٠٠٤ / يونية ١٥٩٦ - ذى الحجة ١٠٠٦ / يوليو ١٥٩٨) وينتهى بالمرالى على (وهو المرالى السابع ممن عينوا بهذا الاسم شعبان ١١١٨ هـ / نوفمبر ١٧٠٦ - رجب ١١١٩ هـ / سبتمبر ١٧٠٧) *

أما الجزء الثانى من المقال فهو عبارة عن قائمة تراجم لحياة صناعى مصر البكوات فى القرن السابع عشر وبلغ عددهم ١١١ صنجا وتحدث عن كل واحد منهم بالتفصيل (ص ٢٢٩ - ٢٤٨) *

ج - وكتب مقالا آخر عن حياة كجك محمد ، وهو أحد رجال الحامية العثمانية فى (1676-94) The Career of Kuçuk Muhammad BSOAS, XXVI/2, 1963, PP. 21-28 والمقال يلقى بعض الضوء على تعقد وتداخل الصراع من أجل السلطة فى مصر العثمانية * ويتبع المؤلف المنهج العلمى السليم فى اعداد المقال ، فيشير أولا الى مصادر البحث وعلاقة هذه المصادر مع بعضها ، ثم يمهّد للموضوع بعرض مختصر للموقف السياسى فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر *

د - واهتم هولت أيضا بدراسة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي فى مقال بعنوان :

AL-Jabarti's introduction to the History of Ottoman Egypt, BSOAS. XXV/I, 1962, PP. 38-51.

ويهتم هولت في هذا المقال بتحليل ما جاء في الجزء الأخير من مقدمة الجبرتي (ص ٢٠ سطر ٢٣ الى ص ٢٤ سطر ٤) وهو الخاص بالعصر العثماني في مصر منذ أن فتح السلطان سليم الأول مصر حتى القرن الثاني عشر الهجري . واهتم المؤلف بما ذكره الجبرتي (ص ١٦ سطر ١٩ — ٢٤) عن أهم المصادر التي اعتمد عليها في جمع مادته عن العصر العثماني بعد أن بحث زمنا طويلا عن مصادر يؤرخ منها للعصر العثماني ، فكتب الجبرتي يقول : « ولما عذمت على ما كنت سودته أردت أن أوصله بشيء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد . ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص من مواضع في خلال بعض الوقائع ، وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ، لكنه على نسق في الجملة مطبوع ، لشخص يقال له أحمد جلي بن عبد الغنى ، مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار المصرية ، وينتهي كغيره ممن ذكرناه الى خمسين ومائة وألف هجرية (١١٥٠ هـ) » . ولكن الجبرتي يذكر أن أحد أصحابه استعار الكتاب الأخير فأضاعه . ويخرج هولت من هذا الى تحديد نوع المصادر التاريخية التي كانت موجودة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ويقسمها الى قسمين : القسم الأول وهي المصادر العلمية الأدبية التي كتبت بأسلوب يدل على ثقافة لغوية مكنت المؤلف من الكتابة بأسلوب سليم . ويشير هولت في هذا المجال الى مصدر عرفه الجبرتي هو « كتاب أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » لمحمد عبد المعطى الاسحاقى ، ويخالف في ذلك رأى الأستاذ أيالون الذى يقول فيه أن الكتاب لم يكن ذا فائدة تذكر بالنسبة للجبرتي^(١) . ويرى هولت انه من المحتمل أن يكون الجبرتي

(١) David Ayalon, The historian al-Jabarti and his background. BSOAS, XXXIII 2, 1960. P. 222; N. 3.

قد اطلع على نسخة منقحة من كتاب الاسحاقى لم تنته تفاصيلها في عام ١٦٢٣ — ١٦٢٤ كما هو في النسخة المطبوعة بل استمرت الى فترة متأخرة عن ذلك . ومما يؤكد استعمال الجبرتي لكتاب الاسحاقى ما ذكره هو نفسه عن بعض فقرات من مقدمته تتناول محاولة شمس باشا العجمي لاضعاف الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني عن طريق « قبول الرشا من أرباب الولاة والعمال » بأنها مأخوذة من ذلك المصدر ، فيقول الجبرتي عند حديثه عن هذا الموضوع « ومما يحسن إيراده هنا ما حكاه الاسحاقى في تاريخه »^(١) .

أما القسم الثاني فهو كتب العامة التي ألفها أشخاص بغرض التسلية . وكتبوا هذه الكتب باللغة العامية لأنهم لم يحصلوا على نصيب وافر من تعلم اللغة . وقد أرخت هذه الكتب جميعها في القرن الثامن عشر ، ولها قيمة كبيرة في بعض النواحي غير أنه لا يمكن الاعتماد عليها كلية في دراسة تاريخ القرن الثامن عشر مثل كتب القسم الأول . وكتب الأجناد هذه كتبت لتسلية زملائهم ولذلك فإنها تتحدث عن البكوات الممالك والأوجاقات السبعة والحامية العثمانية ، وهو موضوع محدد عن تلك الموضوعات التي تعرضت لها الكتب السابقة ، ولكنها مهمة من ناحية أنها تعطي صورة حقيقية عن أهداف رجال الحامية أو غيرهم في الصراع الذي ساد مصر في ذلك الوقت . ومن أهم هذه الكتب كتاب أحمد الدمرداشي وكان يشغل كخيا أوجاق العزبان . وينتمي الى هذه المجموعة أيضا مصطفى بن ابراهيم المداح القينالى ، الذي يقول عن نفسه انه من أتباع حسن الدمرداشي أغا العزبان . ويبدو أن الجبرتي قد تأثر بكتب الأجناد لأنه بدأ روايته التاريخية المفصلة منذ بداية القرن الثامن عشر .

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج ١ ،

ولم تقف جهود الأستاذ هولت عند هذا الحد بل قدم الى مؤتمر تاريخ مصر الحديث بحثا هاما بعنوان الشكل العام لتاريخ مصر السياسى منذ عام ١٥١٧ الى ١٧٩٨^(١) The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798. وهناك مظهر بارز فى تاريخ تلك الفترة يركز عليه الباحثة فى مقالته هو ظهور سطوة الصفوة الشركسية من جديد ، تلك الصفوة التى مثلت الأساس العسكرى الذى اعتمدت عليه سلطة المماليك قبل الفتح العثمانى ، فاستمر نظام تجنيد المماليك ومهد هذا لمظاهر الاستقلال الذاتى التى ظهرت ، وُخرا فى مصر. ويضع هذا البحث الخطوط العريضة للتطورات السياسية فى مصر منذ الفتح العثمانى حتى مجيء الحملة الفرنسية نتيجة للدراسة الطويلة التى قام بها الباحث فى هذا الميدان . وتلخص هذه المقالة الدراسة الشاملة التى قدمها الأستاذ هولت فى كتابه « مصر والهلل الخصيب ١٥١٦ — ١٩٢٢ »^(٢) . وللكتاب ميزة هامة وهى انه يناقش التطورات السياسية الهامة فى المنطقة فى اطار التاريخ العثمانى على أساس أنها كانت داخلة فى نطاق الامبراطورية العثمانية . ويجمع الأستاذ هولت فى هذا الكتاب أهم ما كتبه فى المقالات الكثيرة التى أشرت اليها ، أو التى قام بنشرها فى دائرة المعارف الاسلامية^(٣) ، ويقدم لنا صورة واضحة عن تاريخ العهد العثمانى فى مصر معتمدا فى ذلك على نخبة من المصادر العربية الهامة مثل بدائع الزهور لابن اياس وكتاب أخبار الأول لعبد المعطى الاسحاقى وكتاب عجائب الآثار للجبرتى ، وعلى بعض

(١) انظر :

Political and social change in Modern Egypt. PP.79—90.

(٢) انظر :

Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 London. 1966.

Encyclopaedia of Islam, 2nd. edn. Leiden, 1960. (٣)

وقد نشر فى الجزء الثانى مقالات عن الفقارية .

المصادر الحديثة مثل شو Shaw وتعتبر أبحاث ودراسات هولت نقطة تحول هامة في دراسة تاريخ مصر العثمانية فقد فتحت آفاقا جديدة أمام الباحثين ويسرت البحث والتنقيب عن خفايا تلك الفترة .

٧ — محمود الشرقاوى : مصر في القرن الثامن عشر ، ثلاثة أجزاء ،

القاهرة ، ١٩٥٥ — ١٩٥٦ .

والأجزاء الثلاثة دراسات في تاريخ الجبرتي ، نال بها المؤلف جائزة مجمع اللغة العربية للبحوث الأدبية عن عام ١٩٥٦ ، وقام المؤلف بتلخيص ما كتبه الجبرتي عن تاريخ مصر وتراجم رجالها وأهم أحداثها ، ومظاهر حياتها الاجتماعية والفكرية . ويبحث الجزء الأول في موضوعين هامين : الأول عن عبد الرحمن الجبرتي وحياته ومؤلفاته ، والثاني عن الحياة الفكرية والاجتماعية في مصر خلال القرن الثامن عشر .

ويقول الشرقاوى : « وقد سجل الجبرتي هذه الصفحات من حياة مصر الاجتماعية والأدبية ، في ثنايا هذه الحوادث التي دونها يوما فيوما ، أو بين تراجم الذين ترجم لهم في وفياته التي كان يخصص لها غالبا الفصول الأخيرة من ختام السنة التي يؤرخ أيامها وما كان فيها من حوادث ووقائع »^(١) . وتكلم المؤلف عن الحياة الفكرية وحياة الفن وعن أيام أهل القاهرة وأخلاق الجند والحكام . ويذكر المؤلف في نهاية الجزء الأول الآثار الفكرية والاجتماعية للحملة الفرنسية وقد أدركها الجبرتي وسجلها . أما الجزء الثاني فهو خاص بأيام المماليك ومظاهر حياتهم وأخلاقهم ، وتراجم كبارهم . ويتناول الأزهر والعلماء ويشرح في مقدمة هذا الفصل شيئا من ملامح هؤلاء العلماء الذين عاشهم الجبرتي وخالطهم وعرف سيرهم أتم معرفة . والجزء الثالث

(١) محمود الشرقاوى : مصر في القرن الثامن عشر ، القاهرة ،

١٩٥٥ ، ج١ ، ص ٤٧ .

يتناول تاريخ الكفاح الذي قام به شعب مصر ضد ظلم حكامه من الأتراك والمماليك ، ويتناول كفاحه للاحتلال الفرنسي والغزو الانجليزي، ومعه صفحات من سيرة محمد علي * وكتاب الجبرتي وموضوع الدراسة التي قام بها الشرقاوي سنتعرض لها بالتفصيل عند عرضنا للمصادر التي تتعلق بالعهد العثماني في مصر *

الباحث ببعض المصادر العربية التي يمكن الرجوع اليها لاعادة كتابة تاريخ مصر في العهد العثماني . فان أغلب المصادر التاريخية المصرية المعاصرة لهذا العصر مايزال مخطوطا بسبب اهمال المؤرخين لتلك الفترة التاريخية^(١) ، فلم تعتمد على هذه المصادر الخطية الا أبحاث قليلة جدا . ولقد كان الاعتقاد السائد هو أن مصادر هذا العصر قليلة اذا قورنت بالعصر المملوكي^(٢) ، ولذلك نجد في كتابات الجبرتي اشارات متعددة الى الأسباب التي أدت الى تدهور علم التاريخ في العصر العثماني مثل نقل الكتب الى استانبول بعد الفتح العثماني مباشرة بالاضافة الى تسربها تدريجيا الى أوروبا وشمال افريقيا والسودان وتلف مكتبات المدارس والجوامع خلال فترات الاضطرابات والفتن التي شهدتها مصر^(٣) . ولكن على الرغم من ذلك لا يمكننا القول بأن الحكم العثماني كان مسؤولا مسؤولية كاملة عن تدهور الحياة العلمية والفكرية في مصر ، لأن تلك الحياة قد تعرضت لأزمة في نهاية العصر المملوكي قبل دخول العثمانيين . « فالاحتلال العثماني » كما يقول الدكتور أنيس ، « ليس وحده المسؤول عن ضعف الحياة الفكرية وانما النقلية والمحافظة وانكماش روح الابتكار والخلق هي السبب وراء هذا الانكماش الفكري »^(٤) . ولذلك فالصورة التي قدمها الجبرتي عن موقف الدراسات التاريخية في مصر مبالغ فيها الى حد بعيد ، اذ يبدو أنه لم تكن لديه صورة كاملة عن الكتابات التاريخية السابقة له وخصوصا بالنسبة للقرنين العاشر والحادي عشر . فلقد ظهر في مصر في العصر العثماني عدد من المؤلفين كتبوا في التاريخ ، وان كانوا في

(١) محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري ، ص ١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١ .

(٣) D.Ayaion, al-jabarti, BSOAS. XXIII-2, 1960; 218.

(٤) المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ .

مجموعهم لا يستطيعون أن يرقوا الى مرتبة مؤرخى القرن الخامس عشر أو القرون التى قبله • وعلى أية حال أهمل الباحثون تلك الكتابات التاريخية الكثيرة وقصروا اهتمامهم على كتاب الجبرتى وكتابات العلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة الى مصر • وهذه التواريخ التى كتبها المصريون أو بعض المستوطنين فى مصر تتركز بكمية كبيرة من المعلومات عن تلك الفترة • ولكن يعيبها أو ينقصها عدم وجود كتابات تاريخية معاصرة لفترة السبعين عاما الممتدة من انتهاء تاريخ ابن اياس فى ١٥٢٢م ، اللهم الا تلك الاشارات السريعة التى كتبها الكتاب المتأخرون عن تلك الفترة • وعدم وجود مصادر خاصة بتلك الفترة يبين انه لم تحدث خلالها تطورات سياسية خطيرة على الرغم من أنها شهدت بعض التغييرات الادارية الهامة ، وأيا كان الأمر فان عدم الماهنا بهذه التطورات التى حدثت فى منتصف القرن السادس عشر يؤثر دون شك على فهمنا للأحداث فى الفترة التالية •

وبالاضافة الى ذلك فان المادة العلمية الموجودة فى تلك المصادر تقتصر فى غالبيتها على مدينة القاهرة فقط ، وعلى الطبقة الحاكمة والصفوة العسكرية الموجودة فيها • حقيقة ان القاهرة قد سيطرت على الحياة السياسية فى مصر وان البكوات قد سيطروا على العاصمة، الا أنه قد حدثت بعض التطورات الهامة خارج القاهرة ورغم ذلك لا نحصل الا على لمحات بسيطة عنها من المصادر • فمن الواضح مثلا ان الصعيد لعب دورا سياسيا بالغ الأهمية لما يقرب من ثلاثة قرون منذ الفتح العثمانى لمصر وتمتع هذا الاقليم خلال فترات طويلة باستقلال ذاتى تحت حكم القبائل العربية أو البكوات المماليك • كما كان ملجأ يأوى اليه أعضاء البيوتات المملوكية المهزومة فى القاهرة • وبالنسبة لهذه المسألة الأخيرة فيمكننا أن نتبع ذلك عن طريق المعلومات المتناثرة فى أماكن متفرقة من تلك المصادر • أما عن القبائل فيوجد نقص كبير فى المعلومات التاريخية الخاصة بها رغم انها أثرت بشكل قوى فى تاريخ

الحكم^(١) • ونستشف من كتابات ابن اياس هذه أن نفوذ السلطان كان قويا على خاير بك يعزله أو يبقيه حسبما يريد • كما أن وجود قوات عثمانية في مصر وتسليم قيادتها الى أمير عثمانى كان ضمانا أخرى للسلطة العثمانية ضد خاير بك وضد المماليك الذين عادوا الى الظهور في مصر •

كما نستدل من كتابات ابن اياس على أن المماليك لم يكونوا جميعا مؤيدين للحكم العثماني ، كما لم يكن جميع المماليك الذين عينوا ، أو استمروا في مناصب مهمة في العصر العثماني مخلصين للعثمانيين • فبعد سيطرة السلطان سليم على بلاد الشام ومصر ، كثر عدد المؤيدين للعثمانيين — وهذا شيء طبيعي — وقتل المعارضون ، ولكن نشاط بعضهم بقي مستترا • وفي عام ١٥١٩ وردت أنباء الى القاهرة أن الأمير المملوكي اينال السيفي طراباي ، كاشف اقليم الغربية ، وجانم السيفي ، كاشف البهنسا والفيوم ، قبضا على اثنين من مشايخ البدو، وهما حسن بن مرعى وابن عمه ، وقد سبق أن التجأ اليهما طومان باي، حين هرب من وجه السلطان سليم ، ثم سلماهما اليه ليقتله ، وثأرا منهما، وشرب المماليك من دمهما^(٢) • ويتبين للباحث من هذا الحادث أن اثنين من المماليك ، من الموظفين العثمانيين ، قد ثأرا لقتل السلطان المملوكي • وقد يمكن القول ان قضية الثأر هذه كانت شيئا طبيعيا في التقاليد المحلية الا أنه اذا أخذنا بعين الاعتبار منصبى اينال وجانم ، وأهم من ذلك الدور الذى لعباه بعد سنوات في الثورة على الحكم العثماني ، وجدنا ان ذلك كان أكثر من مجرد أمر طبيعي • ولو ربطت هذه الحادثة برد الفعل الذى حدث عند المماليك في مصر ازاء ثورة الغزالي في بلاد الشام لوجد أيضا أن الحادثتين مترابطتان ، وتدلان على انقسام في

(١) ابن اياس ، ج ٣٧٥/٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ •

(٢) ابن اياس ، ج ٢٩٥/٥ — ٢٩٦ •

ومن روم وغيرهما وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما أن عجزوا عن ملاقاتة عساكر الاسلام وهى هذه البندقية التي لو رمت بها امرأة لقتلت بها كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد ﷺ وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف ♦ ♦ « (١) ♦

ويتحدث ابن زنبيل بالتفصيل عن وقائع الفتح العثمانى والمناقشات واللقاء الذى تم بين السلطان سليم وطومان باى ويمكن خلالها تفهم دوافع الفتح الحقيقية ♦ فيقول السلطان سليم ردا على طومان باى : « أنا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجها الى جهاد الرافضة والفجار (الصفويين) فلما بغى أميركم وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى الى مملكتى التى هى أبابى وأجدادى ، فلما تحققت ذلك تركت الرافضة ومشيت اليه ، ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم ، وبعد حضورى الى الشام سمعت انك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف وأنت لست أهلا لها والسلطنة لا تكون ولا تليق الا برجل يكون آباؤه وأجداده سلاطين وأنت وقايتباى الذى هو أعظمكم والغورى ما أسماء آبائكم ، ومن أين لكم السلطنة ومن أين لكم الامارة ، كلكم أولاد نصارى وأنتم مماليك بلا عتاقة بقيتم من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا تعزلونه وتقتلونه ♦ ♦ ♦ « (٢) ♦

٣ — محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح أحمد بن عبد الفنى بن على الاسحاقى : « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) ابن زنبيل : كتاب تاريخ السلطان سليم خان ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

وضعه سليم وسليمان والذي انتهى بسيطرة البكوات المماليك • كما يتميز مؤلف هذا الكتاب بفهمه العميق للانقسامات والأحزاب العثمانية والملوكية لأنه شارك فيها • ولذلك فالكتاب على حد قول الدكتور محمد أنيس « لا يمثل تاريخا عسكريا كما قد يتبادر الى الذهن بل تاريخا سياسيا لأنه صراع حول السلطة ، فالنظام العثماني كان يقوم على قاعدة عسكرية »^(١) • وبالإضافة الى ذلك يتناول هذا الكتاب أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية في العصر العثماني ، فيصور بدقة تركيب المجتمع المصري ويذكر دائما أسعار الحاجات في ارتفاعها وانخفاضها • وهكذا يصور هذا الكتاب المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها مصر خلال تلك الفترة • فيتحدث مثلا في كتابه عن بداية ظهور الانقسام الذي حدث داخل مصر بين الفقارية والقاسمية في ذلك الوقت وسبب ذلك فيقول : « وكانت مصر في وقته في فرقتين سعد وحرام تبعى وكليبي ويزيدى الحسيني رايته بيضاء واليزيدى رايته حمراء واكرى (كذا) وقيس وكنا نعرف سعد وحرام من المواكب رمانة سعد بجلبه مدورة وهزراق نصف حرام بجلبه من غير رمانة ••• » ويشرح الدمرداشي سبب ظهور الفقارية والقاسمية فيقول:

« كان بعد فتح السلطان سليم خان طاب ثراه أمير الحاج زين الفقار بيك وكان الدفتر دار قاسم بيك له قاعة ليس لها نظير أنشأها ونمقها — لما انه تممها عزم في الديوان على زين الفقار بيك ••• واذا به أجاب على ذلك ••• ثم ان زين الفقار بيك عزم على قاسم بيك يوم الاثنين ، أجابه على ذلك ••• وفي يوم الاثنين ركب قاسم بيك بعشرة طوايف والسعاة والسراج ومملوكين وأتى بيت زين الفقار • طلع المقعد

(١) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

عند السنجق وجلسوا. يتحدثوا ويتنادموا • فأتى الفطور فطروا وعملوا
نوبة الآلاتية وقاموا صلوا الظهر بعد حصة آذان العصر صلوه •
واذا بالفراش أتى ليمد السماط وكانت كامل أعيان مصر في ذلك الزمان
لا يعرفوا صحن بل أسمطة وكبنة خشب بيد طويلة قدام المخدم يناول
بها من الأطعمة النائفة مثل الأرز المفلفل واللحم وغيره • فلما أعد
السماط وتم وقال زين الفقار اندهوا للذين برا ليدخلوا يأكلوا • وإذا
بهم دخلوا سناجق وأغاوات واختيارية أوجاقات وواجب رعايا • داروا
من حول السماط • فقام زين الفقار وأخذ بيد قاسم بيك وأتى به على
رأس السماط وجلس زين الفقار ، وقاسم بيك واقف • فقال له
زين الفقار بيك اجلس ، وإذا به قال « لما يجلسوا اخواننا » وإذا
بزين الفقار بيك قال « دول يأكلوا بعدنا ، الكل ممالكي لما أموت يبقوا
يترحموا على وأنت قاعتك الذى بنيتها لم تتطق أنا هذه بنايتسى •
فحصل عند قاسم بيك من ذلك انحراف مزاج وأتى منزله وسمى من
ذلك اليوم نصف سعد فقارى وسمى نصف حزام قاسمى » •

كما نجد في هذا الكتاب بعض الأمثلة عن موقف الناس من الولاية
في بعض الأحيان وأثر ذلك في عزلهم فيقول في ذكر ولاية رجب باشا
« انجمعت عليه أولاد مصر في بركة الفيل واتوا القاعة وصاروا
يصرخوا ويقولوا :

يا عين القملة	باشا يا باشا
أيش قلك عقلك	تعمل دا العملة
يا عين الصير	باشا يا باشا
أيش قلك عقلك	تدبر دا التدبير

ونزل السلطان على رغبة الناس فعين لهم باشا يسمى محمد باشا عن
سنة أربعة وثلاثين ومائة وألف (١) •

(١) الدرة المصانة ، Ms. Or. 1073 ، ص ٢٥٨ .

وترجع أهمية الكتاب الى أنه يصور بدقة البناء العثماني في مصر ، وتركيب المجتمع المصري في العصر العثماني ، فهو يشير مثلا الى التكوين الطائفي للمجتمع عندما تحدث عن ابراهيم بك أبو شنب الذي كان قائدا على حملة عسكرية طلبها السلطان العثماني في ١١٠٥هـ ، فقال :

« اتجهزت الألفين ، أوكب ابراهيم أبو شنب بالسدارة وأصحاب الادراك الى بولاق ، نزل في قصر الحلى وشيخ الشحاتين في ركابه مع طايفته وهم يصرخوا ويقولوا الله يردك علينا يا بيبك سالم لأنك أبو الفقرا ، لأنه كان يعرفهم بالواحد ، اذا أعطى واحد منهم نصف فضة وجرى طلع الرميطة من المظفر وقف قدامه يقول له أخذت نصيبك في الصليبية » .

وهذا النص وغيره من النصوص الأخرى تبين أن المجتمع المصري انتظمت فيه جميع أفراداه على اختلاف حرفهم ومذاهبهم وأخذ كل أصحاب حرفة مهما بلغت من الانحطاط مكانهم في المجتمع واعترفت بهم الدولة واحترمتهم وتعاملت معهم على هذا الأساس .

لقد كتب الدمرداشي تاريخه هذا بدافع الهواية الشخصية ، وليس بتكليف من أحد ، أو رغبة في التقرب من كبير أو عظيم . وذكر الدمرداشي أنه كتب تاريخه هذا نزولا على طلب بعض الاخوان ، فقال : « سألني بعض الاخوان عن وقايح مصر القاهرة ، بين الصناجق والأغوات ، واختيارية السبعة أوجاقات من عزلان السلطان محمد خان طاب ثراه ، وتولية أخيه السلطان سليمان خان الى دولة السلطان دام نصره سنة ١١٦٨هـ وما وقع في مدة الباشوات المرسولة الى مصر من طرف الدولة العلية من سنة ١٠٩٩هـ » .

كما تميز الدمرداشي عن معاصريه بما فيهم الجبرتي بتقديم وصف

دقيق شامل لما كان يدور في اجتماعات الديوان العالى^(١) . ويمكن للباحث أن يستخلص من هذه المعلومات أشياء كثيرة عن عضوية الديوان ، والمناقشات التى كانت تجرى من أعضائه وطريقة الدعوة لعقد الاجتماعات . كما سجل الدمرداشى معلومات مفيدة عن الناحية المالية ، ونظام وظروف فرض الضرائب الإضافية ، كما أوضح حقائق كثيرة عن الروزنامجى، تعيينه ، ومعاونيه ، ونظام بيع الوظائف . ومن الواضح أن الدمرداشى لم يترك شيئاً في عصره الا وسجله تسجيلاً دقيقاً ، فتحدث ، مثلاً ، عن فساد العملة وسريان الغش الى المواد التى تدخل في تركيبها ، كما دون أيضاً أنباء النيل وفيضانه كل عام^(٢) وأثر زيادته أو نقصه في حياة مصر . وتحدث الدمرداشى كذلك عن الأوبئة التى كانت تجتاح البلاد وأسبابها كما ذكر في أحداث عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م فقال : « فأخلى الفلاحون بلادهم ودخلوا مصر ، وصاروا يخطفون الخبز من الأفران والطوابين فقلوا وصارت الأغنياء تخبز عيشها في البيوت ، والفقرا فطير على الربع ، حتى أكلوا سنتها القطط والرمل ، وإذا بالطعن والطاعون ، وقد امتلأت الحارات والأزقة من

(١) كان الديوان العالى يمثل في مصر العثمانية المجلس الادارى الأعلى في البلاد ، وفيه تدرس وتناقش كل شئون الحكم والادارة في ولاية مصر ، وتصدر القرارات التنفيذية ، ومن أمثلة الموضوعات التى كانت تناقش في الديوان : أوامر الباب العالى المرسلة الى مصر ، والشئون المالية في البلاد ، وإرسال صرة الحرمين وإرسال الخزينة الإرسالية للسلطان ، وموضوع استقبال الباشا الجديد ، ومحاسبة الباشا المعزول من ولاية مصر، واحتفالات وفاء النيل وطلب إرسال فرق عسكرية لمساعدة الدولة في حروبها خارج مصر وإعلان تولية السلاطين الجدد ، وشئون العملة . وقد عرف هذا الديوان باسم الديوان العالى أو الديوان الكبير تمييزاً له عن ديوان آخر وجد في مصر العثمانية وعرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا ، وكان يمثل المجلس التنفيذي في الولاية . وأنظر فيما بعد ، ص ١٣١ — ١٣٤ .

(٢) الدمرداشى ، ج١/ ٤٠ .

الموتى وقع فيهم في خمسين سنة سبعة ومائة وألف ثم وقع في الامارة وتوابعها» (١) .

ومما يلاحظ أن أسلوب الدمرداشي قد غلبت عليه العامية ، كما أنه اتبع في كتابة مؤلفه نظام التأريخ بالحواليات ، غير أنه بدأ تاريخه بأحداث عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م دون مقدمات لا عن فضل علم التاريخ ، ولا عن تاريخ مصر منذ الخليقة ، كما فعل معظم مؤرخي الحواريات في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد أفاد الدمرداشي من اتباعه منهج الكتابة المباشرة عن الأحداث التي يريد تسجيلها دون مقدمات ، فجاء كتابه ضخماً (٥٨٩ صفحة) بالرغم من قصر المدة التي أرخ لها، فهي لا تزيد قليلاً عن نصف قرن . ومما لاشك فيه أن الدمرداشي استفاد من الوظائف التي شغلها خبرة بدت واضحة فيما سجله عن شؤون الادارة المالية والفرق العسكرية ، ولذلك اشتمل مؤلفه « الدرة المصانة » على كثير من المصطلحات الادارية والمالية والاجتماعية والاقتصادية . ويعتبر هذا المؤلف — بحق — مقدمة لما كتبه عبد الرحمن الجبرتي الذي بدأ تاريخه كما بدأ الدمرداشي منذ عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م ، ولكن الدمرداشي يختلف عن الجبرتي في أنه لم يعن بالتراجم فقد قصر عمله على تدوين الأحداث .

(١) المصدر السابق ، ج ١/ ٣٨ .

٢ — بعض مصادر التاريخ المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر :

عبد الرحمن الجبرى ونقولا الترك : دراسة مقارنة

لقد عاصر الحملة الفرنسية على مصر وراقبها وسجل أحداثها بالتفصيل شاهدا عيان هما شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرى والمعلم نقولا الترك * ومن خلال مشاهدتهما التى تعتبر أقدم ما كتب باللغة العربية عن تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر ، يستطيع الباحث أن يستشف موقف المجتمع الشرقى المحافظ من حضارة الغرب ، وكذلك من الفلسفات السياسية والاجتماعية التى كانت تتصارع فى عصرهما ، لاسيما وأن مصر قد ابتعدت عن التيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التى كانت تشع من الغرب ما يقرب من ثلاثة قرون * ويحظى كتاب الجبرى — على وجه الخصوص — باهتمام بالغ ، فقلما يوجد كتاب فرنسى فى تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع اليه ولم ينقل عنه^(١) * كما أن التساؤلات التى تدور حول أثر الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى وموقف المصريين من العلوم الوضعية والتكنولوجيا ومدى استجابتهم لها نجد لها تفسيراً وتحليلاً فى وصف هذين الكاتبين للاحتلال الفرنسى لمصر * ونظراً لأهمية ما كتبه الجبرى ومعاصره اللبنايى نقولا الترك من ملاحظات ومشاهدات عن الحملة ، تهتم هذه الدراسة المقارنة بنشأتهما وبيئتهما ، وأسلوبهما ومنهج كل منهما ، والمؤثرات التى أثرت فيهما ، والدوافع التى دفعتهما الى كتابة التاريخ ، وموقفهما من الحملة وأحداثها وتطوراتها ، ومدى التشابه والاختلاف فى تصويرهما للفرنسيين وأهدافهم وتنظيماتهم وعاداتهم وعلومهم وفنونهم التى استحدثوها *

ونبدأ دراستنا الآن بشيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرى الذى

(١) D. Ayalon, «The historian al-jabarti and his background», B.S.O.A.S. Vol. 2 (1960), PP. 228-229, 233-234.

يعتبر أحد كبار المؤرخين في العالم الاسلامى فى جميع أزمنته ، فهو بلا جدال أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة • والجبرتى هو عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الحنفى (١٧٥٤ - ١٨٢٥) الذى ينتسب وأسرته الى «جبرت»^(١) ، وهى اقليم ساحلى يقع الى الغرب من ميناء زيلع بالحبشة بالقرب من مدخل البحر الأحمر • وقد كتب الجبرتى عن موطن أجداده فقال « وبلاد الجبرت ••• بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة وهم المسلمون ••• ويتمذهبون بمذهب الحنفى والشافعى ••• وينسبون الى سيدنا أسلم بن عقيل بن أبى طالب ••• وهم قوم يغلب عليهم التقشف والصلاح ويأتون من بلادهم بقصد الحج والمجاورة فى طلب العلم ، ويحجون مشاة ولهم رواق بالمدينة المنورة ، ورواق بمكة المشرفة ، ورواق بالجامع الأزهر بمصر »^(٢) • وفى أوائل القرن العاشر الهجرى (أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين) نزح الجد السابع للجبرتى ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت الى مكة فالمدينة حيث مكث بها سنتين قضاهما فى الدراسة ، ثم ارتحل الى مصر ، واستقر بها ، واتصل بالعلماء الى أن اختير شيخاً لرواق الجبرت^(٣) • وتولى مشيخة الرواق ثلاثة قرون متوالية أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتى •

ونشأ الجبرتى فى أسرة اشتهرت بخدمة العلم ، فكان والده الشيخ حسن الجبرتى (١٦٩٨ - ١٧٧٤) عالماً من أكبر علماء عصره فى العلوم

-
- (١) انظر : محمد محمود الصياد : جبرة وجبرت ، ص ٥٨٣ - ٥٩٤ ، فى كتاب عبد الرحمن الجبرتى - دراسات وبحوث ، اشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ •
- (٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ - ١٨٨٠ م ، ج ١ ، ص ٣٨٥ •
- (٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٨ •

الشرعية والرياضية والتوقيت • ولقد اختلطت في الشيخ حسن الجبرتي، الذي كان من ثروة الأزهريين ، شخصية العالم بشخصية رجل الأعمال، فمع اشتغاله بالمعلم « كان يعاني التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة »^(١) • وكان في الوقت نفسه أستاذا في الأزهر ولم يقصر اهتمامه على تدريس الفقه وعلوم الدين ، بل وجه نفسه الى دراسات أخرى متعددة ، فتعلم اللغتين التركية والفارسية وأجادهما ودرس الرياضيات ، والهندسة ، والجبر ، والمساحة ، والجغرافية ، والفلك ، وحل الرموز وقام بتدريسها ، « وانتهت اليه الرياسة في الصناعة ، وأذنت له أهل المعرفة بالطاعة » • وتجاوزت شهرته حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر اليه طلاب من الافرنج ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة^(٢) • وقد جمع حسن الجبرتي الكتب النادرة وأنفق في اقتنائها مالا كثيرا ، وأفرد في بيته مكانا خاصا وضع فيه الكتب المتداولة بين علماء الأزهر في التوحيد والحديث والتفسير والفقه والمنطق والاستعارات والمعاني والبيان^(٣) •

ولكن اهتمامات حسن الجبرتي لم تشمل دراسة التاريخ ، اذ ليس من المؤكد أن مكتبته الخاصة التي كان العلماء يستعيرون منها قد ضمت أعمالا تاريخية • وعلى ذلك ، فان اهتمام المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بدراسة التاريخ وكتابته لم ينتقل اليه عن طريق والده ، ولكن نشأته في بيت والده — الذي أصبح مركزا للعلم والبحث — قد أثرت دون شك في تحديد نظريته التاريخية وخلقت لديه وعيا بالتاريخ وفلسفته • فلقد نشأ الجبرتي بين علماء الأزهر الذين خالطهم فيه أو في بيته ، وسمع بأخبارهم جيلا بعد جيل من أبيه ، وكذلك بين المماليك والكشاف

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩١ •

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٦ •

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٧ •

يعد «الطيارات» ويدون الكرايس ويعرضها على الزبيدي حتى توفي
الأخير عام ١٧٩١^(١) .

وبعد موت الزبيدي اكتشف عبد الرحمن الجبرتي سبب تكليفه
له بجمع هذه التراجم ، اذ جاءت رسالة من الشيخ محمد خليل المرادي ،
قاضي دمشق وهؤلف كتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » ،
يطلب فيها اليه أن يوافيه بكل ما قد أعد هو وأستاذه من أوراق وجمع
من وقائع . وهنا أدرك عبد الرحمن الجبرتي أن ما طلبه الزبيدي انما
كان بتكليف من المرادي ، وحاول ان يظفر بأوراق أستاذه من ورثته .
وعندما باعت أرملة أنزبيدي تركنه بما فيها من « الكتب والدشقات »
بالمزاد ، اشترى الجبرتي منها ما يريد وكان من بينها عشر كرايس
من التراجم مدونة بقلم الزبيدي وسماها « المعجم المختص »^(٢) ،
ولما تصفحها الجبرتي وجدها عديمة القيمة لأنها كانت تتناول سير
« أفاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز بل والسودان ،
والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات » .
وعندما لاحظ عبد الرحمن الجبرتي ذلك وتحقق من رغبة المرادي ،
قام بجمع ما كان قد سوده وزاد عليه ، الا أنه بلغه في تلك الأثناء
(أكتوبر عام ١٧٩١) نبأ وفاة المرادي . ففترت همته وطرح تلك
الأوراق « في زوايا الاهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع الى
أن حصل عندي باعث من نفسي على جمعها » كما يقول^(٣) .

ورغم أن المرادي كان هو « السبب الأعظم » الذي دعا عبد الرحمن
الجبرتي الى جمع تاريخه على هذا النسق^(٤) ، فان تأثيره المباشر عليه

(١) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

ليس ملحوظا * فالجبرتي لم يحظ ببلقائه قط ، كما أنه لم يطلع على مؤلفه « سلك الدرر » ، ولم تستمر المراسلات بينهما أكثر من نصف عام ، وهي الفترة الواقعة بين وفاة الزبيدي والمرادى^(١) . أما تأثير أستاذه الزبيدي عليه فكان كبيرا ، اذ يطلق عليه الجبرتي في مؤلفه لقب « شيخنا » . ومما لا شك فيه ان اتصال الجبرتي بعالم مثل الزبيدي ، كان يتميز بسعة المعرفة ووفرة الانتاج ، أو على حد قول الجبرتي نفسه « علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأفهام » ، قد أثر تأثيرا عميقا فيه . ولذلك فالزبيدي يحتل المرتبة الثانية بعد والد الجبرتي في تأثيره عليه ومساعدته في الحصول على معلومات كافية عن الشخصيات والمجتمع الذي قام بوصفه في كتابه . واذا كان الزبيدي لا يعتبر أستاذا للجبرتي في دراسة التاريخ ، الا أنه كان له بعض الفضل عليه في هذا الميدان . ورغم أن مؤلف « تاج العروس » لا يمكن أن يوصف بأنه مؤرخ ، الا أنه وضع تسع مؤلفات في التاريخ ما بين كتاب ورسالة^(٢) . ومن المؤكد أن يكون عبد الرحمن الجبرتي قد تعلم بعض الشيء من منهج الزبيدي التاريخي أثناء عملهما المشترك بناء على طلب المرادى . ويذكر الجبرتي نفسه المناقشة الطريفة التي دارت بينه وبين أستاذه عندما أطلعه على جزء مما جمعه فيقول : « جمع الحقيق (يقصد الجبرتي نفسه) . . . ما تيسر جمعه وذهبت به يوما وعنده (يقصد الزبيدي) بعض الشاميين فأطلعته عليه فسر بذلك كثيرا وطارحنى وطارحته في نحو ذلك بمسمع من المجالس »^(٣) .

وعلى أية حال ، توقف عبد الرحمن الجبرتي عن متابعة بحثه حين

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، جمال الدين الشيال :

الحركات الإصلاحية ، ص ٧٥ .

(٣) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

وصله نبأ وفاة المرادى ، كما أن بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يتعد بعض التراجم . وهكذا انقطع الجبرتي عن كتابة التاريخ بعد عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١م) ، ولم يعد إليها في شكلها الجديد وهو المذكرات اليومية الا في عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) عندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر^(١) . فلقد شجعه مجيء الحملة الفرنسية على معاودة الكتابة من جديد لتأريخ أحداث الحملة ، فكتب مخطوطا بعنوان « تاريخ مدة الفرنسيين بمصر » يؤرخ فيه للشهور السبعة الأولى للحملة ابتداء من ١٠ محرم عام ١٢١٣ هـ (٢٥ يونيو ١٧٩٨م) حتى نهاية شهر رجب من نفس العام (ديسمبر ١٧٩٨م)^(٢) . واعتمد الجبرتي فيما بعد على هذا المخطوط في اعداد كتابيه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين » و « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » بعد أن حذف الآراء الصريحة والأخبار التي تسيء الى سمعة بعض الأشخاص . ويشير الجبرتي نفسه الى هذا الأمر في مقدمة « مظهر التقديس » فيقول : « ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيين لأرض مصر الى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق غير منظومة . . . وكثيرا ما كان يخطر ببالي ، وان لم يكن ذلك من شأن أمثالي ، أن أجمع افتراقها ، وأكسبها بالترصيف اتساقها ، ليكون ذلك تاريخا مطمعا للبيب عن عجائب الأخبار وغرائب الآثار ، تذكرة بعدنا لكل جيل »^(٣) .

(١) محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ،

ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) S. Moreh. «Reputed autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems» BSOAS, Vol. XXVIII 3 (1965), PP. 524-540.

(٣) «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين - يوميات الجبرتي»،

جزءان ، نشر محمد عطا (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٠ .

وفي أعقاب خروج الفرنسيين من القاهرة في ١٤ يوليو عام ١٨٠١، دخلت القوات العثمانية القاهرة بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا، وعادت مصر مرة أخرى الى حكم العثمانيين * وقد ابتهج الجبرتي غيره من المصريين بهذا الأمر ابتهاجا عظيما ، وسجل هذا الشعور في كتاب اشترك في تأليفه معه صديقه الشيخ حسن العطار وسمياه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » * وبدأ في تأليف هذا الكتاب في شهر صفر عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) وانتهى منه في شهر شعبان من نفس السنة ، أى في مدة ستة أشهر فقط * ويبدو من اهداء الكتاب الى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا أن الكتاب قد ألف بتكليف منه ، وهو بذلك يمثل التاريخ الرسمي للحملة الفرنسية * وبدأ الكتاب ، بعد الحمدة ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية ، ولام المماليك على تهاونهم في تحسين الشعور والعناية بعدة الحرب ورجالها ، وسلوكهم مع أهل مصر ، ثم ذكر السلطان سليم الثالث العثماني (١٧٨٩ — ١٨٠٧) وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين * وذكر صدره الأعظم يوسف ضيا بأوصاف لانكاد تنتهي من المدح والتفخيم والاشادة والتعظيم^(١) . كما وضحت في هذا الكتاب فكرة التمسك بالدولة العثمانية والترحيب بعودة جيئشها الى مصر ، واعتبار هذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ، ونهاية حكم الفرنسيين الذين كان يشير اليهم في مواضع كثيرة من الكتاب بأنهم « الكفار » و « عصابة الكفار » و « دولة الكفر » * ولقد أحسن يوسف ضيا باشا استقبال الكتاب لأنه بعد عودته الى استانبول أطلع السلطان سليم الثالث عليه فأمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله الى التركية ففرغ من ذلك عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٣ م)^(٢) ، وأصبح عنوان الكتاب

(١) محمود الشرقاوى : دراسات في تاريخ الجبرتي — مصر في القرن

الثامن عشر ، الجزء الأول (القاهرة ، ١٩٥٧) ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) محمد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة

كلية الآداب — جامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر — الجزء الأول (مايو ، ١٩٥٦) ، ص ٦٥ .

حد كبير مع الدقة التي تميزت بها كتاباته • كما اتبع الجبرتي في جمع مادته التاريخية وترتيبها وتبويبها منها علميا حديثا اذ استخدم طريقة «الطيارات» أو ما نسميه الآن بالبطاقات • ولنا الآن أن نتساءل عن مفهوم الجبرتي عن علم التاريخ وفائدته وأهدافه • يقول الجبرتي نفسه : « ان التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف ، وبلدانهم ، ورسومهم ، وعاداتهم ، وصنائعهم ، وأنسابهم ، ووفياتهم ، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، والشعراء ، والملوك ، والسلاطين ، وغيرهم • والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي ، وكيف كانت ، وفائدته العبرة بتلك الأحوال • والتنصح بها ، وحصول ملحة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين ، من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويجتنب سوء أفعالهم ، ويزهد في الفاني ، ويجتهد في طلب الباقي »^(١) • ومنهج الجبرتي هذا وفهمه للتاريخ يؤكد حقيقة انتماؤه الى مدرسة المؤرخين الإسلاميين التقليديين ، فكان يرى — مثلهم — أن من أهم فوائد التاريخ العبرة بما جرى للغابرين والتنصح بأحوالهم •

وظهور مؤرخ كمبد الرحمن الجبرتي يعتبر ظاهرة من الظواهر التاريخية التي ليس لها تفسير واضح ، لاسيما وأن الكتابة التاريخية قد تدهورت في تلك الفترة ، وتسربت الكتب التاريخية خارج البلاد • ويذكر الجبرتي بعض الأسباب التي أدت الى تدهور الكتابة التاريخية فيقول : «فانا لم نر من ذلك كله (أي كتب التاريخ) الا بعض أجزاء مدسنة بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحافين ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه الى بلادهم »^(٢) • ولكن الجبرتي أولى دراسة التاريخ

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣ •

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ •

اهتماما بالغا ، واختلف عن معاصريه الذين نبذوا التاريخ « وأغفلوه ، وتركوه ، وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين ، (وقالوا أساطير الأولين) »^(١) . وخطا الجبرتي خطوة كبيرة في احياء الكتابة التاريخية وبعثها من جديد ، وعلل اتجاهه هذا بقوله : « كان علم التاريخ علما شريفا ، فيه العظة والاعتبار ، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار ، وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السابقة في أم الكتاب ، فقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) »^(٢) ، وجاء من أحاديث سيد المرسلين كثير من أخبار الأمم الماضين كحديثه عن بنى اسرائيل ، وما غيروه من التوراة والانجيل ، وغير ذلك من أخبار العجم والعرب ، مما يقضى بم تأمله الى العجب ، وقد قال الشافعي رضي الله عنه : « من علم التاريخ زاد عقله »^(٣) .

ورغم دقة الجبرتي وكفايته في تدوين الحوادث ومداومته على البحث والاستقراء ، لم يكن أسلوبه يسير على نسق واحد ، بل كان مصريا عاميا كثير الأغلاط في المفردات وفي العبارة . ولم يلتزم الجبرتي السجع ولكنه أحيانا يتفصح به في غير موضعه فيبدو ظريفا مضحكا . وقد اعتذر الجبرتي في مؤلفه عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : « هذا مع اعترافي بقصور الباع ، وفتور الطباع ، في قوائين المعانى العربية ، ودواوين المثنى الأدبية » . ورغم ذلك ، فقد اختلفت تفسيرات الباحثين حول ضعف الأسلوب وكثرة الأخطاء . فيرى البعض أن وجود الأخطاء النحوية ليس دليلا على جهل الجبرتي بها ، فلقد أثر أن يكون قريبا من العامة في تعبيره وأن تبقى أخطاؤهم في تعبيرهم وفي

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ص ٥ ، وآخر ما جاء بالنص من سورة الفرقان ، الآية رقم (٥) .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم (١١١) .

(٣) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤ — ٥ .

كتابه^(١) . ويعمل البعض الآخر هذه الظاهرة بأن الجبرتي لم يفرغ
للأدب ولا مهر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمد
الى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص ، والرصد والتوقيت ، والصبر
والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وقد وفى الجبرتي
بذلك كله . أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج الى مثل
الوقت الذى ألف كتبه فيه ، لاسيما وأن الجبرتي ربما مات عن مسودات
كتاب لا عن كتاب . ويعتقد أصحاب هذا الرأي بأنه لو كان العمر قد
طال به لنقح وهذب وفتش ، وأضاف الى صناعة التساريخ صناعة
الكتابة^(٢) . واذا كانت بعض عبارات الجبرتي قد تميزت بحسن اللغة
والتعبير فمرد ذلك الى المصطلحات والألفاظ الشرعية السائدة فى الفقه
والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب
الأدب . وأيا ما كان الأمر ، فقد غلب على الجبرتي طابع العصر الذى
عاش فيه ، فكانت لغته تمثل لغة المثقفين فى عصره ثنافة لغوية دينية
مصدرها الأزهر فى ذلك الوقت .

ويغطى الجزء الثالث من « عجائب الآثار » تاريخ الحملة الفرنسية
التي سجل أحداثها أيضا معاصره نقولا التزك ، وهو عبارة عن مستخرج
معدل من « مظهر التقديس » مع اضافة حوادث ما بين عامى ١٢١٦
و ١٢٢٠ هـ . ولا يعنى هذا التعديل مجرد التنظيم والتبويب لخراج
جديد بل يحمل تغييرا موضوعيا فى تفكير الجبرتي السياسى^(٣) .

-
- (١) الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، نشر أحمد
زكى عطية وآخرين ، ج ١ ، المقدمة .
- (٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم
فى مصر ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٥٥) ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .
- (٣) محمد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ،
ص ٦٣ — ٦٤ .

ونلاحظ عند المقارنة بين بعض النصوص الواردة في مظهر التقديس وعجائب الآثار مقدار التباين في عاطفة الجبرتي وموقفه المعدل ، ففي « مظهر التقديس » حمل الجبرتي حملة شديدة على الفرنسيين والماليك ، ولم ينظر الى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية ، وأكد التمسك بالتبعية العثمانية والترحيب بعودة العثمانيين . أما في « عجائب الآثار » فقد غير الجبرتي آراءه وحمل على الدولة العثمانية وأثنى على الفرنسيين في عدة مواضع ، وبذلك نظر الجبرتي الى الأحداث بعين الناقد الموضوعي ، فليس كل ما هو غير اسلامي بسيء ، وليس كل حكم اسلامي طيبا . ومما لاشك فيه أن الجبرتي عندما قام باعادة كتابة تاريخ الحملة الفرنسية في الجزء الثالث من عجائب الآثار ، قد برزت صفته كمؤرخ أكثر منه كاتب مذكرات ، فقام بفحص أحداث الحملة وتقييمها بعمق ودقة^(١) . ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن أحداث الحملة بمثل اسبابه وتحقيقه ، فلقد مكنته عضويته في الديوان الذي أنشأه الجنرال ميغو ، وصلته القوية برجال الحملة الفرنسية ، وصداقته الوطيدة للشيخ اسماعيل الخشاب — أمين محفوظات الديوان — مكنته من معرفة دقائق الأسرار^(٢) . ومن ناحية أخرى ، أيقظت الحملة الفرنسية عقول بعض علماء مصر ومن بينهم الجبرتي ، فكانت كتابته « في تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة ... »^(٣) .

أما المؤرخ الثاني الذي كتب عن الحملة الفرنسية باللغة العربية بعد عبد الرحمن الجبرتي ، فهو المعلم^(٤) نقولا بن يوسف بن ناصيف

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية

(القاهرة ، ١٩٥٠) ، ص ٣٧/٢٣ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي

(القاهرة ، ١٩٣٨) ، ص ٢٤ .

(٤) المعلم لقب لشخص وجيه متعلم ، وهو مستمد من الانجيل لان

أغا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨) ، الذى وضع كتابا عن تاريخ الحملة في مصر والشام اسمه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » . وينتسب نقولا الترك الى أسرة يونانية الأصل من القسطنطينية تحولت الى المذهب الكاثوليكي في أوائل القرن الثامن عشر . وارتحل والده الى دير القمر ، عاصمة لبنان في ذلك الوقت ، حيث ولد له نقولا الذى نبغ في الأدب شعرا ونثرا . وعندما نزلت الأسرة دير القمر نسبها الوطنيون الى « التركية » وعلق لقب « الترك » بنقولا^(١) . ولسنا نعرف الكثير عن نشأة نقولا الترك وحياته سوى ما نعرفه عن اتصال والده بالشهابيين على عهد الأمير يوسف الشهابي (١٧٧٠ - ١٧٨٨) ، واختصاصه بأبنائه وكاخيتهم أبى عساف جرجس باز وقيامه بالمهمات الدقيقة في سبيلهم . وظل نقولا يتردد على قصر الأمير بشير الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) ويقوم بمهامه في بلاطه رغم أنه قتل والده يوسف الترك في عام ١٨٠٧ « لأنه كان متقدما (كذا) عند جرجس باز ويسمع كلامه »^(٢) . وعلى أية حال كان نقولا شاعرا

السيد المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب « المعلم » وكان يناديه الناس بالمعلم وقد رفض أى لقب آخر . وكان وصف نقولا « بالمعلم » دلالة على ممارسته تعليم القراءة والخط لبعض أبناء الأسر الأرستقراطية .

(١) ديوان المعلم نقولا الترك ، منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات الأدبية/٤ ، ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرام البستاني ، الجزء الأول (بيروت ، ١٩٧٠) ، ص ١ .

(٢) « كان جرجس باز قد تناهى في الجبر ولم عاد حسب الى احد حساب واودا به الغرور الى افعال اشيا كثيرة في البلاد من دون شور الأمير بشير وخاطره ، وكان كثير التقلب عديما لحفظ السر ببرز منه كلام على من هو اكبر منه » ، انظر حيدر أحمد الشهابي : لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ،

مكرما في يلاط الأمير بشير ، وكان ينفق عليه وعلى أسرته بسخاء .

وكان نقولا الترك قد زار مصر في سبتمبر عام ١٧٨٩ ويظهر ذلك من إحدى قصائده التي امتدح فيها اثنين من الشمامسة المقيمين في مصر^(١) . وأقام في الديار المصرية فترة من الزمن ، وكان مقيما في « مصر القاهرة » عام ١٧٩٣^(٢) ، وربما عاد الى لبنان في العام التالي بعد أن أسس علاقات طيبة بأوساط الشوام المهاجرين الى مصر من التجار وكتاب الدواوين المنتمين الى طائفة الروم الكاثوليك مثله^(٣) . ويتضح من هذا أن نقولا الترك كان على معرفة ودراية بشؤون مصر وامكانياتها الحربية والاقتصادية ، وهذا ما دفع الأمير بشير الشهابي الى ايفاده الى مصر لمراقبة الحالة العامة ابان الاحتلال الفرنسي لها واطلاعه على أخبارها وما ترمى اليه أطماع الفرنسيين . ويذكر دي فوربين أن حملة بونابرت على مصر كان من شأنها أن يتجاوز تأثيرها تلك الحدود الى الأراضي المقدسة ، بل الى لبنان نفسه ، وأن « المستن ألفا من الدروز » الذين كانوا ينتظرون سقوط عكا انضموا الى الجيش الفرنسي ما كانوا ليتورطوا في هذه المغامرة الا بعد أن يعرف أميرهم بشير الثاني ، حق المعرفة ، مقدرات هذا الجيش وامكانيات المقاومة في الحامية المصرية^(٤) . ويقول الكسندر كردان في هذا الصدد أيضا : « كان في استطاعة الحملة الفرنسية أن تترك أثرا ظاهرا في حياة الدروز الذين يزعمون أنهم منحدرين من أصل فرنسي . فكان من الأهمية

=
منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات التاريخية/١٧ ، القسم الثاني ، نشر وتعليق أسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٦٩) ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

(١) ديوان المعلم نقولا الترك ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠ - ٢٤ .

(٤) انظر : De Forbin, Voyage dans le Levant, Paris; 1819.

الكبرى لدى زعيم هذه الأمة الحربية (أى الأمير بشير الثانى) ، أن يقف على كل صغيرة وكبيرة تتصل بحوادث مصر • وعلى ذلك أصدر أمره الى المعلم نقولا بالتوجه الى دمياط والاقامة فيها ، وهى أفضل بقعة لمراقبة الحوادث بين مصر وسوريا «^(١) • وكانت رسائل نقولا الترك الى الأمير بشير الثانى تصر ، فى طريقها الى لبنان ، بمنطقة أحمد باشا الجزار ، مما عرض حاملها للخطر • ويذكر كردان أن احدى تلك الرسائل وقعت فى يد الجزار مما أدى الى نزول الكوارث بأحد اخوة المعلم نقولا القاطنين فى عكا •

ولم يغادر نقولا الترك مصر مع رجال الحملة كما اعتقد البعض ، بل ظل مقيما بها حتى عام ١٨٠٤ حين غادرها عائدا الى دير القمر حيث استأنف التدريس وقرض الشعر من جديد • وانصرف حتى وفاته عام ١٨٢٨ الى وصف عصره وبيئته ، وأصبح ديوانه من المصادر المهمة التى لا يستغنى عنها فى تاريخ الحقبة الممتدة من عام ١٧٩٠ الى عام ١٨٢٥ ويعتبر هذا الديوان صورة صادقة لحياة الشاعر مثل أسفاره

A. Cardin, *Expédition française en Egypte, par Mou'alle* (١)
Nicolas El-Turki, Paris, 1838. P.2.

حاول كردان الربط بين الزعم القائل بأن الدروز ينحدرون من أصل فرنسى وبين إفاد نقولا الترك فى مهمة خاصة الى مصر • وكان قد أشيع عن الدروز أنهم ينسبون الى القائد الفرنسى الصليبي دروز Dreux • وقد ذكر هذا رأى كثير من الكتاب الفرنجة منهم : الأب أوجين روجيه الفرنسيسكانى فى تاريخه « الأرض المقدسة » ، والكاتب الروسى باسيلي فى كتابه « سورية وفلسطين » ، ورستل هير فى كتابه « التقاليد » • وتطرق هذا الاعتقاد الى كثير من المؤرخين العرب مثل جورجى ينى فى « تاريخ سورية » وجورجى زيدان فى الهلال • ولكن المسيو بيجيه دى سان بير (Puget de St. Pierre) فند هذا الزعم فى كتابه (تاريخ الدروز فى لبنان) وأثبت أن المعنيين عرب (انظر: عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى ، بيروت ، ١٩٦٦ ، حاشية ٢ ص ٣٤ - ٣٥) •

بنوع الاختصار . والحمد لله العلى الجبار الذى أراح منهم هذه الديار » — يختلف عن عنوان النسخة التى نشرها دييجرانج وهو « ذكر تملك جمهور الفرنسية الأقطار المصرية والبلاد الشامية »^(١) . وفى عام ١٩٤٨ اقتنت مكتبة الملك السابق فاروق من إحدى مكتبات القاهرة مخطوطا يقع فى ٢٥٩ صفحة ، وقد جاء غفلا من العنوان واسم المؤلف ، وهو منسوخ بخط غير متغير ، فيما خلا بضع صفحات فى آخره لم تلق العناية الكافية فى نسخها . وبعد أن تحقق جاستون فييت — فى ضوء ترجمة كردان — من أن المخطوط هو نفسه تاريخ نقولا الترك ، قام بنشره وترجمته الى الفرنسية والتعليق عليه ، وطبعه المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة فى عام ١٩٥٠ تحت عنوان « مذكرات نقولا الترك »^(٢) . وهى طبعة أوفى من طبعة دييجرانج ، اذ تنتهى حواشيها الى أغسطس عام ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات حكم محمد على . وقد عزز جاستون فييت الترجمة بشروح وافية لكثير من الكلمات الأجنبية — من تركية وفارسية وإيطالية وفرنسية — جرى كتاب ذلك العصر على استعمالها .

ويرى البعض أن نقولا الترك كان واضح الميل بل التعصب للفرنسيين لما له من شعر فى مدح نابليون وراث الجنرال كليبر . ولذلك يقول محمود الشرقاوى أن « لشهادته ... قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ، واستبسالهم فى هذه المقاومة .

(١) انظر : طبعة أسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٦٩) ، القسم الثانى ، ص ٣٤/٢١٣ .

(٢) Nicolas Turc, Chronique D'Egypte 1798-1804, éditée et traduite par Gaston Wiet (Le Caire, 1950).

وسنعمد فى بحثنا هذا على هذا الكتاب وسوف نشر اليه فى الحواشى بعنوان « مذكرات نقولا ترك » . ولن نعلق على الأخطاء النحوية أو اللغوية التى لا تخفى على القارئ .

القبط * * * والمترجمين * * * وكثير من نصارى الشوام والأروام * * * » (١) ، وكان من بينهم القس جبرائيل الطويل الذى عين فيما بعد أستاذًا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس (٢) . ولقد ظن البعض أن نقولا الترك غادر مصر أيضا مع رجال الحملة ، بيد أن هذا الظن يفتقر الى دليل مادي . ومن المنطقي أن يتعاطف نقولا الترك مع الفرنسيين كغيره من بقية «الشوام» المقيمين فى مصر (٣) ، ولكن ذلك لم يؤثر على الآراء والملاحظات التى دونها فى تاريخه . وكل ما طبع من شعره الغنائى فى بونابرت لم يكن سوى قصيدة واحدة أملتها الظروف ، وقد نشرت هذه القصيدة وترجبت فى الكتاب الذى أصدره دييجرانج ، ومطلعها (٤) :

لله عصر قد زها	فلك السعادة فيه دار
وجمال كوكب دولة الـ	جيش الفرنساوى أنار
يا حسننا من دولة	بالافتخار لها اشتها
مقدمها ذو سطوة	تهدى الملوك له الوقار
الشهم بونابرتية	ليث الوغا والاقتدار

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(٢) قسطنطين الباشا : محاضرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر (القاها فى النادى الكاثوليكى فى القاهرة فى ٢٧ شباط ١٩٣٠) ، حربصا ، ١٩٣٠ ، ص ٣٩ .

(٣) بعد أن ترك الترك مصر بعدة أعوام بلغه أن « أحد أجبابه المدعو باسيلي فخر قنصل دولة فرنسة ووكيل غيرها من الدول » قد اشترى قصرا فى مدينة دمياط ، فأهداه ألبانا من الشعر استعاد فيها ذكرى الليالى الخوالى على ضفاف النيل . (انظر : ديوان نقولا الترك ، ج ١ ، ص ١١٨) .

(٤) ديوان نقولا الترك ، ج ١ ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

Desgranges, Histoire de L'expédition des français en Egypte, PP. 281-282.

من فاق قدرا وارتنقى
ندب توحده بالورى
قهر الممالك جملة
وأنا لنا بجمال
وتملك الاسكندرية
وملا الأراضى عسكريا
من كل صنديد فتى
صف الصفوف بحكمة
وسطى بشدة عزمه
وأراهم خطبا شديدا
وأثار نار الحرب فى
يوم يقال به له
فهنالك جيش الغز قد
ورأوا النية فوقهم
ذو البطش منهم والفتى
وتبددت تلك الجما
وتشتتت أمراءها
وفتوح مصر كان فى
فى يوم سبت فيه قد

أوج العلا وسما الفخار
بشهادة ذات اعتبار
وغزا البلاد مع الديار
ومراكب طوت البحار
ة بسرعة دون اعتبار
حول الكنانة واستدار
يوم القتال له اضطبار
وفنون حرب واختبار
وعلى جيوش الغز غار
عد الهول فيه العقل حار
يوم تشيب به الصغار
الله درك من نهـار
صاح الهزيمة والفرار
قد أمطرت جمرات نار
طلب النجا وبه استجار
هير العديدة فى القفار
وغدت بذل وانكسار
صفر وأمر الله صار
ارخت تم الانتصار

حقيقة أن هذه القصيدة توحى بميل نقولا الترك الى محاكاة الفرنسيين،
ولكننا اذا أمعنا النظر فى كتابه يظهر لنا عكس ما يقصده البعض .
فقد أعجب نقولا الترك بالشجاعة الحربية فى أى معسكر كانت ، فأشاد
بذكرها عند الفرنسيين ، كما نوه بها لدى المماليك . وما نستطيع أن
نوضحه فى هذا المجال أن نقولا الترك كان يبغض الأتراك^(١) .

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ح من المقدمة .

وقد اتبع نقولا الترك الطريقة التقليدية في كتابة تاريخه ، اذ أخضع تأريخه للأحداث لطريقة اليوميات والحوليات • ومما أضفى على كتابه قيمة تاريخية أنه كان على اتصال بكبار القوم ، من وطنيين وأجانب ، حكاما وولاءة وموظفين وتجارا ، ووقف على أحوالهم وأعمالهم وأرخ أهم أحداثهم • ورغم أنه اقتصر في تاريخه على تسجيل الأحداث ولم يتعد ذلك الى التعليل والنقد ، فإنه امتاز بدقة في النظر ، وصواب في الحكم ، وتحرر لبعض المعلومات ، ولباقة في الوصف أعجب بها ديجرانج فنسبها الى الفن^(١) ، وربما لا تبعد كثيرا عما كان يقرأه نقولا الترك في « سيرة عنتره » ولكنه كتب تاريخه بلغة عامية ذات عبارات ركيكة ، ومُسط في أسلوبه عن قواعد النحو والصرف ، واهتم فقط بتحقيق الفكرة التي يرمى اليها في تاريخه بجمل مسجوعة • وهكذا يبدو الفرق الكبير بين أسلوب نقولا الترك ومعاصره الجبرتي ، فرغم ما شاب أسلوب الجبرتي أيضا من ضعف وتقصير وأخطاء الا أنه أفضل بكثير من أسلوب نقولا الترك الذي لم يلتزم اطلاقا بقواعد النحو والصرف والاملاء • والجبرتي ، على أية حال ، قد تتلمذ في الأزهر ، وتلقى العلم على يد نخبة من علمائه الكبار في ذلك الوقت ثم أصبح عالما من علمائه • وليس من المستبعد أن يكون الجبرتي — كما وضحنا من قبل — قد مات عن مسودات كتاب لم يطل به العمر لتتقيحها وتهذيبها^(٢) • أما نقولا الترك فيبدو أن أسلوبه كان ضعيفا وركيكا بطبيعته ، ويظهر هذا جليا في ديوان شعره الذي لم يسم في شيء فوق آثار التقليد النظمي المتتابع في عصور الانحطاط ، بل كان يقل عنها في قوة السبك وثدة الضبط • وبذلك يبدو أن « لغة العرب لم تكن تماما لحفيد اليونان ، فظل شاهد عصر جليل ، دقيق النظر ، مرهف الشعور ، صائب القياس ، بصير الحكم ، ولكنه سييء التعبير »^(٣) •

Desgranges, op. Cit., P; VII.

(١)

(٢) انظر ما جاء هنا من قبل : ص ٦٥ •

(٣) ديوان نقولا الترك ، ج ١ ، ص ٥ •

واذا كان الجبرتي قد كتب بهدف « التنصح *** والوقوف على تقلبات الزمن »^(١) ، فان نقولا الترك دون تاريخه أيضا بهدف انتفاع الطلاب ، فهو يحدد هدفه ومنهجه في مقدمة كتابه في قوله :

« *** قد جرت عادة الأوائل ، بتأليف الكتب والرسائل ، وتاريخ ذكر ما يمر عليهم من الحوادث الكونية ، والحركات الكلية ، كتياسام دولة على دولة ، واشتتار الحروب الموهلة ، وما يتعلق بها من المواقع المريبة ، والأمور الفظيعة ، فحق لنا أن نذكر في هذا الكتاب ، لانفعا الطلاب ، ذكر ما أجرته يد الأقدام ، بهذه الأمصار ، منذ اذ بتت العزة الالهية ، بظهور المشيخة الفرنسية ، وما تأتئ بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية ، حتى عمت ساير الأقطار ، وشملت كامل الأمصار ، وقتل سلطانهم ، وخراب بلدانهم ، وانتشار شأنهم ، وربحهم بعد خصرانهم ، وذلك بظهور فرد أفرادهم ، وقايد أجسادهم ، البطل الصنديد ، ذو البطش الشديد ، الأمير بونابرتة . وذكر الحروب التي ثارت في تلك الممالك ، ووقوع الشر والمهالك ، وقهر تلك البلاد التي اتصلوا اليها ، والانتصارات العظيمة التي حصلوا عليها ، وانتقالهم المعجيب من الغرب الى الشرق ، مرور أسرع من البرق ، ونزولهم على جزيرة مالطا ، كالصواعق الساقطة ، وتوجههم ثغر الاسكندرية ، واستيلايهم على الأقطار المصرية ، والتخبر عما وقع لهم من التملك ، وحروبهم مع دولة الغز المماليك ، وركوبهم على الأقطار الشسامية ، وحصارهم لمدينة عكا القوية ، ورجوعهم الى أرض مصر ، وجميع ما تم لهم في ذلك العصر ، وحروبهم مع الدولتين العظيمتين الدولة المشمانية ، والدولة الانجليزية ، وملاقاتهم للعساكر البحرية والبرية ، ومصادماتهم مع التجاريد الهمايونية الخنكارية ، وخروجهم من مصر القاهرة بالتسليم ، من بعد حروب وافرة وهول عظيم ، من بعد مكثهم بالكفانة ثائة أعوام بالتمام ابتداءها شهر محرم سنة ١٢١٣ وآخرها شهر صفر سنة ١٢١٦ ، وكانت ترا اعجب العجايب ، وأغرب الغرائب ، وفي هذا الكتاب أيضا

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣ .

ذكر دخول الدولة العثمانية ، من بعد خروج الدولة الفرنسية ، وذكر ما تم لهم مع دولة الغز الحميدية ، وذلك من بعد تملكهم دار الكنانة ، فتقول وبالله القوة والاستعانة ...» (١) .

وبدأ نقولا الترك مذكراته عن الحملة الفرنسية بلحمة سريعة عن التطورات التي حدثت في فرنسا من الثورة الى قيام الحملة . ونستدل من هذا على أن نقولا الترك كان ملماً بتاريخ الثورة الفرنسية ومعزاهاً ، فهو يشير الى ثورة الشعب الفرنسي على الملك لويس السادس عشر والنظام القديم ، ومحاولة هروب الملك الى النمسا ، وانتهاء تلك المحاولة بالفشل واعدام الملك هو وزوجته . ولا تقتصر رواية نقولا الترك على هذا الحد ، بل انه يتطرق الى الحديث عن موقف الدول الأوروبية من الثورة الفرنسية وتكوين التحالفات الدولية ضدها ، فيذكر أن ملوك أوروبا « قامت كلها على ساق وقدم ، وقالوا لأنفسهم نحارب هذا الشعب الهايج العاصي ، ونبيد ذكره من العالم ، لكي لا نتشبه به باقى شعوب الممالك ، ويقوموا على ملوكهم ويقتلوحهم ، ويخرجوا نظير هؤلاء الخارجين ، فبدوا الملوك يجيشوا عليهم . فأول من تحرك لقتالهم الانبراطور ملك النمسا ، ومملكة أسبانيا ، والانكليز ، والفلنك ، وباقى سلاطين بلاد ايطاليا ، وبالجيلة كامل بلاد أوروبا قامت ضدهم ، وتعرت مشيخة فرانس من صحبة وصداقة كامل البلاد الافرنجية » (٢) . ثم تعرض نقولا الترك بعد ذلك الى انتصارات الفرنسيين و « سارى عسكرهم الكبير بوتابرتة » فى ايطاليا حتى تم اعداد الحملة الفرنسية واقلعها من طولون الى الاسكندرية والأقطار المصرية . وهكذا قدم نقولا الترك للحملة الفرنسية بمعلومات عن البلاد التي خرجت منها وخط سيرها ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على أسباب الثورة الفرنسية وأهدافها ومبادئها .

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ١ — ٣ .

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٤ — ٥ .

ويختلف نقولا الترك في ذلك عن معاصره عبد الرحمن الجبرتي ،
الذي يبدو أن معلوماته عن الثورة الفرنسية وتطوراتها كانت منعقدة .
فقد استهل عبد الرحمن الجبرتي روايته عن سنة ١٢١٣ هـ — وهي
سنة نزول الحملة أرض مصر — بقوله : « وهي أول سننى الملاحم
العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ،
وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ،
وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأحوال ، واختلاف
الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر
الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها هـلحون » (١) .
ونستشف من ذلك أن الجبرتي لم تكن لديه — مثل معاصره نقولا
الترك — صورة واضحة عن أحوال أوروبا السياسية والحضارية في تلك
الفترة ، فهو لم يتبين ما وراء الغزو الفرنسى من أهداف سياسية
واقتصادية ، واقتصر تعليله على أنه فتح دينى قام به النصارى ، وهو
يعبر بذلك عن رأيه ورأى معاصريه من المسلمين ، الذين كانوا يرون
أنه إذا انهزمت جيوش السلطان واستباح جند النصارى أرضه فقد
اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها . ولذلك نظر الجبرتي الى خضوع
المصريين المسلمين للحكم الفرنسى على أنه شر لا يوازيه عسف ابراهيم
بك أو ظلم مراد بك ، أو شرور المماليك والعثمانيين مجتمعة . وقال
المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال — فى تفسيره لهذا الأمر — أن
الحكم الفرنسى « كان انقلابا من نوع لم يعرفه المصريون ، اذ لما زال
حكم مراد و ابراهيم حل محلها بونابرت ولم يكن مسلما ولا مملوكا ،
ومهما قيل فى تدوين الفرنسيين فى تلك الأيام فهم غير مسلمين ، قد تصل
بهم الضرورة الحربية — أو ما ظنوه ضرورة حربية — الى انتهاك

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢ . وآخر ما جاء بالنص استشهاده
من سورة هود ، الآية رقم (١١٧) .

الحرمة الإسلامية»^(١) . ولذلك جاءت مقدمة الجبرتي عن الحملة الفرنسية تعبيرا لمفهوم هذا العصر عن حقيقة الصراع بين الشرق والغرب ، وهو أمر يختلف فيه تماما مع نقولا الترك .

ومن خلال سردهما لأحداث الحملة الفرنسية ، تعرض الجبرتي ونقولا الترك لأهم تطوراتها ولسياسة نابليون بونابرت الإسلامية وموقف المجتمع الشرقي الإسلامي من التقاليد والعادات الغربية ، فاتفقت وجهة نظرهما الى حد كبير . فقد تطرق الاثنان — مثلا — الى الروح الإسلامية السائدة في ذلك الوقت والى العازل الديني الذي كان يفصل بين الشعب المصري وبين الحكم الفرنسي . ورغم أن نقولا الترك كان مسيحيا كاثوليكيا الا أنه أكد — مثل الجبرتي — أهمية هذا العازل وأثره في قيام ثورة القاهرة الأولى . ويشير نقولا الترك الى هذه الروح الإسلامية عندما يتحدث عن هزيمة القوات العثمانية في موقعة أبي قير البرية (٣٥ يوليو عام ١٧٩٩) فيقول :

« ان العساكر الفرنسية رجعت الى مصر بنصر عظيم ، ورجع أمير الجيوش وصحبته مصطفى باشا كوسا مع ابنه وبعض أتباعه ، وحصل قهرا عظيما عن ذلك عند المصريين بانكسار هذه العمارة .

فعرف ذلك أمير الجيوش بونابرت ، وحين دخلت العلماء عليه لكي يهنوه بقدومه .

فقال لهم ، كنت أظنكم أيها المصريون انكم تحبونى ، وتفرحوا بنصرتى ، وتحزنوا لحزنى ، والآن رأيتمكم بضد ذلك ، فأنا قدمت لكم كل محبة ، وقلت لكم اننى أنا أحب النبی محمد ، وذلك لكون انه بطل

(١) انظر : محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

صنديد نظيري ، وصاحب فتوحات ، فذاك غزى عشرون غزوة ، وأما أنا غزوت ، وأمامي غزوات كثيرة ، وسوف تشاهدوا وتسمعوا ، والآن أنتم متفجرين من الفرنساوية ومقهورين ، فسوف يأنىكم زمان الذي به تفتشون على عظام الفرنساوية •

وتبتكون عليها ، وهثل هذا الكلام وغيره كلمهم به عدة أمرار • وكان في مدة اقامته في مصر دائما يكلمهم باللسان ، ويكتب لهم أوراق ، ويعلقها على حيطان المدينة والأسواق ، لكي يقرأها الشارد والوارد ، وكان يوعدهم بالاسلام ، وبنائية جامع باسمه ، وبكل خير يتعلق بالامة الاسلامية • وأما هم فكانت قلوبهم غير آمنة ولا مطمئنة ، وكانوا يقولوا كل هذا خداع ومخائله لبيئنا يترك ، وأما هو نصراني ابن نصراني « (١) » •

وتعتبر هذه الفترة التي سجلها نقولا الترك بشكل واضح عن نظرة المجتمع المصري الديني الى بونابرت ، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ، ولم يقولوا عنه انه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا من الدين معيارا لتقييمه • ويؤكد نقولا الترك في أماكن متفرقة من مذكراته ، أنه كان يحز في نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبى مسيحي ، لأن مصر بلد اسلامى منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنها ظلت على هذا الوضع الاسلامى على توالى الأدهر والعصور ، كما أن « هذا الأمر يصعب على أهل مدينة مثل هذه لها في يد الاسلام من ظهور النبى ، وفي القديم قصدوا النصراني الافرنج الاستيلاء عليها جملة أمرار ، فما قدروا وآخرهم السلطان لويس الفرنساوى الذى انكسر في المنصورة ، كما تخبر التواريخ • فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين الى هذه

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٥٩ — ٦٠ •

الديار .. » (١) • وهكذا كان الشعب المصري يردد أن بلاده كانت حصنا حصينا للإسلام ، ومركزا مرموقا للثقافة الدينية العلمية الإسلامية • ويخلص نقولا الترك من وصف مشاعر المصريين الى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل انه ذهب الى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين للحكم الفرنسى انما هو أمر ضد الطبيعة •

ولقد أشار الجبرتى الى الروح الإسلامية التى تثلث بشكل قوى فى ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) والتى يحلو لبعض الباحثين المحدثين اصفاء الطابع القومى عليها • ولا يغيب عن الذهن فى هذا المجال أن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر كان مجتمعا دينيا خالصا غلبت عليه الثقافة والآراء الدينية ، فكانت الهتافات التى ردها الثوار هتافات دينية بحتة ، لا تمت بأية صلة الى الشعارات أو المفاهيم القومية • ويصور الجبرتى الموقف عند بداية ثورة القاهرة فيقول : « وأصبحوا (أى العامة) يوم الأحد متحيزين ، وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر (٢) الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الكلام : نصر الله دين الاسلام » (٣) • وتتفق رواية الجبرتى مع رواية نقولا الترك فى تأكيد هذا الشعور الإسلامى ، فيقول الترك فى مذكراته عن بداية

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣٠ — ٣١ •

(٢) يعنى أناسا ذوى شراسة ، والمفرد (زعرور) أى سيىء الخلق كما جاء فى الفيروزابادى (مجد الدين) ، القاموس المحيط مادة (زعر) ، الطبعة الخامسة ، شركة فن الطباعة ، القاهرة بدون تاريخ ، وانظر أيضا: Dozy, R., Supplement aux dictionnaires Arabes; 3ème Edition; I, 592; Leyde; Paris فقد فسر الزاعر — أو الزعرور — بمعنى

الخبث (vaurien) أو الشاطر أى الخبيث الفاجر (filon)

(٣) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٥ •

الثورة : « وأهل مصر حين نظروا أن أهل المنصورة قاموا ضد
الفرنساوية ، وقتلوا الذين كانوا عندهم ، ولا جرى عليهم خلاف ،
وكذلك أهل اقليم دمياط ، ولا جرى عليهم شيء ، فدبروا أهل مصر
هذا التدبير الآتى ذكره ، وهو انه في ذات يوم نهار الأحد ، في عشرين
ربيع آخر ، نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر ، وبدأ
ينادى في المدينة ، ان كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن
اليوم ينبغي لنا أن نغازي في الكفار ، وكان أغلب أهل البلد معهم
الاس بذلك »^(١) . ومن الجدير بالذكر أن نقولا الترك لم يتحرج
عندما أطلق لفظة «الكفار» على الفرنسيين ، فلقد كان يصف مشاعر
الناس وأحاسيسهم وصفا دقيقا ، كما كان مدركا أن مصر كانت جزءا
من أرض الساطان ، زعيم الاسلام والمسلمين في ذلك الوقت .

ويستخلص الباحث من روايتى الجبرتى ونقولا الترك ثلاث
اتجاهات حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولا : ان الدعوة الى الاشتراك في الثورة كانت مقصورة على
« المؤمنين الموحدين بالله » وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة دون
سواهم .

ثانيا : ان الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الاسلامية
تتلقى فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو الذخائر من قادة الثورة .

ثالثا : ان الحرب التى خاضها أهل القاهرة المسلمون ، كانت حرب
جهاد دينى ، استهدفت الانتصار لدين الاسلام ، ولم يطلق فيها الثوار
التهافتات التى عرفت في مصر في القرن العشرين ، فلم يهتفوا بالاستقلال

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣٨ .

أو بحياة زعيم الثورة ، لأن أى زعيم مصرى مهما بلغت مكانته ومهابته ونفوذه فى نفوس المصريين ، كان يتضاءل مركزه اذا قورن بسُلطان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين • ويؤكد هذه الحقيقة اثنان من المؤرخين الذين عرف عنهم سلامة الحكم والتقدير ، فيقول الأستاذ محمد شفيق غربال : « ان التاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم ، الا باعثا ايجابيا واحدا ، هو الرغبة فى العودة لما ألفه الناس ، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا ، وانما اسمه الوحيد حكم الماليك تحت السيادة العثمانية » (١) • أما الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، فهو يقول عن ثورة القاهرة الأولى : « ظل الفرنسيون يحكمون البلاد نحو ثلاث سنين ، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه فى الدين ، ويخالفونه فى اللغة ، ريخالفونه فى الحياة الاجتماعية التى يحييها : رآهم يجتمون عليه أمورا لم يألفها » (٢) • وهكذا أدت عوامل كثيرة الى قيام الثورة ضد الفرنسيين ، والى زيادة الهوة بينهم وبين المصريين من بينها اختلاف الدين والزى واللغة والتقاليد • وقد عبر الجبرتى ونقولا الترك عن هذه العوامل مجتمعة بعبارات تتسم بالوضوح والدقة •

ولم يقف الجبرتى ونقولا الترك عند موضوع الجهاد الدينى والروح الاسلامية المنتشرة فى ذلك الوقت فحسب ، بل تعرضا لمشكلة أخرى هامة ظهرت ابان الاحتلال الفرنسى لمصر ، وهى مشكلة التحرر النسائى • فلقد انتشر أثناء الحكم الفرنسى نوع من التحرر النسائى لم يتقبله مجتمع القاهرة ، بل نظر اليه على أنه اباحية وفوضى خلقية

(١) محمد شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ١٥ •

(٢) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢١ •

لا تتماشى مع التقاليد الإسلامية ، التي كان الحكم العثماني يحرص على احترامها حرصا بالغاً . فقد اصطلح بعض الضباط الفرنسيين زواجاتهم أو عشيقاتهم الى مصر ، ويقدر بعض المؤرخين عددهن بثلاثمائة سيدة تقريبا^(١) . وقد عاشت تلك الزوجات أو العشيقات في مصر حياة متحررة من قيود مجتمع شرقي اسلامي محافظ ، وكن يشبعن ما كانت تهفو اليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف . وكتب الجبرتي عن الحرية التي مارستها السيدات الفرنسيات في شوارع القاهرة ، وعن ملابسهن ، وعن مداعبتهن للعامة وهن يركبن الحمير ، فراح يقول : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيين الى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات المفستانات ، والمناديل الحريري الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقا عنيفا ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ... »^(٢) . وبالإضافة الى هذا ، كانت السيدات الفرنسيات يراقصن الرجال في ميدان الأزبكية في أثناء المهرجان الكبير الذي أقامه الجيش احتفالا بذكرى قيام الجمهورية .

أما العنصر الثاني من النساء المتحركات في مصر فكان يتمثل في السيدات الشركسيات واليونانيات والأرمنيات ومن اليهن ، وقد كن زوجات أو مستولدات أو جوارى للأمراء المماليك والكشاف ، جيء بهن الى مصر وأقمن في قصور كانت غاية في الروعة والبهاء ، وعشن حياة مترفة ناعمة باذخة ، وارثنين أرقى أنواع الملابس الحريرية

(١) محمد غزاد شكري : عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من

مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥٧٢ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

المستوردة من مصانع ليون ، والملابس الصوفية وغيرها ، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن في المعارك التي خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين ، وارتفع عدد القتلى منهم في معركة امبابه ، وتشنت شمل العائلات المملوكية ، وانطلقت السيدات الى حياة التحرر ، بعد أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات ، لا يراهن أحد من الأفراد سوى الأغوات الطواشية الذين يقومون على خدمتهم . وقد عاشت تلك السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية مترفة منعمة ، وخرجن سافرات في صحبة أزواجهن ، وكن يذهبن معهم الى منتدى الجيش الفرنسى المسمى تيفولى Tivoli (١) فى ميدان الأزبكية والى غيره من أماكن اللهو والتسلية .

كما كانت الاماء (الجوارى السود) عنصرًا ثالثًا متحررا الى أبعد حدود التحرر فى مدينة القاهرة ، وكن أيضا يعيشن فى قصور الأمراء المائيك والكشاف ، وانطلقن من اسار الرق ، وكن أوفر عددا ، وأكثر جرأة فى تطوير أسلوب حياتهن . وقدم الفرنسيون لهن الملابس الأوروبية فارتدينها ، وقدموا لهن الخيول فركبنها ، وكن يغادرن منازلهن فى أى وقت ، ويطفن بشوارع القاهرة ، سافرات الوجوه ، تبدو عليهن الأناقة فى ملابسهن وزينتهن ومشيتهن وحركاتهن . ويصور نقولا الترك هذا الوضع تصويرا دقيقا ، فيقول : « وفى خمسة وعشرين ربيع ، عمل لهم مولد النبى بشنك عظيم ، بزيادة عما كان يصير فى مدة الغز . وكانت فى كل مواسم الاسلام والأعياد والموالد وجبر بحر النيل ، تصنع الفرنساوية احتفالا عظيما ، وتضرب مدافع كثيرة ، وحراقات عظيمة ، التى كانت تصير فى مدة الاسلام ، وكل ذلك لكى يجذبوهم الى محبتهم . وأما هم كما أشرنا سابق ، كانت قلوبهم

(١) ج . كريستوفر هيرولد : بونايرت فى مصر ، ترجمة فؤاد

اندرائوس ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ .

ثأرت منهم ، مع أن غالب فرنساوية وأكثرهم كانوا أشهروا ذواتهم بالاسلام ، وبدوا يتعلموا العربية ، ويدرسوا الكتب والقرآن الشريف ، وكانت بيوتهم مشحونة من بنات الاسلام ونسائهم ، لاسيما من الجوارى السود ، فكانوا بزيادة ، وكانوا يلبسوهم كسم بلاد الافرنج ، ويركبوهم الخيل ويدوروا في المدينة مكشوفين الوجوه جهارا . وكانت حريت مطلقة الى جنس النساء والبنات ، وخرجت النساء من بيوتهم خرجا عظيما لكون أن الجنس فرنساوى له مداخله ومواسمه ومسايره لجنس النساء بنوع آخر على باقى الجنوس الموجودة في العالم بأسره » (١) . ويتفق الجبرتي في روايته عن الاماء مع نقولا الترك اذ يقول « وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجا ، فرادى وأزواجا ، فطنن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطيقتان ، ودلوهم على مخبات أسيادهن ، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » (٢) .

ثم جاء عنصر رابع هو زواج الفرنسيين من المصريين المسلمين . ويكشف الجبرتي عن التبرج والفساد ودوافع هذا الزواج في قوله :

« فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا في أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال ، فخلع أكثرهن نقاب الحياة بالكلية ، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والأهم ، وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن ،

(١) ذكريات نقولا ترك ، ص ٦٠ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن ، ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها ، فطرحن الحثمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن ، واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصا عقول القاصرات ، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم ، فيظهر حائلة لعقد الاسلام ، وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها ، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات ، متزيات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية ، والأحكام العادية ، والأمر والنهي والمناداة ، وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها ، وأمامها القواصة والخدم ، وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين في الأحكام» (١) .

وهكذا نظر الجبرتي وسكان القاهرة الى هذا الزواج المختلط ، والى تحرر المرأة المسلمة على أنها نوع من الرذيلة . وقد شاركهم نقولا الترك هذا الرأي ، فعبر في مذكراته عن الاستياء الشديد الذي عم المصريين بسبب حياة الخلاعة في القاهرة ، وسمى أولئك المصريات « نساء كثيرات من الاسلام » ، وقال « خرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنسيات ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات والأشياء التي لا ترضى رب السموات » (٢) . ويقول نقولا الترك في مجال آخر — وهو في هذا يتفق في الرأي مع الجبرتي — ان المصريين لم يحتملوا اطلاقا وجود الفرنسيين في القاهرة « ولا سيما اذا كانوا يروا نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين من الافرنج ، جهازا مائسين معهم في الطريق ، نايمين قاعدين في بيوتهم ، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر ، وناهيك تلك الخمامير التي اشتهرت

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣١ .

في كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفي بعض الجوامع أيضا ، هذا الرويا والمنظر كانت تجعل الاسلام ينتفسوا الصعداء ، ويطلبوا الموت في كل ساعة • وكان في مدة الفرنساوية كانت الناس الدون في أحسن حال من بياعين ، وشياليين ، وأرباب صنايع ، وحمير ، وسياس ، وقوادين ، ونسا خوارج • وبالنتيجة الاناس الأدنيا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحرية •••» (١) •

واذا كان هناك اتفاق في الرأي بين الجبرتي ونقولا الترك حول بعض القضايا الدينية والاجتماعية ، الا أننا نجدهما يختلفان في تفسيرهما أو نظرتهما لبعض الأمور السياسية • ونسوق في هذا المجال مثلين للدلالة على الاختلاف في وجهات النظر بينهما ، يتعلق الأول بوساطة العلماء لدى نابليون أثناء ثورة القاهرة الأولى ، ويرتبط الثاني برأيهما في محمد علي • ففي خلال ثورة القاهرة ، تملك نابليون بونابرت رغبة قوية في الانتقام من الجامع الأزهر ومن رجاله ومن يلوذ به ، فأصدر أمره في ٢٣ أكتوبر عام ١٧٩٨ بتحطيم بعض أعمدة الجامع الأزهر أثناء الليل في محاولة منه لهدمه • وقد دفع بونابرت الى اتخاذ مثل هذا القرار ذلك الدور القيادي البارز الذي كان يضطلع به الأزهر في الحياة المصرية السياسية والدينية ، اذ كشفت هذه الثورة لنابليون مدى قدرة الأزهريين على تحريك الجماهير ثوريا ودينيا • الا أننا نلاحظ أن الأزهر لم يتم هدمه ، ونلاحظ أيضا أن المصادر الفرنسية والعربية قد التزمت الصمت ازاء هذا الأمر الحربي الذي أصدره نابليون بونابرت • ونرجح أنه راجع موقفه بعد أن هدأت هواجسه قليلا ، بالاضافة الى ما تجدد من عوامل خففت الى حد ما من فورة غضبه ، منها سعي كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان الى مقابله في مقر قيادة الجيش الفرنسي •

(١) : ذكريات نقولا ترك ، ص ٣١ .

بالمواحد ، فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم
لذلك السؤال ، وأمر باخراجهم في الحال ، وأبقوا منهم السبعين ،
أسكنوهم في الخطة كالضابطين ، ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام
منقيدين » (١) .

أما نقولا الترك ، فيذكر رواية تتعارض مع ما جاء في كل من
مذكرات بونابرت ويومييات الجبرتي ، فيقول عن وساطة العلماء :
« فقامت العلما ، وجأت لعند أمير الجيوش ، ودخلوا على يديه
ورجليه ، وترجوه أن يسمح لهم بقيام العسكر من الجامع المذكور ،
فلم قبلت رجاواتهم ، ووبخهم التوبيخ الكلى ، فهم أنكروا ان ليس
عندهم علم ولا خبر بالذى حصل ، فما أمكن أن يقبل رجاهم فراحوا
وأرسلوا له الشيخ محمد الجوهري ، فهذا الشيخ كان من العلما الكبار ،
ولكن كان متعبد متوحد ، وفي كل حياته ما قابل أحد من الحكام ،
ولا يقبل رشوة ، ولا هدية من حاكم ، وفي مدة الغز قط ما قابل أحد
منهم ، بل كانوا يطلبون رضاه ودعاه وهو في بيته . فهذا الشيخ توجه
بذاته وقابل أمير الجيوش .

وقال له أنا قط في حياتي ما ترجيت حاكم . ولا قابلت ظالم ،
والآن أنيت اليك ، فلأجل خاطري أفرج عن الأزهر لكى أرضا عليك
وأدعيلك . فانشرح منه أمير الجيوش ، وأمر برفع العسكر من الأزهر ،
وخامس يوم أطلق المنادى بالأمن والأمان ، وفتحت البلد
ثانية ... » (٢) .

الا أنه يبدو لنا صعوبة الأخذ برواية نقولا الترك عن وساطة
الشيخ محمد الجوهري ، فقد كانت تربط هذا الشيخ الوقور بالجبرتي

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢٩ — ٣٠ .

أوثق الصلات العلمية والاجتماعية . وقد ترجم له الجبرتي في وفياته عام ١٢٥١ هـ ترجمة ضافية^(١) ، وذكر مناقبه ، وأشاد بأستاذيته الشامخة ، وعلو مركزه ، ولكن لم يشر — لا من قريب أو بعيد — الى وساطته لدى بونابرت من أجل اخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، وإعادة فتح أبوابه للعلماء والمجاورين ، نرى أن هذه الواقعة لو كانت صحيحة لما تردد الجبرتي في ذكرها بل وفي ابرازها ابرازا قويا ، خاصة وأن الجبرتي سجل للشيخ الجوهري مواقف هامة ومشرفة تقتل بمشيخة الأزهر ، وكل ما سطره الجبرتي عن حياة الشيخ الجوهري خلال الحكم الفرنسي لا يتعدى قوله : « ولم يزل وافر الحرمة ، معتقدا عند الخاص والعام ، حتى حضر الفرنسيون واختلت الأمور ، وشارك الناس في تلقى البلاء ، وذهب ما كان له بأيدي التجار ، ونهب بيته وكتبه التي جمعها ، وتراكت عليه المهموم والأمراض ، وحصل له اختلاط ، ولم يزل حتى توفي يوم الأحد حادي عشرين شهر القعدة سنة تاريخه ، بحارة برجوان ، وصلى عليه بالأزهر في مشهد حافل »^(٢) . ومن الملاحظ أن بعض الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث قد أخذوا برواية نقولا الترك بشكل حرفي من غير أن يعنوا بمناقشة جوانبها المختلفة ، ونرى أن مجرد ترديدهم لوساطة الشيخ محمد الجوهري لا يعزز تلك الواقعة ما لم تقم أسانيد قوية لتأييدها^(٣) .

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(٣) مما يضعف رواية نقولا الترك ويشير حولها المزيد من الشكوك

أن علماء الأزهر أعضاء الديوان أذاعوا في نفس اليوم الذي قابلوا فيه بونابرت بيانا الى سكان القاهرة ، قرروا فيه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم وطلبوا من السكان الاخلاء الى السكنية ، تجنبنا لسفك مزيد من الدماء وحفظا لعائلاتهم ، وابقاء على دينهم ، انظر : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣ ،

أما عن رأى نقولا الترك والجبرتي في محمد علي وحكمه ، فقد عبر كل منهما عن وجهة نظر متعارضة تماما مما يكسب التاريخ المصرى الحديث صبغة هامة . فالجزء الذى كتبه نقولا الترك كمكلا للحملة الفرنسية ويصل بالقارىء الى شهر أغسطس عام ١٨٠٤ يمكن الباحث من الوقوف على معلومات تتصل بأوائل ظهور محمد علي ، وفيه يبدى نقولا الترك تفاؤله وحسن ظنه به . بل ان العبارات التى كتبها عنه تتسم بالمدح المتزايد والتفخيم المتناهى فيقول مثلا : « وأما ما كان من أمر السارى عسكر محمد علي ، صاحب المقام العلى ، والكوكب الجلى ، فانه تمكن من مصر ، وساعده النصر ، ونال مرامه ، وقهر أخصامه ، وكان رب مكيدته ، وأمره سديده ، فهذا ما تم بتقدير العزيز العليم »^(١) . والواقع أن نقولا الترك لم يشهد من حكم محمد علي شيئا ، فهو لم يمكث بمصر بعد عام ١٨٠٤ اذ غادرها عائدا الى لبنان ، ولم يشهد أو يدرك التحول الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الذى حدث فى البلاد خلال عهده . ولكن نقولا الترك — قبل أن يعود الى لبنان — أسس فى مصر علاقات طيبة فى أوساط «الشوام» وأكثرهم من التجار وكتاب الدواوين ، فبقى على معرفة بشؤون البلاد وامكانياتها الحربية والسياسية والاقتصادية . وهكذا كان نقولا الترك يميل الى محمد علي ويقدره حق قدره ، وربما أدى ذلك — على الأرجح — الى ميل الأمير بشير الشهابى الثانى الى محمد علي واستعداده للجوء اليه

==
رراجع أيضا هذا المنشور فى : عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

La Jonquière C, L'Expédition d'Egypte. 1798-1801, Paris, 1899-1907; P. 285.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا البيان قد كتب بإيحاء من بونابرت شأن كل البيانات التى اذاعها علماء الأزهر أعضاء الديوان سسواء على عهد بونابرت أو كليبر أو مينو .

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ١٨٩ .

• والاعتماد عليه^(١) •

لقد شهد نقولا الترك فترة الصراع التي أعقبت خروج الحملة الفرنسية من مصر ، فتحدث عن المماليك وحاربة محمد علي لهم ، وكان وصفه ينبض بالتعاطف والتأييد للجهد الذي قام به محمد علي . ونسوق في هذا المجال فقرة من الفقرات الكثيرة التي كتبها حول هذا الموضوع فيقول :

« وفي أربعة عشر يوم من هذا الشهر نهار الأحد ، تقدمت الغز البحريين ، وسارى عساكرهم الأمير ابراهيم بيك ، وعثمان بيك البرديسى ، وباقى السناجق والكشاف والمماليك مع طموش العربان ، فخرج لهم ذلك الهمام السارى عسكر محمد علي ، وهو كالأسد الدرغام ، وساقى الارناووط ، والسكمان ، ونشر الأعلام ، واصطفت الرجال للقتال ، ونعق غراب الوبال ، وتقدمت الفرسان للميدان ، وظهرت الشجعان ، وبرزت الغزا ، والمجاهد والحرب والجلاد على الخيول الجياد ، وانطلقت المدافع ، واشتدت المعامع ، وتلاطموا الفريقان ، وامتزجا العسكران ، ولعب الهندوان ، ولعلع الزال ، وتناثرت الجماجم من العرب والأعاجم ، وسال الدما على الرمال ، وزاد النكال واشتد الجدل وامتد القتال ، واتصل الضرب والطعان ستة ساعات من الزمان ، وكان يوما يفقع المرارة من شدة الحرارة ، لأنه كان واقعا في عاشر يوم من شهر تموز (يوليو) والشمس قد يبست الماء في الكوز وضاقَت النفوس ، وكل من الحسب كل قرم عبوس ، وتراحت الارناووط ، وتجمعت جمعا غير مفروط ، الى أن بلغ حجمها أربعة آلاف

(١) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز ، القسم الاول ،

الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٥ .

مقاتل ، وكان الغز مقدار ألف فارس غير القبائل ، فلم تستطع الثبوت أمام هؤلاء الرثوث ، فولوا منهزمين ، وسعوا راجعين ، الى أرض بهتين ، من بعد ما فقد منهم عدة من الفرسان ، ولم تتفهم من هذه الحرب طموش العربان *** » (١) .

ثم يوالى وصفه للنصر الكبير الذى أحرزه محمد على والأمن والاطمئنان الذى ساد البلاد ، وانكشاف الغمة وانتشار الرخاء فى عبارات تؤكد ما سبق أن أوضحناه وهو ميله وتقديره لمحمد على ، فيقول : « وفى ٢٤ شهره من بعد رحيل الغز دخل السارى عسكر محمد على بجميع العساكر الى القاهرة بيمين ظافرة ومعدية وافرة وأمن واطمئنان وعز وسلطان وانفتحت الطرقات الأمنية وانكشفت الغمة من المدينة ، وتواردت الغلال الى القاهرة من البلاد القريبة » (٢) . وهكذا لم يشهد نقولا الترك أحداث مصر بعد عام ١٨٠٤ ، فتوقفت روايته عند فترة الفوضى والاضطراب والصراع التى انتهت بتولى محمد على حكم مصر فى عام ١٨٠٥ .

أما رواية عبد الرحمن الجبرتى عن حكم محمد على فهى أعمق وأشمل لاسيما وأنه عاصر ما يقرب من النصف الأول من حكم محمد على . واذا كان نقولا الترك قد قدر محمد على كل التقدير ، فان الجبرتى قد وقف من حكم محمد على موقف المعارضة . فلقد استند حكم الجبرتى على ما شهده من عصر محمد على أساس أخلاقى ، ومن منطلق انتماؤه الى الفئات التى مستها اجراءات محمد على الصارمة كالملتزمين وكبار حائزى الأراضى وأثرياء المشايخ والمماليك . فالجبرتى — مثلا — كان ميالا للمماليك وكان يحترم الكثير منهم ، وبخاصة ابراهيم بك ومحمد بك الألفى . وأبلغ ما يصور حبه لمحمد الألفى وكرهه لمحمد

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢١٧ .

على تلك العبارة التى أجراها على لسان محمد الألفى عندما اشتد به المرض فيقول : « لم يزل (الألفى) سائرا حتى وصل الى قريب قناطر شبرامنت ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها • وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر الى جهة مصر وقال : يا مصر انظري الى أولادك وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأرئود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاثلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك • ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى، وفى الحال تقائياً دما وقال : قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على، وما ثم من ينارعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، وما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » (١) • لقد دافع الجبرتى عن المماليك الذى لقبهم « بالأمراء المصرية » واعتبر محمد على ورجاله دخلاء على البلاد • كما أنه لم ينح على الألفى اتصاله بالانجليز ، بل انه « عندما سافر الى بلادهم تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم وعدلهم فى رعيته مع كفرهم » (٢) •

وهكذا لم يحفل الجبرتى بالتغيير وبواعثه ، بل أخذ يقيس الامور بمقياس الأخلاق وحدها • لقد تغنى الجبرتى بالعدل ، أى اقامة الشريعة والرفق بالرعية ، وهاجم ظلم الحكام • فلم يقدر الجبرتى كنه هذا التغيير ومغزى السياسة التى اتبعها محمد على • فلقد وقف بتاريخه عند عام ١٨٢١ ، ولم تكن سياسة محمد على قد اتضحت أبعادها وآثارها بعد • فاتهم محمد على بأنه قد اعتدى على « مساتير

(١) عجائب لآثار ، ج ٤ ، ص ٣٨ •

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢ •

الناس وأغلق البيوت المفتوحة لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم » • فكان يعتقد أن الشغل الشاغل لمحمد على هو « تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربة الا بمساعدته على مرأته ومقاصده ، ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع حقد عليه ، وربما أقصاه وعاداه معاداة من لا يصفو أبدا • وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته فلم يمكنهم الا الموافقة والمساعدة في مشروعاته اما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة » •

ولا غرو فقد شمت الجبرتي في النهاية التي آل اليها السيد عمر مكرم ، اذ اعتبر ذلك عقابا سماويا له لأنه لعب دورا أساسيا في تولية محمد على الحكم، ومن ثم فقد ساعد على تولية «ظالم» فاستحق بذلك العقاب • وأوضح الجبرتي أن محمد على عمل بذكاء وحذر شديدتين لاستمالة عمر مكرم نحوه ، وبذل له الوعود الخلافة بأنه اذا أتيح له حكم مصر فسيكون حريصا على التزام العدل والبعد عن المظالم • ويعبر الجبرتي عن خداع محمد على بعبارات قوية اذ يقول : « وانتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى ... » ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ، ويأثيه ، ويراسله ، ويأتى اليه في أواخر الليل وفي أوساطه ، مترددا عليه في غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل ، وإقامة الأحكام والشرائع ، والاقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه ، وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن ، فيتورط المخاطب (أى عمر مكرم) بذلك القول ، ويظن صحته ، وأن كل الوقائع

زلاية « (١) » .

وهكذا رسم الجبرتي صورة صادقة الى حد كبير عن محمد على في هذه السنين الأولى من حكمه . ورغم أن عاطفة الجبرتي نحو محمد على لم تكن عاطفة المحبة والتقدير ، إلا أن أمانة المؤرخ لم تمنعه من الإشارة الى ما فعل من عمل صالح أو نافع ، بل من الثناء عليه في بعض المواقف أيضا . فبرغم تسجيله لما حاق بالفلاحين من ظلم أثناء حفر ترعة المحمودية الذي ذهب ضحيته الكثيرون ، فإنه لا يتردد في الأثارة ببعض الأعمال الجليلة التي قام بها محمد على ، فمن ذلك — مثلا — حديثه عن دار الصناعة وانشائها فقال فيها انها « دار صناعة عظيمة » (٢) . كما سجل لمحمد على أنه أصلح منطقة فسيحة من الأراضي في مديرية الشرقية ، تعرف باسم رأس الوادي ، ونقل كثيرين من فلاحى هذه المديرية ، الذين لا يملكون أرضا ، فاستوطنوا هذه الأراضي المستصلحة وزرعوا أشجار التوت وأقاموا فيها أكثر من ألف ساقية للرى . ومما ذكره الجبرتي من الحسنات القليلة التي سجلها لمحمد على تشجيعه أبناء مصر وفتح أبواب التعليم أمامهم ، فلقد علم محمد على أن مصر « من أولاد البلد » يدعى حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه لا تحتاج الى جهد كبير . فطلبه اليه وأعطاه مالا وأمره بأن يسير الى دمياط ليقوم مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التي اخترعها . وأمر بأن يسلم اليه ما يحتاجه من الأخشاب والحديد وأدوات البناء . فلما أقامه حسين عجوة ونجحت آلته ، أمر باقامة مصنع آخر في رشيد وأنعم عليه بمال مكافأة له . ثم تنبه محمد على لما عند المصريين من قدرة ونشاط ، فأمر بانشاء مدرسة في فناء قصره ، جمع فيها طائفة من الصبية المصريين ومن مماليكه ، وخصص

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

لهم معلمين ، بعضهم من الأوروبيين • وأحضر لهم الأدوات الهندسية من إنجلترا ، وخصص لكل صبي راتبا شهريا وكسوة • وكانت هذه بداية مدرسة « مهندس خانة » • وهكذا نجد أن الجبرتي لم يظلم محمدا عليا ، ولم يغمطه قدره ولم ينشر شروره ويطو خيره ، بل كان منصفاً أميناً ، يذكر ما له وما عليه • ولقد وصف محمد علي بأن له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » •

ويتضح من هذه الدراسة المقارنة أن هذين المصدرين يعالجان مرحلة هامة من مراحل التاريخ المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر • فقد عاصرا فترة الحملة الفرنسية وغطيا أحداثها المتلاحقة ، وانعكاساتها المختلفة من اقتصادية وسياسية واجتماعية على المجتمع المصرى ، مما يجعلهما أهم مصدرين لا غنى لأى باحث عن الرجوع اليهما والاعتماد عليهما فى رسم الصورة الحقيقية لتاريخ مصر فى تلك الفترة • كما أوضحنا أثناء معالجتنا لهذا الموضوع الأهداف التى دفعت كلا من عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك الى الاقدام على كتابة تاريخيهما ، وأوضحنا بالمثل مفهوم كل منهما عن التاريخ ومنهجه ، وأثر البيئة التى عاشا فيها على تفسير الأحداث التاريخية التى كتبوا عنها • ولقد اتبع عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك طريقة تكاد تكون متقاربة فى كتابة التاريخ وهى طريقة اليوميات والحوليات ، الا أن الجبرتي اهتم أيضا — بالإضافة الى سرد الأحداث التاريخية — بتراجم الشخصيات البارزة فى المجتمع فى كل عام • وقد أوضحت هذه الدراسة أنه برغم اتفاق الجبرتي ونقولا الترك حول بعض المسائل الدينية والاجتماعية التى نتجت عن مجيء الحملة الفرنسية ، الا أنهما اختلفا فى تفسير بعض الأمور السياسية ، وقد عرضنا لبعض الأمثلة للدلالة على ذلك • ومن

أهم النتائج التي أبرزتها هذه الدراسة المقارنة هو أن مؤلفي الجبرتي
ونقولا الترك يعتبران مصدرين وثائقيين عن أحداث التاريخ المصرى
أبان الحملة الفرنسية * وفى ضوء هذه الأهمية ركزت هذه الدراسة على
مقارنة مقتطفات نصية من المصدرين لتفسير رأى كل من الكاتبين فى
الأمور والمقضايا التى طرأت على التاريخ المصرى فى تلك الفترة ،
وما سجله من حقائق هامة بالنسبة للمهتمين بدراسة تاريخ مصر فى
تلك المرحلة *

الفصل الثاني

النظام الادارى والمالى

فى ولاية مصر العثمانية

النظام الإدارى والمالى فى ولاية مصر العثمانية

(١) ولاية مصر من ١٥١٧ - ١٥٢٥ :

ولاية خاير بك :

غادر السلطان سليم الأول مصر فى ١٠ سبتمبر ١٥١٧ بعد أن أمضى فيها حوالى ثمانية أشهر وعين خاير بك حاكما عليها كما عين شخصا عثمانيا يسمى خير الدين باشا نائبا على القلعة وقائدا للقوات العثمانية التى تركها فيها ولعل أهم الأسباب التى أدت الى تعيين خاير بك هى خيانتة للمماليك والتجاؤء للعثمانيين ، مما سهل انتصارهم فى مرج دابق ، مساعدته لهم فى السيطرة على بلاد الشام ، ثم تشجيعه للسلطان سليم والحاحه عليه فى الهجوم على مصر وإطلاعه العثمانيين على ضعف المماليك فيها وعلى خير الطرق فى الاستيلاء عليها . وهناك سبب آخر لتعيين خاير بك وهو السياسة العثمانية التقليدية فى الاستعانة أولا بالحكام المحليين الموالين ، ثم توطيد السلطة العثمانية بالتدرج بعد ذلك . وهذا ما يفسر تعيين جان بردى الغزالى على دمشق وخاير بك على مصر . ويضاف الى ذلك ان السلطان سليم كان لايزال يخشى هجوم الشاه اسماعيل الصفوى ولهذا اضطر لمسايرة الامراء المماليك الموالين .

ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم جعل مصر اقطاءا لخاير بك حتى موته ليس هناك من دليل قاطع على هذا ولكن الملاحظ أن خاير بك بقى بالفعل يحكم مصر حتى وفاته فى عام ١٥٢٢ . وكان يتلقى فى كل سنة فرمانا من السلطان باستمراره فى حكم مصر . ويظهر من هذا أن خاير بك لم يعين بموجب فرمان لمدى الحياة ، وأنه كان مهددا دائما بعدم تجديد ولايته . وقد حدث حين اعتلى السلطان سليمان الحكم فى سبتمبر ١٥٢٠ ، أنه لم يرسل مباشرة فرمان الاستمرار فى الحكم

الى خاير بك * وكان من ذلك أن سلطة خاير بك ضعفت في مصر ، وطمع فيه كثيرون الى أن وصل فرمان الاستمرار بعد حوالي شهرين من اعتلاء السلطان سليمان الحكم * ويدل هذا أيضا على أن نفوذ السلطان كان قويا على خاير بك يمتزله أو يبقيه حسبما يريد * كما أن وجود قوات عثمانية في مصر وتسليم قيادتها الى أمير عثماني كان ضمانا أخرى للسلطة العثمانية ضد خاير بك وضد المماليك الذين عادوا الى الظهور في مصر (١) *

لقد عمل السلطان سليم على ازاحة المماليك من السلطة العليا في مصر وكسر شوكتهم ولكنه لم يحاول ابادتهم وقد سمح لهم بأن يبقوا جنودا * وهكذا ، ما أن غادر السلطان سليم مصر حتى ظهر المماليك ، وأعطاهم خاير بك الأمان ، ثم نادى عليهم بركوب الخيل وشراء السلاح والتزبيى بزي المماليك لا بزي العثمانيين وانفقت عليهم الجاماكية كما كان الأمر عليه في السابق * واشترك المماليك جنبا الى جنب مع القوات العثمانية في الحملات التي وجهها خاير بك ضد البدو * والجدير بالذكر أن خاير بك استخدم المماليك لقمع بعض الانكشارية والسباهية الذين تمردوا على أوامر السلطان سليم القاضية بارسالهم من مصر الى الأناضول ، وتم ارسالهم بالفعل * واستخدم المماليك في مصر لموازنة قوة الانكشارية والسباهية ، وكثيرا ما كانت تقوم المنافسات والفتن بين الفريقين *

ولم يكن جميع المماليك مؤيدين للحكم العثماني كما لم يكن جميع المماليك الذين عينوا ، أو استمروا ، في مناصب هامة في العهد العثماني مخلصين للعثمانيين ويتبين هذا الانقسام في الولاء منذ بداية السيطرة العثمانية فقد رأينا كيف أن خاير بك والغزالي وغيرهما من أمراء المماليك وقفوا الى جانب العثمانيين ضد قنصوة الغوري وطومان باي * وبسيطرة السلطان سليم على بلاد الشام ومصر ، كثر عدد المؤيدين

(١) انظر فيما سبق ، ص ٣٣ — ٣٤ *

للعثمانيين — وهذا شيء طبيعي — وقتل المعارضون ، ولكن نشاط بعضهم بقي مستترا وفي عام ١٥١٩ وردت أنباء الى القاهرة أن الأمير المملوكي اينال السيفي طراباي ، كاشف اقليم الغربية ، وجانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم ، قبضا على اثنين من مشايخ البدو وهما حسن ابن مرعى وابن عمه ، وقد سبق أن التجأ اليهما طومان باي ، حين هرب من وجه السلطان سليم ثم سلمه اليه ليقتله وثأرا منهما ، وشرب الماليك من دمهما ، ويتبين لنا من هذا الحادث أن اثنين من المماليك الموظفين العثمانيين قد ثأرا لقتل السلطان المملوكي . ورغم أنه يمكن القول أن قضية الثأر هذه كانت شيئا طبيعيا في التقاليد المحلية الا أننا اذا أخذنا بعين الاعتبار منصبى اينال وجانم وأهم من ذلك الدور الذى لعباه بعد سنوات في الثورة على الحكم العثماني ، لوجدنا أن ذلك كان أكثر من مجرد أمر طبيعي ولو ربطنا هذه الحادثة برد الفعل الذى حصل عند الماليك في مصر ازاء ثورة الغزالي في بلاد الشام لوجدنا أيضا أن الحادثتين مترابطتان وتدلان على انقسام في وآاء المماليك تجاه العثمانيين^(١) . ومثل هذا الانقسام ليس بغريب نظرا لقرب سقوط السلطنة المملوكية ولما عرف عن الماليك من توزع في الولاء نحو أسانذتهم .

وما ان أعلن في مصر نبأ وفاة السلطان سليم حتى « أقامت المماليك الجراكسة صدورها » على حد قول ابن اياس . ولكن لم تحدث ثورة فيها بمجرد وصول هذا النبأ كما حدث في بلاد الشام ولا حتى بوصول نبأ ثورة الغزالي الى مصر عام ١٥٢٠ . وربما كان المماليك ينتظرون أن يستلم خاير بك زمام المبادرة في الثورة أسوة بالغزالي ولكن خاير بك على عكس ذلك أرسل الأخبار التى وصلتته من الشام الى السلطان سليمان وأخذ يعد الجنود للزحف على الشام لمقاومة الغزالي فيما اذا أمره السلطان بذلك ويظهر أن خاير بك كان يخشى أن

(١) انظر فيما سبق ، ص ٣٤ — ٣٥ .

ينفرد الغزالي بالسلطنة على بلاد الشام ومصر فيما اذا نجح في حركته .
وكان الغزالي قد أرسل يعرض على خاير بك بأن يعلن الثورة في مصر
ويتسلطن فيها ، ويبقى هو سلطانا في الشام ويكون له الحكم من الفرات
الى غزة ، ولكن خاير بك أبلغ ذلك أيضا للسلطان سليمان .

ان ماضى خاير بك في اللجوء العلني للعثمانيين أملى سلوكه الآن
في الاستمرار بالخضوع لهم وهو يعلم دون شك أنه لو أيد الغزالي
لغامر بمركزه الحالي في مصر لأنه اذا نجح الغزالي بواسطة تأييده
فسيقوم الخلاف بينهما في المستقبل نظرا لأن مصر وبلاد الشام كانتا
في الزمن المملوكي تحت حكم سلطان واحد ، كما أن فشل الغزالي
سيعود بالخسارة على خاير بك اذا ما أيده . ويعتبر عدم تأييد خاير بك
للغزالي سببا هاما من أسباب انكسار الغزالي . وفي الحقيقة لم يكن
الغزالي مخلصا نحو خاير بك حين عرض عليه الثورة والتسلطن في مصر
لأن هدفه كان أولا القضاء على العثمانيين في بلاد الشام ، ومن ثم
التوجه الى مصر واحتلالها . ولكن فشله في احتلال حلب كان بداية
نهائيه . وبشهادة ابن اياس أن الغزالي لو توجه أولا الى مصر « لكان
خييرا له وكان العسكر من المماليك الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة
يقبلون على ملك الأمراء خاير بك ويمضون اليه فانه كان محبوبا للرعية »
وربما كان حكم ابن اياس هذا مصيبا فيما يتعلق بالتأييد الذي كان
من الممكن أن يلقاه الغزالي في مصر فيما لو توجه اليها أولا ، نظرا لكثرة
المماليك فيها ووجود معارضين للحكم العثماني بينهم .

ولكن ما هو موقف المماليك في مصر من هذه التطورات ؟

ان عدم ثورة المماليك في مصر بمجرد وصول أنباء ثورة الغزالي
يعود الى أسباب مختلفة . فقد كان عدد كبير من أمراء المماليك مؤيد
للعثمانيين على غرار خاير بك ولما كان ولاء المماليك هو عادة الأستاذهم

ولم يكن أى من أميري الحاج هذين من المماليك ولم يكونوا أيضا روميين بل كانا موظفين سابقين في السلطنة المملوكية . وفي عام ١٥١٩ عين أحد مماليك خاير بك ، وهو الأمير برسباي أميرا على الحاج . ويبدو أن تعيين برسباي لهذا المنصب كان بسبب اعتداء البدو على قافلة الحاج في العام السابق ، ويدل على اهتمام خاير بك لسلامة الحاج . ويظهر هذا التعيين من ناحية أخرى عودة ظهور المماليك واستعدادهم لاحتلال المناصب العليا وقد عين لامارة الحاج في السنوات الثلاث التالية : ٩٢٦هـ/١٥١٩م ، ٩٢٧هـ/١٥٣٠م ، ٩٢٨هـ/١٥٣١م ، الأمير جانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم في عهد السلطنة المملوكية وفي عهد خاير بك . ثم استمر بعد ذلك مع بعض الاستثناء ، تعيين المماليك أمراء لقافلة الحاج .

ومن أبرز الشخصيات التي لعبت دورا هاما في هذه الفترة في توطيد الحكم العثماني في مصر وفي القيام بدور الوسيط بين سلطان مصر واستانبول الأمير جانم الحمزاوي . ولم يكن جانم هذا مملوكا بل كان من أولاد الناس . وقد ظهر أيضا في هذه الفترة اينال السيفي طراباي الذي عين كاشفا أحيانا على الغربية ، وأحيانا على الشرقية بالاضافة الى جانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم وأمير الحاج .

والى جانب ظهور المماليك استمر عدد من الموظفين من عهد السلطنة المملوكية يشغلون وظائفهم أو وظائف أخرى الآن . وقد بقي قضاة المذاهب الأربعة يمارسون أعمالهم في القسم الأكبر من ولاية خاير بك ، كما كان الأمر زمن المماليك . وكانوا في مطلع كل شهر يذهبون لتهنئة خاير بك . واستمر أولاد الجيعان يشرفون على الادارة المالية في مصر كما كان الأمر أيضا خلال المائة وخمس عشرة سنة الأخيرة من عهد السلطنة المملوكية .

وهكذا يتبين لنا ظهور المماليك كقوة عسكرية وكموظفين إداريين وكأمراء للحاج وكان يوازن سلطة المماليك العسكرية وجود القوات الانكشارية والسباهية العثمانية في مصر • وبقي كثير من الموظفين المحليين يمارسون سلطة واسعة ، ومما يلفت النظر الآن اشتهار عدد من أولاد الناس مثل جانم الحمزاوى ، ومن السيفية ، مثل جانم السيفى واينال السيفى • ويعتبر هذا خروجاً على التقاليد التى سارت زمن السلطنة المملوكية حين لم يكن لأولاد الناس وللسيفية أهمية كبرى عسكرياً أو سياسياً وكان مماليك السلطان من الأجلاب والقرانصة يفوقونهم أهمية آنذاك ومهما يكن فان هذا التبدل فى الأهمية هو تطور طبيعى نظراً لزوال السلاطين والمماليك •

وقد استمر فى العهد العثمانى استعمال الاصطلاحات الادارية المملوكية مثل لقب أمير الأمراء الذى كان يعرف به خير بك ، واصطلاح كاشف أى حاكم اقليم وأمير ركب المحمل الذى كان يقصد به أمير الحاج ، ونيابة أى ولاية • وبعض هذه الاصطلاحات ، مثل كاشف وكشوفيه ، بقى يستعمل طيلة العهد العثمانى ، بينما حلت بالتدريج مكان بعضها الآخر اصطلاحات عثمانية •

حدثت فى السنة الأخيرة من ولاية خير بك أى فى مطلع عهد السلطان تغييرات هامة فى الادارة فى مصر ويتفق هذا بصورة عامة مع السياسة العثمانية التى تميل الى ابقاء الادارة المحلية فى البدء ثم تعمل على الغائها أو دمجها بالأنظمة العثمانية بالتدرج • ويبدو أن ثورة الغزالي على العثمانيين قد عجلت فى ادخال هذه التغييرات فى مصر • ورغم أن هذه التغييرات لم تكن واسعة الا أنها كانت هامة بمادولها ومقدمة لتغيرات أوسع تلتها وتناولت التغييرات الآن القضاء وتلاشى نفوذ أولاد الجيعان وفى مايو ١٥٢٢ أرسل قاض عثمانى الى مصر وأصبح جميع العثمانيين من مدنيين وعسكريين خاضعين لسلطته فيما يختص

ظهرت فيها • فالصعيد هام لمصر لأنه يزودها بالحبوب ، واقلية الشرقية أكثر أهمية من الأقاليم الأخرى لأن الطريق التجارى بين الشام ومصر يمر فيه ، ولأنه يسيطر على طريق قافلة الحاج المصرى المتجهة الى الحجاز • أما اقليم البحيرة فهو أكثر أهمية من اقليم الغربية بسبب تحكمه فى المواصلات البحرية وفى منطقة الدلتا الغنية ، بينما تقال الصحراء من أهمية اقليم الغربية • وكانت سياسة خاير بك ، ومن قبله السلطان سليم ، تجاه البدو تعتمد أحيانا على المصالحة وأحيانا على القوة • وكان خاير بك يهادن أحيانا قبيلة ما فى سبيل التركيز ضد قبيلة أخرى • وكان يلجأ أيضا الى سياسة التفرقة واستغلال الخلافات الداخلية ضمن القبيلة الواحدة فى سبيل اضعافها من الداخل للتحكم فيها •

وكانت أكثرية هذه القبائل ، فى العهد المملوكى تعطى اقطاعات مقابل حمايتها للطرق ومعاقبتها للصوص واطلق ، آنذاك ، على الزعيم البدوى العادى لقب شيخ العرب واعتبر من أجناد الخليفة • ومنح الزعيم الأقوى لقب أمير وهى رتبة عسكرية كانت أحيانا من نوع طبخانة أى أمير أربعين (تحت امرته أربعين جنديا) • وقد بقيت هذه التنظيمات المملوكية سارية فى هذه الفترة من الحكم العثمانى الى أن حدثت ثورة حاكم مصر أحمد باشا الخائن فى ١٥٢٤ فجرد عندئذ زعماء البدو من اقطاعاتهم وأصبحوا ملتزمين على أراضى الدولة •

وقد خلع السلطان سليم ، حين كان فى ، مصر ، على الأمير على ابن عمر زعيم قبيلة هواة فى الصعيد ، ومنحه امرة الصعيد ، وجعل مركزه جرجا ، وذلك بعد أن قدم اليه خضوعه ويبدو أن أمراء هذه القبيلة استمروا يحكمون الصعيد جنوبى البهنسا والفيوم بموافقة السلطات العثمانية حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، حين عين العثمانيون صنجا (أى شخصا يحمل لقب بك) على الصعيد

وعرف الموظفون العثمانيون الذين حكموا الصعيد باسم حكام الصعيد ، وكان مركزهم أيضا جرجا • وخلع السلطان سليم على الأمير أحمد ابن بقر ، زعيم بدو الشرقية وأبقاه في منصبه ، وكان أحمد بن بقر أمير طبلخانة في مصر • وكذلك خلع على حسن بن مرعى أمير بدو البحيرة بسبب تسليمه السلطان طومان باي الى العثمانيين ويبدو أن بدو بنى بغداد في اقليم الغربية لم يشتهروا آنذاك ولكن يذكر انهم كانوا في النصف الثاني من القرن السادس عشر حكاما على المنوفية •

واعترف خاير بك ، بعد مغادرة السلطان سليم مصر بامرة أحمد بن بقر في اقليم الشرقية ، بعد أن التزم باصلاح أحوال منطقته • كما أنه عفا عن عبد الدائم ابن الأمير أحمد بن بقر ، الذي كان عاصيا على قنصوة الغورى ومن بعده على السلطان سليم ، وكان هدف خاير بك من ذلك تأمين سلامة الحاج المصرى ، الذى كان يمر في الشرقية من تهديد البدو ، وأيضا تأمين سلامة القوافل التجارية بين الشام ومصر • ويبدو أنه كان يوجد نزاع على السلطة بين أحمد بن بقر وابنه عبد الدائم • وقد استغل خاير بك هذا النزاع ليضعف بنى بقر ويضمن خضوعهم • وفي يناير ١٥١٨ خرجت بعض القوات العثمانية من مصر للحاق بالسلطان سليم • فاستغل عبد الدائم ابن بقر هذا الوضع بعد أن شاع ان القاهرة لم يعد يوجد بها جنود عثمانيون وعاد الى العصيان فاعترف خاير بك بامرة أحمد بن بقر على اقليم الشرقية بما في ذلك، كما يبدو اقطاع ابنه عبد الدائم وأخذ يستعد لارسال جيش ضد عبد الدائم • وفي يونيو — يوليو ١٥١٨ هدد عربان السوالم طريق الحاج في الشرقية فأرسل خاير بك قوة غلبتهم ولكنها لم تقض عليهم بسبب هربهم • وكان عربان السوالم أعداء ابنى بقر وهذا ما يفسر عدم التحالف بين الفريقين •

وشارت في عام ١٥١٨ — ١٥١٩ معظم قبائل البدو في اقليمى

البحيرة والغربية ففي البحيرة أظهر الأمير حسن بن مرعى العصيان والتف البدو من حوله ، كما انضم اليه الثائرون في اقليم الغربية • واضطربت أحوال خاير بك مثيرا ازاء هذا العصيان ، لاسيما وأن تهديد الفرنجة من البحر نشط في هذه الفترة • وقد استنجد شريف مكة بخاير بك ضد تهديد الفرنجة (في الغالب من البرتغاليين) لميناء جدة • ولو قرر خاير بك مقاومة هذه الأخطار بالقوة في آن واحد لما استطاع ذلك بسبب حاجته الى الجنود وبعد أن أمر بتوجيه حملة ضد حسن ابن مرعى أعطاه الأمان ليكسب صداقته وليوفر في الوقت ذاته قواته ويركزها ضد عبد الدايم بن بقر الذى عصى في اقليم الشرقية الأكثر أهمية • وقد تمكن خاير بك من أسر عبد الدايم ، ونصب مكانه شيخا على اقطاعه أخاه بيبرس بن أحمد بن بقر ويظهر من تهديد البدو في الشرقية لقافلة الحاج في عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م أن أتباع عبد الدايم قد حاولوا الثأر للأسر شيخهم ولعل هذا يفسر شنق خاير بك لجماعة من أتباع عبد الدايم والجدير بالذكر أن البدو المسيطرين على الطريق التى تمر منها قافلة الحاج المصرى كانوا يتقاضون ضريبة سنوية (تسمى صرة) لقاء عدم اعتدائهم على الحاج ، وأيضا لقاء قيادتهم له في الطريق الصحراوى • وكانوا يثورون عندما تمنع عنهم ولهذا كانت ترسل تجريده لاستقبال الحاج والمحافظة عليه وأن كثرة تهديد البدو لقافلة الحاج في السنوات الأولى من السيطرة العثمانية ، حين كان أمير الحاج المصرى من الموظفين المدنيين ، يفسر لنا لماذا عين بعد ذلك امراء من المماليك لقيادة قافلة الحاج • ورغم أن تعيين هؤلاء كان نتيجة طبيعية لعودة ظهور الأمراء المماليك الا أنه يرينا من ناحية أخرى ، انحرص على تأمين سلامة الحاج على أيدي هؤلاء الأمراء الذين اعتادوا هم وأمثالهم تأمين ذلك ابان السلطنة المملوكية •

وبالرغم من تعدد تمرد البدو في مناطق مختلفة اثر انسحاب

السلطان سليم فلم يكن هناك ما يجمع بين أفراد البدو هؤلاء لتوحيد ثورتهم • ولهذا حاول خاير بك أن يشتري ولاء قبيلة ما ليستطيع تركيز جهوده العسكرية ضد قبيلة أخرى ، كما أنه كان ييثر التفرقة بين زعماء القبيلة الواحدة ، كما حدث مثلاً فى أسر بنى بقر لىضمن تأمين نفوذه بالخديعة اذا لم يكن بالقوة وكانت مغادرة السلطان سليم لمصر مناسبة للبدو للتخلص من عبء سلطات المدن • وما كاد خاير بك يبدأ بتكليف سياسته تجاه البدو حتى برزت حالة فوضى أخرى كان مصدرها الشام، وامتد أثرها الى مصر ، وهى ثورة الغزالى ، فماذا كان موقف البدو ازاء هذه الثورة •

نجد هنا ان كل قبيلة قررت موقفها بالنظر لمصلحتها فعربان السوالم فى أقصى اقليم الشرقية ، وقفوا الى جانب السلطة العثمانية بعد أن تصالح خاير بك معهم وأمروا بالاستعداد لمقاومة الغزالى فيما اذا توجه نحو مصر • ويبدو أن سياسة الغزالى فى البطش سابقا بقبائل البدو فى بلاد الشام مثل آل الحنش والبدو فى منطقة حوران عجّلون ، قد أرهبت السوالم وغيرهم من القبائل المستضعفة • وهذا ما يفسر لماذا طرد بدو الكرك نائب الغزالى من قلعة الكرك حين أعلن ثورته • ولكن بيبرس بن بقر ثار فى الشرقية على خاير بك ، فأرسل هذا قوة ضده طردته ومؤيديه وبقى خاير بك يعترف بسلطة أحمد بن بقر نظرا لولائه • وبعد القضاء على ثورة لغزالى قدم أمراء البدو فى الشرقية والغربية خضوعهم للسلطات العثمانية •

ثورة اينال السيفى وجانم السيفى

سبقت الاشارة الى أن المماليك فى بداية الحكم العثمانى فى مصر انقسموا الى قسمين : قسم أيد العثمانيين وحصل على مناصب عليا ، وقسم آخر نقم على العثمانيين وكان بين الناقمين على العثمانيين من

الى السفلى • ولكى يوحد جانم جهوده مع زميله الثائر اينال السيفى ،
 اتفق معه على الالتقاء بقواتهما فى الشرقية حيث يمكنها السيطرة على
 الطريق التجارى مع الشام وعلى طريق الحاج ، وحيث يمكنها طلب
 المعونة من بدو بنى بقر • وقد حاول الزينى بركات بن موسى المحتسب
 التوسط بين مصطفى باشا والمماليك الثائرين ، وحصل من مصطفى باشا
 على كتاب بالأمان للثائرين اذا ما عادوا الى الطاعة • ولكن اينال السيفى
 اتهم الزينى بركات بخيانة المماليك وبتأييد العثمانيين وقتله • فثار
 مصطفى باشا لسماعه بذلك ، وجهاز جيشا بقيادة أغا الاسكندرية قره
 موسى للقضاء على الثائرين وكان هؤلاء قد اجتمعوا فى الشرقية •
 ووعدوا من قبل عدد من أمراء المماليك فى القاهرة وخارجها بتأييدهم
 وذلك بأن يخرج أمراء المماليك وكأنهم يريدون قتالهم ثم ينضمون
 اليهم • وبعد انتظار دام عدة أيام فى الشرقية تبين للثائرين كذب وعود
 هؤلاء الأمراء المماليك الذين كانوا فى الواقع ينتظرون نتيجة القتال ،
 فاذا انتصر الثائرون انضموا اليهم وأقسموهم غنيمة الانتصار واذا
 فشلوا تبرأوا منهم وقد استفاد مصطفى باشا من هذا الانتظار ، فنظم
 الحملة ضد الثائرين • وخرج سليمان أغا التفنكجية مع قره موسى ،
 ودعمت الحملة بالأسلحة النارية • ولكن لم يخرج فيها أحد من الجنود
 المماليك المؤيدين للعثمانيين • ولم يؤيد البدو الثائرين ، ولذلك فشلوا
 فى القتال الذى دار فى الشرقية ، وقتل جانم وارسل رأسه الى السلطان
 بعد أن علق بباب زويلة فى القاهرة بعض الوقت • أما اينال فانه هرب
 باتجاه غزة •

ولم يغتنم العثمانيون فرصة القضاء على هذه الثورة للقضاء على
 جميع المماليك وبقي الموالون من المماليك يتمتعون بنفوذ كبير فى مصر ،
 وخاصة فى الجيش • ولم يقض أيضا على جميع المماليك الناقمين •
 وقد أصبح كاشفا على انفيوم ، بعد ذلك الأمير جانم وهو مملوك جانم
 السيفى الذى قتل •

ثورة أحمد باشا الخائن :

بقيت الأمور هادئة في مصر اثر القضاء على ثورة جانم الى أن ولى عليها أحمد باشا ، وقد دخل مصر في ٣٠ أغسطس ١٥٢٣ ، ثم ما لبث أن ثار فيها في أواخر عام ١٥٢٣ وأوائل السنة التالية • وقيل معالجة الأسباب المباشرة لثورة أحمد باشا ومعرفة الفئات التي دعمته والتي عارضته ودراسة النتائج التي تترتبت على ثورته ، يجدر بنا التعرف على ماضي أحمد باشا ، الذي أملى الى حد كبير سلوكه في مصر •

كان أحمد باشا شركسى الأصل من جورجيا ، أى من المنطقة التي زودت المماليك بالكثرة الغالبية من أفرادهم ولكن أحمد باشا على خلاف المماليك تدرب في سرايا السلطان سليم الأوك ثم اشترك معه في قتال المماليك في ١٥١٦/١٥١٧ ، وفي السيطرة على مصر • وأصبح بعد ذلك بكركر بك (حاكم) روهيليه في ١٥١٩ • وقد أسهم في حملات السلطان سليمان في البلقان وفي رودس ولعب دورا بارزا فيها ومنحه السلطان تبعا لذلك رتبة وزير في الديوان في استانبول ، ولكن أحمد باشا كان يطمح في الوصول الى منصب الصدارة (الوزارة) العظمى في الدولة • ولم يعط السلطان سليمان هذا المنصب لأحمد باشا ، بل عين له أحد مقربيه المسمى ابراهيم باشا ، وعين أحمد باشا حاكما على مصر • ومن هنا نشأ الصراع بين ابراهيم باشا الصدر الأعظم الذي حاول التخلص من أحمد باشا خوفا من منافسته وبين أحمد باشا الذي احبطت آماله •

وقد وجدت لدى أحمد باشا في مصر الدوافع التي شجعتة على الثورة ولعل أهمها بعد مصر عن مركز السلطنة العثمانية ووجود فئات متنافرة فيها بعضها مازال يعارض الحكم العثماني • ويبدو أن أصل أحمد باشا الشركسى قربه الى المماليك ودعمته خاصة الفئة المعارضة منهم التي التفت حوله حين أعلن ثورته •

دخل أحمد باشا يوم ٢٣ فبراير ١٥٢٤ إحدى حمامات القاهرة ، فعلم بذلك أعداؤه وعلى رأسهم محمد بك الرومى وفاجأوه ، وهو فى قلة من جنوده فهرب ولجأ الى القلعة وحين علم بتزايد معارضيه وبخيانة بعض أتباعه الذين أثارهم اعلان نفسه سلطانا ، فر من القاهرة قاصدا الشرقية حيث أمل بدعم بدو بنى بقر • ووعد أحمد باشا هؤلاء البدو باعفائهم من الخراج مدة ثلاث سنوات وبتمكينهم من نهب القاهرة اذا أيدوه • ولكن بنى بقر بزعامة الأمير أحمد تقاعسوا عن مساعدته لما رأوا أن قضيته خاسرة • وتمرد عليه أيضا عبد الدائم ابن بقر •

وكان أعداء أحمد باشا فى القاهرة وعلى رأسهم محمد بك وجانم الحمزاوى الذى اطلق من سجنه يحرضون أهلها ضده • وقد أقاموا فيها قائمقام (نائب المحاكم) ونائبا للقلعة وأعطوا الأمان للمماليك الثائرين لجعلهم ينفضون عن تأييد أحمد باشا وكان زعماء المعارضة هؤلاء يستثيرون السكان للقيام على أحمد باشا بتذكيرهم بمصادراته الجائرة وبثورته على السلطان الشرعى • ويذكر نجم الدين الغزى ، صاحب الكواكب السائرة أن أحمد باشا قد فعل ما فعله من ثورة وتسلبن ومصادرة لأعيان القاهرة باغراء ظهير الدين الاردبيلى الشهير بقاضى زاده الاردبيلى ، الذى استمال أحمد باشا عن اعتقاده أهل السنة الى اعتقاد الشاه اسماعيل الصفوى • ويذكر أيضا أنه قد وجد عند أحمد باشا تاج من شعار الصوفية وأن أعداءه الآن فى مصر وعلى رأسهم قضاة المذاهب الأربعة قد أعلنوا كفره وأوصوا بالجهاد ضده بعد أن قتلوا الاردبيلى • ولم يذكر ابن زنبيل المعاصر شيئا من هذا الاتهام واذا كانت التهمة غير صحيحة فان اثارها الآن تفيد فى تأليب العثمانيين والسكان المحليين ضد أحمد باشا خوفا من فصله مصر عن العثمانيين وربطها بالشاه اسماعيل الصفوى • ومهما يكن فان القوات

التي تجمعت في القاهرة كانت أكثر مما يستطيع أحمد باشا الهارب مجابهته ، بعد أن تفرق عنه كثير من أتباعه * وزاد في ترجيح الكفة ضده ارسال السلطان سليمان قوة انكشارية وصلت مصر بطريق البحر * ووقف بدو ابن بغداد في اقليم الغربية ضد أحمد باشا واقتنفوا أثره مع القوات العثمانية حتى أدركوه ، وقتل في مارس ١٥٢٤ وعلق رأسه على باب زويلة ، ثم ارسل الى السلطان * وأصبح أحمد باشا يعرف بعد ذلك بالخائن *

٢ - النظام الادارى والمالى في مصر العثمانية :

قدم الصدر الأعظم ابراهيم باشا الى مصر في عام ٩٣١هـ أثر القضاء على أحمد باشا الخائن لينظم أمورها ويوطد السلطة العثمانية فيها * وقد بقى في مصر حوالى ثلاثة أشهر بنى خلالها أبراجا في القلعة حيث يقيم الانكشارية وعهد اليهم بالمحافظة عليها وتركيز أسلحتهم على السرايا (وهى فى القلعة) حيث يقيم الباشا ، خوفا من عصيانه ومن هنا تسمية الانكشارية بالمستحفظان * وأصدر ابراهيم باشا القانون نامه (مجموعة القوانين) التي نظمت أمور مصر المدنية والعسكرية *

وسنعمد في دراستنا للنظام الادارى الذى طبقه العثمانيون في مصر على المصادر الأساسية والدراسات المتخصصة في هذا المجال * ومن أبرز هذه المصادر «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية» لحسين أفندى الروزنامجى ، والذى قام بتحقيقه المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال والأستاذ الأمريكى ستانفورد شو * وينتسب حسين أفندى صاحب الأجوبة المشهورة الى الروزنامة ، وقد تولى عمل روزنامى مصر أثناء الاحتلال الفرنسى * ولكن يجب أن نضيف الى ذلك أن الروزنامة — كما وصفها هو فى أجوبته بطل عملها أثناء ذلك الاحتلال، وعهد الفرنسيون ببعض اختصاصها الى لجنة من خمسة كان أعضاؤها

المصريون الشيخ المهدي وحسين أفندي والمعلم فلتاؤوس ومن يحقق النظر في أجوبة حسين أفندي لا يلمس فيها أى أثر لما كان سائدا من الاضطراب والعسف، ومن ضياع الحقوق واختلال السجلات • ولم يصدر هذا عن غفلة ، فحسين أفندي كان من رجال الروزنامة ، وكان على رأسها أيام الفرنسيين فهو على تمام الاتصال بما هو واقع • انما صدر هذا عن رغبته في الاجابة على الأسئلة التى وجهت اليه بوصف ترتيب الديار المصرية كما رسمه السلاطين ، وكما يجب أن يكون لا كما عبثت به حوادث الزمان وسنحاول في ضوء هذه الدراسة وغيرها اعطاء قدر كاف من التصور عن النظام الادارى والمالى العسكرى في مصر العثمانية • وينبغى أن نشير هنا — قبل الافاضة في شرح النظام الادارى في مصر — الى أن صاحب المنصب في النظام الملوكى العثمانى يختلف عن موظف الحكومة في وقتنا الحالى بما يأتى :

(١) تقلد الوظائف عن طريق الوراثة كوظائف الروزنامة مثلا فيتقلد الشخص وظيفة مورثة يدفع الحلوان وهو الرسم الذى تتقاضاه الحكومة أنقل حق أو منفعة من شخص الى آخر •

(٢) تقلد الوظائف عن طريق الشراء كباشوية مصر أو رئاسة قضائها •

(٣) أن الحكومة في ذلك الوقت كانت لا تدفع للموظف مرتبا ثابتا شاملا كما هو الحال الآن بل ترتب له عوائد على أبواب مختلفة من دخلها أو تعطيه حق فرض رسوم يجبيها لنفسه على أصحاب المصالح الذين ينجز لهم عملا وهكذا أو قد تدفع له مرتبا وتبنيح له أن يضيف اليه عوائد تقررها له •

(٤) أن الحكومة في ذلك الوقت كانت تفرض على بعض أصحاب المناصب

أن يؤدوا لها مالا سنويا نظير تمتعهم بمعاوند مناصبهم ، وهذا المال هو الذى نسميه « ميرى الوظائف » •

أولا : الباشا واختصاصاته :

كان الباشا فى مصر العثمانية هو ممثل السلطان ونائبه فى الحكم والادارة ، ونظرا لأن مصر كانت من أهم الولايات فى السلطنة العثمانية فقد كان السلطان يبعث إليها بولاة من ذوى الخبرة ممن شغلوا منصب المصدارة العظمى أو عملوا فى المناصب الرئيسية فى الدولة العثمانية أو فى ولاياتها • وفى أوائل الحكم العثمانى كان حاكم مصر يلقب بكلكر بك وهى كلمة تركية وتعنى بالعربية أمير الأمراء وكان أول من لقب بهذا اللقب هو خاير بك ، وقد أشار قانون نامه الى حاكم مصر بهذا اللقب • ومن ألقاب الباشا الأخرى ، لقب والى ، فقد كان السلطان يخاطب باشا مصر بلقب والى مصر فىرى فى الفرمانات مثلا « الى عزت محمد باشا والى مصر » ولكن ينبغى ألا نخلط بين لقب باشا القاهرة أو مصر ولقب والى ، فان والى فى ذلك العهد كان يطلق عادة على رجل وظيفته الأمن فى المدينة وما يتعلق بذلك فهو شبيه بمدير الأمن فى وقتنا الحالى وقد عرفوا والى فى اللغة العربية باسم الزعيم وفى التركية باسم الصوباشى ، ووجد ثلاثة من الولاة أو الزعماء فى العاصمة أهمهم : زعيم مصر (القاهرة) يليه زعيم بولاق ثم زعيم مصر القديمة • ومن الألقاب التى أطلقت على باشا مصر ووردت فى الوثائق والمصادر المعاصرة لقب الوزير المعظم كافل المملكة الشريفة الاسلامية بالديار المصرية والثغور المحمية والأقطار الحجازية • كما تنعت الوثائق العثمانية باشا مصر بعدة ألقاب أخرى • فهو « محافظ أو حافظ مصر المحروسة » و « حضرت وزير روشن ضمير ، أى حضرة الوزير ذو الضمير المنير » • ولقب باشا من باشا وهو لقب رسمى للوزراء والأمراء وكبار

رجال السلك العسكرى فى الدولة العثمانية وقد يكون تحريفا لكلمة «بادشاه» الفارسية بمعنى أساس الملك وموطىء أقدام الملك أو العامل بأمر السلطان ، وقد يكون تحريفا لكلمة «بشه» التركية القديمة بمعنى الأخ الأكبر • وكان باشا مصر يعتبر وزير السلطان للشئون المصرية • وهو يطبق قواعد الحكم فى مصر كما نظمها قانون نامه ، مع ادخال بعض التعديلات التى اقتضتها الظروف على ذلك القانون • وهو يتلقى وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر • وهو مكلف بإرسال خزينة السلطان ومعتادات الأستانة مثل مهمات بناء السفن وبعض منتجات مصر ، وبالمواظبة على إرسال المؤن والهدايا الى الحرمين • وهو مكلف أيضا بتجهيز فرقة من الجند للاشتراك فى حروب السلطان • وهو يرأس الديوان الذى يساعده فى الحكم ويصدر الأوامر والفرمانات ويعين ويعزل شيوخ البلد والصناجق المصريين والكشاف ، بعد أخذ رأى الديوان وبعد تبرير ذلك للسلطان • ويقول حسين أفندى الروزنامجى « ان الوكيل هو الباشا الذى يحضر الى مصر فى كل سنة » ، ويجب ألا يفهم من قوله هذا ان الباشا الواحد لا يقيم فى ولايته الا سنة واحدة والحقيقة أن الباشا كان يعين لسنة واحدة قابلة للتجديد • ولكن ما جرى على الباشوات من العزل والنقل جعل متوسط مدة اقامة الواحد منهم فى باشوية مصر نحو سنتين • وعلى العموم اختلفت مدة حكم الباشوات فى مصر ففى الفترة الأولى من العصر العثمانى الممتدة من بدايته الى أواخر القرن السادس عشر ، استمر الباشوات فى شغل مناصبهم لفترات طويلة وكانوا لا ينقلون منها الا اذا رقوا لمناصب أعلى أو اضطروا الى الاستعفاء بسبب كبر السن • • ومن أطول الباشوات عهدا فى مصر داود باشا الخادم (١٥٣٨ — ١٥٤٩) وسليمان باشا الخادم (١٥٢٥ — ١٥٣٥) أما الفترة الثانية من الحكم العثمانى وتمتد من أواخر القرن السادس عشر الى أواخر القرن الثامن عشر فتتسم بقصر عهد الباشوات ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة

أعوام • ويمكن تفسير هذه الظاهرة بكثرة الاضطرابات التي حدثت في مصر في هذه الفترة مثل ثورات الجند ومنازعات ومطامع الأمراء المماليك وسعيهم للسيطرة على ادارة مصر • كما يعزى ذلك أيضا الى اضطراب الأحوال السياسية في استانبول نفسها •

وكان الباشا يصدر أوامر تعرف باسم البيورلدى وهى كلمة تركية تعنى أمرا عاليا وكان البيورلدى يصدر دائما باللغة التركية ويحلى بالطغراء أو الخاتم الباشوى ويشار اليه باسم « بيورلدى شريف حضرة وزير » أى الأمر الشريف الصادر من الباشا وفي القرن الثامن عشر عندما سرى التدهور الى النظم الادارية في مصر كان يشار الى أوامر الباشا بلفظ فرمانات وقد حدث ذلك من قبيل التجاوز اذ المسلم به أن فرمان لا يصدر الا عن طريق السلطان فهو أمر سلطانى وليس أمرا باشويا •

ايرادات الباشا :

(١) قرى الكشوفية :

اتبع العثمانيون نظام منح كبار الموظفين من درجة وزير ايرادات جزء من الأرض يفصل من الأراضى السلطانية ويعرف بخاص الوزراء • وقد عرف هذا النظام في الولايات العربية الأخرى • وطبق أيضا على باشوات مصر لأنهم كانوا يحملون رتبة وزير ، فكان من حق الباشا في مصر أن يحصل على حق الاستغلال المؤقت لايرادات جزء من الأراضى السلطانية عرف « بقرى الكشوفية » وهى قرى كانت ايراداتها مخصصة للباشا في عدد من أقاليم مصر • وفصلت لذلك الغرض عن أراضى الالتزام العادى في تلك الأقاليم ، وقد عرفت قرى الكشوفية بذلك الاسم لأن الباشا كان يسند مهمة ادارتها واستغلالها للكشاف • وكان

للباشا وقد كانت الجمارك من أهم مصادر الثروة في مصر بعد الأرض وكانت أهم الجمارك في مصر هي : جمر ك اسكندرية ورشيد وتوابعها وجمر ك بولاق ومصر القديمة وجمر ك دمياط وبرلس وتوابعها وجمر ك عشور أصناف بهار ويقول حسين أفندي في أجوبته انه كان للباشا في كل فرق بن أربعمائة فضة: أى على كل فرق بن مستورد/والفرق زنبيل يسع نحو ٣٥ قنطار من البن • والفضة كانت المسكوكات الدقيقة من الفضة والنحاس ويطلق على الواحد منها اسم «نصف» أو « نصف فضة » وهى المعروفة باسم الميذى والميذى تحريف «لؤيذى» وكانت العملة الذهبية هى «الزر محبوب» أى الذهب المحبوب • وعندها فتح السلطان سليم مصر سك فيها عملة ذهبية عام ٩٣٣هـ واكتفى بأن كتب عليها كلمة «سلطانى» وعرفت أيضا باسم آخر كان يطلق على عملة ذهبية مصرية سابقة وهو «المشرقى» والمحبوب يساوى اذ ذاك ١٨٠ فضة • وكانت المبالغ الكبيرة تقدر بالأكياس ، والكيس المصرى يطلق على مبلغ قدره ٢٥٠٠٠ نصف •

(٥) إيرادات الباشا من قرى الحلوان :

وقرى الحلوان هى القرى التى يموت ملتزموها فتصبح « بلاد أموات » ، ويستطيع ورثة هؤلاء الملتزمين نقلها الى أنفسهم بشرط تأدية الحلوان الذى كان بمثابة رسم تسجيل مقداره ثلاثة أمثال فائض الالتزام • وكانت تلك الإيرادات لباشا مصر منذ وقت مبكر وهى تعنى جمع الباشا لدفعوات الحلوان التى كان يدفعها من يحلون فى قرى خلت لموت حائزها موتا طبيعيا •

(٦) هدايا من أصحاب المناصب والرعية :

جرت العادة بأن يقدم حكام الأقاليم الهامة هدايا سنوية للباشا

وعلى سبيل المثال كان حاكم جرجا يقدم للبasha هدية سنوية مكونة من ٤٠ جوادا عربيا جميلا مسرجا ، أربعين عبدا أسودا ، عشرة خصيان سود من الحبشة ، وعشرين جارية سوداء ومائة جمل من المسك والعنبر والكافور وشن الفيل ورؤوس التماسيح وأشياء أخرى كما كان البasha يحصل على ما يقرب من مليونين من البارات سنويا من أمير الحج والحجاج في السنوات التي كانت قوافل الحجاج تذهب وتعود فيها في أمن وسلام .

(٧) عوائد على أمين البحرين :

وهو المشرف على رسوم الغلال الواردة على ساحل بولاق ومصر القديمة وله الاشراف على السفن في النيل والبحيرات .

(٨) عوائد على أمين الخردة :

وهو المشرف على جميع رسوم الملاحه والنساء العوالم والسحرة والقردتية والطبالين والمشعوذين والبهلوانات والبلياتشو وبائعى الحشيش .

وكان البasha يعزل من ولاية مصر بخطط شريف يبعث به السلطان على يد قابجى باشا^(١) ليعلن البasha بقرار عزله ويحدد له الجهة التي سيتوجه اليها بعد ذلك ويصحب هذا القابجى غالبا «مسلم» — البasha الجديد الذي يأتى الى مصر حينئذ لاعلان خبر تعيينه ولتنصيب قائمقام له يمثله حتى وصوله . وكان البكوات المماليك يستطيعون عزل البasha

(١) قابجى باشى : رئيس فرقة القابجية وهم حرس بوابات قصر السلطان وكانت لهم مهمة أخرى فكانوا يوظفون في المحل الاول بصفتهم تشريفاتية في حفلات الاستقبال التي تجرى بالقصر والبعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية بوجه خاص .

وعندما يقرون ذلك « كان يجتمع الصناجق والأغاوات واختيارية الأوجاقات ويطلعون الرميطة ويرسلون للباشا من كل أوجاق أربعة اختيارية ينزلونه فيطلعون اليه في القلعة يقولون له ان العساكر قامت على اختياريتها والاختيارية قامت على أغاواتها والأغاوات قامت على الصناجق لم يرضوك حاكما عليهم» وتمثلت أسباب عزل الباشا فيما يلي:

- (١) اعتلاء سلطان جديد عرش السلطنة *
- (٢) سوء تصرفات الباشا *
- (٣) النقل للعمل في ولاية أخرى *
- (٤) النقل لمنصب الصدارة العظمى أو غيرها من المناصب العليا في السلطنة *
- (٥) فساد الادارة المركزية *
- (٦) مؤامرات الحامية وأمراء الممالك في مصر بسبب قيامه باشاعة الفرقة بينهم أو لانحيازهم لجانب أحد الأمراء *

معاونو الباشا :

وكانت توجد الى جانب الباشا طائفة من الموظفين يساعدونه في ادارة شؤون البلاد وهم :

القائمقام : وهو في الواقع ليس من معاونى الباشا ولكنه الشخص الذى يقوم بعمل الباشا خلال فترة خلو منصب الباشوية لعزل الباشا أو وفاته حتى قدوم باشا آخر *

الكتخدا : وكيل الباشا ويسمى أحيانا الكخيا ويعينه السلطان

برتبة صنجق ويتغير بتغير الباشوات وهو يحاون الباشا في أعماله الرسمية وغير الرسمية ويوقع الأوراق بالنيابة عنه أثناء غيابه . وفي بعض الأحيان كان الكتخدا يتولى منصب القائم مقام عند وفاة الباشا في مصر . وقد ضعفت سلطة الكتخدا في أواخر القرن الثامن عشر فلم نعد نسمع عن كتخدا يسيطر على أمور البلاد ويدير شئونها بتدبيره كما رأينا في أوائل العهد العثماني . ويرجع ذلك الى سيطرة الأمراء المماليك على الإدارة وتقلدهم أهم مناصبها واضعافهم لسلطة الباشا نفسه مما أدى الى ضعف نفوذ وسلطة الكتخدا نائبه ووكيله .

المهردار : أمين خاتمه أو حامل خاتمه والمختص بوضع ختم

المهورلداة الصادرة عنه وكان المهردار يتقاضي عوائد من كل من استصدر من الباشا تمكينا مختوما بخاتم الباشا . كالتمسيط الذي يمكن الملتزم من حصة التزامه والفرمانات والتذاكر الديوانية (والتذاكر الديوانية اصطلاح يرجع عهده بنفس الاستعمال لما قبل الفتح العثماني وقد عرف القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ١٣ / ٧٩) التذكرة بأنها تضمين جمل الأهوال التي يسافر بها (أي التذكرة) الرسول ليعود اليها أن أغفل شيئا منها أو نسيه ، أو تكون حجة له فيما يورده ويصدره . وسنرى فيما بعد أن تحصيل الأهوال الأميرية كان موكولا الى أوجاق الجايشية فكانت تعطى لهم التذاكر بحمل الأهوال التي يكلفون جمعها) .

الخزينة دار : أمين صندوق الباشا وهم من أهم أتباع الباشا

وكان له عوائد على الأمراء والكشاف وأرباب المناصب وقت توليتهم .
الترجمان : يقوم بمهمة الترجمة من التركية لغة الباشا الى العربية وبالعكس وذلك في مجالس الحسم والإدارة .

وفي تحليله لأجوبة حسين أفندي الروزنامجى أشار شفيق غربال الى أنه وجد في مصر ديوانان الديوان الخصوصى وتغلب عليه الصفة التنفيذية وربما يكون هذا هو ديوان ناظر الأموال الذى أشار اليه قانون نامة مصر والثانى الديوان العمومى وتغلب عليه صفة تداول رأى ، والأرجح انه الديوان العالى •

الديوان العالى :

أشار كثير من المؤرخين الى هذا الديوان باسم الديوان الكبير • وقد أنشئ هذا الديوان في مصر لأول مرة بعد اعلان قانون نامة مصر عام ١٥٢٥ الذى نص في المادة الثانية والثلاثين منه على انشاء هذا الديوان وأشار اليه باسم الديوان فقط • وقد أشارت الوثائق والمصادر المعاصرة الى هذا الديوان باسم «الديوان العالى» أو «ديوان مصر المحروسة» العالى • وكان المقر الأساسى لهذا الديوان فى القلعة فى قاعة الغورى ، وحدد قانون نامة مصر عدد مرات عقد الديوان بأربع مرات فى كل أسبوع ولم يحدد أى أيام الأسبوع تعقد فيها تلك الجلسات ، وكان الباشا عندما يقرر عقد جلسة للديوان العالى كان كاتب الديوان يكتب «التنابيه» وهى تذاكر دعوة لأعضاء الديوان لحضور الجلسة المزمع عقدها وترسل تلك «التنابيه» مع الجاويشية الى الأعضاء فى الليلة السابقة لعقد الجلسة •

وكانت عضوية الديوان وظائف وليست عضوية أشخاص لهم مكانة فى المجتمع فكتخذا الباشا عضو فى الديوان العالى بحكم منصبه وكذلك قاضى عسكر أفندى أو قاضى القضاة والدفتردار وكذلك الروزنامجى والأمراء الصناجق واغاوات واختيارية الأوجاقت السبع • وكانت عضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم لذا كان لابد من حضورهم جلسات ارسال الخزينة الارسالية وعلان وفاء النيل واستلام

أمير الحج لأموال الحرمين ومحاسبة الباشا وغير ذلك • وفي الجلسات التي كان يعقدها الديوان العالي لمناقشة بعض القضايا الهامة ، فلم يكن يشترط حضور كل هؤلاء الأعضاء وإنما كان يحضرها أساسا قاضي القضاة أو نائبه وبعض الأعضاء الآخرين • وفي هذه الجلسات ذات الطابع الخاص كان يحضرها أشخاص ليسوا من أعضاء الديوان وإنما يحضرون بوصفهم أطراف في النزاع أو شهود في صف أحد المتقاضين وهؤلاء كانوا من ذوى الشخصيات المختلفة فمنهم التجار والعلماء والنساء في بعض الحالات وأرباب الحرف • وربما أوحى حضور هذه الشخصيات الى بعض المؤرخين أن التجار والعلماء وأرباب الحرف كانوا أعضاء في الديوان العالي •

وكان الباشا يرأس جلسات الديوان وفي بعض الأحيان كان ينيب عنه كتخداه في رئاسة الجلسة • وفي حالة عدم وجود باشا في مصر كان القائم مقام هو الذي يرأس جلسات الديوان العالي أما الجلسات ذات الصفة القضائية فكان يرأسها الباشا أحيانا أو كتخداه أو قاضي القضاة أو أحد نوابه • وكان يحضر جلسات الديوان طائفة من الموظفين بحكم وظائفهم مثل المهردار والدويتدار (حامل الدواة) وأكثر من بيورلدجي لتحرير البيورلدات ، بالإضافة الى مجموعة من الكتاب والترجمة وأهمهم « ترجمان ديوان » ويشار اليه باسم المترجمان الكبير وترجمان قاضي العسكر ويشار اليه بالترجمان الصغير • ومن الكتاب كاتب الديوان بالرومي أى باللغة التركية وكاتب الديوان بالعربي أى باللغة العربية •

وعند عقد الجلسة كان الباشا يجلس في « ديوان الغورى » وعلى يمينه قاضي القضاة وعلى يساره الدفتردار والخزنة دار ، ثم يجلس الأمراء الصناجق واختيارية الأوجاقات كل حسب رتبته ولم يكن الباشا يراقب جلسات الديوان العالي من وراء ستار كما أشارت بعض المراجع

وشبهته في ذلك بالسلطان العثماني الذي كان يحضر جلسات الديوان في استانبول من وراء ستار • فوثائق الديوان العالي نفسه ووثائق دار المحفوظات لا يوجد بها ما يدل على أن الباشا كان يجلس لمراقبة جلسات الديوان العالي من خلف ستار بل من الواضح انه كان يحضر الجلسة ، ويشترك في المناقشات بصورة ظاهرة •

وكان الديوان العالي يمثل في مصر العثمانية المجلس الادارى الأعلى في البلاد • وتتلخص اختصاصاته فيما يلى :

- (١) دراسة ومناقشة تعليمات الباب العالي لادارة مصر •
- (٢) مناقشة شئون مصر المالية وأوجه النقص أو الزيادة فيها وما يرسل الى الحرمين وما ينفق في مصر وما يرسل للباب العالي كخزينة ارسالية •
- (٣) القيام بعمليات توزيع مقاطعات الجمارك والمقاطعات الزراعية (التزامات الأراضى) والفراغ والتنازل عنها من أصحابها الآخرين •
- (٤) تعيين الصناجق وتعيين شيخ البلد في القرن الثامن عشر ومحاسبة واعلان وفاء النيل وتوزيع أوراق الجزية المطلوبة من أهل الذمة •
- (٥) القيام بعمل محكمة استئناف عليا لقضايا رجال الباشا وكبار الأمراء المماليك •
- (٦) النظر في منازعات كبار موظفى الادارة ومنازعات كبار الملتزمين وقضايا الأوقاف وقضايا الأحوال الشخصية وقضايا المنازعات على الأمانات والديون •

وعرفت قرارات الديوان العالي بالأحكام الديوانية وكان القرار يصدر في نهاية الاجتماع على شكل بيورلدى أى أمر من الباشا ويشار

اليه باسم « بيورلدى على بياض » وقد استمر ذلك التعبير مستعملا منذ بداية العصر العثماني في مصر حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر أما في النصف الثاني منه فقد أطلقت الوثائق على قرارات الديوان اسم الفرمانات ♦

نظام الجمعية :

ظهر نظام « الجمعية » في مصر في النصف الثاني للقرن السابع عشر ، وقد اختلفت «الجمعية» عن الديوان العالى في أسباب عقدتها والشكل الذى كانت تأخذه وعضويتها وبينما كان الديوان العالى مجلسا ثابتا وله مقر معروف كانت «الجمعية» اجتماعا مؤقتا لا يتم الا في حالة حدوث أزمة عامة تمس حياة الرعية ♦ وكانت «الجمعية» تعقد في معظم الحالات في بيت أحد كبار الأمراء صاحب النفوذ الأعلى في وقته ، وفي أحيان قليلة كانت «الجمعية» تعقد في قاعة الديوان في القلعة ♦

وكان يحضر اجتماع «الجمعية» أعضاء الديوان العالى من أمراء صناعق وكتخدا الباشا وكبار ضباط الأوجاقات وقاضى القضاة ♦ أما الباشا فلم يكن يحضر مثل هذه الاجتماعات الا في حالات قليلة ، عندما تعقد «الجمعية» في مقر الديوان بالقلعة ♦ وكان يحضر اجتماع «الجمعية» بالإضافة الأعضاء الديوان كل ذوى الجاه والنفوذ في مصر فيحضرها أرباب السجاييد والمفتون ومشايخ الطوائف الحرفية ، وكبار الملتزمين وكبار الأشراف وكان الأسلوب الذى يتبع في الدعوة لاجتماع «الجمعية» مماثلا لذلك الذى كان يتبع في الدعوة لعقد جلسة للديوان فيكتب كاتب حوالة «التنابيه» تذاكر الدعوة وتذهب بها الجاويشية الى منزل الأعضاء المطلوب حضورهم «الجمعية» ♦

ومن الأزمات العامة التي عقدت من أجلها الجمعية في عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م الأزمة التي وقعت بسبب إرسال السلطان خطا شريفا صحبه قاجي باشا يطلب رفع المقاطعات (التزام الجمارك) كلها من الأمراء والماليك (المصرية) عن عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م وأن يرسل الباشا أغاوات وكتابا من طرفه يديرون تلك المقاطعات * فعقد الباشا جلسة للديوان العالى قرىء فيها الأمر السلطانى بحضور أعضاء الديوان الأصليين وهم الصناجق وأغوات واختيارية الأوجاقات السبعة * ولكن هؤلاء لم يرضوا بتنفيذ الأمر السلطانى القاضى بحرمانهم من التزام الجمارك ونزلوا من الديوان وتجمعوا فى منزل عثمان بك الفقارى لمناقشة الأمر وكيف أن هذه المقاطعات كانت لهم من وقت بعيد وأنهم لا يمكن أن يتنازلوا عنها * واستقر رأيهم على عرض الأمر على الباشا الذى أجابهم بأنه امتثالا لأوامر السلطان أرسل أغوات وكتابا الى ثغور رشيد والاسكندرية ودمياط ومصر القديمة والملاحه والخضرة والخرزة وسوق السمك ولكنه لارضائهم كتب لهم فرمانا بالجمعية فى بيت عثمان بك زين الفقار وأنه يصرح لكامل أعيان مصر والمشايع بالاجتماع للكتابة للدولة بشأن الأمر الوارد منها * وفى اليوم التالى انعقدت الجمعية فى المنزل المذكور بحضور قاضى العسكر والسادات والبكرى ونقيب الأشراف واستقر رأيهم على كتابة التماس للسلطان للرجوع عن قراره ، ثم وضعوا أسماء كل من حضروا الاجتماع وختم الجميع بما فيهم قاضى العسكر ونائبه وأرسلوه صحبة رسولين واحد من الانكشارية والثانى من العزب الى استانبول *

وهكذا فان اجتماعات الجمعية كانت تعتبر نوعا من اجتماعات الديوان ولكن بصورة موسعة أى بعضوية أكبر تشمل بالإضافة لأعضاء الديوان الأصليين من صناجق وأغوات واختيارية الفرق السبع كل ذوى الجاه والنفوذ فى مصر من أرباب سجاجيد وعلماء ومفتين ورؤساء

حرف وملتزمين وكان الهدف من جمع كل هؤلاء في جمعية واحدة هو حل مشكلة عامة تتطلب تضافر جهود جميع من يعنيه الأمر لحلها ومن بين هذه المشاكل ارتفاع الأسعار ومشاكل نقص المبالغ المخصصة للخرينة واضطراب العملة واختلال الأسواق * ولهذا فالجمعية كانت نظاما مؤقتا وتعقد لأغراض خاصة وربما كان ظهورها في مصر نتيجة لضعف السلطة العثمانية فيها وافتقار السلطان للقوة اللازمة لفرض أوامره وتنفيذ تعليماته في مصر التي سيطر الأمراء المماليك فيها على كل فروع الادارة والثروة والنفوذ وقد استمر المديوان العالي جنبا الى جنب مع نظام الجمعية يمارس اختصاصاته في المسائل العادية التي لا تستدعي الحصول على رأى عام وموافقة للأطراف المتعددة للمسائل موضع البحث *

ثانيا : الأوجاقات العسكرية :

عندما فتح السلطان سليم الأول مصر ترك فيها حامية عثمانية مكونة من خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبنادق * ولكن التنظيم الحقيقي لذلك الجهاز لم يبدأ الا في عهد السلطان سليمان القانوني الذي أصدر قانون نامة مصر وقد نص هذا القانون على تكوين ست طوائف أو فرق أو بلوكات أو أوجاقات عسكرية في مصر هي : الانكشارية والعزبان والنفنكجيان والجنوللويان والجراكسة أما الفرقة السابعة أو الأوجاق السابع وهو المتفرقة فلم يتكون الا بعد مضي ثلاثين عاما من اصدار ذلك القانون وقد أشير الى الفرق السابقة في الوثائق بلفظ «اسكنجيان» أي الفرق العسكرية العاملة * والأوجاق معناه الأول في التركية الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ به نار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف وعلى الصنف من أصناف الجند *

وكانت الأوجاقات العسكرية هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر ضد أى غزو تتعرض له بالإضافة للمساهمة فى ادارة مصر ومساعدة الجهاز الادارى فيها على أداء مهامه فكان لرؤسائها حق حضور اجتماعات الديوان العالى والاشتراك فى صيانة الأمن فى القاهرة والمساهمة فى حكم وادارة الأقاليم وجمع الأموال الأميرية • وكان رجال الأوجاقات السبع اما مشاة (بيادة) أو فرسان (اسباهية) ولكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخدا • (والأغا كلمة تركية معناها الكبر وتتقدم السن وقيل انها من الكلمة الفارسية « أقا » وتطلق فى التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى الذى يؤذن له بدخول غرف النساء) وقسم كل أوجاق الى عدد من الأقسام (البلوكات) (وفى التركية بولوك وتعنى القسم أو الفوج) • ويختلف عدد الجند فى كل بلوك وبالتالي فى كل أوجاق اختلافا كبيرا ويرأس كل بلوك رئيس من الجند عرف بالبلوك باشى • وكان يرأس كل أوجاق الأغا وهو أعلى موظف فيه ووكيله الكتخدا ولكل أوجاق باش اختيار (أى رئيس القدمات) وجماعة من الاختيارية (الضباط) والجوريجية (الأعيان) ومجموعة كتاب يمثلون الأوجاق فى ديوان الروزنامة للمساعدة فى صرف مرتبات الأوجاق • وهم الذين يقومون بتسجيل أسماء أعضاء الأوجاقات ورتبهم وأجورهم • كما كان يلحق بسجلات الأوجاقات أسماء الموظفين المدنيين وهم الأئمة والمؤذنون والخطباء • وكان يلحق بكل أوجاق جماعة مهتار خانة وهم الموسيقيون الذين يعملون فيه وأيضا جماعة طوبجيان ويرأسهم طوبجى باش ويقومون بصيانة أسلحة الأوجاقات وتمرير الأعضاء الجدد وقد اشتملت الأوجاقات العسكرية منذ بداية العصر العثمانى على عنصرى العثمانيين والمماليك ثم دخلها أخلاط من الشوام والمغاربة وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى حتى طغى عليه فى أواخر العصر العثمانى •

وفيما يلى بيان بهذه الأوجاقات السبعة واختصاصاتها العسكرية

والادارية ودورها فى ادارة مصر •

أوجاقات الاسباهية (الفرسان) :

تكونت الاسباهية من ثلاثة أوجاقات هى :

(١) أوجاق الجنوللويان (كوكلويان) :

وقد ذكرت فى بعض المصادر العربية باسم جمليان أى أصحاب الجمال لاستخدام أفرادها الجمال ، (واصطلاح كوكلليان تعنى المتطوعين) وقد ذكر ابن اياس هذه الفرقة باسم الكولية •

(٢) أوجاق التفنكجيان :

وتنطق التفنكجيان ، وأفراد هذا الأوجاق من حاملى البنادق الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم الأول فى فتح مصر وأسهموا بعد ذلك فى توطيد السلطة العثمانية فى الأقاليم •

(٣) أوجاق الجراكسة :

وتنطق الشراكسة ، وكان أفراد هذا الأوجاق من الفرسان المماليك •

وكانت الاسباهية فرقا حربية مثل باقى الفرق عليها الدفاع عن مصر اذا ما تعرضت لغزو أجنبى وعليها الاشتراك فى الحملات العسكرية الداخلية للقضاء على حركات التمرد ضد السلطة العثمانية كما كان عليها أيضا الاشتراك فى الامدادات الحربية المطلوبة للسلطان • وقد كان للاسباهية على حكام الأقاليم عن طريق من يقيم بتلك الأقاليم من رجال هذه الأوجاقات من الجوريجية (الجوريجى اسم مشتق من الجورية المعروفة وكان يطلق فى الاستعمال العثماني على ضباط الانكشارية ، وعلى مختارى القرى المتقدمين فيها أو بعبارة أخرى على

يشتركون في الادارة الاقليمية ويشرف رئيسهم وهو « سردار مستحفظان » على حفظ الأمن في الأقاليم •

وكان للانكشارية مرتبات نقدية من الخزينة عرفت «بالمواجبات » (أى المرتبات الأقل درجة من السليانات) ويجرى صرفها لهم كل ثلاثة أشهر أى أربع مرات في السنة • وكان لكتخدا وأغا المستحفظان فقط مرتبات عينية تعرف باسم « جراية وعليق » • كما كانت أهم مصادر أوجاق المستحفظان في المقاطعات الجمركية التي حصل عليها المستحفظان وجنوا منها أرباحا طائلة • وقد أعطى السلطان للمستحفظان الحق في ادارة جمارك مصر القديمة وبولاق وتحصيل الرسوم الجمركية عن البضائع الواردة اليها وبازدياد قوة الانكشارية واستغلالهم لمركزهم العسكري والسياسي استطاعوا الحصول على حق الالتزام لمعظم الجمارك الهامة في مصر وأول هذه الجمارك جمارك الاسكندرية ورشيد • وقد كانت التزاما لباشا مصر منذ بداية الحكم العثماني حتى عام ١٦٩٥ عندما أخذها الانكشارية ، بالالتزام من باشا مصر في أوائل القرن الثامن عشر • وفي القرن الثامن عشر حصل الانكشارية على الحق في التزام مقاطعة جمارك دمياط كما ضم الانكشارية أيضا في القرن الثامن عشر جمرك البرلس الذي كانت إيراداته تحصل على التجاره الداخلية وعلى تجارة القوافل الآنية من شمال افريقية • ومن إيرادات الانكشارية الأخرى مقاطعة مذبج السلخانة^(١) وقد أعطيت لهم بالالتزام منذ أوائل القرن السابع عشر ، كما حصلوا أيضا على الإيرادات التي كانوا يحصلون عليها من سيطرتهم على « دار الضرب » •

استمر الانكشارية منذ القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر يمثلون أوجاق السلطان في مصر ويهتلون بصفة خاصة

(١) كان مذبج القاهرة موجودا في باب الفتوح في القاهرة .

السلطة العثمانية فيها • ولكن بازدياد سيطرة العنصر المملوكى وتسلمه الى جميع مراكز السلطة والادارة في مصر العثمانية في القرن السابع عشر ، خضع أوجاق المستحفظان لسيطرة المماليك ونقص فيه العنصر العثماني تدريجيا حتى أن معظم رجاله كانوا من العنصر المملوكى في القرن الثامن عشر • ولقد لعب رؤساء المستحفظان وهم من المماليك أدوار بارزة في ادارة مصر في تلك الفترة • فسيطر أحد زعماء المستحفظان وهو كجك محمد الذي كان يشغل منصب باش أوضه باشى في الأوجاق على الادارة والسلطة في مصر منذ عام ١٦٧٤ وقد سيطر كجك محمد على قيادة الانكشارية في عام ١٦٧٦ بعد نفيه مرتين من منصبه على يد زملائه ولكنه استعاد قوته مرة أخرى عام ١٦٩٢ وبعد وفاته عام ١٦٩٤ حزن عليه الناس لعدله وحزمه •

وبعد وفاة كجك محمد أعيدت المظالم والجهاليات التي كان الانكشارية يستفيدون منها ، ففرضوا في القرن الثامن عشر كثيرا من الضرائب غير القانونية (الحمایات) على أرباب الحرف والتجار • وقد كان الانكشارية يتقاضون رسم حماية من بعض الطوائف نظير حمايتها من سلطة الادارة • واستمر الانكشارية يتنازعون مع الأوجاقات الأخرى من أجل الحصول على أكبر المغانم والإيرادات والسيطرة على الادارة والحكم في مصر العثمانية • وكان أبرز رجالهم الذين أثاروا الفتنة والصراع بين الأوجاقات جميعا هو افرنج أحمد الذي كاد أن يشغل نار حرب أهلية بين الأوجاقات والباشا والصناجق • وفي القرن الثامن عشر ظهر من بين صفوف أوجاق الانكشارية مجموعة من القادة المماليك الذين سيطروا على مقاليد الأمور والنفوذ في مصر في تلك الفترة من هؤلاء ابراهيم كتخدا القازدوغلى أستاذ على بك الكبير وسيطر على مصر في الفترة من عام ١٧٤٣ الى عام ١٧٥٤ • وقد ساهمت الانكشارية عموما في القرن الثامن عشر بأكبر نصيب من الفوضى السياسية والادارية التي عمت مصر في ذلك الوقت •

(٥) أوجاق العزبان :

وأفراد هذا الأوجاق مشاه نافسوا الانكشارية وغالبا ما سموها في المصادر العربية باسم عزب وتعنى هذه اللفظة في الأصح غير متزوج وأطلقت على أنواع مختلفة من الجنود وبعد فتح مصر عام ١٥١٧ اسندت الى العزبان اختصاصات مماثلة لتلك التي كانت للانكشارية ، فقد أسند للعزبان مهمة حراسة ممرات القلعة وضواحي القاهرة ، فكانت تمثل مع الانكشارية هيئة الدفاع الأساسية عن القلعة ، ولذلك أشير اليها في الوثائق باسم « عزبان قلعة مصر » . وفي أواخر القرن السابع عشر وصل العزبان الى المرتبة الثانية في القوة والنفوذ بعد الانكشارية (المستحفظان) ، وكثيرا ما ثار النزاع بينهما لمتنافسهما على فرض حمايات (الضرائب غير القانونية) على أسواق القاهرة وموانئها .

وقد اختص العزبان بمهام عسكرية أساسية منها الدفاع عن مصر والاشتراك في الامدادات الحربية التي يطلبها السلطان ، وامداد ترسانة الاسكندرية والسويس بالبحارة من رجاله ، وتقديم الرجال للقتال الصغيرة المتناثرة في الأقاليم لحراسة الأراضي الزراعية ضد غارات الأعراب . كما كان للعزبان مهمة ادارية بوليسية فمن رجالهم كانت تتألف مراكز البوليس والقلقات في القاهرة . (القلقات جمع قلق وهو تحريف عربى للتركية قولق وهو مركز العسكر ، والضابط الذي يقيم في هذا المركز أو المخفر هو القوللقجى) كما كان من اختصاصات أوجاق العزبان تقديم الرجال اللازمة لحراسة مداخل النيل عند القاهرة والطرق المؤدية الى ميناء السويس . وقد اشترك العزبان مع غيرهم من الأوجاقات في الادارة الاقليمية كما اشترك كبار ضباط العزبان في الديوان العالى أعلى مجالس ادارى في مصر . ومن المناصب الادارية الهامة التي شغلها العزبان منصب أمين البحرين وأمين الخردة . ومما

يلقت النظر أن أمين البحرين كان شخصية كبيرة في مصر العثمانية وموارده كثيرة .

وكان الأوجاق العزبان مثل باقي الفرق مرتبات نقدية مواجبات تصرف لهم من الخزينة مرة كل ثلاثة أشهر أى نصرف أربع مرات في السنة . وكان لكتفدا العزبان وأغا العزبان مرتب عيني جارية وعليق . ولم تكن هذه المرتبات تدل الجزء الأهم من إيرادات العزبان ، فقد استمد العزبان قوتهم وسيطرتهم على طوائف الحرف في القاهرة من التزامهم المقاطعات الجمركية الهامة فيها . وبإضافة المقاطعات السابقة الى مقاطعة البحرين أصبحت من أهم المقاطعات المدنية وغدا أمين البحرين صاحب نفوذ كبير في النشاط السياسى والاقتصادى في القاهرة . وعلاوة على ما سبق كان لرجال العزبان أيضا الحق في التزام مقاطعة « كيالة أرز بياض في بندر «دمياط» . وكانت دمياط هى الاقليم الرئيسى لزراعة الأرز في مصر العثمانية ، وكان يرسل منه الى كل أجزاء السلطنة العثمانية في أوروبا .

(٦) أوجاق المتفرقة :

اختص هذا الأوجاق أساسا بخدمة الباشا والديوان ، لذا عرف في الوثائق باسم متفرقة (٤) ديوان مصر كما أشارت اليها المصادر العربية باسم المتفرقة الديوانية ولم يذكر قانون نامه مصر هذا الأوجاق الذى برز في التاريخ المصرى — العثمانى . ولا يوجد له مثيل بهذا الاسم في الولايات العثمانية الأخرى ، الا حرس السلطان في استانبول وكان يعرف بهذا الاسم . ويذكر أن أوجاق المتفرقة قد تأسس في مصر الأول مرة بعد اعلان قانون نامه بثلاثين عاما ، أى في ١٥٥٤ من المماليك الذين دخلوا في خدمة العثمانيين ثم انتسب اليه أناس جلبوا خصيصا من استانبول . وقد اسس هذا الأوجاق لمواجهة النفوذ المتزايد

للأوجاقات الأخرى ، وكان هذا الأوجاق خليطا من المشاة والفرسان
ويبدو أن هذا الأوجاق كان استمرارا لفرقة مملوكية عرفت «بالخاصاكية»
وشكل أفرادها حرس السلاطين المماليك •

واختص هذا الأوجاق بالدفاع عن حدود مصر وثغورها وحماية
القلاع في الأقاليم وامتدادها بالجند كقلاع الاسكندرية ودمياط وخان
يونس (على حدود مصر الشمالية الشرقية في الطريق الى الشام)
وساى (في الطريق بين قنا والقصر) ثم قلاع مصر على طريق الحجاج •
وبذلك عهد اليهم أيضا بملاقة الحجاج العائدين من الحجاز وتأمين
سلامتهم حتى دخولهم الى القاهرة •

وكان رجال القلاع يحصلون على مرتبات نقدية من الخزينة تصرف
لهم كل ثلاثة أشهر أى أربع مرات في السنة كما كانوا يحصلون علاوة
على ذلك ، على مرتبات عينية من الخزنة أيضا • وكان قلم المحاسبة
في الخزينة يقوم باصدار التذاكر المستحقة لرجال كل قلعة وتسلم
للسول (من أوجاق المتفرقة) الذين يرسلون من قبل دزدار (أغا)
كل قلعة • واشترك قادة القلاع في الادارة الاقليمية وكان الباشا ينص
على دزدار القلاع أى رئيس القلاع في كل فرماناته للادارة المحلية •

ومن الاختصاصات العسكرية لهذا الأوجاق انه كان يشرف على
تسهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد
والقاهرة والسويس وكان يتولى هذا العمل « القافلة باشى » (أى رئيس
القوافل) ، وكان يتقاضى عوائد من كل قافلة يسيرها وله أن يحصل
على ربع ريال (الريال ٩٠ فضة) عن كل فرق بن ينقل من السويس
الى القاهرة وهو المختص بالاتفاق مع العزبان لحمل الأحمال • كما
اختص أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لثئون الدفاع عن مصر
والذى كان يرسل منه جانبا الى السلطان • وكان يتولى هذا العمل

« الجبة جى باشى » (رئيس البارودية وصناع السلاح فى مصر)^(١)، وكان ما يقدمه من البارود يخصم له ثمنه من مصروفات الخزينة الا ما يقدمه للألعاب النارية فى بعض المناسبات كسفر المحل والخزينة ومقدم الباشا الجديد . واختصت المتفرقة أيضا بالاشراف على المباني والعمائر فى مصر ، وكان يتولى هذا العمل « المعمار جى باشى » ويشرف على المهندسين والبنائين ويتقاضى من العمال أو من مباشريهم فى كل عمارة من العمارات السلطانية التى يشرف عليها محبوبا واحدا أو ١٨٠ فضة يوميا .

وكانت المتفرقة تحصل على أجور نقدية من الخزينة ، كما كان لها مرتبات عينية من جراية وعليق تصرف لها كل شهرين . ولم يكن للمتفرقة حق التزام جمارك هامة فلم يبق لهم سوى التزام مقاطعة بحيرة سمك وهى المختصة بتنظيم صيد السمك على بحيرة كبيرة قريبة من دمياط . ولتقوية مركز المتفرقة بالنسبة للفرق الأخرى منحت مرتبات أعلى من كل الفرق الأخرى فى بداية تكوينها . وكان يعين من رجالها كثير من ذوى المناصب الهامة فقد ظلت المتفرقة وحتى بعد عشرين عاما من تكوينها المصدر الرئيسى للرجال الذين كانوا يشغلون منصب الدفتردار فى خزينة مصر . وفى القرن السابع عشر كان يؤخذ من رجال المتفرقة كتاب الخزينة الذين كانوا يصلون الى شغل المناصب القيادية فيها مثل منصب الروزنامجى . واحتكر رجال المتفرقة وظيفة « حوالة أغا » وهو الموظف الذى كان يرسله الباشا لمراقبة ادارة الجمارك وأيضا لجمع الضرائب من المقاطعات الريفية ونقلها الى القاهرة . وحتى بداية القرن الثامن عشر كان « الترجمان باشى » الذى يرسل الى مصر من

(١) كان البارود اذ ذاك يستخرج من الكيمان المتخلفة عن المدن والقرى المتخرجة وبخاصة من بلدى منية كنانة وشلقان بمديرية القليوبية .

الباب العالى يصل الى رئاسة فرقة المتفرقة لمدة عام أو عامين قبل عودته الى استانبول وكان له الحق فى الجلوس على يمين الباشا فى كل جلسات الديوان العالى •

(٧) أوجاق الجاويشان :

تذكره المصادر العربية باسم «جاويشيه» واستخدم أفرادہ كرسلا لابلأغ الأوامر والمهمات وكجباة فى الأتاليم وبدأ تكوين الجاويشان باعلان قانون نامة مصر من المماليك الذين كانوا فى الخدمة الشخصية للباشا المتخلفة عن الجيش الملوکی المنهزم والذين أثبتوا اخلاصهم للسلطان العثمانى • وقد حدد قانون نامة مصر واجباتها بخدمة الباشا والديوان • وكان للباشا الحق فى ملء المناصب الخالية فى الجاويشان برجال من الفرق الأخرى فيما عدا فرقتى الانكشارية والعزبان •

وعندما زاد عدد أفراد أوجاق الجاويشان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، زادت أهمية هذا الأوجاق واشترك رجاله فى الامدادات العسكرية التى كانت ترسل للسلطان للاشتراك فى حروبه • وقد اشترك الجاويشان كخيرهم من الأوجاقات العسكرية الأخرى فى الحملات العسكرية الداخلية فى مصر لمواجهة المتمردين من المماليك والعزبان • أما بالنسبة للاختصاصات الادارية فكان أوجاق الجاويشان أكثر الأوجاقات العسكرية ارتباطا بالادارة والأعمال الادارية • فكان رجال الجاويشان هم الذين يقومون بالدعوة لعقد الديوان العالى فيرسل منهم الرسل الذين يحملون التنابيه لأعضاء الديوان عشية عقده كما أوضحنا من قبل • وكان على كبار ضباط الجاويشان حضور كل اجتماعات الديوان العالى كما كان على أوجاق الجاويشان تقديم الرجال اللازمين لقيادة بعثة الاستقبال المرسله للترحيب بالباشوات الجدد عندما يدخلون مصر برا عن طريق العريش ، أو بحرا عن طريق الاسكندرية وكان رجال

الجاويشان هم المختصين بحراستهم على الطريق الى القاهرة •

وكان العمل الادارى الرئيسى لهذا الأوجاق هو تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها الى خزانة الروزنامة ومن بين صفوف الجاويشان كان يعين بعض كبار الموظفين الاداريين مثل :

أمين الشئون : ويطلق عليه أيضا اسم « أمين الانبار » ، ويشرف على شئون الغلال الأميرية وتتضح لنا أهمية هذا العمل اذا ذكرنا أن الجزء الأكبر من أرض الصعيد كان يجبى ماله غلالا وكان لأمين الشئون حق تحصيل عوائد نقدية وعينية من كل ملتزم يؤدي المال غلالا ، بالإضافة الى أنه كان مسموحا له بأن يستعمل عند صرف الغلال من الشئون لمستحقيها كيلا أصغر من الكيل الذى يستعمله عند الاستلام من دافعى الضرائب والفرق بين الكيلين له •

المحتسب (أمين الاحتساب) : وكان أيضا من الجاويشية ولم يكن من المتفقيين فى الدين كما هو الحال فى الحسبة ومهمته ضبط الأسواق وفى هذا أيضا تضيق لمعنى الحسبة الأصلية •

الخازن دار : وهو المدير المالى للباشا •

وكيل خرج : وهو الموظف المختص بشراء وارسال الامدادات العينية المطلوبة للسلطان من مصر وتهئت ايرادات الجاويشان فى مرتبات نقدية تصرف من الخزينة شهريا ومرتبات عينية جارية وعليق وقمح وشعير كانت تصرف لهم من الخزينة كل شهرين أى ست مرات فى السنة • وقد انفرد أوجاق الجاويشان بالحصول على مرتبات أخرى من الخزينة عرفت بمال الجاويشان أو « تذاكر الجاويشية » وهو مال فرضه السلطان على البلاد الأجل وجائلية الجاويشية المكلفين بملاحظة جميع الأموال الأميرية وكان الجاويشية يجمعون هذا المال بأنفسهم

ولكن لما ضعف أمر الأوجاقات عجز الجاويشية عن قبض مالهم فأصدر الباشا فرمانا بأن هذا المال يجب أن يجمع من المال الميرى في وقت واحد لحساب الجاويشية * وكان من ضمن إيرادات أوجاق الجاويشان أيضا المسموحات المقررة لهم على « مقاطعة دباغ خانة » (وهى أشياء عينية عبارة عن جلود جاموسى وبقرى) ، وإيرادات « مقاطعة محصول احتساب نفس محروسة مصر » ، وكانت تشمل جزءا من أسواق القاهرة *.

ثالثا : الخزينة السلطانية :

عندما فتح العثمانيون مصر أبقوا الموظفين الذين سبقت لهم الخدمة فى خزينة السلطنة المملوكية وعهدوا اليهم بإدارة الخزينة السلطانية فى مصر ، وهى التى عرفت « بالخزينة العامة » ويمكن أن نسميها الإدارة المالية * وكان النظام الذى أقره قانون نامة مصر عام ١٥٢٥ هو أساس النظم التى استحدثت فيما بعد فى إدارة مصر المالية وعندما استقرت الأمور للعثمانيين فى مصر قاموا بإبدال الموظفين والكتاب الذين كانوا يديرون خزينة مصر بآخرين من خزينة الباب العالى * وانقسمت الخزينة السلطانية فى مصر الى قسمين ديوان الدفتردار وديوان الروزنامة *.

(١) ديوان الدفتردار (أو الديوان الدفترى) :

كان هذا الديوان بمثابة ديوان المالية ويرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية ويساعده كتخذه (وكيله) ومهردار ومجموعة من الموظفين يعملون تحت إشرافه * وقد حل الدفتردار مكان « ناظر الأموال » ، وكان الدفتردار فى بدايه العصر العثمانى شخصية عثمانية تعين لرئاسة الادارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة السلطانية المركزية فى

استأنبول ولقب الدفتردار في الوثائق بلقب «دفتر أفندي» أو «دفتردار خزینه عامرة» * وبازدياد سيطرة البكوات المماليك على الإدارة في مصر تمكنوا من شغل منصب الدفتردار من بين صفوفهم ، وغدا منصب الدفتردار منذ ذلك الوقت أي منذ أواخر القرن السابع عشر منصبا سياسيا وأصبح البكوات الصناجق ذوي الجاه والنفوذ هم الذين يشغلون منصب الدفتردار *

وأصبحت أهمية منصب الدفتردار تنبع من السلطة التي يتيحها هذا المنصب لشاغله من سيطرة على التزامات واسعة في الأرض وفي الجمارك والحصول على إيرادات مالية هامة * وكان للدفتردار «ساليانة» ثابتة نقدية وعوائد أخرى عينية من قمح وشعير وكان يحصل على التزامات واسعة منذ بداية ادخال نظام الالتزام في مصر * كما كان يتولى التزام بعض مقاطعات الجمارك مثل «مقاطعة أرز ميري» ولم يكن للدفتردار مدة خدمة محددة بل كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه طالما هو في مركز القوة والسيادة بين أقرانه من البكوات الصناجق في مصر * وقد ظل الأمراء المماليك يتولون منصب الدفتردار حتى مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، ولكن بعد خروج الحملة عام ١٨٠١ عادت الدولة العثمانية الى شغل منصب الدفتردار بشخصية عثمانية كما كان الحال في بداية العهد العثماني *

وكان الديوان الدفتری عصب النظام المالي القائم على نظام الالتزام ، فهو الذي يطرح مقاطعات الالتزامات في المزااد ، وهو الذي يقرر من يرسو عليه المزااد ، وهو الذي ترفع اليه أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له ويضع عنها البيانات اللازمة ويقدمها للبائشا في «عرضحال» خاص ، فيصدر الأوامر المناسبة ومن ثم يصدر عن الديوان الدفتری «تقسيم الالتزام» كما يصدر الديوان الدفتری «مراسيم دفترية» خاصة برفع أو تخفيض أموال *

(٢) ديوان الروزنامة :

والروزنامة كلمة فارسية تتكون من مقطعين : روز بمعنى يوم ونامة بمعنى كتاب (كتاب اليوم أو دفتر اليومية) ، ثم أصبح معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات فى الدفاتر الرسمية وكان ديوان الروزنامة تابعا للديوان الدفترى ومهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوهها المختلفة تحت اشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه الأفندية • ويرأس الديوان «الروزنامجى» أى المدير العام لديوان الروزنامة وكبير الأفندية • وقد سماه العثمانيون متأخرا باسم « كاتب اليومية » (يومية كاتبى) ، و «جى» فى آخر الكلمة تدل على النسب الى الصناعة • وفى أوائل العصر العثمانى ، كان الروزنامجى يحضر من استانبول وظل كذلك الى النصف الثانى من القرن السابع عشر وفى البداية كان الروزنامجى يلى الدفتردار فى رئاسة الادارة المالية فى مصر ، ولكن بمرضى الوقت وتزايد عمليات الادارة المالية فى التعقيد تغير نظام الأرض من نظام الأمانات البسيط الى نظام الالتزام المعقد وزادت إيرادات الخزينة كما ونوعا • ولم يعد الدفتردار الذى أصبح يختار من كبار الأمراء المماليك يصلح للادارة الفعلية لمالية مصر ، لذا قام باشا مصر (مقصود باشا) عام ١٦٤٣ باعادة تنظيم الخزينة وتنظيم العلاقة بين الديوانين • وكان أول مظهر لهذا التنظيم هو نقل السلطة الفعلية فى ادارة الخزينة من الدفتردار الذى كان يمثل البكوات المحليين الى الروزنامجى الذى كان يتمتع بالخبرة الفنية العالية والمستوى المطلوب من الدراية بشئون المالية وتنظيماتها • غير أن منصب الروزنامجى ما لبث أن وقع أيضا تحت سيطرة البكوات المماليك ، فأصبح يتولاه طوال القرن الثامن عشر رجال من بين صفوف البيت المملوكى صاحب السيطرة والنفوذ •

خليفة » • وكان هو الوكيل الأول للروزنامجى ويحل محله اذا خلا منصب الروزنامجى فيعمل فيه كقائمقام بدل الروزنامجى وكان الروزنامجية دائما يختارون من فئة « الباش خليفة » • ثم يأتى بعد الباش خليفة : ثانى خليفة ثم ثالث خليفة ثم رابع خليفة • ويشرف هؤلاء الخلفاء الأربعة على كل الأعمال الحسابية التى يقوم بها الأفندية وعلى كل المسجلات التى تحت أيديهم • ومن مساعدى الروزنامجى الآخرين ثلاثة صبيان شاجرتية (شاكروية جمع فارسى الأصل وتعنى المتعلم أو التلميذ) وكيسه دار (حافظ أكياس الورق) •

وبالإضافة للروزنامجى ومساعديه الأربعة وهيئة مكتبه وجد فى ادارة ديوان الروزنامة مجموعة من الموظفين الفنيين عرفوا بالأفندية • والأفندية جمع أفندى وهى مأخوذة من الكلمة اليونانية العامية أفنديس، ودخلت فى اللغة التركية الأناضولية فى وقت مبكر واستعملها العثمانيون فى القرن الثالث عشر الميلادى • وأطلقت كلمة أفندى فى اللغة العربية على الكاتب الموظف فى الدولة وكان الروزنامجى — كما أسلفنا — فى مصر هو رئيس طائفة الأفندية وسماه لانكرت : الأفندى الأول •

وكان أفندية الروزنامة هم : Le Premier Effendy

(١) أفندى الشرقية : وكان كاتباً على ولايات خمس هى الشرقية والمنصورة وقلوبوب والبحيرة وأطفيح وكان يحتفظ بسجل يقيد فيه أسماء الملتزمين وقدر الأموال الأميرية المطلوبة منهم •

(٢) أفندى الغربية : وكان كاتباً على ولايتى الغربية والمنوفية ويحتفظ أيضاً بسجل يقيد فيه أسماء الملتزمين والأموال الأميرية التى يدفعونها •

(٣) أفندى الشهر : وكان كاتباً على الوجه القبلى وكاتباً على الأسكهاات وهى الجمارك على الدواوين مثل الاسكندرية ودمياط ورشيد

وبولاق ومصر القديمة ومال البهار والبحرين والخردة وغيره •

(٤) أفندى الغلال : كان كاتباً على الوجه القبلى مثل أفندى الشهر، وكان يحتفظ بسجل تقيد فيه أسماء الملتزمين والمال الميرى وغسلال الميرى الحب •

(٥) أفندى المحاسبة : وكان يقوم بقيد جميع ما يتعلق بالدولة العثمانية مثل السكر والأرز والعدس وجميع ما يصرف من خزينة السلطان على العمارات • كما كان يحتفظ بسجل صرة الأشراف وجرايات أهالى الحرمين وهو القمح المرتب لهم من جانب غلال الميرى •

(٦) أفندى اليومية : وكان يقوم بربط دفاتر الصرة الى الحرمين المرسله وربط دفاتر الجمركية بمصر الى العساكر •

(٧) أفندى المصرف : وكان يقوم بقيد مصاريف غلال الميرى الحب كل واحد باسمه مثل الباشا والأمراء والأغاوات والأوجاقات والمشايخ والأفندية •

(٨) أفندى الكركشى : والكركشى من كلمة كورك التركية وهى آلة الجرف والكركشى الجراف وأصل الكركشى ضريبة فرضت على الملتزمين وخصصت للاتفاق على ازالة الأتربة وما اليها من القاهرة وكان أفندى الكركشى يقيد مال الكركشى المفروض على جميع البلاد وأسماء الملتزمين لتحصيل المال منهم •

(٩) أفندى الرزق : وكان يقوم بقيد أطيان الرزق وأسماء أصحابها وأطيان الرزق (جمع رزقة) هى الأرض الزراعية المحبوسة على أوجه البر والخير ولا يفرض عليها مال •

(١٠) أفندية الأوجاقات السبعة : فكان لكل أوجاق أفنديا صغيرا وتحت أيديهم أفندية وكانوا يقومون بصرف جوكية العساكر (جمعها

جوامك وهى كلمة فارسية من جامكى ومعناها مرتب يصرف لشراء ملابس
ثم استخدمت فى سجلات الروزنامة بمعنى المرتب أو المعاش) •

(١١) أفندى المقابلة : وكان عمله ينحصر فى قيد دفاتر جمكية
العساكر وساليانات الأتراء والمشايخ والأيتام وغيره • وكان يقوم باعطاء
التمكينات الى أصحاب المرتبات • وكان يعمل تحت رئاسة كل أفندى
من هؤلاء مجموعة الشاجرتية ومجموعة من المساعدين (الخلفاء) •

وكان موظفو الخزينة فى مصر يحتكرون المهارات والطرق الفنية
الخاصة بحرفتهم مثل نظم الكتابة ، وطرق اعداد التقارير التى كانت
تستخدم فى الخزنة • وكانت وظائف الأفندية تمنح كمقاطعات توزع
عند خلوها من شاغليها فى مزادات تقام فى منزل الروزنامجى وتمنح لمن
يقدم أعلى ثمن من المرشحين لها وكان هذا الثمن يسلم للبائسا من
ايرادات الحلوان • وعندها كان يخلو منصب فى الخزينة كانت طائفة
الكتاب التى يرأسها الروزنامجى ترسل « عرضحال » للباب العالى
تخبره بخلو المنصب وتطلب الموافقة على تعيين مرشحها الذى فاز فى
المزاد • وكان جميع الأفندية والكتاب من المسلمين بعكس ما هو شائع
فى بعض المراجع من أن ادارة مصر المالية كانت فى يد الأقباط • فقد
شغل هؤلاء فقط مناصب بعض المباشرين فى الخزينة وللأمرء وكبار
الشخصيات فى المجتمع ومناصب الصيارف فى الأقاليم • وأما منصب
كبار رجال الادارة المالية فى مصر كالروزنامجى والأفندية فكانت
للمسلمين • وشغل اليهود دائما مناصب كتاب الخزينة الذين كانوا
يعملون تحت اشراف الروزنامجى فى مناصب صيارفة للروزنامة • وكان
سلك طائفة الأفندية يبدأ بالخدمة أولا فى صفوف الصبيان (شاجرتية) ،
وكان هؤلاء يقومون بتأدية الأعمال البسيطة للكتاب والأفندية ويتعلمون
فنون حرفة الكتابة • وكان هؤلاء الصبيان يؤخذون أساسا من بين أولاد

وأتباع ومماليك وموظفى الخزينة وهم أساسا مسلمون وكثيرا ما كانت وظائفه باشرى الأفندية تمنح للقضاة الذين تمرنوا على فنون الكتابة. وكان هؤلاء يؤخذون دائما لوظائف مباشرى الأنبار (الشون السلطانية أو الأميرية) فى الخزينة . وفى أواخر القرن الثامن عشر أصبح الروزنامجى والأفندية من أعضاء البيوتات المملوكية والأوجاقات العسكرية وانغمسوا فى منازعاتها .

ويضاف الى أفندية الروزنامة بعض الموظفين مثل :

التذكرة جى : وهو الذى يحرر مختلف تقاسيط الالتزام والتذاكر الديوانية عن مختلف المراتب والمخصصات الأميرية .

التاريخجى : وهو الذى يضع تاريخ كل مستند رسمى .
روزنامة جى واردة : ويكون دائما أحد أتباع الباشا وهو يقيّد إيراداته .

أغا جبه جيان : أى رئيس الجبه خانة وهو الذى يقيّد المطلوب من ملح البارود للجبه خانة العامة .

أمين الصناديق : وهو بمشابه أمين دفترخانة أو محفوظات الروزنامة .

كاغدامين : أمين الأوراق .

المهردار : حامل أختام الروزنامة .

وكان لكل أفندى سجل خاص باليرادات والمصروفات المختص بها، وكان يحتفظ بهذا السجل فى مقر عمله بالقلعة ولتوفير السرية اللازمة لتلك السجلات كانت تحفظ فى الخزينة فى القلعة فى سرية مطلقة ولايسمح للأفندية انفسهم بنقلها من انخزينه او النزول بها الى منازلهم أو اطلاق

الآخرين عليهم بدون اذن خاص من الروزنامجى والباشا * ولتوفير السرية أيضا لتلك السجلات كانت تدون بخط القيرمة وهو خط سرى ابتكره الكتاب العثمانيين وأدخلوه الى خزينة مصر وادارتها المالية فى القرن السابع عشر * والقيرمة كلمة تركية من المصدر قيرمق بمعنى أن يكسر ومعناها اللغوى المكسر ، وهى فى الاصطلاح اسم نوع من الخط العربى استنبطه الأتراك من خط الرقعة ، متداخل متراكب يشبك الألف والداد والراء والواو بما بعدها من الحروف وتختزل لاصطلاحات فيهز لبعضها بإشارة مركبة لكلمة فرط اسم ضريبة ولبعض الكلمات بإشارة بسيط مثل (ع .) لكلمة عن و (ي) لكلمة بحق و (ب) لكلمة بارة * وأخذ هذا الخط فى الاضمحلال فى أيام الخديو اسماعيل^(١) ، والعلامة التى مازلنا نرزم بها للقرش (ص) هى احدى مخلفات القيرمة فى كتابتنا المعاصرة *

رابعاً : نظام الالتزام (حيازة الأرض) :

يتبين عند دراسة نظام حيازة الأرض فى مصر العثمانية أن الأراضى كانت تنقسم الى ثلاثة أنواع :

١ - الأراضى الخراجية : وهى الأراضى التى أصبحت تعرف فى القرن الثامن عشر بأرض الالتزام وتشمل أراضى الفلاحة وأراضى الأوسية * وقسمت أراضى كل قرية الى قسمين ليس بالضرورى أن يكونا متساويين من حيث المساحة وكان النوع الأول هو الأكبر مساحة ويعرف « بأرض الفلاحة » * وكانت تسمى فى الوجه البحرى « أرض الأثر » ، وفى الوجه القبلى « أرض المساحة » أما القسم الثانى من أراضى الالتزام ، فكان يسمى « أرض الأوسية » ويمنح للملتزم وظل

(١) بعض الآراء الأخرى ترى أن هذا الخط ظل يستعمل حتى عهد محمد على والذى فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٢٤م .

معفى من الضرائب واذا أراد الملتزم استغلال « أرض الأوسية » لصالحه ، كان فلاحو الناحية يقومون بزراعتها عن طريق السخرة التى أصبحت عبئا من الأعباء الملقاة على الفلاح . وفى بعض الأحيان كان الملتزم يقوم بتأجير « أرض الأوسية » للفلاحين نظير قدر معلوم من الأموال عن كل فدان يجعله لنفسه .

٢ - أرض الرزق : وكانت تهتل مساحات واسعة من الأرض فى جهات عديدة من البلاد ، وأصبح حق الانتفاع بها بالميراث للورثة كما أصبح لأصحاب حق الانتفاع أن يتصرفوا فيها بكافة وجوه الانتفاع . وكان أكثر هذه الأراضي موقوفا على مكة والمدينة ، وعلى المساجد والأضرحة وعلى أعمال البر والصدقة والاحسان من تسكيا ومكاتب وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب . وكانت أراضي الرزق معفاة من الضريبة ولا يدفع عنها للروزنامة سوى ضريبة رمزية تعرف باسم « مال حماية » نظير حماية تلك الأراضي من العبث بها أو السطو عليها .

٣ - أراضي الاطلاق : وتعرف بالتركية «أوتلاق» ومعناها المرعى، وقد عرفها استيف ، مدير المالية فى عهد الحملة الفرنسية بأنها الأرض المعفاة من أى مال وخصصت لكى ترعى نباتها خيل الباشا وخيل كل من له حق فى «اطلاق» وقد سمح الباشوات فى القرن الثامن عشر للملتزمين الذين تقع هذه الأراضي فى حصص التزامهم بضمها الى أواسيهم والانتفاع بها نظير مبلغ من المال يدفع للباشا .

ولقد أدار العثمانيون الأراضي المصرية منذ عام ١٥١٧ وحتى منتصف القرن السابع عشر عن طريق نظام المقاطعات أو ما كان يعرف بالأمانات . وقام هذا النظام على أساس أن كل قرية أو عدة قرى متقاربة تكون مقاطعة (أمانة) أى أنها تكون وحدة مالية وإدارية فى

نفس الوقت • وكان يشرف على كل مقاطعة عامل مسئول عن المال الميرى المقرر عليها وكان هذا العامل يقوم بالفعل بدور الملتزم قبل تطبيق هذا النظام وان لم يكن مثل الملتزم • فلم تكن له أرض «أوسية» أو غيرها من الحقوق التى تمتع بها الملتزم فكان يتقاضى أجرا مقابل عمله شأنه فى ذلك شأن بقية موظفى هذا النظام • غير أن هذا النظام ، نظام المقاطعات ، لم ينجح فى تحقيق أهدافه بسبب الأساليب غير المشروعة التى اتبعها الموظفون لزيادة متحصلاتهم وعدم تسديد الأموال الأميرية • كما أن الفوضى التى استخدمت فى تقدير الضرائب وجمعها أرهقت الفلاحين وعبثت بأموالهم حتى اضطر الفلاحون فى بعض الأحيان الى ترك أراضيهم دون زراعة فأدى ذلك الى تدهور الزراعة فى كثير من المناطق •

وازاء هذه الفوضى ، اضطر مقصود باشا فى عام ١٦٤٢/١٦٤٣ الى اعادة تنظيم المالية المصرية بكافة فروعها وأنشأ ديوان الروزنامة وطور نظام المقاطعات • غير أن هذه الاجراءات لم تحقق النجاح المطلوب ، واهتدت الدولة العثمانية الى نظام الالتزام الذى تم تطبيقه فى مصر ابتداء من عام ١٦٥٨ • وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تبتر نظام الالتزام بل وجدته معمولاً به فى بعض المناطق التى خضعت لحكمها سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى شمال العراق وبمقتضى نظام الالتزام كانت الدولة العثمانية تعهد الى شخص من ذوى النفوذ والثراء فى العادة بجباية الضرائب المربوطة على الأراضى الزراعية والمقررة على الفلاحين فى قرية أو أكثر من قرية لمدة زمنية محددة أول الأمر • وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخى «الملتزم» وكان عليه قبل أن يباشر عمله كملتزم أن يدفع هبلغا من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التى يمارس فيها اختصاصاته وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الالتزام » • وكانت

الحكومة تعطى هذا الحق بطريق المزايد بين راغبى الحصول على حق الالتزام أو بطريقة الاتفاق وكان اجراء المزايد هو أكثر الطريقتين تطبيقا وكانت تطلق على المزايد لفظة «مزايعة» وكان الملتزم الذى يرسو عليه المزايد يتسلم تقسيطا (سند) من الروزنامة وأمر (نميقة) الى مشايخ حصة التزامه وفلاحيتها تأمرهم فيه بالخضوع لأوامره ودفع الأموال المقررة على أرض الحصة له ، وبذلك يصبح الملتزم ممثلا للحكومة وكانت حصص الالتزام تمنح للملتزمين فى المرحلة الأولى من تطبيق هذا النظام فى مصر لمدة سنة أو عدة سنوات ينص عليها التقسيط .

غير أنه بعد فترة من الزمن ، ولاسيما فى القرن الثامن عشر أصبح حق القوريث هو الشائع فى الالتزامات ولم تعد حصة الملتزم تخرج من حوزة الملتزم أو ورثته أو أتباعه . وكان يعطى للملتزم مستند ثان كان يسمى «التمكين» وهو بمثابة عقد ، وكان التمكين يحمل ختم الباشا العثمانى والدفتردار وتوضح فيه منطقة التزامه ومقدار الأهوال الأميرية المقررة عليها وقد نص فى هذا المستند على ضرورة معاملة الملتزم للفلاحين وسائر الأهالى بالرحمة والعدل . وطبقا لنظام الالتزام كانت الأراضى الزراعية فى القرية تقسم الى أربعة وعشرين قيراطا . وهذا التقسيم لا علاقة له بقراريط الفدان المعروفة ، فقد يصل القيراط فى نظام الالتزام الى عشرات الأفدنة .

وقد اكتسب الملتزمون كثيرا من الحقوق على أرض حصة التزامهم . فكان للملتزم حق توريث حصة التزامه لأولاده أو مماليكه البيض نظير دفع «حلوان» قدر بثلاثة أمثال فائض الحصة . ونتيجة لاستقرار الملتزم فى حصة التزامه فترات طويلة ، كان يحق له بيع حصة التزامه واستقاطها لمن يريد كاملة وأجزاء منها . كما كان من حق الملتزم رهن حصة التزامه ، وقد أدى ذلك الى كثير من المشاكل بين الملتزمين أنفسهم حتى اضطرت الادارة الى التدخل نوصع حد لهذه المشاكل . ونتيجته

لهذه الحقوق توطدت سلطة الملتزمين بشكل قوى على حصص التزاماتهم تتعلق
ورغم ذلك فان هذه الحقوق القوية لم تعط للملتزمين سوى حق الانتفاع
بها دون حق ملكية رقبتهما الذى أبقت عليه الحكومة فى يدها .

وكان الملتزمون فى مصر أخلاطاً شتى من المجتمعات التى وجدت
فى مصر خلال الحكم العثمانى . كان من بينهم عسكريون ومدنيون
وسيدات . فمن العسكريين رجال الأوجاقات والضباط العثمانيون
المتقاعدون . وكان من بين الملتزمين العسكريين أيضاً أصحاب العصبية
كأمراء الممالك ومن ينتمون اليوم مثل الجليية وهم الممالك الذين لم
يولدوا فى مصر ، بل جلبوا من خارجها ، ويسمون أيضاً الأجلاب .
أما الملتزمون المدنيون فكان من بينهم الأشراف وكبار علماء الأزهر ،
وفيهم شيخ الأزهر ، وأرباب السجاييد وهم طائفة تمتع أفرادها
بالاحترام العميق من المصريين تكريماً لأجدادهم الأولين من كبار
الصحابة . وكان من بين الملتزمين المدنيين أيضاً التجار ومشايخ العرب
مثل الهوارة وغيرهم ، ثم دخلت النساء ميدان الالتزام فى النصف
الأول من القرن الثامن عشر ، وطرأت على الريف المصرى هذه الظاهرة
الاجتماعية الجديدة وهى وجود سيدات ملتزمات الى جانب الملتزمين
وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وبروزاً فى النصف الثانى من القرن
الثامن عشر . وكان يطلق على السيدات الملتزمات مصطلح تركى عربى
هو «خواتين» والخواتين جمع تكسير عربى لكلمة «خاتون» ومعناها
سيدة . وكانت السيدة الملتزمة تطبق عليها نفس الاجراءات التى يخضع
لها الرجال الملتزمون ويشير عبد الرحمن الجبرتى (ج٤/ص ٢٠٤) الى
نشاط السيدات الملتزمات فى مقاومة محمد على حين قرر إلغاء نظام
الالتزام وقيامهن بمظاهرة الى الجامع الأزهر حيث طلبن من علمائه
تعطيل الدراسة فى الأزهر والوقوف بجانبهن فى وجه هذا الرأى .

كان الملتزم يحق فى نظام الالتزام ارباها مادية وعينية تنوعت

أشكالها وطبيعتها ، فهو أولا يحصل على «الفائض» وهو الفرق بين ما يدفعه أو يتعهد بدفعه للحكومة وبين حصيلة ما يجنيه فعلا من فلاحى القرية والقرى الواقعة فى دائرة الالتزام . وفضلا عن هذا الفائض كان الملتزم يحتفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض «الوسية» وكانت هذه الأرض تعادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضى التى فى أيدى الفلاحين والواقعة فى «نقطة الالتزام» . وكانت أرض الوسية أيضا معفاة من الضرائب . وهذا الاعفاء الضريبى المقرر لأرض الوسية كان امتيازاً فى ذاته ، وأضيف إليه امتياز آخر وهو تكليف الفلاحين بزراعة هذه الأرض بالمجان وفقاً لنظام السخرة . وعلى الرغم من هذين الامتيازين كان بعض الملتزمين يفضلون تأجير أرض الوسية للفلاحين . وقد وجد هذا الفريق من الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسبا مالياً يفوق الكسب الذى يعود عليهم من زراعتها لحسابهم الخاص .

وكان الملتزم يفضل الإقامة فى القاهرة ولذلك كان لا يذهب الى «نقطة التزامه» إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدار السنة ولا يقيم فى كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يهدف من الزيارة لتحقيق مصلحته الشخصية ، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوسية . ولذلك اعتمد الملتزم على أعوان يقيمون ويعملون بصفة مستديمة فى دائرة الالتزام . وكان من بينهم :

شيخ القرية : كان من أبناء القرية وقد وجد فى كل قرية شيخ واحد أو عدد من المشايخ ، وكان أبرزهم يطلق عليه «شيخ المشايخ» . وأصبحت وظيفة شيخ القرية (أو الباد) شبه وراثية بمرور الزمن . وكان شيخ البلد يبلغ الملتزم بأسماء الفلاحين العصاة أو المشاغبيين . وكان يوفر الأمن للفلاحين الذين يزرعون الأرض ، وترتب قوة يطلق على أفرادها «الخفر» يمنعون السرقات ويقومون بتنبيه الأهالى عند

اقترب غارات العربان من القرية • خلاصة القول أن شيخ القرية أصبح بمثابة الوسيط بين الملتزم والفلاح • وكان الفضل يرجع إليه في حفظ تماسك القرية ولذلك كان يوصف بأنه حجر الزاوية في مجتمع القرية الذي أصبح مكتفيا بذاته وتحكمه العادات والتقاليد والعرف • وكانت كل قرية تضم بجانب المزارعين وأعوان الملتزم أمام المسجد والنجار والحداد والحداق • وكانوا يتناولون مرقبات عينية موسمية ، ويلتزمون بأداء الخدمات لسكان القرية • وتمتع شيخ القرية بامتيازات مختلفة فكانت له قطعة أرض معفاة من الضرائب تسمى « مسموح المشايخ » وكانت له مخصصات مالية كان يدون مقدارها في كشوف المصروفات في نظير الخدمات التي يؤديها مثل استضافة أو استقبال الضيوف الذين يفدون الى القرية وبمضى الوقت ترايد نفوذ شيخ القرية فأصبحوا في القرن الثامن عشر الحكام الفعليين في الريف المصري بدلا من الموظفين العثمانيين •

المباشر : كان بمثابة وكيل القائم مقام وبياسر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائم مقام الى القاهرة لمقابلة الملتزم • وكان من اختصاصه قيد كل ما يدفعه فلاحو الالتزام بالتفصيل في سجل خاص •

المشد : كان موظفا تابعا لشيخ القرية وهو الذى يحضر الفلاحين الى الديوان وقت طلب المال ولهذا فانه أصبح من اختصاصاته معرفة مسكن كل فرد من أفراد القرية وكان ينفذ العقوبات التى يأمر الملتزم بتوقيعها على الفلاحين اذا توقفوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التى يطلب الملتزم أو شيخ القرية منهم أداءها فى أرض الوسية بالمجان •

الشاهد : كان المسئول عن تسجيل أطيان القرية فى سجل لديه

الوكيل : وكان ينوب عن الملتزم في كثير من الأمور التي تتعلق بإدارة حصة الالتزام ، فهو يحضر عمليات مسح الأراضي نيابة عنه ويتسلم الأموال الخاصة به من مشايخ القرية • وكان يحتفظ بأدوات الزراعة مثل النوارج والمحاريث والفؤوس وغيرها من الأدوات التي تتعلق بأرض الوسية •

الخولى : كان يختص بقياس الأرض الزراعية بعد ربيها وقبل الشروع في زراعتها ، ويفصل في المنازعات التي قد تثار في هذا الشأن ويجمع الفلاحين الذين يسخرون في زراعة أرض الوسية • وقد سجلت دفاتر التوابيع والجسور أنه كان مكلفا بالإشراف على جرف الجسور السلطانية والبلدية • وأصبحت الوظيفة شبه وراثية فابن الخولى يصبح خوليا وهكذا •

الكلاف : كان مسئولا عن علف البهائم وتسريحها ومراعاتها في كل ما تحتاج اليه وأن يقوم بجمع الصوف والجبن والزبد من اللبن الذي تنتجه • واستلزم رعايه الماشية وقطعان الأغنام أن يكون على دراية بمعالجتها وتطعيمها في ضوء مفاهيم الطب البيطري في تلك الأزمنة الغابرة • كما كان يقوم بتطبيب ماشية الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام خوفا من انتقال المرض اليها واتخاذ شكل وباء •

وبفضل هذا العدد من الموظفين كان الملتزم يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة القرى التي تقع في دائرة الالتزام وحل الملتزم محل السلطات العثمانية في مباشرة اختصاصات الحكومة وأصبح من حيث الواقع الفعلى هو الشخصية الأولى في القرية والشخصية الثانية في الكاشفية⁽¹⁾ وبدأ الملتزم في القرن الثامن عشر

(1) الكاشفية وحدة إدارية صغيرة تقابل في الوقت الحاضر «مركز» وقد اشتق منها لقب كاشف وهو الذى يحكم الكاشفية ، وكان بمثابة مأمور مركز .

كأنه المالك الحقيقي للأرض التي يمارس فيها حق الالتزام وارتاحت الحكومة العثمانية الى نظام الالتزام لأنه وفر عليها متاعب الاتصال بالفلاحين وغيرهم لجباية الضرائب والرسوم * ويعتقد المؤرخ (شو Shaw) أن نظام الالتزام كان مثاليا بالنسبة لمصر خلال الحكم العثماني فقد أتاح هذا النظام لخزانة الحكومة تدفقا مستمرا من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الادارية ، وأعطى للملتزمين مصلحة دائمة ومستمرة في العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض حتى لا يسرفوا في استغلالها أو انهاك التربة الزراعية * والواقع أن هذه المزايا كانت تتحقق للسلطان والملتزم والفلاح طالما كان الباشا العثماني في مصر ومعاونوه قادرين على تحقيق تفوق نفوذ الدولة السياسي والحربي في البلاد * فنظام الالتزام كان نظاما ملائما للفلاح الصغير بوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار وكانت تتلاقى مصلحة الفلاح مع مصلحة الملتزم في عدم ارهاق الفلاح في العمل في أرض الوسية طبقا لنظام السخرة وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل وفرض ضرائب جزافية عليه ومراعاة حالة فيضان النيل كل سنة *

والواقع أن التقويم السليم لنظام الالتزام هو الذي قدمه الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن في دراسته الوثائقية عن الريف المصري في القرن الثامن عشر ويرى الدكتور عبد الرحيم أن نظام الالتزام مر بمراحل ثلاث : المرحلة الأولى وتمتد من ١٦٥٨ الى ١٧٢٨ وأثبتت فيها هذا النظام نجاحه كنظام ادارى مالى بسبب دقة تطبيق القواعد وأحكامها الشخصية القوية التي تمتع بها بعض الباشوات * أما المرحلة الثانية والتي تبدأ من عام ١٧٢٨ حتى إلغاء هذا النظام في عام ١٨١٤ فإنه يمكن وصفها بأنها مرحلة المضاربة بالالتزامات الأراضى الزراعية والمتاجرة فيها واستغل التجار رأس المال الضخم الذي تجمع في أيديهم

وحاولوا استثماره عن طريق المضاربة في شراء واستئجار ورهن حصص
 التزامات الأراضي الزراعية دون أن يذهبوا لاستغلالها بأنفسهم *
 أما المرحلة الثالثة فتتمثل تدهور النظام وإفلاسه وهذه المرحلة تداخلت
 في مسيرتها مع المرحلة السابقة ولا يمكن تحديد بدايتها بسنة معينة
 غير أن سماتها البارزة قد وضحت في النصف الثاني للقرن الثامن عشر.
 فحجم الالتزامات بدأ يسير بصورة ملحوظة إذ اشترك عشرون ملتزماً
 وملتزمة في التزام حصاة واحدة * هذا بالإضافة إلى الأعباء المالية التي
 كانت تفرض على الالتزامات حتى هجر الفلاحون قراهم وعجز الملتزمون
 عن تسديد ما عليهم من أموال وتنازلوا عن حصصهم لغيرهم * وهكذا
 دلت جميع الشواهد في نهاية القرن الثامن عشر على إفلاس نظام
 الالتزام الذي لم يعد النظام الأمثل لإدارة الأراضي المصرية * وكان
 أن اهتدى محمد علي في عام ١٨١٤ إلى إلغاء نظام الالتزام وإحلال
 نظام جديد محله هو نظام الاحتكار *

الفصل الثالث

المجتمع المصرى فى العصر العثمانى

١٧٩٨ - ١٥١٧

تدهور حكم الماليك فجأة بعد عام ١٣٤٠ ، وتعرضت مصر خلال عهد دولة الماليك الجراكسة أو البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) للأزمات مالية صاحبها انحلال في النظم المملوكية • وترجع هذه الأزمات المالية الى تدهور الصناعة في ذلك الوقت ، واسراف السلاطين الماليك في فرض الرسوم على تجارة الشرق ، واضطرب الأمن في المدن التجارية بسبب تطاحن الماليك المستمر داخلها • وترجع أسباب تلك الأزمة كذلك الى سبب آخر هام يكشف عنه ابن اياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » حين يشير الى ما أثارتته أخبار وصول البرتغاليين الى طريق رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر ، في الأسواق المصرية من جزع شديد • ولقد كانت المتاجر الشرقية تسلك طريقين الى أوروبا ، أولهما طريق الخليج العربي حيث كانت سفن المسلمين تحمل المتاجر الى البصرة ، ثم تنقل برا الى بغداد حيث تعبر نهر الدجلة فالفرات ومنه تتجه القوافل غربا نحو شعور الشام • أما الطريق الثاني فكان طريق البحر الأحمر الذي تمر به السفن حتى السويس ، ثم تنتقل المتاجر عبر الصحراء الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية ودمياط ، ومن موانئ الشام الى المدن الإيطالية • وتمكنت جمهورية البندقية — بفضل توطيد علاقاتها مع سلاطين الماليك — أن تحتكر معظم البضائع الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الأحمر • وحصل الماليك وتجار البندقية على أرباح باهظة من هذه التجارة غير أن الماليك اشتطوا في القرن الخامس عشر في تقدير ضرائبهم حتى رآها البنادقة أنفسهم قد جاوزت كل حد • وقد هدد البنادقة الماليك بسحب تجارتهم من الاسكندرية وقطع علاقاتهم التجارية مع مصر •

ولقد شهد القرن الخامس عشر أيضا ظهور قوة البرتغال بعد أن تحررت من الحكم الاسلامي في الأندلس ، واخذ ملاحوها بتشجيع من الأمير هنري الملاح يستكشفون الشاطئ الافريقي من المحيط الاطلنطي •

ولقد ساعدت عدة عوامل على ظهور حركة الكشوف الجغرافية وتنشيطها، وكان على رأس تلك العوامل محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كان يفرضها سلاطين المماليك على المتاجر الشرقية عند مرورها في الأراضي المصرية والشامية * كما أراد البرتغاليون مواصلة عمل الصليبيين بمحاولة الالتفاف حول « ديار الاسلام » وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية ، مع انتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات أفريقيا الغربية من يد المسلمين * وهكذا تطلع البرتغاليون الى كشف طريق بحري متصل الى الهند بالدوران حول افريقية دون الحاجة الى توسط المسلمين وأهل البندقية في نقل التجارة الشرقية الى أوروبا * واستعان البرتغاليون باليهود للحصول على المعلومات التي توصل اليها العرب في فنون الملاحة البحرية ، وحصلوا عن طريق هؤلاء الجواسيس على معلومات مما أدى الى كشف طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ * وهكذا تحولت تجارة الشرق الى أيدي البرتغاليين الذين أخذت سفنهم تنقل أكداش البضائع من الهند وفارس وسيلان وجاوة وملقا والصين *

وبالإضافة الى ذلك أدى حكم دولة المماليك النانية (أو المماليك الجراكسة) الى كثرة الفتن والثورات الداخلية ، ولكن في غمار هذه الفتن برز دور الشعب بطبقاته المختلفة ، بروزا ملحوظا ، فعبر بوسائله الخاصة عن سخطه أو رضاه ، وأدرك السلاطين والأمراء أهميه هذا السخط أو الرضا * ومما يلفت النظر في ذلك العصر تلك العناصر الدينية التي نشدها بكثرة الى جانب السلاطين حتى دخول العثمانيين مصر . فكان رجال الدين (العلماء أو الصفوة المثقفة) يتمتعون بنفوذ وامتيازات واسعة ، ويحسنون استعمال السلاح ويشتركون في الحروب ، بل انهم كانوا ينهرون السلاطين والأمراء حتى دخول نابليون مصر ، كما أن السلاطين والأمراء كانوا يبجلونهم ويقدمونهم على انفسهم ويقبلون قدم من يعتقدون في ولايته (مكانته الدينية) منهم * كما أن ارباب

الحرف كانوا يسبون السلاطين فى الطرق ، ويثورون على الأمراء ويمنعونهم من الزيادة فى الضرائب بل ويحملونهم على الغائها • وكانوا فى أول أيام الممالك يستكرون صعودهم الى مراكز الحكم جهارا ، ويبدون فى ذلك روحا من الدعاية أبعد ما تكون عن الاستكانة والخضوع •

ويعطينا التاريخ كذلك أمثلة حية عن شجاعة أهل المدن وبسالتهم • فكانوا يصنعون أنواع السلاح جميعا ويشتركون فى حروب المغول والصليبيين • ولقد امتلك أهل الاسكندرية مثلا على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تزرخ بأنواع السلاح ورفضوا أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم • ولقد كان أبناء البلاد جميعا يجتمعون فى ذلك الوقت فى نقابات حرفية لها قوانينها وتقاليدها ورؤسائها ، وتمتعت ازاء أعضائها بسلطة ادارية — قضائية — مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة وتعتمد عليها ويحسب حسابها الى حد بعيد • وكذلك شهد العصر المملوكى ثورات شعبية كان السبب غير المباشر لها هو الوضع الاجتماعى الذى انحدرت اليه طبقات الشعب ، فقد كان المجتمع اقطاعيا ، يتضمن معظم أنواع العنف والقهر للطبقات الدنيا •

وفى الوقت الذى بدأت فيه مظاهر الاعياء والضعف تظهر على سلطنة الممالك فى مصر ، أخذت قوة الأتراك العثمانيين فى الظهور والنمو • وقد حرص سلاطين العثمانيين على تعريف المسلمين فى البلاد الأخرى بقيامهم بواجب الجهاد المقدس ونشر أخبار انتصاراتهم ، فكلما انتصروا على دولة مسيحية فتحو مدينة فى البلاد الأوروبية ، كانوا يرسلون السفراء والوفود لابلأغ الأمر الى حكام المسلمين • فدارت المراسلات — التى كانت تكتب باللغة العربية حتى عهد السلطان سليم — فى هذا الشأن بين كل من السلطان محمد الفاتح وسلطان مصر المملوكى

اينال شاه بمناسبة فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٣ • واستمرت العلاقات الودية ووقف العثمانيون بجانب سلاطين المماليك للدفاع عن دار الاسلام عندما عجزت قوة ممالك مصر عن دفع سفن البرتغاليين وغاراتهم على السواحل العربية وقوافل التجارة بينها وبين الهند • غير أن هذه العلاقات الودية التي قامت على المجاملة والمؤازرة وتبادل الوفود والهدايا وما الى ذلك ، ما لبثت أن تدهورت • ففي أواخر القرن الخامس عشر كان العثمانيون قد توسعوا في الأناضول جنوبا حتى البحر المتوسط وجبال طوروس ، بينما كانت دولة المماليك قد استولت على قليقية ، فأصبحت الدولتان متاخمتين ، وكان طبيعيا أن يحدث بينهما نوع من الاحتكاك والصدام • وأدت هذه المناوشات المستمرة الى اجتياح العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول العثماني للعالم العربي • فنشبت بين القوتين المملوكية والعثمانية معركة مرج دابق قرب حلب في ٢٤ يناير عام ١٥١٦ ، حيث انتصر العثمانيون على المماليك انتصارا باهرا • وما لبثت سورية بأسرها أن وقعت في أيدي العثمانيين، ومن ثم زحفوا جنوبا الى مصر فاحتلوها في سهولة عام ١٥١٧ • وأضحت مصر بعد ذلك ولاية عثمانية تابعة للدولة العثمانية ، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها ، وانفصمت عرى الوحدة التي كانت قائمة بين مصر والشام ، وزالت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة بولائه نحو الدولة العثمانية •

وحيثما دخل العثمانيون مصر لم يمسوا نظم الحكم القائمة بها الا من حيث تزويدها بما كان يقتضيه دخولها نطاق امبراطوريتهم من أجهزة تنفيذية جديدة ، وبما يضمن بقاءها ولاية عثمانية • وتمثل ذلك في ايجاد هيئات متعددة متباينة تشترك معا في شئون الحكم ويوازن بعضها بعضا حتى لا تتفرد بالحكم هيئة دون الهيئات الأخرى ، واستمر هذا النظام متبعا من عام ١٥١٧ حتى عام ١٧٩٨ • وتكونت هذه الهيئات

من الوالى أو الباشا^(١) وهو نائب السلطان العثمانى فى حكم مصر ورئيس السلطة التنفيذية بها . وكان مقره القلعة ، واختصاصاته عديدة متنوعة ، ولكن كان يغلب على معظمها الطابع الرئاسى فقط ، فلم يكن مطلق التصرف فى المسائل الهامة ، بل كان عليه أن يحيلها الى الديوان فى القاهرة ليتخذ فيها قرارا . وتتراوح مدة بقاء الوالى فى منصبه بين سنة وثلاث سنوات ولا تزيد عن هذه الفترة الا نادرا جدا . أما الهيئة الثانية فكانت الحامية العثمانية أو الجيش العثمانى الذى تركه سليم بها بعد مغادرته مصر . وتألفت الحامية العثمانية من عدة فرق مثل المشاة والمدفعية والفرسان موزعة بين القاهرة والمدن الكبرى ، وكانت تقوم بحفظ النظام والدفاع عن الولاية . وكان يرأس كل فرقة الأغا ، أما نائبه فكان يسمى الكخيا أو الكتخدا ، وكان رؤساء الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة . ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى ادارة الحكومة لأن الوالى لا يستطيع أن يبرم أمرا الا بموافقة أعضائه . وبعد وفاة سليم الأول أنشأ ابنه سليمان المشرع (القانونى) ديوانين ، الأول الديوان الكبير ، والثانى الديوان الصغير . وكان للديوان الكبير سلطة البت فى شئون الحكومة الرئيسية ونقض أوامر الوالى ، أما الديوان الصغير فكان ينعقد يوميا فى مقر الوالى وينظر فيما تحتاج اليه البلاد . وبعد أن استقرت الحامية فى مصر انتظم فيها كثير من المصريين فأصبح لها صبغة محلية لاسيما بعد أن توقفت الدولة العثمانية بسبب ضعفها عن ارسال جنود الى مصر ، وتمثلت الهيئة الثالثة فى المماليك وهم بقايا سلطنة المماليك السابقة . وقد أبقاهم العثمانيون لحفظ التوازن بين الوالى ورؤساء الحامية . واختير منهم حكام

(١) يقال عادة أن هذه الكلمة كانت اختصارا للكلمة الفارسية بادشاه

أو «سيد» . . وقد تكون هذه الكلمة مستقاة عن الكلمة التركية باش أغا التى استعملت بمعنى (أخ اكبر) .

المديريات أو الصناجق وبعض كبار موظفى الحكومة مثل الكفيا^(١) ،
والدفتردار^(٢) ، والروزنامجى^(٣) وأمير الحج ، والخزنة دار^(٤) . وكان
زعيم المماليك يعرف بشيخ البلد ومقره القلعة وهو ثانى شخصية فى مصر
بعد الباشا العثمانى .

وقد استمر هذا النظام معمولاً به طالما بقيت الدولة العثمانية قوية
مهابة الجانب ، ولكن بعد أن ضعفت وأصابها الانهيار انعكس ذلك على
مصر وتطاحن الولاة ورؤساء الحامية ، وانتهز المماليك هذا المنافس
وتمكنوا من السيطرة واستعادة نفوذهم ، وأصبح بكوات المماليك القوة
السياسية المسيطرة على مصر فى القرن السابع عشر . ونتيجة لضعف
الولاة وكثرة تغييرهم استكثر المماليك من الجند والأتباع ، وركزت
السلطة المدنية والعسكرية فى أيديهم ، وصار لزعيمهم وهو شيخ البلد
نفوذ واسع ، كما صارت مشيخة البلد بمثابة امارة مصر . ونتيجة لذلك
تصدع نظام الحكم الذى وضعه العثمانيون لحكم مصر . وقد شهد القرن
الثامن عشر ترايدا كبيرا فى سلطة بكوات المماليك ، فكانوا يمتنعون عن
إرسال الجزية الى السلطان ويعزلون والى اذا غضبوا عليه ، وأصبح
والى اسما ورمزا لا حقيقة لحكمه ولا هيبة له .

(١) نائب والى .

(٢) المختص بحفظ الدفاتر أو السجلات ولو أن قسم هذه السجلات
الواقع تحت إشراف دفتردار كان يبين الموارد التى تدخل الى الخزانة العامة
سواء أكانت نقدا أم عينا ، وما ينصرف منها وفقا للضرورة ، والمحافظة على
ما يقبض واستعماله ، وكيفية الحصول على موارد أخرى حين بطراً عجز .

(٣) المشرف على الميرى وضبط حساباته . والروزنامة التى يشرف
عليها الروزنامجى عبارة عن كلمة فارسية من مقطعين : روز = يوم ، ونامة =
كتاب أو وثيقة أو خطاب بمعنى كتاب يومى أو جريدة . وهو فى العادة سجل
يومى للدخل والمنصرف .

(٤) أمين الخزنة .

ورغم هذه القوة والسيادة التي أحرزها المماليك في داخل المجتمع المصري ، فإنهم لم يتمكنوا من الانفصال عن الدولة العثمانية بسبب انقسامهم وتطاحنهم وتنافسهم في سُوارع القاهرة وفي قرى مصر • وقد حاول أحد البكوات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو على بك الكبير (١٧٦٨ — ١٧٧٣) الاستقلال ، ولكن الدولة العثمانية أوقعت بينه وبين قائد قواته وهو محمد بك أبو الذهب وانقض على سيده وهزمه • ولكن أبا الذهب لم يستقر في حكم مصر لفترة طويلة اذ مات في عام ١٧٧٥ ، وخلص الأمر في النهاية لمراد وابراهيم اللذين عاثا في مصر فسادا ، وانتهى أمرهما الى كوارث وأحداث وحروب ، وضع الناس من هذا البلاء الذي لم يسبق له مثيل حتى وصلت أصواتهم السلطان العثماني في استانبول ، وأحست كل طائفة من الشعب المصري وبال حكم هذين الطاغيتين ، ولاسيما التجار والعامة • فقاوموا هذا الحكم وقامت الثورات في الريف وفي القاهرة • وتعددت وسائل الثوار، فبعضهم كان يتخذ وسيلة الاحتجاج واللجوء الى المحاكم لرفع المظالم، وبعضهم كان يتخذ وسيلة العدا والمغاضبة • ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت مظالم ابراهيم ومراد الى الأجانب المقيمين في مصر وكانت غالبيتهم من الفرنسيين ، فلجأوا الى حكومة الثورة في فرنسا يطلبون الحماية • واستجابت فرنسا للنداء وأرسلت حملتها المشهورة في عام ١٧٩٨ ، ولكن الطاغيتين فرا ، فر أحدهما عند امبابة في الغرب ، وهرب ثانيهما من القاهرة نحو الشرق الى الشام ، وتركوا مصر وشعبها يواجهان وحدهما أول اعتداء غربي مسلح على مصر في العصر الحديث •

أما النظام المالي في مصر فلم يكن أحسن حالا من النظام السياسي، فقد اعتبر سليم الأول نفسه مالكا لأراضي مصر ، وعلى هذا كان صاحب الأرض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها • وكانت الأرض عند وفاة صاحبتها تؤول الى الحكومة غير أن لورثته ردها الى حوزتهم اذا دفعوا مبلغا معيناً من المال • وعندما زاد نفوذ البكوات المماليك تصرفوا في

الأرض كيفما شاءوا وقسمت معظم أراضي مصر بينهم وآلت اليهم ملكية ثلثي ما يزرع من الأراضي ، ووزع الباقي بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف . ولما ضعفت سلطة الدولة العثمانية في مصر ، وازداد نفوذ المماليك ولم يتمكن والي العثماني من جباية الأموال والضرائب من المصريين لارسالها الى السلطان لجأت الحكومة الى نظام الالتزام . وقد تولى الالتزام طبقة من الأثرياء وهم البكوات المماليك (وان كان بعض المصريين في أواخر العهد الاقطاعي قد اشتغل بالالتزام) . وكان هؤلاء يتعهدون بجمع الضرائب من الفلاحين نيابة عن زمام معين قد يكون قرية أو عدة قرى ، فيدفع للحكومة الضريبة كلها أو بعضها مقدما ويتولى هو جمع الضرائب من الفلاحين بمساعدة سلطات الحكومة وهذه الضريبة هي التي يطلق عليها «الميري» (وهي ضريبة الخراج المخصصة للسلطان) .

على أن الملتزم بالاضافة الى ذلك كان يجمع ضريبة لنفسه تسمى «الفائض» أو فائض الالتزام . وقد تطور نظام الالتزام بمرور الوقت حتى أصبح الملتزم هو المتحكم في الأرض الواقعة في اطار التزامه تحكما مطلقا ، فلم يعد الأمر مقرا على وظيفة جمع الضرائب ، بل تطور الى تحكم كامل في الفلاحين والأراضي ، وهكذا كون الملتزمون الطبقة الاقطاعية في مصر قبل القرن التاسع عشر .

ويصور المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في كتابه « عجائب الآثار » حالة الفلاح المصري في أواخر القرن الثامن عشر فيقول : « وكان اذا تأخر الفلاح في دفع الضريبة جروه من شنبه وبطحوه وضربوه بالنباييت رجال الملتزم هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصراني من مماطلة في استخراج ورقة الخلاص^(١) ، وكذلك الشاهد

(١) الورقة التي تتبنت دفع الفلاح للضريبة .

والشاويش الذين كانوا يسومونه أنواع العذاب » • ومن ذلك نرى كيف سيطرت الطبقة الاقطاعية في مصر على الفلاحين وهى قوة اجتماعية في مصر لها أهميتها • وقد عانى الفلاح المصرى من بعض المظاهر الأساسية التى تميز بها النظام الاقطاعى في مصر وعلى رأسها نظام السخرة ، فكان للدولة الحق في جمع الفلاحين للعمل بالسخرة في المشروعات العامة واستمر هذا النظام لفترة طويلة خلال القرن التاسع عشر • وفى خلال القرن الثامن عشر كانت السخرة لا نقدم للدولة فقط ، بل كذلك لطبقة الاقطاعيين من الملتزمين • فقد كان على الفلاح أن يعمل سخرة ودون أجر في أرض الملتزم وهى «الوسية» بعض أيام الأسبوع • ويتضح لنا من هذا العرض الموجز أن المجتمع المصرى اعتمد بصفة رئيسية على الزراعة ثم الانتاج الزراعى الذى يستنفذ للاستهلاك المحلى ، والفلاحون المنتجون له عبيد في الأرض لطبقة من الملتزمين هم طبقة المالك الحاكمة الغريبة تماما عن المجتمع •

وإذا كنا قد أشرنا الى الفئات الاجتماعية التى سيطرت على المجتمع المصرى في العصر العثمانى من أتراك ومماليك في سياق حديثنا عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية في تلك الفترة فيجدر بنا أن نشير الى الفئات الأخرى أو الفئات الشعبية التى أكلت الشكل العام للمجتمع في مصر • فمن أهم الطبقات الموجودة في المجتمع المصرى طبقة التجار وهى قطاع من البورجوازية المصرية النامية • فلقد شغلت هذه الطبقة حيزا كبيرا في المجتمع ، وكانت أغنى طبقات الشعب ، لأن طبقة الفلاحين — كما لاحظنا — كانت أكثر تعرضا لمظالم الحكام وفداحة الضرائب • وبلغ بعض التجار درجة عظيمة من الثراء والجاه واتسعت تجارتهم واستفادوا من مركز مصر التجارى • وعلى الرغم من تحول تجارة الهند الى طريق رأس المرجاء الصالح ظلت مصر في العصر العثمانى سوقا للمتاجر الواردة اليها من الشرق والغرب • ولقد شجعت هذه الطبقة

المجهودات التى بذلت لاعادة فتح طريق تجارة البحر الأحمر عبر مصر الى الاسكندرية فى عهد على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب ، ومن أبرز البيوتات التجارية المصرية بيت الشرابى الذى كان عظيم الثراء ، كما اعتبر المحرقى نموذجا لهذا القطاع من البورجوازية المصرية •

أما بالنسبة للفتئات الأخرى فكانت توجد الطوائف الحرفية (Guilds) • وكان المشتغلون بكل صناعة أو حرفة يكونون طائفة ، لها شيخ تخضع لسلطته ، وينوب عنها لدى الحكومة ، ويتولى شئونها ، ويدافع عنها ، ويقوم بفض المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب من يخالف منهم العرف والتقاليد ، ويحصل ما تفرضه الحكومة على أفراد الطائفة من ضرائب أو قروض اجبارية ، ويوزعها عليهم بنسبة مقدرة كل منهم على الدفع • وكان منصب شيخ الطائفة وراثيا فى بعض الأسر ، بحيث يستمر فيها مادامت مشغلة بالصناعة • وكان لمشايخ الطوائف نواب أو وكلاء يعرفون باسم النقباء ، يختارهم حكام المدن التى يقيمون فيها أو السلطة العليا • وكان الصانع يعرف باسم المعلم أو «الأسطى» ويلحق به عددا من الصبيان لتعلم الحرفة والوقوف على أسرارها • وإذا أراد الصبى المتعلم أن يصير معلما ، بعد أن يصل الى درجة كافية من التدريب تؤهله للعمل لحسابه الخاص ، ذهب الى شيخ الطائفة مصحوبا بمعلمه ، فيقول المعلم للشيخ أن صبيه قد تعلم الصنعة وأحكمها وأنه يرغب فى أن يصير معلما وأن يمارسها فى مصنع خاص ، فيدنى الشيخ الصبى منه ويحزمه بحزام خاص عنده ، وينادى به عضوا من أعضاء الطائفة • وكان يسمى هذا الاحتفال الرسمى باسم « شد الولد » أى دخول الولد الطائفة •

ومن المظاهر البارزة التى يتلمسها الدارس لنظام الطوائف الحرفية هو أن ولاء الفرد فى داخل المجتمع كان موجها نحو الطائفة أو المجتمع الصغير الذى ينتمى اليه ، فاختمت فكرة المواطنة (ولاء الفرد نحو

الدولة) في مثل هذا الوضع • وانقسم المجتمع الاقطاعي في مصر على هذا النحو الى «طوائف» مما أضعف من مقومات القومية الموجودة عند المصريين وأفقدتها فاعليتها • وعندما ينهار النظام الاقطاعي وتتقدم وسائل الاتصال في مصر بين هذه المجتمعات الصغيرة خلال القرن التالي، سيتحول المصريون من مجموعة من الطوائف الى أمة ذات قومية متكاملة^(١) •

وكان أهل الذمة أو العناصر غير المسلمة من الفئات المكونة للمجتمع المصري في تلك الفترة • حقيقة أن هذه الأقليات عاشت على هامش الحياة الفكرية والسياسية في داخل المجتمع ولكنها شاركت مشاركة فعالة في الحياة الاقتصادية • فلقد تخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية ، اذ كلفهم بكوات الممالك بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأتبان والحاصلات • وتمتعوا في هذا المجال بسلطة مطلقة لا رقابة عليها وكان رؤساؤهم يسمون «المباشرين» وهم وكلاء الممالك وكبار الملتزمين ، أما رئيسهم فكان يسمى « كبير المباشرين » وتمتع بنفوذ عظيم حصل عليه عن طريق اتساع أعمال وظيفته وسيطرته على مرؤوسيه من المباشرين والسيارفة والكتبة والمساحين • كما تقلد أهل الذمة بعض المناصب الهامة ، فالمعلم رزق مثلا كان كاتب سر على بك الكبير ومدير حسابات الحكومة في عهده ، كما تولى أبراهام كاسترو اليهودي ادارة دار السكة في مصر في عهد السلطان سليمان القانوني • ولقد أتاح تحول المجتمع المصري من الاقطاع الى الرأسمالية الفرصة أمام هذه العناصر لأن تنصهر في الأمة المصرية وتكون جزءا أساسيا فيها •

أما أهم الطبقات الموجودة في داخل المجتمع الاقطاعي المصري

(١) محمد أنيس والسيد رجب حراز : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية ، ص ١٦ - ١٧ •

فكانت طبقة العلماء أو رجال الدين لما كان لها من تأثير عظيم في نفوس الناس ، وكانت تمثل قطاعا هاما من البورجوازية المصرية النامية داخل ذلك المجتمع ، بل وشكلت في الواقع القطاع المثقف من تلك الطبقة • ولقد ازداد نفوذ العلماء بسبب وجود الأزهر (الجامعة الاسلامية العريقة) ودور مصر في العالمين الاسلامي والعربي • فكان الأزهر بمثابة المأمن الذي قصده شعب مصر حينما ضاقت به السبل ، وكان بؤرة للثورة على الطغاة والمستعمرين فكان العلماء والمجاورون يستمعون الى انشعب عندما يلجأ اليهم ، فيعضبون على من اوقع بالناس اظلم • وكان غضبهم في أحيان كثيرة ، كافيا لأن يرجع الظالم عن ظلمه بل نجد في بعض الأحيان ، أن الحاكم المظالم كان يعلن عن توبته أمام العلماء ، ويعاهد الله معهم على أن يعدل • فكان الأزهر بالاضافة الى رسالته العلمية والدينية بمثابة «البرلمان» ، ونستطيع أن نتبين ذلك مما كتبه الجبرتي في أماكن متفرقة من كتابه • فالعلماء كانوا حماة للترع والمعدل ورقباء على صلاح الحكم وتوجيه الحاكم ، فعندما ضعفت الامبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر قاد العلماء حركات المعارضة ضد الولاة العثمانيين لأنهم استطاعوا أن يبقوا على ثروتهم ومركزهم الاجتماعي تحت حماية النظام الديني ، وأصبحت لهم زعامة تقليدية تستمد مقوماتها من روح الاسلام ومن الشريعة • فكانوا عبارة عن حلقة الوصل الفعلية بين الطبقة الحاكمة والحكومة ، أي أنهم قاموا بدور الوسيط بين الشعب والحكام واكتسبوا بذلك نوعا من الزعامة في داخل المجتمع^(١) • فيقول الجبرتي في عجائب الآثار « وركب ابراهيم بك ••• وذهب الى الشيخ البكري وعيد عليه ، ثم الى الشيخ العروسي والشيخ الدردير ، وصار

A.L. El Sayed, the rôle of the «Ulama» in Egypt during the early nineteenth century, in P. M. Holt, ed. Political and Social change in modern Egypt, PP. 264-270.

يحكى لهم ، وتنصغر في نفسه جدا ، وأوصاهم على المحافظة وكف
الرعية عن أمر يحدثوه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت ، فإنه كان
يخاف ذلك جدا ، وخصوصا لما أشيع أمر الأفرمانات التي أرسلها الباشا
للمشايخ وتسامع الناس بها ... »^(١) .

وفي ذلك الوقت أيضا كان الوعاظ يعتقدون مجالسهم في المساجد
ويلقون فيها دروسا في معاني العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين،
وهكذا كانوا يقومون خلال تلك الدروس بنقد الحكام * ولعل أول من
نبغ من هؤلاء الوعاظ هو « الشيخ الحفنى » الذى كان يعاصر على بك
الكبير ، ولقد قال عنه راجب باشا ، أحد ولاية مصر : ان الشيخ الحفنى
سقف على أهل مصر ، يمنع عنهم نزول البلاء^(٢) * كما قال عنه
الجبرتي : « لانه كان قطب رحى الديار المصرية لا يتم أمر من أمور
الدولة الا باطلاعه ومشورته » * وكان لا يتردد في إبداء نصحه صريحا
قويا وان كره أهل الحكم رأيه وصراحته * وبالإضافة الى ذلك كان
الشيخ الحفنى عضوا في ديوان الحكومة ، ولم يكن يتردد أثناء مناقشاته
في الديوان أن يهدد الحكام باسم الشعب * فعارض في إحدى المرات
إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجيين في الصعيد وقال
بأن تلك الحملات تضر بالناس وصاح قائلا « والله لن نسمح أن يسافر
أحد وان سافرت الحملة فلن يحدث خير أبدا » * وبعد وفاة الشيخ
الحفنى خلفه في زعامة النقد شيخ آخر يعرف باسم النقيب^(٣) * وقد
سأله مرة محمد بك أبو الذهب عما وجده في استانبول عند زيارته لها

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٢) محمود الشرقاوى : مصر في القرن الثامن عشر ، ج ٢ ،

ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٣) محمد فريد أبو حديد : السيد عمر مكرم ، ص ٤١ .

فرد بقوله : « لم يبق باستانبول خير ولا بمصر كذلك خير ، فلا يكرم بهما الا شرار الخلق » • وعاصر ابن النقيب شيخ آخر هو الشيخ على الصعيدى الذى وصفه الجبرتنى بأنه « شيخ مشايخ الاسلام » ، وكان شديداً فى نقده الأمراء وذوى النفوذ • وكان المظنومون وأصحاب الحاجات يقصدونه ، فيتوجه بمظالمهم وحاجاتهم الى محمد أبى الذهب فلا يخالفه فى شىء منها • فكان الشيخ الصعيدى من الدولة بمثابة النائب الشعبى الذى يسمى مصلحة الناس عند أهل الحكم^(١) •

وهكذا لم يقبل الشعب المصرى الظلم والعنت الذى تعرض له خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بل لجأ الى القوة والثورة ، وصفحات التاريخ مليئة بصور مشرفة لكفاح المصريين الذين لجأوا الى مشايخهم ، وفقهائهم يطلبون منهم التوسط لدى الحكام المستبدين لرفع المظالم عنهم • وفيما يلى بيان ببعض الانفجارات الثورية التى تدخل فيها العلماء لمساعدة الشعب على رفع المظالم التى أثقلت كاهله :

١ — ثورة قام بها الفقراء والنساء والشحاذون فى عام ١٦٩٥ ، فلقد حلت تلك السنة وكانت مصر تعاني غلاء شديداً ومجاعة ، ونزح أهل القرى الى مصر حتى امتلأت بهم الأزقة وأكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من أصحابها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق • ويصف الجبرتنى هذه الحالة فيقول : « وفى منتصف المحرم ••• اجتمع الفقراء والشحاذون ، رجالا ، ونساء ، وصبياناً وطلعوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبههم أحد ، فرجموا بالأحجار فركب والى وطردهم فنزلوا الى الرميلى ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح ، وحاصل كتفدا^(٢) وكان ملائنا

(١) محمود الشرقاوى : نفس المرجع ص ١٣٨ — ١٣٩ •

(٢) نائب الوالى •

بالشعير والفلول • وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمئة نصف فضة والشعير بثلاثمئة والفلول بأربعمئة وخمسين والأرز بثمانمئة نصف فضة ••• وحصل شدة عظيمة بمصر وأقاليمها وحضرت أهالى القرى والأرياف حتى امتلأت منهم الأزقة ••• وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رؤوس الخبازين • ويذهب الرجال والمثلاث مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودون به ••»^(١) • وأدى غضب الشعب هذا الى عزل الوالى الظالم على باتسا خازن دار وعين مكانه وال آخر فجمع الفقراء والشحاذين ووزعهم على الأمراء والأعيان •• واختص هو والأعيان بفريق منهم ، « وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء حتى انقضى الغلاء »^(٢) •

٢ — كما ثار الشعب المصرى فى ابريل ١٦٩٦ (رمضان ١١٠٨ هـ) اذ طلب من ياسف اليهودى — ملتزم دار صك النقود — بالسفر الى استانبول • عندما سأله الباب العالى عن أحوال مصر وعن امكانية زيادة الضرائب المفروضة على أهلها أجاب بأنه من الممكن عمل ذلك والتمزم بتحصيل ذلك • فكتب له الباب العالى الفرمانات والأوامر السلطانية اللازمة وعاد الى مصر وقرئت فى الديوان ووافق الوالى على تنفيذها ونادى رجاله بذلك على الناس فى الطرقات والشوارع • ويصف الجبرتى موقف المصريين من ذلك فيقول : « فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد الى الأمراء وراجعوهم فى ذلك فركب الأمراء والصناجق وطلعوا الى القلعة وفاوضوا الباشا فجابوهم بما لا يرضيهم فقاموا عليه قومة واحدة وسألوه أن يسلمهم اليهودى فامتنع من تسليمه • فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه منه • فأمرهم بوضعه فى الفرقانه (السجن) ولا يشوشوا عليه ، حتى ينظروا فى أمره • ففعلوا به كما أمرهم • فقاهت الجند على لباشا وطلبوا أن يسلمهم اليهودى

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٦ •

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦ — ٢٧ •

المذكور ليقتلوه ، فامتنع • فمضوا الى السجن وأخرجوه وفعلوا به ما ذكر *** » • وقام الشعب بعد ذلك بجمع الحطب وحرقه • وفي هذا المجال يسجل الجبرتي شعرا لشاعر معاصر هو الشيخ حسن الحجازي فيقول :

بمصر حل يهودي	أخنى عليه الاله
فظ غليظ ، عنيف	سوء ، كرية لقاه
بعشر صوم أتاننا	له جواد علاه
والناس تشتد سعيا	أمامه ووراه
ومعه أمر وفيه	ما قاده لرداه
فحين قص عليهم	ما قص ، قصوا قفاه
بصارم ذى صقال	أزال عنا عناه ^(١)

٣ - وفي عام ١٧٠٢ لحق « أهل الأسواق » غبن من تزييف النقود وطلبوا من علماء الأزهر التدخل في الأمر ، ويتحدث الجبرتي عن هذه الحالة فيقول : « في سنة ثمان ومائة وألف وفي سنة اثنتي عشرة وثلاث عشرة وأربع عشرة فشا أمر الفضة المقاصيص والزيوف وقل وجود الديوانى • وان وجد اشتراه اليهود بسعر زائد وقصوه فتلف بسبب ذلك أموال الناس • فاجتمع أهل الأسواق ودخلوا الجامع الأزهر وشكوا أمرهم للعلماء ، وألزموهم بالركوب الى الديوان في شأن ذلك فكتبوا عرضحال وقدموه الى محمد باشا ، فقرأه كاتب الديوان على رؤوس الأشهاد • فأمر الباشا بعمـل جمعية في بيت حسن أغا (المستحفظان) بإبطال الفضة المقصوفة وظهور الجدد وإدارة دار المضرب وعمل تسعيرة وضرب فضة وجدد نحاس • فيكون ذلك بحضور كتخدائية وكامل الأمراء الصناجق والقاضي والأغوات ونقيب الأشراف وكبار العلماء ، وائتوني بجواب كاف وأعطاه ليد كتخدا الجاويشية • فأرسل التتابيه مع الجاويشية تلك الليلة ، واجتمع الجمع في صباحها بمنزل

(١) الجبرتي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

حسن أغا بلفيه ، وانتفقوا على الغاء المقاصيص بالوزن من الصيارف...
 وشرط عليهم ابطال الحماليات وعدم معارضته فى شىء وكل من مسك
 ميزانا فهو تحت حكمى ، وكذلك الخصاصة وتجار البن والصابون ،
 ويركب بالملازمين ويكون معه من كل وفاق جاويش بسبب أنفسار
 الأبواب • وأخبروا الباشا بما حصل ، وكتب القاضى حجة بذلك وكتب
 المشايخ عليها ، وكذلك الباشا ، وأعطوها لعلى أغا فطلع الى الباب
 وأحضر شيخ الخبازين وباقى مشايخ الحرف ، وأحضر أردب قمح
 وطحنه وعمل معدله على الفضة الديوانى خمسة أواق بجديدين والبن
 باثنى عشر فضة الرطل والصابون بثلاثة • • • وحصل ذلك بحضرة
 مشايخ الحرف والمغاربة • وأرسل الأغا قفل الصاغة ومسبك النحاس
 وأمر باحضار الذهب والفضة المتباعة والنحاس لدار الضرب وأحضر
 نسيخ الصيارفة وأمرهم باحضار الذهب والريالات • • •^(١) وهكذا رأينا
 أنه بعد أن تدخل العلماء أمر الباشا بعقد اجتماع عام يحضره البكوات
 الماليك والقاضى التركى وقواد الفرق العسكرية ونقيب الأشراف وكبار
 العلماء • ونظر المجتمعون فى الأمر واستقر رأيهم على خطة محددة
 تحفظ مصلحة الناس وتزيل أسباب شكواهم •

٤ — كما يذكر الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » أن السلطان
 أرسل الى مصر فى عام ١٧٣٥ أمرا خاصا ببعض الشئون المالية منها
 « ابطال مرتبات أولاد وعيال ومنها ابطال التوجيهات ، وان المال يقبض
 الى الديوان ويصرف من الديوان وان الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل
 بها الأفندية^(٢) » ، الى بيوتهم • واجتمع الديوان لتلقى ذلك الأمر ،
 فلما قرىء المرسوم السلطانى قال القاضى العثمانى : « أمر السلطان
 لا يخالف ويجب طاعته » ، فانبرى له أحد الأعضاء المصريين وهو الشيخ
 سليمان المنصورى فقال « ياشيخ الاسلام • • هذه المرتبات (كانت) من
 فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان • • وهذا شىء جرت به
 العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات

(١) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٩ ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) كان لقب أفندى خاصا بوجه عام برجال القلم سواء من العلماء
 أو سكرتيرى الحكومة .

ومساجد وأسبلة « جمع سبيل » ولا يجوز ابطال ذلك ، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك • فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ويخالف أمره ، لأن ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم للامام في فعل يخالف الشرع ولا لنائبه أيضا » • وكان موقف الشيخ المنصوري هذا سببا في عدول الحكومة عما كانت عليه ، ويدل هذا على مدى يقظة العلماء المصريين وتنبههم الى المحافظة على الشرع والحقوق العامة ، وتقدير الحكام لرأيهم •

٥ - وفي يناير ١٧٨٦ قام بعض سكان القاهرة بثورة لرد عدوان الظالمين ووجدوا في ذلك تأييدا من علماء مصر لاسيما من الشيخ أحمد الدردير مفتي المالكية • فلقد قام حسين بك (المعروف بشفت أي اليهودي وكان من كبار المماليك) ومعه طائفة من جنوده قاصدا منطقة الحسينية ، وهجم على دار رجل يدعى أحمد سالم الجزار ، كان رئيسا على دراويش الشيخ البيومي ، ونهبه « حتى مصاغ النساء والفراش ، ورجع والناس تنتظر اليه » • وفي صباح اليوم التالي ثارت جماعة من أهل الحسينية ، وذهبوا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وشكوا أمرهم الى الشيخ أحمد الدردير فشجعهم ، وكما يروى الجبرتي « ساعدتهم بالكلام وقال لهم أنا معكم • فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ••• وانتشروا بالأسواق ••• وأغلقوا الحوانيت • وقال لهم الشيخ الدردير في غد تجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم »^(١) • وبعد ساعات قليلة أرسل ابراهيم بك ، شيخ البلد وكبير المماليك ونائبه ، أميرا آخر الى الشيخ الدردير وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحال ، وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ٢ • ص ١٠٣ •

بالمنهوبات ونأتى بها من محل ما تكون ، واتفقوا على ذلك وقرأوا
الفاتحة « (١) » .

وللشيخ الدردير موقف مشابه فى نفس العام عندما حضر الاحتفال
بالمولد الأحمدي بطنطا فى أثناء ذلك جاء كاشف الغربية من قبل ابراهيم
بك وفرض على الناس مغارم كثيرة « وأغار أعوان الكاشف على بعض
الأشراف وأخذوا جمالهم » فذهبوا الى الشيخ الدردير وشكوا اليه
ما حل بهم ، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب اليه فخشوا بطشه ولم
يذهبوا . فركب الشيخ بنفسه ومعه كثير من العامة . فلما وصل الى
خيمة كتحدا الكاشف دعاه فحضر اليه « والشيخ راكب على بغلته فكلمه
ووبخه وقال له أنتم ما تخافوا من الله . ففى أثناء كلام الشيخ اكتحدا
الكاشف هجم على الكتحدا رجل من عامة الناس » ، وقامت فتنة بينهم
وبين الجند ضرب فيها وأسر واحد من أتباع الشيخ . وذهب كاشف
المنوفية وكاشف الغربية بعد ذلك يعتذران الى الشيخ . ولما عاد الى
القاهرة قدم ابراهيم بك بنفسه الى منزله معتذرا ومعه كبار المماليك .

وعندما اشتد طغيان ابراهيم بك ومراد بك ، اتخذ المصريون خطوة
حاسمة للمحافظة على حريتهم وحقوقهم ، وارغام الحكام على الاصلاح .
وكان العلماء دائما يشعرون وهم ممثلوا الشعب — أن واجبهم يناديهم
بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة بل هبوا لنداء
الواجب . وفى الواقع لم يتهاون شعب مصر فى حقوقه ، بل حافظ
عليها بشتى الوسائل كلما اشتتم رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء
على حرمانته أو اشتداد وطأة المماليك . ففى عام ١٧٩٥ أسرف محمد بك
الألفى فى فرض ضرائب جرافية على سكان احدى القرى القريبة من
من بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت . وكان للشيخ عبد الله

(١) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر حصة فى أرض تلك القرية فاستغاث به أهلها • واتصل الشيخ الشرقاوى بابراهيم بك ومراد بك لوقف هذه المظالم ولكن أعرض كل من هذين الأميرين ونأى بجانبه ، وثارت شائرة الشيخ الشرقاوى وعزم على اقيام بحركة شعبية كبيرة يهتز لها — فى ظنه — مركز هذين الطاعيين ، فذهب الى الجامع الأزهر وجمع اليه المشايخ وأمر باغلاق أبواب الجامع ايذاناً بأن أمرا اذا قد ارتكبه الحكام الطغاة • وانطلق المنادون يأمررون بغلق الحوانيت وهجر لأسواق • وفى اليوم التالى كانت جموع الشعب تتجه من كل حدب وصوب الى الجامع الأزهر • واكتظ المسجد والحي بالحشود الشعبية وركب الشرقاوى والمشايخ العلماء كل منهم بغلته وتقدموا المواكب الشعبية الصاخبة وذهبوا الى دار الشيخ محمد السادات • ووقع اختيارهم على هذه الدار لأنها كانت على مقربة من دار ابراهيم بك حتى يرى هذا الأخير غضبة الشعب على حكومته •

وقد نجح هذا التدبير اذ لما شاهد الأمير هذه الحشود المتراسة من الجماهير ولها عجيح وضجيج بعث من قبله أيوب بك الدفتردار « فحضر اليهم وسلم عليهم ، ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم • فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها • فقال لا يمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات • فيقل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك؟ والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ • • » (١) • وقد وعدهم أيوب بك الدفتردار بالعودة اليهم بعد عرض مطالبهم على ابراهيم بك • ويتضح لنا من خلال هذه

(١) الجبرتى ، ح ٢ ، ص ٢٥٨ •

التطورات أن المسألة خرجت من مجرد حركة فردية تستهدف المطالبة بوقف اعتداءات محمد بك الألفى على احدى قرى مديرية الشرقية الى حركة شعبية تنادى بضرورة وضع حد للمظالم التى يتعرض لها الشعب ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الاسراف فى استيراد المالك وتأمين الأفراد على أموالهم وأرواحهم •

ولكن أيوب بك الدفتردار لم يعد كما وعد ، فانفض المجلس « وركب المشايخ الى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وبناتوا بالمسجد ، وأرسل ابراهيم بك الى المشايخ يعرضهم ، ويقول لهم أنا معكم ، وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى • وأرسله الى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك » ، ونزل مراد عن غلوائه ، أو يدو أنه تظاهر بذلك ، وطلب أربعة من المشايخ ، عينهم بأسمائهم • فذهبوا اليه بالجيزة فلاحظهم والتمس منهم السعى فى الصالح • وفى البسوم الثالث من قيام هذه الثورة ، حضر الباشا الى منزل ابراهيم بك واجتمع انبكات هناك ، ثم طلبوا حضور المشايخ ، فحضر وفد عنهم مكون من خمسة أعضاء هم : الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ خليل البكرى شيخ المسجدة البكرية ، والشيخ محمد الأمير ، والأخير من صفوف كبار العلماء اشتهر بجرأته وشجاعته واغلاظه القول للأمرء المالك • وأرادت جموع الشعب أن تسير وراءهم الى مكان لاجتماع فمنعهم المشايخ وطلبوا منهم الانتظار فى الأزهر ، وطالت الجلسة وقرر البكوات فى نهايتها « أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسا موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشئون وأموال الرزق . ويبتلوا رفع المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ماعدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ،

ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان ، ويسيروا في الناس سيرة حسنة»^(١) . وكان القاضي حاضرا بالمجلس ، فكتب حجة عليهم بذلك وفرض (أى وقع) عليهما الباشا وختم عليها ابراهيم بك ، وأرسلها الى مراد بك فختم عليها وانجلت الفتنة ، ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع الحوادث والمظالم والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية . وفرح الناس وظنوا صحته . وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة . ونزل عقيب ذلك مراد بيك الى دمياط وضرب عليها المضرائب العظيمة وغير ذلك»^(٢) .

وبعد هذا العرض الخاص بالانقفاضات أو الحركات الشعبية وأسبابها يتضح أن سلطة البكوات المماليك بدأت تطغى بشكل ملحوظ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واستطاع هؤلاء أن يحصلوا على هذا النفوذ بسبب الخلل الموجود في نظم الحكم العثمانية التي وضعت لادارة تلك الولايات . فالحكم العثماني كان بصفة عامة عمليا ولم يكن عنيفا ، فقد كانت القاعدة أن كل باشوية (ولاية) تعيش على دخلها الخاص وتدفع الى خزانة الدولة قدرا معقولا جدا من الجزية . كما استطاع العثمانيون أن يدفعوا عن الشرق العربي أخطار الاستعمار الأوروبي حتى أواخر القرن الثامن عشر . ولكن من ناحية أخرى اتصف هذا الحكم بالرجعية ، اذ أبقت النظم العثمانية على الحالة كما كانت قبل الفتح العثماني وأوجدت بعض القوى (كالديوان والأوجاقيات العسكرية) التي كانت تحد من سلطة الباشا العثماني وتقيدها . وعن

(١) الجبرتي ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق .

طريق هذا القصور الموجود في النظم العثمانية وانعدام مقاييس محدودة للعدالة استفاد موظفو الدولة من وقوع الظلم على الرعية * ولم يقبل المصريون — كما وضحت — الخضوع للظلم أو التراخي في حقوقهم ، فلجأوا الى طبقة العلماء التي لعبت دورا كبيرا في الحياة العامة برضاء بقية الطبقات الموجودة في مصر * وتدخلت لدى الطبقات الحاكمة من عثمانيين ومماليك ، واستطاعت في حالات كثيرة أن ترفع الظلم عن كاهل المصريين *

ولقد أثبتت تلك الحركات الشعبية مدى تأصل روح المقاومة عند المصريين ضد الظلم والاستبداد ، ولكن هذا لا يدفعنا الى حد الاسراف في تقييم تلك الحركات الشعبية كما حاول بعض المؤرخين عندما أطلقوا على «الحجة» أو الوثيقة التي وقعها ابراهيم ومراد اسم «الماجنا كارتا» المصرية ، وفي بعض أحيان أخرى اسم « الوثيقة السياسية الكبرى »^(١) ، فهذه الحركة ومثيلاتها التي حفل بها تاريخ الشعب المصري ابان القرن الثامن عشر لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية أو التخلص من حكم البكوات المماليك * فلقد كانت الفكرة السائدة في العالم الاسلامي هي أن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين وزعيم العالم الاسلامي * ولقد أُشيع بأن الخلافة العباسية انتقلت بعد سقوط القاهرة في أيدي العثمانيين الى استانبول ، وهذا ما لم يحدث بالفعل * وعلى ذلك فلم يناقش العرب في ذلك العصر العثماني الأول أحقية السلاطين العثمانيين في الخلافة ، بل اعترفوا بها وظلوا ينظرون الى السلطان على أنه خليفة رسول الله في حكم المسلمين^(٢) *

وعلى هذا النحو فالنضال الشعبى الذى شهدته مصر خلال العصر

(١) انظر : محمد فريد أبو حديد : السيد عمر مكرم ، ص ٦٠ .

(٢) محمد أنيس : العالم العربى الحديث ، كتاب المجتمع العربى ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٢ .

العثماني لم يتعد العمل على رفع ظلم الحكام • وهكذا انبثق النضال دفاعا عن مقومات حياة الشعب المصرى فى اطار الفكرة الاسلامية •
ومما يدعم هذا الرأى ما ذكره أحد المؤرخين بأنه « اذا كان هذا اللون من النضال يعتبر فى جوهره ، كفاحا من أجل الحقوق الطبيعية للفرد ، فإنه كان يمضى وينتهى ببساطة عصره، وفى اطار الفكرة الاسلامية»^(١) •
وهكذا انصرف الشعب المصرى خلال تلك الفترة وقبل نزول الحملة الفرنسية أرض مصر الى مقاومة الظلم الداخلى واستبداد المماليك الأمر الذى دفع أحد العلماء بالصراخ فى وجه طاغية منهم قائلا :
« لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » • وكان الأزهر طوال هذه الفترة هو ملاذ المظلومين ونقطة تجمع أكثر حركات الاحتجاج على الظلم •

وإذا رجعنا الى ما كتبه أحد الرحالة المعاصرين الذين زاروا مصر فى تلك الفترة لأمكننا فهم الدوافع الحقيقية وراء تلك الانتفاضات والثورات • فلقد كتب فولنى Volney (١٧٥٧ — ١٨٢٠) فى كتابه « أطلال الحضارات القديمة أو تأملات فى ثورات الامبراطوريات »
يقول :

« كل ما يقع فى مصر تحت البصر أو السمع يدل على أن هذا البلد بلد الاستعباد والاستبداد — فانك لا تسمع حديثا الا وله صلة بفتنة أهلية أو فاقة عامة أو ابتزاز مال أو اغتصاب حق أو تعذيب بالضرب أو افاضة لروح • فالأمن فيها على الأرواح والأموال مفقود ودم الانسان يهدر كدم الحيوان • والقضاء نفسه يسفك الدم فى غير صورة قضائية وعسس الليل والشرطة يتولون ، فى جولاتهم الليلية والنهارية للمحافظة على الأمن والنظام ، الفصل فى الخصومات بين الناس

(١) عبد العزيز الرفاعى : الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة ، ص ١١ •

وينطقون بالأحكام على الفور وينفذونها في أقل من لمح البصر بدون أن يكون للمحكوم عليه حق الاستئناف • وترى الجالدين لهذا السبب يطلّون مواقع الجند ويرافقونهم أيان يذهبون ويلازمهم حيث يحلون، فما هي الا اشارة من أحدهم حتى ترى رأس مظلوم وقد هوت الى قاع كيس من الجلد •

• وياليت خطورة الذنب نفسه تسوغ تعريض المذنب لمثل تلك العقوبة ، فانك كثيرا ما تجد أن الباعث على السير بين الناس بمثل هذا التعسف شره في نفس عظيم من أرباب الشوكة والجاه أو وشاية من عدو بغيض ، وهو ما ينجم عنه أن يدعى الرجل المشتبه فيه بأن عنده مالا الى المثل بين يدي البيك فيطالبه بمبلغ معين • فاذا أنكر أن عنده مالا يفى بالمطلوب طرح أرضا وجلد على قدميه مائتي جلدة أو ثلثمائة ، وكثيرا مايفضى هذا الضرب الى موته ، فتعسا تعسا لمن يشتبه فيه انه على شيء من اليسر والرخاء ، اذ ما من أحد اتجهت اليه هذه الشبهة الا وقد كانت العيون مبنوثة حوله للتجسس عليه ، فلا يلبث أن يبلغ أمره الى ذوى الشأن » •

» وليس بميسور لأحد أن ينقذ نفسه من شر اعتداء الأتقواء على ماله الا اذا تظاهر بالفقر المدقع ولبس للمسكنة والزراية لبوسها « (١) •

ولهذا كله قامت الثورات المتعددة ، وكانت أهمها تلك التي قامت في عام ١٧٩٥ ، واستخلص فيها المصريون «حجة» مكتوبة وممهورة يتعهد فيها الحاكم أمام الرعية بإبطال الضرائب الجديدة وإبطال أعمال

(١) نقلا عن ا. ب. كلوت : احة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود،

النهب ودفع الرواتب للعلماء وارسال صرة الحرمين ولكنها سرعان ما أصبحت حبرا على ورق • ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال هو خلو تلك الحجة تماما من ذكر أية مبادئ أو ضمانات تشريعية تؤدي الى تغيير نظام الحكم المعمول به في مصر أو الى ضمانات سلطة الحاكم بقوة القانون ، باشارك العلماء المصريين في السلطة أو بأية وسيلة من الوسائل • ولقد أجهضت هذه الثورة الشعبية بسبب قلة النضج السياسي في ذلك الوقت عند الشعب المصرى وقادته الذين قنعوا بالتعهدات الأدبية ، ولم يطالبوا بالضمانات العملية كالمشاركة في حكم مصر • ولم يفتن قادة الشعب من علماء الأزهر الى ذلك لعدم درايتهم بالنواحي السياسية « الا أن الضمانين الحقيقيين لأى «حجة» أو ميثاق هى المشاركة فى أداة الحكم من ناحية واقامة تنظيم سياسى شعبى يكون الدرع الواقى لحقوق الجماهير من ناحية أخرى • وبغير هذين الضمانين يصبح أى صك يوقعه الحاكم للمحكوم حبرا على ورق » •

القِسم الثاني

مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين

الفصل الرابع

مصر في النصف الأول للمقرن التاسع عشر

- ١ — نتائج الحملة الفرنسية على مصر •
- ٢ — تولي محمد على الحكم وتأسيس باشوية وراثية •
- ٣ — جهود محمد على في اعادة تنظيم مصر •
- ٤ — أثر حكم محمد على في المجتمع المصرى •

١ - نتائج الحملة الفرنسية على مصر

رغم أن الاحتلال الفرنسي كان قصيرا وغير ناجح ، فقد كان حادثة مهمة مشحونة بنتائج كثيرة بالنسبة لمصر . فحتى وقت مجيء الحملة الفرنسية ، لم تتعرض الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني لاعتداء سافر من جانب القوى السياسية في أوروبا . ولكن انتهت هذه العزلة التي عانتها الشرق العربي ، وأصبحت هذه الأراضي مجال تنافس بين الدول الأوروبية الكبرى ، إذ أظهرت الحملة الفرنسية منطقة «الشرق الأوسط» ومصر خاصة منطقة ذات أهمية استراتيجية كبيرة للقوى العظمى . وأيقنت الحكومات البريطانية في القرن التاسع عشر بأنه من الضروري أن يسيطر على مصر حاكم تربطه بانجلترا روابط الصداقة حتى لا تترك مصر بأي ثمن للفرنسيين . وبذلك افتتحت الحملة الفرنسية مرحلة طويلة من التنافس الأنجلو - فرنسي على مصر اختتمت بالاحتلال البريطاني لها في عام ١٨٨٢ . وبعد أن فشلت حملة فريزر على مصر في عام ١٨٠٧ ، ظلت بريطانيا تقف أمام استقلال مصر ، وعارضت مشروعات محمد علي ، ووقفت أمام أطماعه ، لأنها شعرت بأنه مصدر تهديد لمصالحها الحيوية في المنطقة ولاسيما بالنسبة لخطوط مواصلاتها التي تربطها بالهند والشرق الأقصى . فأجبرته على الانسحاب من المناطق التي استولى عليها ، كما كانت هي المسئول الأول عن معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة الدولية التي فرضت على مصر نوعا من الوصاية الدولية ، ووضعت هذه التسوية حدودا وأبعادا للباشوية المصرية ، وحددت وضع مصر الدولي حتى إعلان الحماية البريطانية على مصر في عام ١٩١٤ . فقد ربطت التسوية مصر بالامبراطورية العثمانية من جديد ، ولو أنها ميزتها من الولايات العثمانية الأخرى بأن جعلت الحكم وراثيا في أسرة محمد علي طبقا لقاعدة الأرشد فمن يليه . ولقد آملت الدول الأوروبية الكبرى التسوية وضمنت استثمارها .

وخلقت هذه الوصاية الدولية فرصة واسعة لتغلغل النفوذ الأوروبي ، الانجليزى والفرنسى ، حين عمد أبناء محمد على الى الوقوف أمام محاولات الباب العالى لجعل مصر ولاية عادية فى نطاق الامبراطورية العثمانية ، وذلك بتطبيق التنظيمات الخيرية فى مصر ، وهى المشكلة التى قامت بين عباس حلمى الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) والسلطان العثمانى • ويمثل عصر عباس حلمى الأول فترة تفوق النفوذ الانجليزى ، ولاسيما عندما توطدت علاقات الصداقة بينه وبين قنصل بريطانيا العام فى مصر وهو شارل مرى (Charles Murray) ، وحصلت بريطانيا على موافقة عباس على انشاء سكة حديدية فى مصر لى تخدم المصالح البريطانية وتساعد على سهولة وسرعة نقل التجارة والجنود البريطانيين بين انجلترا والهند •

أما عصر محمد سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فيمثل فترة التفوق الفرنسى • فقد كان من الفرنسيين رفاق صباه ومعلموه ، لهذا منح فرديناند دى ليسبس فى نفس عام توليته الامتياز الأول لقناة السويس • وقد عارضت انجلترا فكرة حفر القناة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وحبطت بناء الخط الحديدى الذى تم فعلا بين القاهرة والسويس فى عام ١٨٥٨ • كما كانت ترى أن مشروع القناة سيؤدى الى وضع حاجز من المياه بين مصر وسورية يفصل مصر فصلا تاما عن الدولة العثمانية بحيث يمكنها اعلان استقلالها متى شاءت • ولقد رأت انجلترا فى اكتمال مشروع القناة مقدمة لوقوع مصر تحت السيطرة الفرنسية واذا ما نشبت الحرب بين انجلترا وفرنسا استطاعت الأخيرة فى الحال احتلال مداخل القناة والتحكم فى التجارة الانجليزية شرسى رأس الرجاء الصالح •

أما عصر اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) فيمثل التفوق الفرنسى أولا ثم الانجليزى ثانيا • وكان اسماعيل ، بعكس عباس وسعيد ،

ذا طموح وإرادة واتجاهات خاصة ، ولكن ذلك كلفه من الأموال أكثر مما تحتل مالية مصر ، فاستدان من الدول الأوروبية ، وتغلغل النفوذ الأجنبي السياسى والمالى حتى انتهى الأمر باشتراك وزراء أجنبية فى مجلس النظار المصرى • وعندما حاول اسماعيل إيقاف النفوذ الأجنبي وتحريك عوامل الثورة الوطنية المصرية ، ضغطت إنجلترا وفرنسا على الباب العالى حتى عزل اسماعيل فى ١٨٧٩ • وقد بلغ النفوذ الأجنبي فى مصر غايته بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، وبذلك خرجت مصر من الناحية الفعلية عن السلطنة العثمانية واستقر الاحتلال نهائيا بالاتفاق الودى (Entente Cordiale) بين إنجلترا وفرنسا فى عام ١٩٠٤ ، فأطلقت فرنسا بمقتضاه يد إنجلترا فى مصر • كما أطلقت إنجلترا يد فرنسا فى مراكش • وظلت مصر من الناحية النظرية ولاية عثمانية حتى اعلان الحماية البريطانية على مصر فى عام ١٩١٤ • وقد ظلت تركيا ترفض الاعتراف بالحماية حتى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ التى تنازلت بمقتضاها عن كافة حقوقها وسيادتها فى الشرق العربى ومن بينه مصر •

ومن ناحية أخرى مهد الاحتلال الفرنسى الطريق لحدوث تغييرات بدلت شكل مصر فى خلال القرن التاسع عشر • وليس من الصواب أن تنسب الى الاحتلال الفرنسى مباشرة تلك الميول الفرنسية القوية التى أثرت فى الثقافة المصرية ، والتى برغم التقلبات السياسية المختلفة ما تزال نلاحظها حتى الوقت الحاضر • فالأدباء والعلماء الذين صحبوا بونا برت جاءوا الى مصر ليتعلموا أكثر من أن يعلموا ، كما أن بحوثهم التى نشرت فى كتاب وصف مصر (Description de l'Egypte) كانت أساس البحث العلمى الحديث فى كل ما يخص التاريخ والمجتمع والاقتصاد المصرى^(١) • ودأب هؤلاء العلماء عقب مجيئهم الى مصر على بحث ودراسة أحوال

J. Heyworth-Dunne, An introduction to the history (١) of education in modern Egypt, P. 96.

مصر من جميع النواحي ، فقاموا بدراسة التربة والمناخ والمنتجات الزراعية والمعدنية وامكانيات مصر المختلفة وما ضمته من آثار ... الخ . وكان الهدف من نشر هذا الكتاب هو نشر المعرفة ورفع اسم فرنسا ، وظهر أول أجزاء الكتاب في عام ١٨٠٩ وكتب الاهداء باسم الامبراطور نابليون . أما آخر الأجزاء فقد ظهر في عام ١٨٢٢ ، وبدأت الطبعة الثانية من الكتاب في عام ١٨٢١ وانتهت عام ١٨٢٩ . وكان يقابل هؤلاء العلماء في مصر المشايخ وعلماء الدين ، وقد حاول العلماء الفرنسيون استئصالهم وإطلاعهم على ما حوته أبنية المجمع العلمى المصرى (Institut d'Egypte) الذى أسسه بوناپرت ، ولكنهم لم يتقبلوا هذا التقدم العلمى وحركة الاستنارة بل أعرضوا عنها^(١) . ومما ساعد على ذلك أيضا إيمانهم بأن الثقافة الأوروبية قد جاءت مع جيش غاز كافر . ومن ناحية أخرى ظل سواد القاهريين يسيئون الظن بالعلماء ويشكون فى نواياهم ولا يفرقون بينهم وبين سائر الفرنسيين .

وعلى ذلك فإن الغرس الحقيقى للثقافة الفرنسية فى مصر يمكن ارجاعه الى عصر محمد على . اذ دخلت أفكار فرنسية كثيرة الى مصر فى خلال حكمه على أيدي رجال من أمثال دروفتى (Drovetti) قنصل فرنسا فى مصر ، ومنجان (Mengin) والضباط الفرنسيين الكثيرين الذين بقوا فى مصر بعد انسحاب الفرنسيين أو عادوا اليها فيما بعد أثر سقوط نابليون ، خاصة وأن ضباطا آخرين مثل كولونيل سيف Sève (سليمان باشا الفرنساوى ١٧٨٧ — ١٨٦٠) وغيره من أنصار نابليون قد اضطروا لمغادرة فرنسا ليحربوا حظهم فى مكان آخر . كما أنتت المؤثرات الفرنسية الى مصر فى عهد محمد على مع البعثات التعليمية الى فرنسا التى كان يشرف عليها جومار (Jomard) أحد علماء الجامعة

(١) قام الجبرتى بزيارة المجمع العلمى وسجل وصفا دقيقا ممتعا له فى كتابه عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٤ — ٣٦ .

الفرنسية • وكانت جماعة السان سيمونيون (Saint-Simonians) الذين دأبت أحلامهم فكرة المزاوجة بين الشرق والغرب بإنشاء قناة عبر برزخ السويس هم ورثة مهندسى الحملة الفرنسية الذين قاموا بعمليات مسح دقيقة لمصر^(١) • وهكذا فإن الحملة الفرنسية أكدت الاهتمام الفرنسى بمصر أكثر من الاهتمام المصرى بفرنسا ، أى أن ما حققه الباحثون هو تقديم مصر للغرب ، أكثر من التأثير فى المصريين •

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت حالات فردية تمثل مقدار الاهتمام بتقدم أوروبا وتخلف الشرق • ويمثل هذه المجموعة الشيخ حسن بن محمد العطار (١٧٦٦ — ١٨٣٥) ، الذى كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما عند دخول الفرنسيين الى مصر • فالتقى بنفسه فى أيدي العلماء الفرنسيين بدون تحفظات ، وعلموه فى مقابل دروس اللغة العربية فنون بلادهم • وتعود أن يقول بعد الانتهاء من هذه الدروس « أن بلادنا لا بد أن تتغير ولا بد أن تأخذ عن أوروبا العلوم التى لا توجد هنا »^(٢) • ولما عجز عن أحداث أى تأثير عام بسبب موقف علماء الأزهر من هذه الحضارة الجديدة عكف على ترقية تعليمه ، وتحول من دراسة العلوم التقليدية مثل الفلسفة والدين الى الأدب ولاسيما الأدب العربى فى أسبانيا الذى استحوذ على تفكيره •

لقد أحدث الغزو الأجنبى صدمة عنيفة دون شك للنظام الاجتماعى فى مصر • فلقد كونت مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر — رغم الصراع الحزبى — مجتمعا مستقرا فى جوهره ، تسيطر عليه الصفوة

Rivlin, The agricultural policy of Muhammed Ali in (١) Egypt, P. 14.

J. M Ahmed, Intellectual Origins of Egyptian Nation- (٢) alism, P. 5.

العسكرية (الماليك) والعلماء في تحالف ضمنى مع طبقة من الصناع والتجار تدافع عن امتيازاتها عن طريق طوائفها الحرفية بالمدن وارتباطاتها بالوجاقات العسكرية • ويرتكز على فئة كبيرة من طبقه المزارعين أو الفلاحين وهم عبيد في الأرض لطبقة من الملتزعين • أما الطوائف غير المسلمة في المجتمع المصرى ، وهى الأقليات المسيحية وغير المسيحية ، فكانت تعيش على هامش الحياة الفكرية والسياسية في حياة المجتمع المصرى وان كان لها دور كبير في الحياة الاقتصادية • فلقد تخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية ، فعهد اليهم البكوات الماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات • وكانت لهم في هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة مطلقة لا رقابة عليها •

ولقد قضى مجيء بونابرت على البناء الأساسى للوظائف وعلى المصالح والحقوق المكتسبة • ففقدت الصفوة العسكرية القديمة — وكان معظمها يتكون من الماليك — موضعها وزال حكم ابراهيم ومراد وحل محلها عساكر الجمهورية الفرنسية • وهكذا وجهت حروب الفرنسيين مع الماليك ضربة قاتلة لقوة الماليك وهى القوة العسكرية الاقطاعية في مصر • فأدى هذا الى تخلخل النظام الاقطاعى في مصر من أساسه • وبزوال هذه الصفوة العسكرية ازداد نفوذ العلماء ومكانتهم وهم العنصر الآخر في المشاركة التقليدية • وكانت طبقة المشايخ أو العلماء من أخصب وأنشط الطبقات المصرية في القرن الثامن عشر • فلم تكن طبقة فكرية منعزلة عن الحياة العامة ، وانما لعبت دورا كبيرا في الحياة العامة برضاء بقية الطبقات الأخرى ، لأن رجال الدين في ذلك الوقت كانوا موضع تقدير العالم الاسلامى كله • وتمخضت أحداث الحملة الفرنسية دون أدنى شك عن نمو نفوذ العلماء أو المشايخ الذين أتيح لهم أن يلعبوا دورا كبيرا ابان الحملة الفرنسية • فقد فطن بونابرت الى أهمية الدور الذى لعبوه في العصر السابق ، فرأى -- جريا وراء السياسة الاسلامية

والوطنية التى اتبعها — الاعتماد عليهم فى اقناع الشعب بقبول الحكم الفرنسى • كما حاول بونابرت تملقهم ولكن لابد أن أساليب بونابرت قد بدت بالنسبة لهم أساليب سخيصة وصبيانبة ، لقد تقبلوا أو سمته ونياشينه ، ووقعوا الوثائق التى أعدت ليوقعوها ، ولكنهم ظلوا غير ملتزمين فى قلوبهم كلية للنظام الجمهورى أو فرنسا أو نابليون بونابرت • واشترك كثير من العلماء فى حركات المقاومة المسلحة وفى ثورة القاهرة الأولى على وجه الخصوص ضد الفرنسيين •

ولقد تجسدت محاولة بونابرت فى اقامة تكلف مشترك بين الفرنسيين والعلماء (المشايع) بدلا من التكلف القديم بين الماليك والعلماء — فى الدواوين التى أقامها فى مصر ، فحين انتهت المفاوضات بتسليم القاهرة دخلها أولا الجنرال دييوى (Dupuy) على رأس طلائع الجيش الفرنسى فى ٢٣ يوليو ١٧٩٨ ثم احتلها بونابرت بجيشه فى اليوم التالى ، ونزل بقصر محمد بك الألفى بالأزبكية ، وبعد مشاورات مع علماء الأزهر أصدر فى ٢٥ يوليو مرسوما بتأليف ديوان القاهرة (أو أول وزارة مصرية) من تسعة أو عشرة أعضاء كلهم من المشايخ • وكان لديوان القاهرة — الذى تقرر أن يجمع ظهر كل يوم — حق تعيين اثنين من الأغاوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة • وهكذا كان الديوان مسئولا أساسا عن حكومة القاهرة المحلية • وبناء على ذلك كان الديوان بدعة جديدة فى مصر اذ لم تعرف المجالس البلدية فى ذلك الوقت ، فلم يكن للطبقة البورجوازية فى المدن العربية خلال العهد العثمانى أى نصيب رسمى فى الحياة السياسية أو السلطة التنفيذية • ولم تنشأ مجالس المدن فى أى جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية حتى اقتبست هذه التنظيمات عن النظم الأوروبية فى القرن التاسع عشر^(١) • وكان ديوان

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, P. 161.

(١)

القاهرة يعمل تحت اشراف وسيطرة فرنسية دقيقة ، ولكن رغم سلطاته المحددة فقد كان تجربة مهمة لأنه منح السلطة السياسية الفعلية لرجال كان دورهم في الدولة هو أن يكونوا وسطاء ومصالحين وأصحاب نفوذ أكثر من كونهم سلطة تنفيذية •

وفي الدواوين الأخرى أعطى بونابرت للعلماء نصيباً أقل • ففي ٢٧ يوليو عام ١٧٩٨ أصدر بونابرت مرسوماً بإنشاء دواوين الأقاليم أو مجالس المديرية ، ونص المرسوم على أن يتألف في كل مديرية من مديريات القطر المصري ديوان من سبعة أعضاء يقومون على مصالح المديرية ويعرضون على بونابرت كل الشكاوى التي تصل اليهم ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض • كما نصت المادة الثانية على أن يعين في كل مديرية أغا «رئيس» الانكشارية ويتصل دائماً بالقومندان الفرنسي ، ويكون تحت امرته قوة مسلحة من ستين رجلاً من الأهالي يحافظ بهم على النظام والأمن والسكينة • كذلك نصت المادة الثالثة على تعيين مباشر (مدير ضرائب) في كل مديرية لجباية أموال الميرى والضرائب وإيراد أملاك الممالك ، في كل صنفية ، وحل مجلس المديرية محل الصنّجق في كل اختصاصاته وحل رأى الجماعة محل رأى الفرد ، وهى تجربة في ديمقراطية الحكم المحلى لم تكن معروفة في عهد العثمانيين والمماليك •

أما الديوان العام الذى انعقد في الفترة من ٥ الى ٢٠ أكتوبر عام ١٧٩٨ وعمل عمل مجلس استشارى (جمعية تأسيسية استشارية) فقد تكون من مندوبين من جميع أنحاء مصر بقصد استشارته في النظام النهائى للمجالس التى أسسها بونابرت وفي وضع النظام الادارى والمالى والقضائى في مصر • ولقد تكون كل وفد في هذا المجلس من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار وثلاثة من مشايخ البلد أو مشايخ العرب • وهكذا تألف الديوان في صورته التأسيسية الأولى من ١٨٠ عضواً ، فكان

رأيه في التشريع الذي يتعلق بالمواريث ، فقد تمسك أعضاؤه بحكم الشريعة الاسلامية في توريث الذكور والاناث . وهكذا ظلت قوة الشريعة الاسلامية وهي المأمن الرئيسى لكل الطبقات في مصر خلال قرون من الحكم الأجنبي . وفقد العلماء من أعضاء الديوان الثقة في سياسة الاصلاح التي فرضت عليهم فجأة . وأما في شأن نظام الملكية فقد أدخل بونابرت نظام الشهر العقارى الاجبارى لتسجيل مستندات الملكية تسجيلا اجباريا مقابل رسوم قدرها ٢٪ ، وجعل الرسوم ذات أثر رجعى مع مصادرة كل أطيان أو عقار لا يتم تسجيله لصالح الجمهورية الفرنسية . فاحتج أعضاء الديوان ، وتراجع بونابرت وأصدر مرسوما في ١٦ أكتوبر ١٧٩٨ بتوثيق العقود الجديدة فقط وبفرض رسوم على الشهادات الحكومية وأدخل نظام الضريبة التصاعدية على الأملاك والعقارات مقدرة على أساس تقسيم الأملاك الى ثلاث شرائح والبيوت الى أربع . وقد قبل فرض هذه الضرائب والرسوم الجديدة بسخط عام وكان أعضاء الديوان في مقدمة الساخطين ، ولكنهم لم يوفقوا الى تخفيضها . وقد انتهى الصراع بين البرلمان وبونابرت بأن عطل بونابرت اجتماعات الديوان العام الموسع المكون من ١٨٠ عضوا في ٢٠ أكتوبر وأحل محله الديوان العام المصغر المكون من ٣٥ عضوا ولكنه أعاد فتح الديوان في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ بعد أن ظل معطلا شهرين وجعل أعضائه ٦٠ عضوا معينا بدلا من ٢٥ ، ويتكون من هئتين ، الديوان العمومى والديوان الخصوصى . ولقد ظل الديوان يجتمع من ديسمبر ١٧٩٨ حتى ٢٤ يناير ١٨٠٠ عندما وقعت معاهدة العريش ، واستمر معطلا تسعة أشهر حتى أعاده عبد الله جاك مينو بقصد التقرب من المصريين . فاستغنى عن الديوان العمومى واكتفى بديوان خصوصى اختزله الى تسعة أشخاص . ولقد انفض الديوان بطبيعة الحال بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، وتعرض كل من اشتركوا في الحكم من العلماء والأعيان في عهد الحملة الفرنسية لاتهامات بالخيانة أو بالتعاون

مع الاستعمار الفرنسى • ولكن الذى لاشك فيه ، هو أن اقامة هذه الواجهة المصرية للحكم الفرنسى واجراء هذه التجربة الأولى فى الحكم النيابى ، بعد أن كان المصريون معزولين تماما عن أداة الحكم فى البلاد ، وبعد أن كانوا خاضعين تماما للحكم الشخصى أيام العثمانيين والمماليك ، كان بمثابة ايقاظ لهم وتنبيه الى حقهم فى مزاوله السلطة فى بلادهم وبمثابة تدريب لهم على مسئوليات الحكم الديموقراطى • ولقد أثبتت الحوادث بعد خروج الفرنسيين كيف استطاع المصريون أن يقرروا مصيرهم بصورة عملية فى عام ١٨٠٥ •

لقد أشرنا الى أثر الحملة على تاريخ مصر السياسى وتكوينها الاجتماعى ، ويبقى أن نبحث عن النتائج الاقتصادية للاحتلال الفرنسى • فبعد الاحتلال الفرنسى ، عادت مصر الى الحكم العثمانى وساد فيها النظام الاقتصادى السابق لمجىء الحملة الفرنسية • وعلى الرغم من ذلك ، فان بعض المؤرخين ينظرون الى الحملة الفرنسية على أنها نقطة تحول فى تاريخ مصر الاقتصادى • فلقد أضعف الفرنسيون النظام الاقطاعى باضعاف قوة المماليك ، اذ أبعدوهم عن الحكم ، وصادروا أطيان الملتزمين منهم • ولكن ذلك العمل لم يحدث تحولا كبيرا فى تاريخ مصر الاقتصادى • فلقد فشل الفرنسيون فى هدم المجتمع الاقطاعى فى مصر واقامة مجتمع رأسمالى تابع لفرنسا • والسبب فى ذلك أن الحملة لم تتح لها فرصة القيام بذلك لأنها شغلت منذ نزولها بمصر بثورات المصريين المتعددة فى القاهرة والأقاليم ، ومن ناحية أخرى كانت الأساطيل البريطانية تفرض حصارا اقتصاديا على الشواطىء المصرية لمنع اتصال الفرنسيين بالخارج • كذلك وضع الفرنسيون مشروعات للإصلاح الاقتصادى فى مصر لازالة مظهر مهم من مظاهر الأوضاع الاقطاعية فى الزراعة وهو تعدد الضرائب المفروضة على الفلاح بجمع هذه الضرائب فى ضريبة واحدة وهو المشروع الذى عرف باسم « المشروع العظيم » • وكان المشروع يهدف أيضا الى منع الملتزمين من

تحصيل الأموال ومن التدخل في شئون القرى ، ولكن لم يقدر له النجاح بسبب ظروف الحملة الفرنسية السيئة في مراحلها الأخيرة • ومع ذلك فقد مهدت تلك المشروعات الطريق للإصلاح ووجهت الأنظار إليه ، حتى نفذ فعلا في القرن التاسع عشر • أما بالنسبة للتجارة الخارجية ، فقد حاول بونابرت أن يبعث فيها النشاط ، ففكر في حفر قناة السويس ، ولكنه عدل عن ذلك لاعتقاد علماء الحملة الفرنسية بتفاوت مستوى المياه بين البحرين الأحمر والمتوسط • وكانت هذه التجارة ضعيفة وتتجه بصفة أساسية إلى السودان وشبه الجزيرة العربية وتركيا وجنوب أوروبا • ولكن لفتت الحملة نظر إنجلترا إلى أهمية طريق مصر البري لنقل المسافرين والبريد والسلع بينها وبين الهند ، فزادت حركة التجارة العابرة (Transit Trade) فأدى هذا إلى إنشاء الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة ثم من القاهرة إلى السويس ، فزادت حركة مرور المسافرين والبريد والسلع ، حتى انتهى الأمر بحفر قناة السويس وفتحها للملاحة البحرية في عام ١٨٦٩ • ولقد أثر ذلك على موقف بريطانيا السياسية من مصر كما أوضحت قبل ذلك •

٢ - تولى محمد على الحكم وتأسيس باشوية وراثية

كان الانهيار السريع في قوة المماليك في مصر من أهم النتائج السياسية للحملة الفرنسية • ولم يحدث هذا الانهيار بسبب الهزائم المتوالية التي ألحقها الفرنسيون بالمماليك فحسب ، بل بسبب الظروف التي انتهت فيها الاحتلال الفرنسي أيضا • فعند جلاء الفرنسيين نهائيا عن مصر استمر التنافس القديم بين المماليك ، فبعد وفاة مراد بك في مصر العليا في أبريل عام ١٨٠١ استمر الانقسام بين أنصار إبراهيم بك وخلفاء مراد بك • وعاد إبراهيم بك مع الصدر الأعظم الى مصر وعاش فترة طويلة ولكن انحصرت المنافسة على انزعاجه في ذلك الوقت بين اثنين من مماليك مراد بك هما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي • وبالإضافة الى ذلك اخففت وجهه نظر المماليك السياسية ، فمحمد بك الألفي خان يعمل للحصول على حديده الانجليز ، أما عثمان بك البرديسي فكان يفضل الاسنجاج بفرنسا • وكان هناك فريق ثالث بزعامه عثمان بك حسن يرى الوفوف على الحياد وتأييد العثمانيين • ولقد تكاففت هذه العوامل على اصعاف قوة المماليك والتمهيد لراطحه بهم نهائيا خلال السنوات القليلة التالية •

وعلى أية حال ، ام يعد للمماليك مجال مفتوح يتصارعون فيه من أجل السيطرة على مصر ، فلقد احتلت القوات البريطانية والجيش العثماني مصر ، وعملت الحكومة العثمانية على استخلاص مصر لنفسها وعزمت على الحيلولة دون انتعاش قوة المماليك ، وقررت وضع مصر تحت سيطرة وال عثماني • وفي بادئ الأمر كان حلفاؤهم البريطانيون أقل تحمسا لذلك • ولكن تغير ذلك الموقف بعد أن شعرت الحكومة البريطانية بأهمية مصر الاستراتيجية ، وفضلت إعادة نظام الحكم المملوكي لأنه سيكون أكثر خضوعا للنفوذ البريطاني من أي وال أو نائب

عن السلطان • ولقد أظهر اهتمام بريطانيا بالماليك تلك الزيارة التي قُام بها محمد الألفى للندن في عام ١٨٠٢/١٨٠٤ • ولقد طالب الألفى أثناء وجوده في لندن — الحكومة البريطانية بتأييد الوعود التي أعطاها لهم الجنرال هتشنسون بإعادة حقوقهم السابقة اليهم • وفي رد الحكومة البريطانية على خطاب الألفى في ١٥ ديسمبر ١٨٠٣ قالت انه « يسرها كثيرا أن تؤكد نه اقتناعها العام بالمسلك السليم الذي سلكه البكوات والخدمات التي أسدوها باخلاص عند اتحادهم في العمل مع القوات البريطانية في مصر ، وان جلالة الملك سيقوم فوراً بالسعى لدى الباب العالي واستخدام نفوذه عن طريق سفيره بالقسطنطينية حتى يصل الى صلح بين البكوات وبين صاحب السيادة الشرعى عليهم سلطانهم (العثماني) حليف (انجلترا) الصادق الأمين ، وأن يبذل (جلالة الملك) قصارى جهده لإعادة تأسيس مصالح البكوات في مصر ، على أساس يكفل لهم وضعاً لا يقل في مزاياه عن الوضع الذي كان لهم وقت غزو الفرنسيين للبلاد »^(١) • وعلى أية حال لم تكن السيطرة الدائمة على مصر هي هدف بريطانيا ، على أنها ماطلت في الجلاء عن مصر طبقاً لمعاهدة أميان (Amiens) في ١٧ مارس ١٨٠٢ ، وأرسل نابليون أحد رجاله الى مصر وهو الكولونيل سباستيانى (Sebastiani) ليتعرف على نيات الانجليز ، وطالبهم بالجلاء • وأخذ نابليون يطالب انجلترا بالجلاء عن مصر الى أن تم انسحاب القوات البريطانية في مارس عام ١٨٠٣ •

وبعد انسحاب الانجليز لبث العثمانيون والماليك يتنافسون على السلطة في مصر • وكان العثمانيون قد نصبوا من قبل محمد خسرو باشا والياً على مصر ، وهو أول وال عثماني بعد خروج الفرنسيين من البلاد •

(١) محمد فؤاد شكرى ، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، ج ١ •

وقد باشر خسرو عمله في يناير عام ١٨٠٢ وظل في مصر نحو عام ونصف، ولكنه فشل في مهمته • فلقد دار الصراع بين قواته والمماليك الذين ركزوا أنفسهم في مصر العليا ، ولم يستطع إعادة تنظيم شؤون الادارة المالية • ونار جنده عليه بسبب تأخر رواتبهم ورفضوا التوجه الى الصعيد لمحاربة المماليك ، وكان أشد الجنود ثورة عليه طائفة الأرناؤود (الألبانيين) بقيادة طاهر باشا فاستولوا على القلعة وهرب خسرو الى دمياط ، وسيطر طاهر باشا على القاهرة ، وفي ٦ مايو ١٨٠٣ أعلن العلماء (المشايخ) اختيار طاهر باشا قائمقاما ، ولكنه لم يظل طويلا في هذا المنصب اذ اغتاله الانكشارية في ٢٦ مايو عام ١٨٠٣ • وهذا يتضح أنه بعد انسحاب الانجليز بقليل ظهر حزب ثالث اشترك في الصراع من أجل السيطرة على مصر ، يتمثل في قوة الحامية الالبانية ، التي جاءت الى مصر في بادئ الأمر لمحاربة الفرنسيين واخراجهم منها • ولقد خلف طاهرا في قيادة القوات الالبانية ضابط في الثلاثين من عمره يدعى محمد علي بك ، وهو الذي تمكن في خلال السنوات القليلة التالية من أن يصبح واليا على مصر • وقبل أن نتبع الصراع العنيف الذي شهدته مصر في السنوات القليلة حتى عام ١٨٠٥ نود أن نشير الى قوة أخرى أصبح لها صوت مسموع في مصر وهي قوة العلماء ، ولقد ساعد ضعف المماليك والعثمانيين بسبب تنافسهم المستمر على ازدياد نفوذ العلماء ، وقدر لهم أن يلعبوا دورا بارزا وحاسما خلال أحداث هذه الفترة •

وكان تولى محمد علي قيادة الحامية الالبانية في مايو عام ١٨٠٣ الخطوة الأولى نحو الحصول على السيادة المطلقة في مصر ، فأقام لنفسه حكما وراثيا استمر في أسرته التي أصبحت الملكية المصرية في القرن العشرين ، وظلت تحكم الى أن قضت عليها الثورة في عام ١٩٥٣ • وينتمي محمد علي الى طراز من الحكام كان مألوفاً في القرن الثامن عشر،

وهو طراز الحاكم العثماني الذي حاول أن يؤسس في ولايته حكما وراثيا • ونجاح محمد علي في هذا المجال جدير بالاهتمام لأنه حدث في نفس الوقت الذي أعادت فيه الحخومة العثمانية فرض سيطرتها المركزية مرة أخرى على الولايات التي تتكلم التركية وولايات الهلال الخصيب • وسنشير فيما بعد الى أسباب هذا النجاح ، أما الآن فينبغي علينا أن نجمل سيرته •

ولد محمد علي بمدينة قولة المخذونية في عام ١٧٦٩ • وكان والده — ويحتدل أنه من اصل ألباني — قائداً للجبود غير النظامية ، وتوفي عندما كان محمد علي صغيراً في السن • وقد جاء الى مصر مع قوة صغيرة جمعت من قولة لمحاربة الفرنسيين في مصر • ورضى محمد علي بسرعة فائقة لدرجه انه بعد سنين وجد نفسه في قيادة اقوى الفرق المحاربة في مصر • ويمدنا أن نقسم حياة محمد علي الى اربع مراحل رئيسية • ففي الفتره ما بين ١٨٠٣ و ١٨٠٥ كان محمد علي واحداً من بين المنافسين على السلطة في مصر • وبالحصول على اولاية في العام التالي نال محمد علي بذلك سيطرة اسميه ، ولكنه اخذ يدعم قوته على أساس متين بالتخلص من منافسيه وانشاء قوة عسكرية فعالة يمكن الاعتماد عليها • واستغرق تنفيذ هذا العمل العقدين التاليين • ولقد اختبرت هذه الانجازات اختباراً دقيقاً خلال حرب المورة وما بعدها • أما المرحلة الثالثة من تاريخه فتبدأ في عام ١٨٣١ عندما قام بغزو سورية • وانتهى المصدام بين الوالى وسيده بما له من نتائج مهمه وانعكاسات على الدبلوماسية الدولية رسمياً في عام ١٨٤٠ • وتلت ذلك سنوات قليلة أخيرة من المجهود المتراخي والشيخوخة المتزايدة حتى توفي في عام ١٨٤٩ •

وفي الفترة الأولى (١٨٠٣ — ١٨٠٥) كانت مصر في حالة من الفوضى • وفي بادئ الأمر رأى محمد علي من مصلحته التحالف مع

عثمان بك البرديسي للتخلص من الحاكم العثماني الجديد (أحمد باشا)
والزعيم المملوكي المنافس محمد بك الألفي ، الذي عاد من انجلترا في
فبراير عام ١٨٠٤ * وبهذا التحالف تمكن محمد علي من طرد الوالي
أحمد باشا بعد أن حكم يوما واحدا وليلة * وبدأت سلطة محمد علي
تظهر في الميدان * وبعد حوالي شهر اختلف محمد علي مع البرديسي
الذي أحدثت فداحة ضرائبه ثورة في القاهرة على المماليك * واحتشد
الناس في الشوارع حاملين الرايات والدعوف والطبول وأخذت جموعهم
تتادى : « ايش تأخذ من تغليسي يا برديسي »^(١) * وانتهز محمد علي
هذه الفرصة لخدمة برنامجه ، فانضم الى المتسايع واتصل بالجماهير
وكسب بذلك عطف الشعب وثقة علمائه ، وأمر محمد علي جنوده بمهاجمة
المماليك الموجودين بالقاهرة ، فأخرجوا من المدينة وذهبوا الى الصعيد
ونجح محمد علي بعد ذلك في تعيين خورشيد باشا محافظ الاسكندرية
واليا على مصر ، وكان خامس من تولى ولاية مصر في خلال سنتين *
واستمرت الحرب بعد ذلك سجالا بين المماليك وجنود الوالي ومحمد
علي الى أن ارتدوا عن القاهرة وانسحبوا مرة ثانية الى الصعيد *
وبعد مطاردة المماليك الى مصر العليا ، انهار التحالف القائم بين محمد
علي وخورشيد الذي حاول ابعاد محمد علي عن مصر * وفي ذلك الوقت
عمل محمد علي لينال تأييد العلماء وخاصة نقيب الأشراف السيد عمر
مكرم علي الوالي خورشيد * وما ان علم العلماء بوصول فرمان يقضى
بعودة الألبانيين ورؤسائهم الى بلادهم حتى طلبوا من محمد علي البقاء
في مصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة ، وقد قبل محمد علي ذلك *
وبذل خورشيد مساعيه مرة أخرى لاقتضاء محمد علي عن مصر ، وأصدر

(١) الرافعي ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

السلطان فرمانا بتعيينه واليا على جدة ، ولكن خورشيد لم يوفق في مسعاه هذا .

وفي ١٢ مايو عام ١٨٠٥ توجه العلماء الى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) ورفعوا شكاواهم الى القاضي من استغلال خورشيد وسوء سلوك قواته . واستدعى القاضي وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع الذى عرض عليه العلماء المطالب الآتية^(١) :

١ — ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة الا اذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

٢ — أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة الى الجيزة .

٣ — ألا يسمح بدخول أى جندى الى المدينة حاملا سلاحه .

٤ — أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى .

وفي اليوم التالى (الاثنين ١٣ مايو) أجمع العلماء على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على واليا مكانه وامتنع محمد على فى بادىء الأمر حتى لا ينسب اليه أنه المحرض على هذه الثورة ، ولكن السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى قلداه خلعة الولاية . غير أن محمد على أظهر التمنع وقال « أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة ، وكان هذا القول رياء ونفاقا من محمد على حتى يتمسك الحاضرون به . وفعلوا قالوا جميعا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة رضا أهل البلاد . وجهروا بخلع

G. Douin, Mohamed Aly, Pacha du Caire. (١)

A. de Vaulabelle; Histoire moderne de l'Egypte; ، وثيقة رقم ٢٦ ، IX. PP. 210-211.

ولم يقنع العلماء بالدور التقليدي الذي كانوا يقومون به من قبل وهو بذل الوساطة بين الحاكم والشعب بل « تزعموا المحكومين وخاطبوا الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى » . وتتمثل روعة هذا الحدث في أنه كشف عن طبيعة الشعب المصرى الأبية ، فلم يجبن أمام استبداد الولاة العثمانيين ولم يتقاعس بل كافح وأظهر روح العزة والمكرامة المتأصلة فيه ، وليس أدل على ذلك مما قاله نبد الرحمن الجبرتى : حتى أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشتري به سلاحا » . كما أدت هذه الأحداث الى زيادة نفوذ العلماء وعلو شأنهم ، فأسهموا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم فى مواجهة ومعالجة الأزمات الخطيرة التى تلاحقت بعد ذلك مثل أزمة نقل محمد على الى سالونيك والحملة البريطانية على مصر عام ١٨٠٧ والوساطة التى طلبها محمد على منهم لانتهاء خصومة المماليك له . ومن ناحية أخرى ، عندما حاول محمد على التخلص من الالتزام الذى يقضى بطلب المشورة من الزعماء والرجوع اليهم فى شئون الحكم ، تمسك عمر مكرم بميثاق ١٣ مايو عام ١٨٠٥ ، وأدى ذلك الى حدوث صراع حول هذا المبدأ بين عمر مكرم ومحمد على انتهى بالصدام بينهما .

وعندما علم خورشيد بهذا الانقلاب ، ثارت ثائرتة ووقف موقف العناد والتحدى ورفض ان يخضع لرغبة الشعب وقال للرسل الذين حملوا اليه ما اتفق عليه العلماء : « انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين » . وقرر خورشيد المقاومة واعتصم بالقلعة وسارع الى اتخاذ تدابير عسكرية وسياسية متحديا شعور المصريين . ولم يكن هناك بد من أن ينزله هؤلاء « الفلاحون » بالقوة من القلعة ، وهكذا بدا النضال الذى استمر شهرين وكان زعيمه وموجهه هو السيد عمر مكرم . فطاف بأحياء القاهرة لتعبئة المشاعر ودعوة الشعب الى تأييد الثورة

والانضمام اليها ، ويتحدث الجبرتي عن ذلك فيقول : « واجتهد السيد عمر أفندي النقيب وحرص الناس على الاجتماع والاستعداد ، وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامه والوجاقلية * والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ، ولازهوا السهر بالليل في الشوارع والحارات ويسرحون أحزابا وطوائف ، ومعهم المشاعل وبطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور » (١) * وفي ٢٤ مايو عام ١٨٠٥ شن جنود خورشيد هجوماً مفاجئاً على متاريس الثوار لكنهم استطاعوا أن يردوا هؤلاء الجنود على أعقابهم خاسرين * وام تقتر عزيمة الشعب المصري أو القائد ، فعقد في اليوم التالي (٢٥ مايو) اجتماع هام بين السيد عمر مكرم وعمر بك الأرناؤودي أحد مستشاري خورشيد باشا ، دار فيه نقاش طويل حول حق الشعب في عزل الحاكم الظالم ومحاربتة * وقال عمر بك معترضاً على تلك القرارات : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » *

فأجاب عمر مكرم : « أولو الأمر هم العلماء وحاملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة ، وهذا شيء مألوف من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار في الناس بالجور فانهم يعزلونه ويخلعوناه * فقال عمر بك : « وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ فرد عمر مكرم : « قد أفنتي العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة » (٢) * وقد وضح من هذا

(١) الجبرتي : ج ٣ ، ص ٣٣٠ .

(٢) الجبرتي : ج ٣ ، ص ٣٣١ .

الحوار عمق ايمان عمر مكرم بقضية الشعب وشجاعته في الحق حين قرر بصريح العبارة وجوب عزل السلطان نفسه اذا حاد عن العدل • ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن السيد عمر مكرم كان ينشد الحاكم العادل ولم يذكر قط عبارة الحرية أو الاستقلال عن دولة الاسلام الكبرى ، فهو كما يقول أحد المؤرخين الذين كتبوا عنه « الزعيم ذو النزعة الاسلامية ، لا يكاد يرى الأمان الا في ظل سلطان المسلمين ، ولم يكن يترامى فكره السياسى الى الآفاق والمفاهيم التى تزدهم بها أفئدة الثوار المناضلين في أيامنا هذه • والحق أن الوجدان الدينى والفكر السياسى كانا يلتحمان بعضهما مع بعض في نفس الزعيم عمر مكرم : فهو يردد في حديثه مع عمر بك الألبانى نظرية اسلامية سياسية مهمة هى حق الشعب في عزل حكامه اذا أساءوا الحكم ، وهو يصر على نقل هذه النظرية الى مجال التطبيق العملى » (١) •

وطال الحصار بخورشيد ، وأوشك أن يفتك به وبقومه الجوع والعطش ، فأرسل كتابا الى بعض أنصاره في قليوب ، يطلب اليهم أن يخرجوه من حصار «الفلاحين» « صيانة لعرض السلطنة وناموس الدين » ، ولكنهم خشيّة من غضب الشعب ، بعثوا برسالته الى السيد عمر مكرم • وأبقى الشعب على حصاره لخورشيد ومن معه في القلعة حتى ضاق به وبهم الحال • وكان بعض رجاله يتسلل الى خارجها لينال شيئاً من طعام أو ماء ، فكان الناس يأخذونه أسيراً ، أو يقتلونه • وأصبح عمر مكرم القائد الأعلى ، فكانت الأوامر تلقى باسمه ، ويمر المنادى في المدينة كل يوم يذيع في الناس ما ينبغى أن يقوموا به ، وما يجب عليهم أن يتبعوه ، وكان النداء يبدأ « حسبما رسم السيد

(١) عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم ، ص ١١٩ •

عمر أفندى والعلماء لجميع الرعايا » • ولقد حارب الجنود الألبانيون بفتور الى جانب المصريين لأن غالبية الجنود المدين مع خورشيد كانوا من جنسهم ، كما أن محمد على لم يدفع لهم مرتباتهم المتأخرة • فتقاعسوا عن القتال وانطلقوا ينهبون الأموال من الشعب استيفاء للمرتبات التى عجز محمد على عن دفعها لهم • ووقعت مناوشات بين الشعب والجنود الألبانيين سقط فيها قتلى من الفريقين • ولقد قتل من الألبانيين ما يقرب من ستين جنديا • وظهر فى ذلك الوقت مصرى من عامة الشعب (الذين نطلق عليهم اسم أولاد البلد) ويدعى حجاج الخضرى وقام بذبح الجنود الألبانيين الذين يعتدون على الشعب • وكان حجاج الخضرى هذا شيخا لطائفة الخضرية فى القاهرة ، ويقيم فى حى الرميلة (الرفاعى) • فجمع من أهل هذه المنطقة جماعة قوية تأتمر بأمره وتخضع لتوجيهات السيد عمر مكرم • وذهب محمد على الى منزل السيد عمر مكرم يرجوه مطالبة الشعب بالكف عن الاعتداء على جنوده وأعلن محمد على أن كل جندى يعتدى على أحد من الأهالى يضرب عنقه فوراً •

واتفق خورشيد مع على باشا السلحدار قائد الجيش العثمانى فى المنيا والذي جاء الى القاهرة وعسكر فى مصر القديمة على أن يقوم كل منهما فى وقت واحد بهجوم مفاجئ على مواقع المصريين فتنهار مقاومتهم وتنتهى الثورة • ولما علم عمر مكرم بهذه المؤامرة أصدر نداء عاجلا الى الثوار يأمرهم بالتيقظ والاستعداد وعدم مبارحة مواقعهم وقام حجاج الخضرى ورجاله فى ذلك بمراقبة الجبل من ناحية القلعة ، فرأوا جماعة من الجنود وغيرهم يتجهون صعودا الى القلعة ومعهم قافلة من الجمال ، حاربوهم حتى استولوا على القافلة ، وكانت محملة بالذخائر • وحضر الثوار بالأسرى ورعوس القتلى الى منزل السيد

عمر مكرم * وبعد أن انكشفت خيوط المؤامرة ، اندفع خورشيد اندفاع اليائس في قتاله ، فتتابعت المعارك عند أبواب المدينة وعلى أسوار القلعة ، وما كان يمر يوم بغير موقعة في أحد الجانبين أو كليهما * وكان شعب مصر يخرج في كل تلك المواقف منتصرا تزيد فضحاياه شجاعة واستبسالا * واستمر القتال بين الشعب وخورشيد حتى حضر الى القاهرة يوم ٩ يوليو عام ١٨٠٥ رسول يحمل مرسوما سلطانيا «ومضمونه الخطاب لـ محمد علي باشا والى جدة سابقا ووالى مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع أول ١٢٢٠ (١٨ يونيو ١٨٠٥) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه الى الاسكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه الى بعض الولايات » * ولكن خورشيد رفض الاذعان وبقي في القلعة مصرا على عناده ، ولم ينزل منها الا بعد أن هدده رسول السلطان بالتخلي عنه وعلان عصيانه على دولته ، فنزل مرغما وخرج من القلعة في يوم الثلاثاء ٦ أغسطس عام ١٨٠٥ * وبرحيل خورشيد من مصر توج الشعب كفاحه باعلاء كلمته واملاء ارادته على الدولة العثمانية وانتصاره على أحمد خورشيد *

وهكذا استطاعت القوة البورجوازية الناشئة في مصر أن تنصب محمد على واليا على مصر * ولكن الباحث في تاريخ مصر الحديث يجد لزاما عليه بعد دراسة تلك التطورات المهمة التي شهدتها مصر خلال تلك الفترة أن يجيب عن سؤال هام قد يكون مثار تساؤل أو مناقشة * والسؤال هو : لماذا لم يطالب الشعب المصرى مثلا بتعيين السيد عمر مكرم — زعيم الثورة — أو أى زعيم مصرى آخر واليا على مصر محل خورشيد؟ ومن الأمور اللافتة للنظر أن زعماء الشعب اتجهوا الى محمد على بالذات ونادوا به واليا على مصر وهذا موضوع يحتاج الى دراسة أيضا * والاجابة عن هذه المسائل لا تحتاج الى عناء كبير اذا دققنا

النظر في ظروف مصر وارتباطها بالامبراطورية العثمانية • فالثورة التي تزعمها السيد عمر مكرم لم يكن القصد منها هو الاطاحة بحكم السلطان العثماني لأن الشعب المصري لم ينظر اليه على أنه حاكم أجنبي دخيل مستعمر ، بل كان السلطان في نظره هو سلطان الاسلام • والثورة التي قامت كانت تهدف أولا الى التخلص من مساوئ حكم خورشيد باشا دون المساس بسيادة السلطان العثماني على مصر • ويحلل أحد المؤرخين موقف عمر مكرم تحليلا دقيقا فيقول :

« لم يكن عمر (مكرم) سياسيا وانما كان شيخا فقيها متدينا لا قبل له بالسياسة ومناوراتها وتقلباتها القرية والبعيدة ، وهو رجل شريف طاهر لا يريد الا خلاص الناس من أى سبيل • انه يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماما ولكن ما عساه أن يفعل انه يرجو الخلاص من ولاية السلطان لا من السلطان نفسه ، انه يسعى للانقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكا أو أميرا • • فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، ان عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم اذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان • كان عمر يائسا من الولاية والباشوات والبكوات • وكان يدور بعينيه باحثا عن رجل يعهد اليه بالحكم ، رجل صالح قادر رحيم • • متدين • • وكان لابد أن يكون تركيا • • • فهذا منطق السياسة في هذه الأيام • • لا مفر من أن يكون الحاكم تركيا حتى لا يغضب السلطان خليفة المسلمين » (١) •

(١) حسين مؤنس ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ١١٥ —

ولا يعتبر هذا التفكير غريبا في العصر الذي عاش فيه السيد عمر مكرم ، فلقد ساعد الحكم العثماني « على تأكيد الحياة الدينية لسكان مصر وغيرها من الولايات العربية ، وذلك بتمسكه بأحكام ومبادئ الشريعة الاسلامية وجعلها أساسا لحكم هذه الولايات مع الحرص على احترام التقاليد الاسلامية والمحافظة على اقامة الشعائر الدينية »^(١) . وبالإضافة الى ذلك لم يكن من المعقول أن يوافق السلطان العثماني على تعيين مصري واليا على مصر ، فلقد حرصت الدولة العثمانية منذ الفتح العثماني لمصر على أن يكون واليها عثمانى المولد واللسان والنشأة والعقلية . وكان عمر مكرم يفهم ذلك تماما ويحرص كل الحرص على ألا يحدث تغييرا جوهريا في نظام الحكم الذي فرضه العثمانيون على مصر . ونستدل على ذلك مما سجله الجبرتي في كتابه اذ يقول : « عقد السيد عمر مجلسا عند محمد علي ، وأحضر المشايخ والأعيان ، ذكر لهم أن هذا الأمر وهذه الحروب مدامت على هذه الحالة لا تزدد الا فشلا ، ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية . فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر ليكون قائم مقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين . فقال الجميع الرأي ما تراه . فأشار الى محمد علي »^(٢) . ولم يكن الشعور بالولاء نحو الدولة العثمانية مقصورا على تلك الفترة فحسب ، بل ظل هذا الشعور مسيطرًا على أذهان المصريين حتى مطلع القرن العشرين ، ومن أمثلة ذلك الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغانى والزعيم مصطفى كامل . ومن ناحية أخرى نجح محمد علي في تملق السيد عمر مكرم والتودد اليه باعتباره

(١) عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

(٢) الجبرتي ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

زعيم الشعب • وحاول محمد على أن يجذب اليه الأنظار في ذلك الوقت باظهار عطفه على شعب مصر ، فأمر جنوده بألا يعتدوا عليهم وأن يتظاهروا بالغضب على الباشا وجنوده • وهكذا عمل محمد على بذكاء وحذر شديدین لاستمالة عمر مكرم نحوه ، وبذل له الوعود الخلابه بأنه اذا أتيح له حكم مصر فسيكون حريصا على التزام العدل والبعد عن المظالم ، وأنه يضع نفسه تحت رقابة دقيقة من زعماء الشعب فلا يتخذ قرارا الا بموافقتهم • ويذكر الجبرتي ذلك فيقول : « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ، ويأذيه ويراسله ، ويأتى اليه في أواخر الليل وفي أوساطه مترددا عليه في غالب أوقاته حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن »^(١) • وصدق عمر مكرم كل تلك الوعود الكاذبة ، ولا غرو فقد كان رجل دين وليس رجل سياسة ، فسلم عمر مكرم لمحمد على كل مقومات الحكم « كأنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه غير كفاء له ولا قادر عليه »^(٢) • واعتقد أنه أقام على مصر الحاكم الصالح العادل •

وفي بادىء الأمر لم يكن هناك ما يدعو الى التفكير في أن باشوية محمد على ستظل فترة طويلة من الزمن • ففى مصر كان محمد على ، تواجهه قوة المماليك الذين سيطروا على مصر العليا ، وكانت الدعامة العسكرية الرئيسية التى اعتمد عليها هى الحامية الألبانية التى كانت

(١) المصدر السابق •

(٢) حسين دؤنس : نفس المرجع ، ص ١٢٩ •

تتكون من قوات مشاغبة ، ولم تتدخل الحكومة العثمانية عن رغبتها في استعادة سيطرتها الكاملة على ادارة مصر • ومن ناحية أخرى ، تجدد الصراع بين بريطانيا وفرنسا بعد معاهدة أهيان قصيرة الأجل ، ومن الممكن أن تصبح مصر مرة أخرى ضرورة استراتيجية لكل من المتنافسين • ولكن أمكن التغلب على هذه العقبات بالتدريج • فعزل السلطان المصلح سليم الثالث في عام ١٨٠٧ ، وبسقوطه توقفت إعادة تنظيم الإمبراطورية فعلا لمدة عشرين عاما تقريبا ، ماعدا محاولة فرض السيطرة المركزية في الولايات في معظم أجزاء روميليا والأناضول • وعندما بدأ السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ فترة جديدة من الإصلاح والسيطرة المركزية ، كان لدى محمد علي الوقت الكافي لكي يدعم مركزه في ولايته ويعيد تنظيم مصر حتى يزيد من قوته الشخصية • ولذلك كان التهديد الناشئ من التنافس الانجليزي الفرنسي أكثر شدة وسرعة • ففي عام ١٨٠٦ نجح بونابرت — الذي بلغ أقصى مراحل نفوذه — في القضاء على التحالف الانجليزي العثماني • وقد تطور الموقف السياسي والعسكري في أوروبا في غير صالح الانجليز ، بسبب التقارب والتفاهم الذي حدث بين الامبراطور نابليون الأول والسلطان سليم الثالث • ونجحت الدبلوماسية الفرنسية في اقناع السلطان باعلان الحرب على انجلترا وروسيا في ديسمبر عام ١٨٠٦ • ولذلك ردت الحكومة البريطانية على ذلك الموقف المتأزم في أوروبا بارسال أسطول الى الدردنيل والبسفور في فبراير ١٨٠٧ ، ثم بارسال حملة فريزر الى الاسكندرية في مارس من نفس العام • وكان الغرض من حملة فريزر احتلال الاسكندرية لمنع نزول الفرنسيين بها ، بالإضافة الى تأييد الأحزاب الموالية للانجليز من المماليك في مصر ، فكانت الحملة على هذا ترمى الى ضمان قاعدة بريطانية في مصر • وقامت حملة فريزر بمحاولة غير ناجحة للاستيلاء على رشيد ، وحجزت الحملة في الاسكندرية الى

أن أفرج عنها بعد عقد معاهدة مع محمد على • وكان من أهم النتائج
المباشرة لحملة فريزر تمكين محمد على من الاستيلاء على الاسكندرية،
التي كانت خارجة عن حكمه قبل مجيء الحملة •

أما المماليك فكانوا يمثلون مشكلة أصعب • فخبرتهم الطويلة عن
مصر وأساليبيهم في اللجوء الى الصعيد لجمع شملهم ، وسيطرتهم على
ايرادات مصر بسبب نظام الالتزام جعلتهم عدوا مخيفا ومتماسكا •
وفي السنوات الأولى من حكم محمد على تحرك بعناية شديدة حتى
ينفادى صداما مباشرا معهم • وساعده على ذلك الخلاف الذى استمر
بين البيتين المملوكيين الرئيسيين حتى بعد وفاة رؤسائهما • فقد مات
عثمان بك فى نوفمبر ومحمد الألفى فى يناير ١٨٠٧ • وفى النهاية تخلص
من البكوات بحركة غادرة تعرف باسم مذبحه القلعة • ففى أول مارس
١٨١١ دعا المماليك الى القلعة لكى يحضروا الاحتفال بالحملة المصرية
المتوجهة الى الحجاز للقضاء على الوهابيين • وعندما كان المماليك
يسرون فى الموكب أسفل دهر صخرى ، أطلق الرصاص عليهم وعلى
أتباعهم ، ونهبت منازلهم فى نفس الوقت ، وطورد المماليك الباقون
الذين لم يحضروا هذا الاحتفال • أما الجزء الأخير من قوات المماليك
فى مصر العليا فقد تحطم كله تقريبا خلال الأشهر التالية على يد ابراهيم،
أكبر أبناء محمد على • وتمكنت مجموعة صغيرة من الهرب الى ما وراء
الحدود المصرية ، جنوب الشلال الثالث •

وكان تنصيب طوسون مقدمة لارسال حملة ضد الوهابيين الذين
احتلوا مكة والمدينة • ومنذ اعتداد السيادة العثمانية على الأراضى
العربية ، عهد الى حاكم مصر بالاشراف على شئون الحجاز نائبا
لسلاطين العثمانيين • وقد كان تكليف محمد على بتنظيم حملة ضد
الوهابيين يسير طبقا لسابقة ثابتة • أما الاعتقاد بأن الحملة الوهابية

كانت محاولة من جانب الباب العالي لانهاك موارده وقواته فهو اعتقاد خيالى * ومن المحتمل أن الباشا وجد في الحملة وسيلة لشغل جنوده الذين قد يثيرون الشعب والاضطراب *

وتنقسم الحرب العربية الى مرحلتين رئيسيتين * ففي المرحلة الأولى استولت القوات المصرية بقيادة طوسون على ميناء ينبع ١٨١١ ، كما استولت على المدينة في عام ١٨١٢ وهكة في العام التالي * وأعيد تأسيس الأسرة الهاشمية وقيام محمد على بالحج * وفي عام ١٨١٥ عقد طوسون هدنة مع الأمير الجديد ضمنت الوضع الراهن واحتفظ الوهابيون بنجد وبعض أجزاء من الحجاز ، وسيطر رجال الباشا على الأماكن المقدسة ، وأكدوا سلامة الحج * وبعد موت طوسون استؤنفت الحرب في عام ١٨١٦ ، وتمكنت قوات محمد على — بقيادة ابراهيم — من التقدم صوب نجد * وحاصرت هذه القوات قلاع الوهابيين حتى سقطت في أيديها واحدة فواحدة وفي النهاية تم الاستيلاء على الدرعية — العاصمة السعودية — في عام ١٨١٨ ، وأرسل الأمير عبد الله الى استانبول حيث أعدم * وعلى الرغم من أن الحرب العربية كانت من أجل القضاء على قوة الوهابيين واعادة نفوذ السلطان ، فانها تمخضت عن تكوين قوة لمحمد على تعمل على الساحل الشرقى للبحر الأحمر * وقد ظهر في ذلك الوقت أن محمد على قد يستولى على أجزاء أكثر من الجزيرة العربية ، فاحتل الاحساء على الخليج العربى * ولكن الدفاع عن هذه الفتوحات البعيدة لم يكن ممكنا ، ففي عام ١٨٣٤ ، أخليت نجد عندما استعاد تركى بن عبد الله بن سعود سلطته * واستمر الوالى في فرض حمايته على الحجاز وأراضى اليمن الساحلية حتى انهارت قوة محمد على في عام ١٨٤٠ *

وبعد الحرب العربية ، قام محمد على بحملة أخرى لم يكلفه السلطان بها ولكنه استطاع أن يحصل على اعتراف من الدولة العثمانية بفتوحاته . وكانت هذه الحملة — حملة النوبة وسنار وكردفان — هي التي وضعت أسس ما أصبح يعرف بالسودان المصري . وكانت سلطنة الفونج Funj بعد أن فرضت من عاصمتها سنار في القرن السادس عشر سيادة على القبائل شمالا حتى الشلال الثالث، قد بلغت مرحلة كبيرة من الضعف وسيطرت مجموعة من الأسر القبلية على ضفاف النيل . وكانت الأهداف العسكرية هي الأهداف الحقيقية التي دفعت محمد على لغزو هذه الأقاليم البعيدة التي لم تخضع من قبل للسيطرة العثمانية . فارسل حملة الى هذه المناطق قد يخلصه من جنده الألبانيين المشاغبين . ومن ناحية أخرى هددت بقية المماليك الهاربين من مصر والموجودين في دنقلة حكم محمد على في مصر . وكان محمد على قد أرسل في عام ١٨١٢ سفارة الى سلطان الفونج تحثه على طرد المماليك من ممتلكاته، ولكن السلطان كان ضعيفا ولم يستطع تنفيذ ذلك المطلب . ولكن السفارة من ناحية أخرى ، أحضرت معها بعض الأخبار المهمة عن الوضع في أقاليم وادي النيل . أما هدف محمد على الرئيسي من القيام بهذا الغزو فهو محاولة الحصول على عبيد لجيشه ، لأنه لم يعد يعتمد على جنده الألبانيين . فأراد محمد على أن يكون جيشا على النمط الأوروبي لكي يؤكد تفوقه على جميع منافسيه في الداخل (ومن المحتمل على أعدائه في الخارج أيضا) .

وإذا كانت المحاولات التي قام بها السلطان سليم الثالث لاصلاح الجيش قد أدت الى سقوطه ، فلقد قام الجند بثورة عسكرية في القاهرة أثناء الحرب الوهابية عندما علموا أن محمد على يفكر في القيام ببعض الاصلاحات في الجيش . وكان تجنيد جيش من العبيد مسألة تقليدية

اتبعها حكام المسلمين ، عندما كانوا يتعرضون للخطر من جانب الجنود الذين يعتمدون عليهم في الوصول الى مركز القوة * ولم يقصد محمد على بغزو المناطق الواقعة جنوب مصر أن يسترق المسلمين الأحرار في هذه الأماكن بل أراد الوصول مباشرة الى مناطق الوثنيين في أقصى الجنوب وهي المناطق التقليدية التي تذهب اليها الحملات لجمع العبيد . ومما دفع محمد على أيضا لغزو السودان تقرير غير صحيح عن وجود الذهب في السودان * وقد أسند محمد على قيادة الحملة الرئيسية الى أحد أبنائه وهو اسماعيل كامل باشا ، وغادرت الحملة أسوان في صيف عام ١٨٢٠ ، ووصلت الى سنار في يونيو من العام التالي حيث أعلن آخر سلاطين الفونج خضوعه * ولكن ممالك دنقلة هربوا قبل وصول الحملة * وقامت حملة أخرى في نفس الوقت في عام ١٨٢١ بغزو كردفان * وبالرغم من أن الفتوحات الأولى كانت سهلة ، فان استيلاء السودانييّن من الحكام الأجانب الجدد ومن ضرائبهم تمثل في شكل ثورة مفاجئة بدأت بذبح اسماعيل باشا وحاشيته في شندى في أكتوبر أو نوفمبر عام ١٨٢٢ ، ولكن أمكن القضاء على هذه الثورة * والى وقت قيام الثورة المهدية بعد ذلك بستين عاما ظلت الأراضى السودانية خاضعة للحكم التركى المصرى^(١) .

وقد تلا غزو السودان مباشرة تنظيم جيش محمد على الجديد من العبيد * وكان محمد على يحتاج في بادىء الأمر الى تكوين فرقة من الضباط بالجيش المصرى فجمع حوالى ألف من المماليك الشبان ممن يمتلكهم الوالى وأعيان مصر في ذلك الوقت ، وكما يقول كلوت بك

(١) انظر :

P.M. Holt, A modern history of the Sudan, PP. 35-48.

« ما من عظيم من عظماء القطر الا وقدم عددا من مماليكه لهذا الغرض، حتى بلغ عدد أولئك الشبان ألفا ، وكان المقصود أن يكونوا نواة للجيش المصرى » ، فى ثكنات حديثة البناء فى أسوان • وقد تلقى هؤلاء تدريبا عسكريا أوروبا على يد ضباط جيش نابليون السابقين الفرنسيين والايطاليين الذين انتهت أعمالهم العسكرية فجأة نتيجة لتسوية فينا • وكان أشهر هؤلاء الكولونيل سيف الذى اعتنق الاسلام وعرف فى التاريخ المصرى باسم سليمان باشا الفرنساوى • أما بالنسبة للعساكر فكان الوالى فى أول الأمر لا يريد اختيارهم من الأتراك أو الأرناؤوط لجهلهم للنظام وكرههم لأحكامه ولم يجد بابا مفتوحا أمامه الا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار • وقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا فى عام ١٨٢٣ وأرسلهم على الفور الى بنى عدى بالقرب من منفلوط، وعرف هذا الجيش الجديد باسم النظام الجديد • وتكونت منهم ستة آلايات بقيادة ضباط من المماليك • وبعبارة أخرى كان محمد على يخشى تجنيد المصريين فى أول الأمر خشية أن يقوموا بانقلاب عسكرى يطيح به •

ولكن هذه التجربة لم يقدر لها النجاح ، فقد مات الكثير من الجنود العبيد ، وأيقن محمد على أنه من الأفضل أن يتجه الى مكان آخر للحصول على جند لجيشه • فلم يجد بدا من تجنيد المصريين ، وقرر أن يجند الفلاح المصرى وذلك عملا بمشورة القنصل الفرنسى فى مصر • وكانت هذه المحاولة تجربة جديدة فى مصر ، لأن قوة مصر الحربية قبل محمد على كانت تعتمد على رجال من أجناس مختلفة ومن أماكن متفرقة، فكانوا مزيجا من الترك والألبانيين والمغاربة والدلاة (الأكراد)^(١) •

(١) محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ،

ولكن الفلاحين لم تكن لديهم الرغبة في تأدية الخدمة العسكرية ، وكان تجنيدهم يتم بطرق غير انسانية • فهرب معظم الشبان من قراهم ، وتأثرت الزراعة الى حد كبير بذلك • ومما دعا الى مقاومة الفلاح المصرى للتجنيد تعلقه بأرضه وقريته • وظهرت آثار المقاومة بقبول المشوهين بالجيش وأنشأ آلايا كاملا يتألف من « مجندين مشوهين فقد كل منهم عينه أو اصبعه أو أسنانه الأمامية » • ومن ناحية أخرى ، اتخذ محمد على سبيلا آخر غير الشدة في ترغيب الأهالى في التجنيد ، فاستعان بالوعاظ في « تلقين الفلاحين وملء آذانهم واستدراك أذهانهم »^(١) • وكان التجنيد عاملا من أهم العوامل التى أدت الى قيام الفلاحين بالثورات ضد محمد على ، وكانت هذه الثورات مظهرا عاما من المظاهر التى تميز عصر محمد على^(٢) • وأيا كان الأمر فقد استمر تجنيد الفلاحين • واستقر رأيه على أن يكون الجنود من المصريين والضباط من الأتراك أو الشراكسة (المماليك) ، وكان هذا التقسيم هو نفس المنهج الذى سار عليه فى تسيير دفة الحياة المدنية : فكان المأمورون من المصريين ، والمديرون «المحافظون» من الأتراك • وقد حاول محمد على بذلك اجهاض كل فاعلية حقيقية عند المصريين فى التطلع الى الاستقلال أو الحكم الذاتى أو الحياة الدستورية • ولكن الوضع الذى أوجده محمد على فى الجيش أدى الى قيام الثورة العربية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر • هذا ما حدث خلال الخمسين سنة التى تلت عصر محمد على • أما بالنسبة للفترة التى نعالجها من تاريخ مصر ، فلا شك أن محمد على قد أنشأ جيشا قويا يفوق فى تنظيمه وتسليحه وتدريبه كل الجيوش الموجودة فى منطقة «الشرق الأوسط» ، واستطاع

(١) المرجع ، ص ٥٩ — ٦٠ •

(٢) Rivlin. Agricultural Policy, PP. 201-212.

بهذا الجيش أن يحمى مركزه وأن يضمن استمرار حكمه في مصر .
ولقد لجأ اليه السلطان العثماني محمود الثاني عندما احتاج الى مساعدة
محمد العسكرية للقضاء على الثورة اليونانية .

وقد قامت الثورة في اليونان ضد الحكم العثماني في عام ١٨٢١ ،
ولم يكن هذا الوضع يهم محمد على في قليل أو كثير بعكس الحال في
غربى الجزيرة العربية ، فاليونان لم تكن في أى وقت داخل مجال النفوذ
المصرى التقليدى . وعلى أية حال ، عرض السلطان عليه في عام ١٨٢٢
باشوية كريت في نظير اعادتها الى حظيرة الدولة والقضاء على الثورة
التي شبت فيها . وفى عام ١٨٢٤ — عندما نجح محمد على في أداء
هذه المهمة — عرض عليه السلطان محمود الثاني حكم شبه جزيرة المورة
بنفس الشروط السابقة . ولقد أتاح اشتراك القوات المصرية في حرب
المورة الفرصة لمحمد على بأن يختبر قوة جيشه الجديد ، أو النظام
الجديد ، وقوة أسطوله الذى بدأ في جمعه وتكوينه قبل بضع سنوات .
وفى يوليو عام ١٨٢٤ غادرت الحملة التى أعدها محمد على الاسكندرية
بقيادة ابراهيم باشا . ولقد عين السلطان العثماني خسرو باشا — الذى
كان واليا على مصر في عام ١٨٠٣ وأول منافس تخلص منه محمد على —
قائدا للأسطول العثماني . وبالرغم من الخلاف بين ابراهيم وخسرو ،
تعاونوا للتغلب على اليونانيين . وفى عام ١٨٢٥ نزل ابراهيم بحملته
في المورة ، وبدأ نجاح القوات المصرية يظهر بشكل واضح بمقارنته
بفشل قوات السلطان قبل ذلك في مهمتها في هذه المناطق . وكان
ابراهيم موفقا للغاية ، وكان يرى أن يحسم هذه المشكلة بالطريق
العسكرى البحت وذلك باتخاذ اجراءات عنيفة ضد اليونانيين . ولم
توافق الدول الأوروبية على هذه الأعمال . وكانت روسيا أسبق الدول
الأوروبية الى الرغبة في التدخل لصالح اليونان ، ولكن حالت الدول
الأوروبية الأخرى دون ذلك حتى لا يقوى نفوذ روسيا في البلقان

والشرق • وفي ٦ يوليو عام ١٨٢٧ انتقلت بريطانيا وفرنسا والروسيا في معاهدة لندن على فرض هدنة حربية وذلك بإرسال أساطيلهم الى مياه المورة لمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطئ اليونان وإرسال المدد الى الجيش المصري والعثماني بها • والتقت الأساطيل الأوروبية تحت قيادة الأميرال الانجليزى كودرنجتون (Codrington) بالأسطولين المصري والعثماني في خليج نافارين (Navarino) في معركة بحرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ • وقضى على الأسطولين المصري والعثماني وتمت محاصرة قوات ابراهيم باشا البرية داخل المورة •

وأما التسوية التي تمت بخصوص المورة فلم ترتبط بالتاريخ المصري في ذلك الوقت • ولقد فقد محمد على أسطوله الذي بذل جهدا كبيرا وأنفق أموالا كثيرة في انشائه ، ولذلك رأى أنه لا فائدة من مواصلة القتال • كما دفعه الى اتباع هذه الخطة ما تلقاه من قناصل الدول في مصر عن تصميم الدول الأوروبية على تحرير اليونان ، واستهداف مصر للأخطار اذا هي استمرت في اتباع سياسة الدولة العثمانية • ولم يقيم ابراهيم باشا بعمليات حربية أخرى الى أن تم الاتفاق بين محمد على وكودرنجتون في ٦ أغسطس ١٨٢٨ فتمكن من سحب قواته من المورة • وكان كودرنجتون قد جاء الى مياه الاسكندرية وهدد بتخريب المدينة اذا لم يسحب محمد على قواته من المورة • فوقع محمد على معه اتفاق الاسكندرية وأمر ابراهيم بالجلء • ونصت شروط الاتفاق على ما يلي^(١) :

(١) Dodwell, The founder of modern Egypt, P, 22.

١ — يتعهد محمد على باعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم في مصر •

٢ — يتعهد أمير البحر كودرنجتون بارجاع الأسرى المصريين واعادة السفن المصرية التي أسرت أثناء القتال •

٣ — يخلي الجنود المصريين المورة على سفن مصرية يرسلها محمد على ويحرسها الحلفاء •

ولقد كان التدخل في حرب المورة مرحلة غير عادية في سياسة محمد على لأنه لم يحقق أى استفادة من الاشتراك في هذه الحرب • أما العمل الذى قام به بعد ذلك فكان في سورية التى كانت تحظى باهتمام حكام مصر التقليدي^(١) • ولقد صمم محمد على على الاستيلاء على سورية بسبب الدوافع الاستراتيجية التى تتلخص في ضرورة اقامة منطقة حاجزة بين ممتلكاته في وادى النيل والمراكز القديمة للقوة العثمانية في الأناضول • ويرجع اهتمامه بهذا الاقليم الى عام ١٨٢١ — على الأقل — عندما قام بدور الوساطة لدى الحكومة العثمانية بالنيابة عن عبد الله باشا حاكم عكا وبشير الثانى الشهابى أمير لبنان ، الذى كان قد هرب الى مصر ولجأ الى محمد على ونشأت بينهما علاقات وثيقة • ووجد محمد على في كل من عبد الله وبشير صديقين مخلصين له يشعران على الأقل بالجهيل نحو الرجل الذى تشفع لهما عند السلطان • الا أن محمد على لم يتخذ في هذا الوقت أى اجراء بالنسبة لسورية • ولكن في نهاية هذا العقد أصبح احتلال سورية من الأمور الضرورية • فلقد

(١) كلوت بك ، لحة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود ،

استغل السلطان محمود الثانى موقف الانكشارية فى حرب المورة وقضى عليهم فى عام ١٨٢٦ وأخذ ينظم جيشه على أسس أوروبية حديثة • وقد تلت كارثة اليونان حرب أخرى مع روسيا فى عام ١٨٢٨ ، ولكن بتوقيع معاهدة أدريانوبل (Adrianople) فى سبتمبر عام ١٨٢٩ استأنف السلطان مرة أخرى اصلاحاته العسكرية والادارية • وفى هذا الوقت أصبح تفوق محمد على العسكرى فى خطر ، وزادت سياسة محمود الثانى المركزية ، التى قضت على أمراء الوديان وعلى المماليك فى بغداد، وعملت على الحد من استقلال محمد على الذاتى فى مصر • ووجدت بعض الاعتبارات الشخصية أيضا ، فقد كان خسرو باشا — عدو محمد على القديم — من المقربين الى السلطان وقد شغل فى الفترة من ١٨٢٧ الى ١٨٣٦ منصبا جديدا هو منصب سر عسكر القوات العثمانية •

وحاول محمد على فى بادىء الأمر أن يستولى على سورية بالوسائل السلمية ، وتقدم بطالب ذلك الى استانبول فى عام ١٨٢٧ ، ولكن السلطان رفض طلبه • ولذلك حاول أن يجد مبررا للتدخل فى شئون سورية ، ووجد ذلك فى سلوك عبد الله باشا الذى لم يعد يهتم باستمرار الصداقة مع الوالى ، فأوى الفلاحين المصريين الذين فروا من مصر تخلصا من الخدمة العسكرية وامتنع عن ارجاعهم • وكان هذا هو السبب المباشر للحرب ، وفى أكتوبر ١٨٣١ عبرت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا الحدود وتحركت نحو عكا ، ولقد استطاع محمد على فى الفترة التى تلت انسحاب قواته من المورة أن يبنى جيشه وأن يعيد تكوين أسطوله الذى تحطم فى نفارين • وكان بشير الثانى من أهم حلفائه المخلصين ، وقدم أتباعه ل محمد على خدمات قيمة فى أثناء تقدم الحملة • ولم تكن هذه الحرب فى بادىء الأمر أكثر من صراع بين حكام بعض الولايات المجاورة ولا يختلف عما كان يحدث خلال القرنين السابقين • ونتيجة

للتطورات الجديدة التي ظهرت في استانبول لم تتردد الحكومة العثمانية في أن تعلن خروج محمد على على سلطة السلطان • ووصلت أنباء اذانة السلطان لمحمد على في أوائل ١٨٣٢ عندما كان ابراهيم يحاصر عكا • وهكذا بدأ الصراع يتخذ مظهرا خطيرا ، اذ استهزأ والى مصر بسيدته علنا • وفي مايو استسلمت عكا ، وفي الشهر التالي هرب حاكم دمشق ودخل ابراهيم المدينة دون مقاومة • وفي شهر يوليو زحف ابراهيم شمالا وهزم قوة عثمانية بالقرب من حمص واستولى على حلب وانتصر عند ممر بيلان بالقرب من الاسكندرونة على جيش عثماني قادم للدفاع عن سورية واستمر تقدمه نحو هضبة الأناضول ، وفي ديسمبر ١٨٣٢ هزم جيشا عثمانيا يقوده الصدر الأعظم نفسه بالقرب من قونية •

وفي هذا الوقت كان من المفروض أن يستمر ابراهيم في زحفه على استانبول ، أو أن يعلن والده حاكما مستقلا عن الدولة العثمانية • ولكن محمد على كان في غاية الحرص ، فبذل كل ما يستطيع لكي يتجنب تدخل الدول الأوروبية كما تدخلت في المورة وقضت على الأسطول المصري • ولكي ينتقم من السلطان محمود أعلن محمد على أنه سيخلص الامبراطورية من السلطان الفاسد الذي قذى على التقاليد الاسلامية واتباع أساليب الحياة الغربية • ولقد أثار هذا القول دهشة بالغة لأن محمد على نفسه كان قد بدأ برنامج الإصلاح المبنى على الحضارة الغربية قبل محمود الثاني • وفي يناير عام ١٨٣٣ بدأت الاشاعات تتردد عن عقد محالفة تركية روسية • وكانت هذه الاشاعات سابقة لأوانها ، ولكن روسيا أرسلت أسطولها الى استانبول في شهر فبراير ، وفي أبريل قامت بارسال قواتها البرية • ولقد كانت مصالح روسيا تقتضى بقاء الدولة العثمانية على حالها من الضعف ، فلما رأت جيش محمد على يجتاح الشام ويشرف على جبال الأناضول ، تخوفت من مسيرته الى

المقسطنطينية واستيلائه عليها ، والقضاء على مطامع روسيا فيها^(١) .
وقد أزعج بريطانيا وفرنسا أمر هذا التدخل ، وحاولتا إنهاء الخلاف بين
الوالي والسلطان حتى لا تجد روسيا سببا للتدخل . وضغطت كل من
الدولتين على محمد علي والسلطان ، فاستخدمت فرنسا علاقتها الودية
مع محمد علي لاقتناعه بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان ، وأوفدت
الى استانبول الأميرال روسين (Roussin) سفيرا لها ليسعى في فض
الخلاف بين الوالى والسلطان . ولم يوافق اللورد بامستون
(Palmerston) أيضا على ترك الروس يبسطون حمايتهم على الدولة
العثمانية . وفي هذه الفترة عين بامستون قنصلا جديدا في مصر هو
المستر باتريك كامبل (Patrick Campbell) خلفا لقنصل بريطانيا السابق
باركر (Barker) ، الذى كان يتحدث عن محمد علي بازدراء ويسميه
الوالى الثائر وخصوصا بعد أن عزله السلطان محمود بعد قيام الصدام
بينهما . ولقد عين بامستون كامبل لكى يعرف نوايا محمد علي وأغراضه،
ولما تبين محمد علي ذلك أسر الى كامبل أنه لا ييغى بالدولة شرا ، وانما
يرجو انقاذها واصلاح شأنها^(٢) .

وأخيرا ، وبعد المفاوضات التى دارت بشأن هذا الموضوع ، تخلى
السلطان محمد علي عن سورية واقلليم أدنه ، مع تشييته على مصر وجزيرة
كريت والحجاز ، مقابل أن يجالو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول .
وقام ابراهيم باشا بسحب قراته من الأناضول بعد أن تم تسجيل هذه
المسائل المتفق عليها في صلح الكوتاهية (أبريل — مايو ١٨٣٢) . وهكذا
سيطر والى مصر على كل سورية الجغرافية (أى الشام بجميع أجزائه)

Driault, Question d'Orient, P. 141.

(١)

Dodwell; Op. Cit.; PP. 112-113.

(٢)

كما كان الحال في عهد سلطنة المماليك ، وقبل محمد علي أن يحكم الولايات السورية مدى الحياة فقط وتعهده بدفع الجزية السنوية الى السلطان وبأن يظل تابعا له • وصار ابراهيم باشا — خلال السنوات الست التالية — حاكما عاما على الولايات السورية وممثلا لوالده • وقام بتنظيم أحوال سورية الادارية والسياسية وعنى بتوطيد مركز مصر في سورية ، فأمن حدودها الشمالية وعنى بتحصين مضائق جبال طوروس • واتخذ مقره العام في أنطاكية لقربها من التخوم الشمالية • وعين ابراهيم باشا حنا بك بحري أحد أعيان السوريين للإشراف على ادارة الشؤون المالية • كما ألف ابراهيم في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلسا يسمى ديوان المشورة ، يتراوح عدد أعضائه بين ١٣ و ٢١ عضوا ينتخبون من بين أعيان البلد وتجارها • وتتنظر هذه المجالس في مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى • ولقد تمتع الأمير بشير الثاني الشهابي بسيادة مستقلة تقريبا في لبنان ، وعظم نتيجة لذلك شأن هذا الأمير • على أن الحكم المصري في سورية لم يلبث أن اصطدم بثورات محلية نشبت في مختلف هذه المناطق • فأساليب الحكم المصري في التجنيد وجمع السلاح والمال نفرت عنه قلوب العامة • فلقد أصدر محمد علي الى ابنه ابراهيم في أوائل عام ١٨٣٤ الأوامر التالية :

- ١ — احتكار الحرير في الولايات السورية •
- ٢ — أخذ ضريبة الرعوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم •
- ٣ — تجنيد الأهالي •
- ٤ — نزع السلاح من أيديهم •

ومن ناحية أخرى كان للدسائس العثمانية والانجليزية شأن كبير

أن تصل اليه أخبار الهزيمة ، وخلفه طفل في السادسة عشرة من عمره يدعى عبد المجيد ليست له أى دراية بشئون الدولة • وكان أول صدر أعظم عينه عبد المجيد هو خسرو باشا ، وكان تعيينه في هذا المنصب معناه استمرار الحرب ضد محمد على • ولكن تعيين خسرو سبب حدوث كارثة ثانية للدولة العثمانية ، فلما طلب من فوزى باشا ، قائد الأسطول العثماني الذي كان بينه وبين خسرو عداء قديم ، العودة الى استانبول، ظن أن هذا الاستدعاء لم يكن الا لعزله أو قتله ، فمضى بأسطوله الى الاسكندرية وسلمه الى محمد على • وكان لهذا الحادث أثر كبير في سير المسألة المصرية لأن تسليم الأسطول العثماني الى مصر بعد انتصارها في موقعة نزيب جعل كفتها الراجحة على الدولة العثمانية في البر والبحر •

لقد أثار انتصار الجيش المصرى اذن المسألة الشرقية ، ووقفت الدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعا لاختلاف أطماعها ومصالحها • فأما بريطانيا فقد بين لورد بامستون سياستها في الرسالة التى بعث بها الى باتريك كامبل — قنصل بريطانيا العام في مصر — في فبراير عام ١٨٣٣ ، ووضح فيها أن الحكومة البريطانية مهتمة بضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، اذ أنها تعتبر بقاءها عاملا لا غنى عنه في بقاء التوازن الدولى في أوروبا • وكان ذلك أحد الدوافع التى دفعت بامستون الى الوقوف ضد مصر ومحمد على • وكان يتولى السفارة البريطانية في استانبول في ذلك الوقت أيضا اللورد بونسنبى (Ponsonby) ، وكان شديد العداء لمحمد على وبذل جهدا كبيرا لاثارة المتاعب ضد الحكم المصرى في سورية • وكانت النمسا أيضا تريد تعزيز مركز الدولة العثمانية حتى لا تعطى الفرصة لروسيا للتدخل في شئونها وفرض حمايتها عليها ، وكذلك تدعيم مبدأ مترنيخ — المستشار

النمساوى — فى مقاومة الثورات التى تقوم ضد الحكام الشرعيين • وكانت روسيا أيضا تريد الوقوف أمام محمد على وانقاذ الدولة العثمانية من سيطرة هذا الحاكم القوى • أما فرنسا — صديقة محمد على — فكانت تميل الى اقرار محمد على فى سورية وجزيرة العرب طبقا لصلح الكوتاهية • ولهذا بدأ القلق يسود الحكومات الأوروبية بعد موقعة نصيبين •

وعندما تولى السلطان عبد المجيد الحكم فى مثل هذه الظروف رأى ضرورة المفاوضة رأسا مع محمد على لانهاء النزاع بين الدولتين سلميا وأرسل الى محمد على مندوبا خاصا وهو عاكف أفندى يحمل كتابا يخوله حكم مصر الوراثى • ولكن فى ٢٧ يوليو ١٨٣٩ قدم سفراء الدول الخمس الكبرى وهى انجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا وبروسيا مذكرة مشتركة الى الباب العالى ، يطلبون فيها منه ألا يعقد أى اتفاق مع محمد على دون موافقة الدول الأوروبية • وكان اشتراك فرنسا فى المذكرة من الأمور الغريبة ، الا أنها أرادت باشتراكها فى المذكرة أن تمنع انفراد روسيا بحماية الدولة العثمانية • ولقد كان انضمام روسيا المفاجيء الى جانب الدول بمثابة ضربة لفرنسا جعلتها تضطرب وتحارب فى سياستها • وكانت فرنسا تعمل سرا وعلانية ضد سياسة روسيا • ولما لم تستطع الحكومة البريطانية أن تقنع فرنسا بما اعتزمت منحه لمحمد على من ولاية مصر وولاية عكا ، لجأت روسيا الى انجلترا وأظهرت أنها على استعداد للموافقة على هذا الحل • وأرادت روسيا بذلك أن تعزل فرنسا وأن تشترك الدول الأربع الأخرى فى تقرير مصير هذا النزاع ، بعقد مؤتمر للدول الأربع الكبرى فى لندن • وأجرت بريطانيا مفاوضات مع روسيا والنمسا وبروسيا وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة (وفاق) لندن فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ بين انجلترا والروسيا

وتم توقيع هذا الاتفاق في ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠ • وقد رفض السلطان الاعتراف بنص هذا الاتفاق ، ولم يقره بونسنبى — سفير إنجلترا في استانبول — ولكن بامستون وافق عليه • وهناك أسباب دعت بامستون الى أن يخفف من موقفه ضد محمد على ، أولها أن ملكة بريطانيا كتبت اليه مرتين (في أكتوبر ونوفمبر) تطلب منه أن يخفف من حدته ، وثانيها حدوث تغيير وزارى في فرنسا ومجى جيزو (Guizot) على رأس الوزارة الجديدة • فأصبح من الواجب على الحلفاء مصالحه فرنسا • ولقد تشجع الباب العالى بخضوع محمد على وأخذ يملئ الشروط فكتب رشيد باشا الى المندوب العثمانى في لندن يقول « كيف توفق الدول الأربع بين مبدأ المحافظة على كيان الدولة ومنح محمد على حكومة وراثية » • وأرسل مندوبو إنجلترا والنمسا وبروسيا والروسيا مذكرة الى الباب العالى في ٣ يناير ١٨٤١ يطالبونه فيها بالرجوع عن قرار عزل محمد على الذى كان السلطان قد أصدره بعد أن رفض محمد على قبول شروط معاهدة لندن • وفى هذا الوقت بدأ إبراهيم بناء على أوامر والده في الجلاء عن سورية ، ونتيجة لتدخل الدول أرسل السلطان الى محمد على فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ • وقد تقرر فيه — لأول مرة — اعطاء محمد على وأسرته حكومة مصر وراثية ، على أن يختار الباب العالى نفسه من يتقلد منصب الولاية من أبناء محمد على الذكور خلفا له ، ثم من يخلف هذا من بعده ، وهكذا حتى اذا انقرضت ذرية محمد على الذكور لا يكون « الأولاد نساء عائلته الذكور حق أيا كان في الولاية المذكورة » ، واختار الباب العالى لها من يشاء • وبين هذا الفرمان أن اعطاء محمد على باثوية مصر وتقرير الحكم الوراثى بها بالصورة المذكورة انما هو « منحة » من السلطان العثمانى • وتأكيذا لذلك نص الفرمان على ما يأتى : « وحيث أن الامتياز (أو المنحة) المعطى وراثية

ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه (وكانت هذه الشروط متعلقة بالجزية ، والانفاق على الحرمين الشريفين ، وسك النقود ، وتحديد عدد الجيش (١٨ ألفا) ، والخدمة العسكرية ، والتعيين في الرتب العسكرية) فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز .
كما نص الفرمان على أن المعاهدات التي أبرمها أو سيبرمها الباب العالي وكذلك الخط الشريف المعروف بخط الكلخانة (٣ نوفمبر ١٨٣٩) وانقوانين الأساسية للدولة العثمانية تنفذ في مصر . ولكن محمد علي اعترض على القيود التي جاءت في هذا الفرمان ، وهي الخاصة بترتيب الوراثة ، وتقدير الجزية المطلوبة ، وكانت هذه قد قدرت بربع الإيرادات والتعيينات العسكرية أو الرتب في الجيش ، وتبدلت لتسوية هذه المسائل جملة مذكرات بين الباب العالي والدول . وأسفرت هذه المساعي عن صدور فرمان أول يونيه ١٨٤١ الذي نص على ترتيب الوراثة بمشكك يجعلها منحصرة في الأكبر «الأرشد» فمن يليه من ذرية محمد علي — أي انتفاء حق الاختيار الذي كان للسلطان بموجب فرمان ١٣ فبراير ، ولكن على شريطة أن يصدر التقليد بالولاية دائما من الباب العالي . حتى اذا انقرضت ذرية محمد علي الذكور ، حق للباب العالي أن يعين شخصا آخر للولاية : « وليس في مثل هذه الحالة لأولاد بنات محمد علي حق أو وجه شرعى يسوغ لهم الادعاء بالارث » . كما نص أيضا على ضرورة تنفيذ خط شريف كلخانة والمعاهدات المبرمة مع الدول أو التي تبرم معها في المستقبل^(١) .

هذه هي نهاية امبراطورية محمد علي . فشلت مشروعاته الكبيرة في كل من اليونان وسورية لأنها لم تتفق مع سياسات الدول الأوروبية

Marlowe, Anglo-Egyptian Relations, PP. 36-48. (١)

التي بدأت منذ عام ١٧٩٨ تهتم بشرقى البحر المتوسط • وعلى الرغم من ذلك فقد حقق محمد على نجاحا محدودا • ففي عام ١٨٠٥ حصل على لقب والى مصر ، وكان أول وال يمارس نفوذا حقيقيا منذ قرنين من الزمان ، فأنشأ قوة عسكرية استطاع بوساطتها أن يدعم مركزه لا أمام منافسيه المرتقبين في مصر فحسب بل أمام السلطان العثماني نفسه • وفي داخل افريقيا ، التي لم تكن تأثرت آنذاك بمنافسات الدول الأوروبية ، بنى محمد على ابراطورية خارج الحدود التقليدية للنفوذ العثماني ، وكان أول من أرسل حملات الى النيل الأبيض مهدت الطريق للزحف التركي المصرى نحو خط الاستواء في الجيل التالي • وعلى الرغم من ذلك بدأ نشاط محمد على الحيوى يتلاشى بعد ضياع سورية • فعاش تسع سنوات أخرى ، لكنه أصبح غير قادر على الاضطلاع بأعباء الحكم قبيل وفاته لأصابته بضعف في قواه العقلية • وظل كذلك الى أن توفي في ٢ أغسطس عام ١٨٤٩ بالاسكندرية ونقل الى القاهرة ودفن بمسجده في القلعة •

٣ - جهود محمد على في إعادة تنظيم مصر

تعتبر الأعمال التي قام بها محمد على أعمالاً ثانوية بالنسبة للهدف الأول الذي كان يبغي تحقيقه وهو العمل على تدعيم مركزه في البلاد . وفي سبيل تحقيق ذلك اعتمد محمد على بصفة أساسية على جيشه الجديد ، ولكن قبل ان يقوم بهذا العمل بفترة طويلة بدا في إعادة تنظيم الأراضي الزراعية والنظم المالية حتى يجمع كل نواحي السلطة ويركزها في يده شخصياً . وكان اول عمل شمر بضرورة تنفيذه هو القضاء على نظام الالتزام الذي كان سائداً في مصر العثمانية . وكان قانون « نامة مصر » الصادر في عام ١٥٢٥ مد أسند مهمة ادارة أملاك الدولة وجباية الضرائب المفروضة على أراضيها الى « موظفي الحكومة » ، وبخاصة الكاشف ، أو « مشايخ العرب » الذي كانوا يسيطرون على مساحات واسعة في مصر ، أو « الموكلاء » الذين كانوا يختارون من بين الأشخاص الأغنياء الذين باستطاعتهم ان يدفعوا مالا للحكومة في مقابل ميزة العمل بالنيابة عنها . ولاشك أن نظام الالتزام ، الذي ظهر في نهاية الأمر ، قد تطور عن عمل هذه الفئة الأخيرة^(١) . وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت أراضي الدولة كلها تقريباً موزعة على شكل التزامات ووقعت في أيدي بعض الأفراد الأغنياء والأقوياء مثل المماليك أو رجال الأوجاقات (الوجاقلية) أو الموظفين أو التجار أو مشايخ العرب . وكان معظم الملتزمين من بكوات المماليك ، فمن بين الملتزمين الذين بلغ عددهم ستة آلاف ملتزم ، قدر أن ثلاثة آلاف كانوا من المماليك الذين يحوزون أكثر من ثلثي الأرض الزراعية في مصر . وكان الالتزام ضيقة تمنحها

Clibb and Bowen; Islamic society and the west; I/Pt. (١)
2, PP. 172-173.

الادارة التى تولت تسجيل الأرض (الروزنامة) مدة سنة أو عدد من السنوات ، وكان يعطى لمن يتقدم بأكبر عطاء أو طبقا لترتيبات خاصة مع الادارة • وفى مقابل دفع الملتزم مقدما قسما من المال يساوى حصة سنة من ضريبة الأرض المستحقة الدفع للحكومة من دخل الضيعة (الميرى أو خراج الأرض الديوانية) كان يمنح حجة ايجار (تقسيم) وتوجه الروزنامة أيضا خطابا الى أعيان وسكان الضيعة تطلب فيها من الفلاحين طاعة الملتزم وأن يدفعوا له قيمة الضرائب المحددة فى شروط الحجة •

وكانت الدولة تبقى فى يدها ملكية رقبة الأرض ، بحيث لا يكون للملتزم سوى حق الانتفاع ، وهو حق كان يتقاسمه مع الفلاحين ، الذين كانوا يفلحون تلك الحصة من الأرض التى تخصص لهم (أرض الفلاح) والتى يدفعون عنها ضريبة للملتزم • وكان الملتزم يتلقى جزءا من ربحه من الضرائب التى كان يحصلها من أرض الفلاح — «الفائض»، وفى القرن الثامن عشر «المضاف» و «البرانى» وكانت فى بادئ الأمر ضرائب اضافية ، ولكنها بمرور الوقت أصبحت تجبى بانتظام مع الضرائب المقررة — ولكن كان معظم ربحه يتحصل عليه من استغلال أراضى الالتزام المخصصة لشخصه لاستغلالها وهى المعروفة باسم أرض الموسية • وقد استغلها الملتزم طوال احتفاظه بالالتزام لمساعدته على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس واىواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامه • وكانت هذه الأراضى معفاة من الضرائب وفرض على فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا أجر ولا جزاء • وعلى الرغم من أن نظام الالتزام كان من الناحية القانونية مجرد امتياز مؤقت يختص بحق جباية قدر من ضرائب الميرى ، فمن الناحية الواقعية نجد أنه قد تولدت تدريجيا

فتحوا مصر هذا النوع من الهبات الدينية أو الخيرية التي تمت الهبة لصالحها • وكانت عائدات الأرض التي خضعت لهذا النظام تخصص باعتبارها معاشات أو «رزق» «المفرد رزقه» لأفراد أو مؤسسات دينية وخيرية ، على أن تدفعها خزانة الدولة الى هؤلاء المستفيدين عينا ونقدا • وقد أقر العثمانيون الرزق واستمر دفعها بعد الغزو^(١) • وفي نهاية القرن الثامن عشر تحولت نسبة كبيرة من أراضي مصر الزراعية الى أحباس لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة التي يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك واستغلالهم لريعتها وغلقتها •

وقام محمد علي خلال السنوات الأولى من حكمه بإجراء بعض التجارب لإلغاء نظام الالتزام في الدلتا لأن الصعيد كان لا يزال تحت سيطرة المماليك • ولاشك أن الإصلاحات الزراعية التي قام بها الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر قد استرعت اهتمام محمد علي أوائل حكمه • وفي نفس الوقت كان محمد علي يعلم تمام العلم أن نظام حيازة الأرض الموجود في مصر لا يصلح أداة للحصول على الموارد المالية اللازمة لكي يحتفظ بولاء قواته ويبقى على اخلاص أصدقائه في استانبول • وفي بدء الأمر لم يحصل الباشا سوى الضرائب التي فرضها المماليك ، ولكن حين تبين في عامي ١٨٠٦ و ١٨٠٧ أنها لا تكفي قام بتحصيل نصف الفائض ، وهي الضريبة التي جرت العادة على أن يأخذها الملتزمون • وعندما انخفض فيضان عام ١٨٠٨ استبدل بعدد من الملتزمين الضعاف أفرادا من أسرته وحاشيته • وفي العام التالي حدثت بعض المشاكل في مديرية البحيرة بسبب أحد المشروعات الجديدة التي أدخلها ، فقد أنشأ سجلا جديدا خاصا دونت فيه كل أراضي المديرية •

Rivlin, Op. Cit.; PP. 31-35.

(١)

وقام بفرض ضريبة المال الميرى على الأراضى المعروفة باسم الرزق
الأحباسية ، وطلب حجج من يتولون النظر عليها ، وأمر حكام الأقاليم
(الكشاف) بالاستيلاء على تلك الأطيان اذا لم يقدم أصحابها الى
الديوان حجج انشاء الوقف ، ومعنى ذلك تمهيد السبيل لمصادرة معظم
الأطيان الموقوفة . كما فرض الضريبة على أطيان الوسية ، وهى الأرض
التي أعطيت للمتزمين وأعفيت أصلا من الضريبة ، وقرر مصادرة نصف
الفائض ، أى أنه قرر بذلك مقاسمة المتزمين (وكان معظمهم فى ذلك
الوقت من المشايخ علماء الأزهر) فى معاشهم . ولقد أثارت هذه
الأمر فى العلماء والمتزمين عاصفة من الاستياء والسخط ، فاتفقوا على
مقاومتها ، وتزعّمهم السيد عمر مكرم^(١) . وذهب النساء والرجال الى
الأزهر يوم ٣٠ يونيو عام ١٨٠٩ ، فأبطل الشيوخ الدروس وأرسلوا
الى السيد عمر مكرم ، وبعد أن تشاوروا فى الأمر اتفقوا على الدفاع
عن مصالح الأهالى وقرروا الاجتماع فى اليوم التالى . وفى هذا
الاجتماع أجمع العلماء على الاعتراض على المظالم الجديدة وهى فرض
الضريبة على الأطيان الموقوفة وأطيان الوسية وهى مقاسمة المتزمين فى
ايرادهم ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة . ولكن
غالبية القاهريين كانوا مرتاحين فى قرارة أنفسهم لاجراءات محمد على
بمقاسمة المتزمين فى فائضهم لأنها أزالّت الفوارق التى مكنت لفئة
معينة من العيش فى رخاء ، بينما عاشت الأكثرية فى تقتير وحرمان
وبؤس . وعلى أية حال نجح محمد على فى احداث الفرقة بين العلماء،
وفى النهاية أصدر فى ٩ أغسطس أمرا بعزل السيد عمر مكرم من نقابة
الأشراف ونفيه الى دمياط .

Vaulabelle, Op. Cit.; T. IX; PP. 413 414.

(١)

٣ — الغاء جميع الاعفاءات التى كانت تتمتع بها الأراضى المملوكة
للمساجد والمؤسسات الدينية .

٤ — الغاء الامتيازات الخاصة التى تتضمن اعفاء أنصار محمد
على ، الذين كافأهم باعطائهم أرضا ، من الضرائب .

٥ — تصنيف كل الأراضى طبقا لنوع وطبيعة المحصول المزروع
وتوحيد ضريبة الأراضى بالنسبة الى كل فئة .

٦ — تبسيط نظام جباية الضرائب لضمان تدفق نسبة أكبر من
الدخل الى الخزانة بدلا من ذهابها الى جيوب الكتبة الأقباط ومشايخ
القرى ، الذين كانوا يفيدون من النظام الشاذ المعقد القائم .

وكان من أهم مستلزمات تلك الخطة عملية مسح أراضى مصر كلها
مسحا شاملا . وكانت قد بدأت عملية مسح أراضى الصعيد فى عام
١٨١٣ ، كما بدأ مسح أراضى الوجه البحرى فى أوائل عام ١٨١٤ .
وقبل ظهور النتيجة النهائية للمساحة فى مايو عام ١٨١٤ ، صدر أمر
محمد على فى فبراير من نفس العام بمصادرة كل الالتزامات القائمة
فى الوجه البحرى على أن يستمر ملتزموها فى الحصول على «الفايظ»
من الخزانة مدى الحياة تعويضا لهم عن أخذ حصص التزامهم . كما
صادر محمد على الأراضى المعروفة باسم « رزاق الأحباسية » وهى
الأراضى الموقوفة على المساجد والأسبلة والخيرات وجهات البر
والصدقات . وعلى أثر ذلك ذهب وفد من المشايخ الى نائب الباشا
(الكخيا بك) وطلبوا منه تأجيل تنفيذ فرمان الباشا ، ليتسنى لهم
تقديم العرائض الى محمد على وكان فى الحجاز فى ذلك الوقت ، ثم
ذهب جمع كبير من النساء الملتزمات بعد عدة أيام الى الجامع الأزهر
وطالبين بسحب قرار المصادرة . ورغم أن الكخيا بك استدعى المشايخ

واتهمهم بتدبير تلك المظاهرات خدمة لأغراضهم الخاصة ، فقد منح الملتزمين الحق في حصاد محاصيلهم القائمة على الأرض^(١) .

وكان الغاء نظام الالتزام انقلبا اقتصاديا واجتماعيا ، اذ شعر الفلاحون بأنهم تحرروا من «رق» الالتزام ، وحق لهم أن يقولوا للملتزمين « أنتم أئش بقالكم في البلاد ، قد انقضت أيامكم ، احنا صرنا فلاحين الباشا »^(٢) . وبمقتضى هذه الاجراءات أصبح محمد على «ملتزما» أو مالكا لمعظم أراضي مصر ، ولم يسمح في بادىء الأمر بتكوين ضياع خاصة حتى لا يؤدي ذلك الى قيام طبقة مالكة تتحدى سلطته ، ويظل محتفظا لنفسه بالأرباح الناتجة من الزراعة . ولكن الأمر لم يستمر على ذلك ، فبدأ محمد على يعدل من سياسته هذه في أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ، وسمح بتكوين طبقة مالكة وحاكمة من الأشخاص الذين ساعدوه وأخلصوا له ، وكان من بينهم أفراد أسرة الوالى نفسه . ولقد تأكد محمد على من عدم صلاحية نظام الاشراف المباشر على الزراعة ، واحتكار وتحصيل الضرائب على أيدي مندوبين حكوميين . كما أنه أراد أن يخفف من نظام الاحتكار — الذى استحدثه في عام ١٨١٢ — ويخدع قناصل الدول الأجنبية الذين ألحوا عليه في الغاء ذلك النظام ، فقرر السماح بقيام نوع من الملكية الزراعية ، ومنح الأرض لأتباعه ولكنهم لم يمنعوا عنه محصول ضياعهم الذى كان يأخذه بالثمن الذى يراه . وانتهى نظام الاحتكار على يد الحكومة ولكنه بقى بصورة أخرى . وبعد عام ١٨٤١ اهتم محمد على وأفراد أسرته وبخاصة ابراهيم باشا بتكوين ثروات شخصية ضخمة . وهكذا منح محمد على خلال العقدين الأخيرين

(١) الجبرتي : ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

(٢) الجبرتي : ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

برنامج منشآت الري الذى نفذ فى عهد محمد على ، وظلت الأراضي الممنوحة للفلاحين ملكا للدولة ، ولم يحصل الفلاح على أية حقوق خاصة بالملكية من قانون الأراضي الذى أصدره محمد على فى عام ١٨٤٦^(١) ، لأنه لم يضمن الا حماية الفلاحين من الإبعاد الدائم عن الأرض التى كانت فى حالات كثيرة فى حيازة أسرهم منذ أجيال . ونتيجة للسياسة التى اتبعها محمد على بشأن نظام حيازة الأراضي الزراعية ظهرت طبقة أرستقراطية جديدة دخل معها المصريون فى معركة فاصلة ابان الثورة العربية .

أما بالنسبة للتنظيمات الادارية التى قام بها محمد على فى مصر، فكانت معقدة وغامضة فى كثير من النواحي . فلقد استحوذ محمد على على السلطة بعد الفوضى التى سادت فى مصر عقب خروج الفرنسيين فى عام ١٨٠١ . وبعد أن تفرقت الصفوة الحاكمة القديمة من المماليك والعثمانيين ، تم تغيير كل النظم الادارية التى كانت سائدة قبل الاحتلال الفرنسى . ومما يلفت النظر بالنسبة لنظام محمد على الادارى هو حدوث تغيير فى الاصطلاحات الادارية ، فلقد اختفت أسماء الادارات والألقاب القديمة وحلت محلها أسماء ذات معنى جديد ، كما ظهرت كلمات جديدة اتخذت مكانها فى اللغة . ومع اختفاء الطبقة القديمة الحاكمة من بكوات المماليك ، أصبح لقب «بك» ، كما كان الحال فى الفترة الأولى من تاريخ مصر فى العهد العثمانى ، مجرد لقب فخري ، وفقد قيمته بسبب كثرة منحه . ولقد ظلت ألقاب ووظائف الكشاف والدفتردارين موجودة فترة من الوقت ولكنها أبطلت نتيجة لاعادة تشكيل النظام المالى والاقليمى . وتمثلت التطورات التى أدخلت فى

Baer, A history of Landownership in modern Egypt; (١)
PP. 6-7.

ادارة الأقاليم فى ظهور لقبين جديدين هما : لقب مدير أى رئيس المديرية وكان مسئولا عن تنفيذ أوامر الباشا فى مديريته وبخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب والمتأخرات والمحافظة على الجسور والترع ، والاشراف على المصانع فى المديرية ، واصدار توجيهات فيما يتعلق ببذر المحاصيل وريها ، ولقب مأمور أى رئيس المركز ، وكان يضطلع بالمسئولية الكاملة عن كل الأعمال فى القرى الواقعة تحت اشرافه . كذلك استخدمت كلمة أخرى جديدة هى كلمة «مديرية» وحلت محل اقليم أو كاشفية . كما أدى استيلاء مصر على بعض المناطق خارج حدودها الى استخدام لقب جديد هو لقب حكمدار ، وأضفى هذا اللقب على حاكم سورية المدنى فى عام ١٨٣٢ ، وعلى الحاكم العام للسودان المصرى فى عام ١٨٣٥ ، وكان حكمدار السودان يجمع فى يده السلطة العسكرية والمدنية .

وفى عهد محمد على ، أصبحت وظائف الحكومة أكثر تعقيدا واختلافا عما كانت عليه فى العهد السابق . فان الاجراءات التى تمت بالنسبة للأراضى الزراعية حتمت ضرورة احداث تغييرات فى النظام المالى للحكومة ، كما تطلب تكوين الجيش الجديد اقامة نظام للإدارة العسكرية لم تعهده مصر من قبل ، ومن ناحية أخرى ، تطلب بناء الأسطول وتطوير مدارس الحكومة وتنمية التجارة والصناعة تأسيس جهاز حكومى يقوم بالاشراف على كل هذه المسائل . ولذلك فكر محمد على فى بادىء الأمر فى تكوين بعض المجالس أو الدواوين ، فألف مجلسا للحكومة يسمى «الديوان العالى» ومقره القلعة ، وكان يتداول مع أعضائه فى الشئون المتعلقة بالحكومة ، ولقب رئيس هذا الديوان بلقب كتحدا بك أو كتحدا باشا (أى وكيل الباشا) . ثم كون فى عام ١٨٢٤/١٨٢٥ مجلسا سماه « المجلس العالى » وكان يتألف من نظار

الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الأزهر،
واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة وغيرهم^(١) .

ومما تجدر ملاحظته أن هذه المجالس لم تكن على درجة كبيرة من
الرقى وحسن النظام ، كما أن رؤساء الدواوين والمجالس لم يتبنوا
في حفيظة الأمر بكل واجبات ومسئوليات الوزراء . على أن محمد علي
سرعان ما وجد أن مناقشة المسائل في المجالس قبل عرضها عليه أدت
الى تأخير البت في المسائل ومحاولة التملص من المسؤولية ، فأمر بالغاء
أكثر هذه المجالس وتركيز العمل في الدواوين . ولهذا السبب ولنازم
وضعه المالى ، أصدر محمد علي الملائحة الادارية المعروفة بالقانون
الأساسى أو قانون نامة في يونيو — يوليو ١٨٤٧ ، وأهم ما فيه بيان
للدواوين واختصاص كل منها وفروعها ، أى أن الباشا أقدم على اعادة
تنظيم الادارة الحكومية . وقد ظل هذا القانون أساس التنظيم الحكومى
في مصر طوال عهد محمد علي . ولقد حصر هذا القانون السلطة في
سبعة دواوين هي^(٢) :

١ — ديوان الخديو (وزارة الداخلية) : كان هذا الديوان يختص
بالشرطة والشئون القضائية التى لا تدخل في اختصاص المحاكم الدينية
أو التجارية ، كما يشرف على ١٩ ادارة منفصلة مسئولة عن مسائل
كالأسواق ، وتموين الباشا : الشخصى والعام ، باستثناء الامدادات
العسكرية والمؤسسات الدينية ، وترعة المحمودية ، والبريد ودار سك
النقود .

(١) عبد الرحمن الرافعى ، ج ٣ ، ص ٥٧٠ — ٥٧١ .
(٢) انظر ، أحمد فتحى زغلول ، المحاماة ، القاهرة ، ١٩٠٠ ،
ص ٦ — ٢٤ ، خليل صبحى ، تاريخ الحياة النيابية في مصر ، ص ٤ — ٧٥ .

٢ — ديوان الإيرادات (وزارة المالية) : وقد انقسم الى قسمين :
أحدهما يختص بحسابات كل المديرية المصرية وجزيرة كريت والحجاز
والسودان ، وثانيهما يختص بإيراد مدينتي مصر والاسكندرية والجمارك
والمقاطعات والزمومات .

٣ — ديوان الجهادية (وزارة الحرب) : كانت تختص بواجبات
التجنيد وتدريب ونظام القوات وتوزيعها والانفاق عليها ، وإدارة الخدمة
الطبية للجيش والمستشفيات العسكرية وصيانة أبنية الجيش وتحصيناته
والإشراف على امداد ورش الجيش ومخازنه .

٤ — ديوان البحر (وزارة البحرية) : كانت كل الشؤون البحرية
تقع تحت سلطة وزير البحرية ، ومن بينها الإشراف على قوات الأسطول
وأفراده وحوض السفن ، والمخازن ، ومستشفيات البحرية وخدماتها
الطبية ، وخزانة الأسطول .

٥ — ديوان المدارس (وزارة التعليم والأشغال العمومية) : كان
الديوان يتولى أمر المدارس الابتدائية والثانوية والفنية ، والمكتبات
ومخازن الأدوات ، والمتاحف ، وقناطر الدلتا ، ومطبعة بولاق ،
والجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ، والهندسة ، ومزارع الأسطبلات
في شبرا .

٦ — ديوان التجارة المصرية والأمور الأفرنكية (وزارة التجارة
والشؤون الخارجية) : كانت تتولى العلاقات الدبلوماسية وإدارة
وحراسة مخازن الحكومة (الشؤون) وجباية الالتزامات ، والجمارك
ومبيعات ومزادات منتجات الحكومة .

٧ — ديوان الفاوريقات (وزارة الصناعة) : كانت مختلف المصانع

في القاهرة — كمصنع الطرابيش — وصناعات الأقاليم من اختصاص
هذا الديوان •

وطلب محمد على من رئيس كل ديوان (وهو بلقب مدير) أن
يقدم للبasha تقريراً في كل أسبوع عن أحوال ديوانه وكشفاً شهرياً
بحساباته الى تفتيش الحسابات وميزانيه سنوية عن الإيرادات
والمصرف •

وهكذا كانت الظروف التي جاء فيها محمد على الى الحكم تحتم
عليه أن يضع نظاماً ادارياً جديداً ، ولكن اختفاء الصفوة الحاكمة
القديمة أدى الى ظهور مشخه وهي خيفية ايجاد الموظفين للجيش
وللادارة المدنية وللخدمات الثانوية • فالتقى محمد على من بين أقربيه
المحدودين والأشخاص المقربين اليه من يحتاج اليهم لنسب المناصب
الرئيسية في الادارة المدنية • ولذلك شغل الأتراك المناصب العليا ،
ولعب أفراد أسرة الباشا وخاصة ابراهيم باشا وعباس حلمي الأول
دوراً مهماً في النواحي الادارية • أما بالنسبة للفنيين المطلوبين
للاشراف على كل التطور المدني والعسكري ، فقد استعان في بادئ
الأمر بالأوروبيين وخاصة الفرنسيين والايطاليين • ولكن الفساد
استشرى في كل فروع الادارة بسبب قصر نظر سياسة الباشا ، وقد
قال الكولونيل دوهاميل Duhamel (قنصل روسيا العام في مصر)
بأن أسوأ كارثة حلت بحكومة محمد على هي الحاجة الماسة الى
استخدام موظفين أترك نشغل الوظائف العامة • فمعظم الذين وفدوا
الى مصر من الأتراك قد جاءوا اليها جرياً وراء المناصب والاثراء •
ولما فشل محمد على في القضاء على جذور الفساد المتفشى في ادارته ،
قرر استبدال المصريين بالأتراك • وفي عام ١٨٣٣ ، بدأ يستبعد الأتراك

الذين كانوا يشغلون وظائف صغيرة في الإدارة المدنية ، عندما اكتشف أن مفسد خطيرة قد زحفت الى الإدارة في خلال انشغاله بالحرب السورية الأولى وصرح في ذلك الوقت بقوله : « لن يستطيع أحد أن يشكو بعد الآن ، والفلاحون الآن على قدم المساواة مع الأتراك »^(١) . وبتعيين المصريين تمكن محمد على من تخفيض نفقات ادارته ، لكنه زاد في أعباء الفلاحين ، لأن الموظفين الجدد أسرعوا بدورهم في مضاعفة دخولهم على حساب الفلاحين . ثم استخدم الباشا هزيلا من المصريين في المراكز الثانوية ليحلوا محل العدد الكبير من الموظفين الأجانب وخصوصا الفرنسيين والايطاليين الذين طردهم في عام ١٨٤١ ، بعد أن قرر الاقتصاد في النفقات . وبمضى الوقت تمخضت هذه السياسة عن نتائج كبيرة بالنسبة لمصر — اذ انها أدت الى قيام الطبقة البيروقراطية المصرية . وكان من أهم النتائج الفرعية لتلك السياسة أيضا فرض اللغة العربية بالتدريج على الإدارة الحكومية . ولكن رغم ذلك لم يعتمد الجهاز الادارى على المصريين وحدهم بل ظل الأجانب يشغلون مناصب هامة ، وظل أكبر موظفى الحكومة يؤخذون من الطبقة التركية الحاكمة .

كما أدى احتياج محمد على الى موظفين مدربين الى تأسيس أول نظام تعليمى مدنى فى دولة اسلامية . فقبل تولية محمد على الحكم لم يكن بمصر نظام تعليمى بالمعنى الدقيق الذى يدل عليه هذا التعبير، فلم يكن سوى الأزهر وبعض المدارس الملحقة بالمساجد والكتاتيب بالمدن والقرى ، ولم تكن تتمتع بنظام يصل ما بينها ويجعل منها وحدة تعليمية، ولم تخضع لسلطان الحكومة ورقابتها . على أن الركود الذى ساد

Rivlin, Op. Cit., P. 109.

(١)

مصر في العهد العثماني قد أثر على الأزهر ، فاقترنت الدراسة فيه على قراءة كتب الدين واللغة وشرحها ، أما الكتائب فانهصر نشاطها في تحفيظ القرآن وتعليم الكتابة والقراءة . أما محمد علي فقد اهتم بتطوير نظام التعليم وتكوين طبقة من المتعلمين لمواجهة احتياجات جيشه ونظامه الاداري الجديد^(١) . ويبدو أن محمد علي قد خشي اثاره الشعور الديني بين جموع الناس اذا هو حول الأزهر عن رسالته التي عكف على أدائها الى العمل لمواجهة متطلبات دولته الجديدة . فأنشأ عددا من المدارس ، كانت أولاها مدرسة الهندسة التي أسسها في القلعة عام ١٨١٦ لتعليم الطلبة مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب . ويدل هذا العمل على مبلغ ارتباط هذه المدرسة بسياسة محمد علي الخاصة باعادة تنظيم الأراضي الزراعية . وعام ١٨٢٧ أسس محمد علي — بناء على اقتراح كلوك بك (Clot Bey) أحد مستشاريه الفرنسيين في مجال الطب — مدرسة الطب لتخريج الأطباء المصريين للجيش . كما لعب الترجمة دورا مهما في نظام التعليم ، بنقل المحاضرات التي كانت تلقى باللغة الفرنسية الى العربية وتعريب الكتب الاجنبية في مجال العلوم والآداب . ويرجع الفضل في انشاء مدرسة الألسن (أو اللغات) الى الشيخ رفاة الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) ، مؤسس نهضة مصر الثقافية في القرن التاسع عشر ، فبعد عودته من فرنسا اقترح على محمد علي انشاء هذه المدرسة ، وتم تنفيذ هذا الاقتراح في عام ١٨٣٦ ، وعرفت المدرسة في بادئ الأمر باسم مدرسة الترجمة . وفي العام التالي عهد محمد علي بنظارتها الى رفاة الطهطاوي . وفي مدرسة الألسن درست آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة

Safran, Egypt in search of political community, PP. (١)
30-31.

الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافيا ، والشريعة الإسلامية ، والنرائع الأجنبية^(١) . وهكذا يتضح أن المهمة الثقافية لهذه المدرسة كانت أعم وأشمل مما يدل عليه الاسم الذى اختير لهذه المدرسة ، لأنها دانت أكبر مدرسه لتتشر التنافه فى مصر . وفى عام ١٨٤١ عهد الى رفاعه أيضا الاشراف على قلم الترجمة الذى ألحق بالمدرسة ، وقد قام هو نفسه بتعريب الكثير من الكتب . وكان من المحتمل ألا يكون لحركة الترجمة الواسعة التى ظهرت فى هذه الفترة أى تأثير أو فائدة لو لم يقيم محمد على بإنشاء مطبعة بولاق فى عام ١٨٣٣ ، لأنها كانت الوسيلة العملية لنشر العلوم والمعارف المختلفة ، واختار لتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الأزهر . ولقد طبعت فى مطبعة بولاق أيضا الوقائع المصرية ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة وأول جريدة عربية صدرت فى مصر ، وقد ظهر أول عدد منها فى ٣ ديسمبر عام ١٨٢٨ . وهكذا ساعدت مطبعة بولاق على تطور النهضة العلمية فى مصر .

ومن ناحية أخرى اهتم محمد على بإرسال البعثات العلمية الى الخارج لاعداد خبراء وصناع مدربين فى كل النواحي المختلفة . وكانت البعثات هى الوسيلة الوحيدة لكى ينقل الى مصر خبرة علماء أوروبا ومهندسيها . وبدأ محمد على إرسال بعثات علمية الى أوروبا فى عام ١٨١٣ ، اذ أوفد الى ايطاليا عددا من الطلبة لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من الفنون . ولكن أول بعثة علمية كبيرة منظمة أرسلت الى أوروبا كانت فى عام ١٨٢٦ ، وتلاها فيما بين عامى ١٨٢٦ و ١٨٤٧ تسع بعثات ، وتكونت من ٢١٩ طالبا ،

Dunne, Op. Cit. PP. 150; 226-227.

(١)

ذهب معظمهم الى فرنسا ، واتجه الباقون الى انجلترا والنمسا^(١) .
ولقد بلغت قيمة ما أنفقه على هذه البعثات حوالى ٣٧٣٣٦٠ جنيهها
وأرسلت هذه البعثات لكى يتخصص الطلبة فى الهندسة والرياضيات
والطبيعيات ومختلف الصناعات والنظم الحربية والعلوم السياسية
والطب والحقوق .

وبمقتضى التنظيم الإدارى الذى أحدثه محمد على فى البلاد عام
١٨٣٧ ، قام بإنشاء إدارة خاصة للمدارس سميت باسم ديوان المدارس ،
وهى أول وزارة للتربية والتعليم فى مصر الحديثة . وقد ساعد على
تنظيم هذه الإدارة تخرج أعضاء البعثات وعودتهم الى مصر ، فرأى
محمد على أن يستفيد من خبراتهم ومواهبهم فى تنظيم نهضة التعليم .
وتحت إشراف ديوان المدارس ، اتسع نطاق التعليم وتأسست المدارس
التجهيزية فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم ، وكانت هذه المدارس
تقبل الطلبة من المدارس الابتدائية التى أنشأها ديوان المدارس . وكان
المهدف من إنشاء المدارس التجهيزية هو امداد المدارس العليا المتخصصة ،
مثل مدرسة المحاسبة ومدرسة العمليات ومدرسة القانون والإدارة
وغيرها ، بالطلبة اللازمين^(٢) . وكان التعليم فى مختلف هذه المدارس
مجانيا ، وكفلت الحكومة للتلاميذ حاجتهم من مسكن وغذاء وملبس ،
وأجرت على كثير منهم الأرزاق والمرتبات . ولكن الكثير من هذه
المدارس لم يستمر طويلا ، بسبب الصعوبات الكبيرة التى كانت تتعلق
بالحصول على الموظفين اللازمين ، ولم يكن الأهالى راضين عن ادخال
أبنائهم فى هذه المدارس لاعتبارها نوعا من أنواع التجنيد . ولقد كانت

Dunne, Op. Cit.; PP. 157-180.

(١)

Dunne, Op. Cit.; P. 218.

(٢)

٤ - أثر حكم محمد على في المجتمع المصرى

بعد أن استعرضنا سياسة محمد على الخارجية والداخلية ينبغى على الباحث أن يقوم بتقييم وتحليل الأعمال التى قام بها ، ويناقش الى أى حد تنطبق عليه عبارة « مؤسس مصر الحديثة » *The Founder of Modern Egypt* التى استخدمها كثير من المؤرخين الأجانب والمصريين عند دراسة تاريخ مصر الحديث .

فى أول الأمر ، بدا محمد على ، ذلك الضابط الالبانى المغمور ، أداة طيعة لتحقيق الأهداف الكبرى التى كان يسعى اليها السلطان العثمانى ، فخلص مصر من المماليك ، تلك الطائفة العسكرية المتمردة التى طال تجاهلها لالتزاماتها نحو الحكومة المركزية فى الإستانة ، وساعد فى اخضاع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية بعد أن تحدوا سلطة السلطان باعتباره حاميا للحرمين . وفى النهاية ، لعب محمد على دورا له أهميته نحو السلطان خلال حرب الاستقلال اليونانية . ولقد أدرك محمد على فى ذلك الوقت أن الجيش العثمانى أصبح عاجزا أمام جيوش أوروبا الحديثة التى استفادت من التقدم الفنى الذى أحرزه الغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأن قدرة الامبراطورية العثمانية على تحدى الغرب تتوقف على قابلية الامبراطورية لاستيعاب الأفكار الجديدة وعلى السرعة التى يتم بها طبع الجيش العثمانى بالطابع العصرى . ولذلك أقبل محمد على على الإصلاح ، وكان فى الواقع أول موظف عثمانى يدخل « النظام الجديد » فى ولايته بقدر معين من النجاح . ولقد كان من الممكن أن يقوم محمد على - اذا كان ضابطا عثمانيا وطنيا - بانقاذ الامبراطورية العثمانية وبمساعدها على استعادة

كما اهتم بنظام الري وعمل على تحسينه ، واهتم محمد على أيضا بتصنيع مصر في عام ١٨١٧ لانتاج الأسلحة والعتاد لجيشه وأسطوله الجديدين وتجهيز الحاصلات الزراعية للاستهلاك أو التصدير ، كما أراد أن يعتمد عليها باعتبارها مصدرا من مصادر إيرادات الحكومة . ولقد أدت سياسة محمد على في النهاية الى حدوث نتائج ايجابية وأخرى سلبية . ففي المجال الأول ، ساعدت هذه السياسة على دخول كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية المصرية الى الأسواق الأوروبية المزدهرة ، وفتح بذلك آفاقا جديدة للتجارب المصرية . كما جذب الى مصر عددا من التجار الأوروبيين نقلوا معهم كثيرا من المهارات الفنية الغربية والعلماء الغربيين ، ولقد غيرت هذه التطورات الشكل العام لتجارة مصر كلية ، فارتبطت ارتباطا وثيقا بأوروبا . وبإدخال مصر في تلك التجارة الأوروبية ، لم يكن هناك مفر أمام محمد على من اتصال مصر بالحضارة الغربية . ولقد استطاع محمد على أن يؤسس فعلا الدولة الحديثة في مصر ، وكان ذلك يرجع دون شك الى فتح مصر للمؤثرات الغربية وانعاش التجارة ، وتشجيع نمو المدن ، وإيجاد طبقة بيروقراطية مصرية وإنشاء جيش مصري ، وتأكيد نظام الوراثة في أسرته . وهذه في الواقع بعض الانجازات المهمة التي كان لها أهمية كبيرة في تطور مصر الحديثة .

أما بالنسبة للنتائج السلبية ، فلقد فتح محمد على الطريق أمام التغلغل الاستعماري الغربي . فاهتمام محمد على بالأسواق الغربية وفتح الآفاق الجديدة للتجارة قد زاد من اعتماد مصر على الأسواق الأوروبية وجعلها سريعة التأثير بتقلبات الاقتصاد الأوروبي . كما أن تدفق التجار الأوروبيين جعل مصر عرضة للتدخل الأوروبي في شئونها الداخلية ، فزعمت الحكومات الأوروبية أن لها الحق في حماية تجارتها ومصالحها التجارية بمقتضى معاهدات الامتيازات الأجنبية (Treaties of Capitulations) . وبالإضافة الى ذلك فان قضاء محمد على على

الزعامة الشعبية لمقاومة مظالم الحاكمين ، وانصرف العلماء الى « مشاركة الجهاد في المآثم والمسارة الى الولاثم في الأفراح والمآثم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم في كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين ، وللكباب وللمحمرات خاطفين ، ولما وجب عليهم من النصح تاركين » • ولقد أضرت سياسة محمد على نحو طبقة رجال الدين وحرمانها من موارد الأوقاف بالتعليم المصري ، فبرغم ضيق نظام التعليم التقليدي كان يوفر للأطفال المصريين بعض التدريب الذهني ، ولم تستطع مدارس محمد على الحكومية والبعثات التي أرسلها الى الخارج أن تحل محل نظام المدارس الأولية التي لم يحسب لها محمد على أى حساب في نظامه التعليمي الجديد • وفي الحقيقة ألغى محمد على كل مدارسه الحكومية تقريبا بعد عام ١٨٤١ ، كما أشرنا الى ذلك سابقا • ولكن مما لا جدال فيه أن سياسة محمد على التعليمية قد أدت الى ظهور طبقة جديدة من المثقفين بالثقافة الغربية ولاسيما الفرنسية من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى •

ولقد قضى محمد على كذلك على طبقة التجار وطبقة الحرفيين المصريين ، ومنع بذلك تطور البورجوازية المصرية (أو الطبقة المصرية المتوسطة) ونمو الصناعة المصرية • ولو لم يتبع محمد على نظام الرأسمالية الصناعية لأمكن لطبقة الحرفيين المصرية أن تتحول في ظروف طبيعية الى بورجوازية تجارية وصناعية كما حدث في أوروبا ، ولكن محمد على حولها الى طبقة من الأجراء فقدت حريتها في شراء المواد الأولية وتسويق منتجاتها • كما أن استخدام طبقة الحرفيين لم يكن يتم على أساس التعاقد الحر برغم دفع نوع من «الأجور» لهم ، بل اتبعت في احضارهم واستخدامهم نفس الوسائل المتبعة في التجنيد للخدمة العسكرية حتى ليمكننا القول بأن الاستخدام في مصانع الباشا

كان نوعا من التجنيد الصناعى • ومن ناحية أخرى لم تكن الأجور المقررة تدفع بانتظام ، اذ درجت الحكومة على تأخيرها أو حجز جانب منها لضمان استمرار أفراد تلك الطبقة فى العمل وتضييق فرص هربهم^(١) • وكثيرا ما كانوا يتلقون أجورهم عينا بدلا من الحصول عليها نقدا • وفضلا عن ذلك ، فان هدف محمد على من الصناعة التى أقامها فى البلاد كان امداد جيشه وأسطوله بما يحتاجان اليه لتنفيذ سياسته ، فلما انهارت آماله فى عام ١٨٤١ فشلت الصناعات التى أقامها • وأدت أسباب أخرى الى فشل سياسة محمد على الصناعية نذكر منها :

١ — لم يكن المديرون (أو النظار) مدربين بما يكفى لإدارة المصانع الحديثة •

٢ — استيراد الآلات الى مصر دون مراعاة لأحوال البلاد الجوية ، فكان التراب يدخل فى العجلات وغيرها من الأجزاء الدقيقة فى الآلات مما جعل «العمال» يخصصون جزءا كبيرا من وقتهم لتنظيف الآلات • والى جانب ذلك أهمل كثير من الآلات التى استوردت بتكاليف باهظة فور وصولها لأنه لم يكن هناك من يستطيع تجميعها •

٣ — الافتقار الى القوى المحركة عاق تقدم الصناعة ، وقد حاول محمد على التغلب على ذلك باستخدام الثيران ، لكن خطأها وحركتها غير المنتظمة كانت تهز الآلات وتسبب توقفها • وعندما أدخلت بعض الآلات البخارية جعل نقص الوقود تكلفة تشغيلها عالية •

وهكذا لم تجد الرأسمالية الأجنبية وهى تتسلل الى مصر قوة فى مواجهتها من البورجوازية المصرية أو طبقة الحرفيين ، بل وجدت السوق المصرية خالية تماما لها • والى جانب ذلك أوجد محمد على طبقة

جديدة من ملاك الأراضي الزراعية تتكون من أفراد أسرته ورجال حاشيته والمقربين اليه ، بعد أن حصره التدخل العسكري الأوروبي خلال الأزمة المصرية في داخل حدود مصر ، وأجبرته الدبلوماسية الأوروبية على إلغاء نظامه الاحتكاري . وبهذه الطريقة أنشأ محمد على نظام الملكيات الكبيرة في الأراضي الزراعية (طبقا لقرار فبراير عام ١٨٤٢ الذي أصبحت بمقتضاه الأراضي الزراعية الواسعة التي منحها لأفراد أسرته ملكا مطلقا لهم) فحال دون ظهور طبقة مسئولة ومستقلة من صغار الزراع . ولقد ارتفع الدخل القومي في عهد محمد على ، ولكن الباشا فشل في اصلاح أحوال الفلاح الذي أثقل كاهله بالأعباء الثقيلة والضرائب الفادحة ونظام السخرة (Corvée) . وفي حين وضع محمد على أسس الدولة الحديثة في مصر وضع أيضا أساس كثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي عانت منها مصر بعد انتهاء فترة حكمه ومازالت تصارعها .

وهكذا كان من الممكن أن تتطور القوة البورجوازية المصرية لتحتل مكانها السياسي والاقتصادي لتواجه التغلغل الأوروبي الاستعماري في القرن التاسع عشر لو شاء محمد على ومن معه من أتراك وألبانيين وشراكسة . لكن محمد على لم يضع حدا لأطماعه الشخصية ، فلم يقم باصلاح أحوال المصريين الذين وقفوا بجانبه في عام ١٨٠٥ ، وطالبوا به واليا على مصر ، كما أنه لم يقم بوضع نظم ثابتة محل النظم التي قضى عليها بقسوة بالغة . ولقد حقق محمد على هدفه باقامة حكم وراثي في أسرته ولكنه فتح الباب للتدخل الأجنبي قبل أن تطور مصر نظمها التي كان من الممكن أن تساعد المصريين على مواجهة تحدى عصر جديد ، والدفاع عن استقلالهم أمام هجمات الدول الأوروبية المتربصة . ان محمد على قد أحدث تغييرات جذرية في المجتمع المصرى وفي الحياة السياسية والثقافية ، ولكن هذه التغييرات كانت كلها نتيجة أطماعه

الواسعة • وأخيرا فان أوضح وأعمق تفسير لحكم محمد علي في مصر
قد عبر عنه ميثاقنا الوطنى بقوله :

« واذا كان هنا شبه اجماع على أن محمد علي هو مؤسس الدولة
الحديثة في مصر ... فان المأساة في هذا العهد هي أن محمد علي لم
يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر الا بوصفها نقطة وثوب
الى مطامعه ... ولقد ساق مصر وراءه الى مغامرات عقيمة استهدفت
مصالح الفرد متجاهلة مصالح الشعب » (١) •

(١) الميثاق الوطنى ، ص ٢٣ •

الفصل الخامس

علاقة مصر بالدولة العثمانية والغرب

(١٨٤٨ - ١٨٧٩)

- ١ - مصر في مفترق الطرق •
- ٢ - عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) ومشكلة انشاء السكة الحديدية •
- ٣ - عهد الخديوية المصرية (١٨٦٣ - ١٨٧٩) •

١ - مصر في مفترق الطرق

عانت مصر خلال الفترة التي تلت وفاة محمد على من حدوث تغييرات باللغة الأهمية + فقد أخفق محمد على في المحافظة على امبراطوريته اذ فقد معظمها ماعدا الولايات السودانية وهى بعيدة عن مصر ولم تكن لها أهمية سياسية + ومع ذلك ترك لخلفائه عرشا وراثيا ، وحكومة قوية ، وجيشا حقيقيا ، وبلدا من أغنى بلاد الشرق الأوسط . وكان نفوذ السلطان العثماني داخل مصر نفوذا اسميا ، واذا كانت الدول الأوروبية قد أثرت على سياسية محمد على فانها لم تتحكم فيها تحكما تاما + ولقد حصل محمد على على استقلال حقيقى بقدراته الخارقة وبتدخل الدول الأوروبية في النزاع بينه وبين السلطان + وأظهر خلفاء محمد على اهتماما كبيرا بمسائل مهمة استمدت أصولها منذ حكم محمد على وهى : العلاقات مع السلطان ، والعلاقات مع الدول الأوروبية ، والاصلاح الداخلى ، وتكوين امبراطورية افريقية + ولكن التوازن الحساس بين مصالح الأطراف المعنية الذى استمر طيلة حياة محمد على قد اهتز بشكل لا يمكن اصلاحه أو تفاديه في السنوات التالية + ولقد مهد محمد على للتسلل الأجنبي الى مصر ، وفي نفس الوقت ازداد اهتمام الدول الأوروبية بها لأهميتها البالغة باعتبارها طريقا رئيسيا للمواصلات العالمية قبل وبعد انشاء السكك الحديدية المصرية في عام ١٨٥٨ وفتح قناة السويس للملاحة البحرية في عام ١٨٦٩ + ومن ناحية أخرى وضعت التسوية التى أقرتها الدول الأوروبية في ١٨٤٠/١٨٤١ مصر تحت اشراف الدول وبذلك فتحت الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبي + وبلغ هذا التدخل الأجنبي في شئون مصر أقصاه في عصر الخديو اسماعيل فقد وصلت الخديوية المصرية في عهده الى الحضيض عندما طلبت انجلترا وفرنسا من الباب العالي عزله وتعيين ابنه محمد توفيق في عام ١٨٧٩ ، ثم انتهى الأمر بالاحتلال البريطانى لمصر في عام ١٨٨٢ +

وأبرز ما يميز تاريخ مصر في الفترة التالية هو المحاولات التي بذلتها الحكومة العثمانية لارجاع مصر الى حظيرة الدولة العثمانية باشوية عادية كسائر باشويات الامبراطورية . فلقد منحت الحكومة العثمانية محمد على وأسرته حكم مصر على غير رغبة منها بسبب ضغط الدول الأوروبية عدة امتيازات هامة ، ولكنها لم تفقد الأمل في فرض سيطرتها التامة على مصر اذا سنحت الفرصة لذلك . ومرت بمصر منذ عام ١٨٤٨ ظروف ومسائل أمدت الحكومة العثمانية بكثير من الفرص لتحقيق هذا الأمل ، ولكن الدول الأوروبية التي اشتركت في وضع تسوية ١٨٤٠/١٨٤١ حافظت على هذه التسوية وأبقت على الامتيازات التي تضمنتها الفرمانات .

ولقد تحسنت العلاقات المصرية — التركية بعد انتهاء الأزمة المصرية في عام ١٨٤١ ، وقام محمد على في صيف ١٨٤٦ بزيارة السلطان في استانبول وقابل السلطانة الوالدة ثم زار قبر منافسه السلطان محمود الثاني . ولقد أنعم عليه السلطان بالكثير من النياشين والرتب من بينها رتبة الصدر الأعظم ، وبعد عودته الى مصر تخلى عن زيه التقليدي الذي اعتاد أن يلبسه ، من ذلك أنه خلع العمامة ووضع على رأسه الطربوش^(١) . ولكن كل هذه المظاهر لم تغير من أطماع الباب العالي . وظل الأمر كذلك حتى وافته الفرصة عندما تولى عباس حلمي الأول باشوية مصر . أما عن الأسباب التي حددت العلاقة المصرية العثمانية فسنشير اليها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن المسألة الجوهرية هي أن الباب العالي انتظر حتى يأتي الى حكم مصر وال لا يتمتع بقدرة وكفاية محمد

(١) انظر : صبحي وحيدة ، في أصول المسألة المصرية ، ص ١٥٦ ،

F.O. Stoddart to Palmerston, 8 Aug. 1846.

على • على أن هذه المحاولات من جانب الحكومة العثمانية قد أتاحت للدول الأوروبية فرصة التدخل في شئون مصر للمحافظة على التسوية وتحقيق مصالحها الحيوية في البلاد •

وقد وضحنا من قبل علاقة محمد علي بالدول الأوروبية ومبلغ حرصه على ألا يصطدم بالسياسة الأوروبية أو بقوة حربية أوروبية • وكان محمد علي يقدر الصداقة البريطانية ويحسب حسابا لقوة بريطانيا في البحر المتوسط والهند ولنفوذها في البحر الأحمر والخليج العربي • ولقد أظهر محمد علي رغبته في أن ينال صداقة بريطانيا • كما أبدى في عام ١٨٣٠ استعداده للعمل مع الانجليز لوقف النفوذ الروسي في الشرق ، وأخبرهم بمفاوضاته مع الفرنسيين فيما طلبوه من اشتراكهم في الاستيلاء على مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠ • ولكن لورد بامستون — المشرف على السياسة البريطانية — كان يشك في نوايا محمد علي ويرى في اتجاهاته وسياسته تعارضا مع المبدأ الذي قننه بامستون وهو سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، وكان يشعر دائما بأن الدولة العثمانية ، هي خير من يشرف على طرق المواصلات الى الهند^(١) •

كما أن بريطانيا لم تنظر بعين الارتياح الى تزايد التقارب بين فرنسا ومحمد علي، ونفوذ قناصل فرنسا الملحوظ لاسيما المسيو دروفيتي (Drovetti) الذي ظل في مصر منذ سقوط نابليون الأول • فكان يحضر مجالس الباشا ودفعه الى أن يستعين بالفرنسيين للإشراف على مشروعات الباشا في المجالات المختلفة^(٢) •

(١) H. Bulwer. The life of.. Viscount Palmerston, II/293.

(٢) Report on Egypt, Stoddart to Palmerston, 9 Feb. 1847; in F.O. 78/710.

الأوروبية وتعامل معهم بحذر تام ولكنه لم يمكن أى دولة من أن تستأثر بمصر وتسيطر عليها • ويرجع التنافس الانجليزى الفرنسى على مصر الى أهمية مصر باعتبارها طريقا ممتازا للمواصلات العالمية ، ولقد تمثل هذا التنافس فى الصراع بشأن مشروعى السكة الحديدية وقناة السويس • فلقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر ازدياد أهمية مصر للمواصلات بين أوروبا والشرق وخاصة بين بريطانيا والهند • ولم تصبح أهمية مصر مسألة ذات طابع سياسى هام — كما وضعنا قبل ذلك — الا بعد الاحتلال الفرنسى لمصر • ففى ذلك الوقت تمت دراسة أولية لبرزخ السويس واقتراح انشاء قناة بين البحر الأحمر والنيل ، ولكن الفرنسيين لم يكن لديهم الوقت الكافى أو الفرصة المناسبة لتنفيذ هذا المشروع لأنهم شغلوا بالدفاع عن مركزهم فى مصر أمام المصريين والعثمانيين والانجليز • ولم يتطور اهتمام بريطانيا بطريق المواصلات عبر مصر بشكل فعلى حتى عصر محمد على الذى لم يغفل أهمية الطريق البرى وعمل على احيائه منذ تولى حكم مصر • وكان الرائد الأول الذى اهتم بالطريق البرى عبر مصر هو توماس فلتشر واجهورن^(١) (١٨٥٠ — ١٨٥٠) Thomas Fletcher Waghorn الذى سافر فى عام ١٨٣٩ من لندن الى بومباى واستغرقت الرحلة أربعين يوما ونصف يوم وهو رقم قياسى فى ذلك الوقت • وفى عام ١٨٣٧ بدأت الرحلات التجارية المنظمة بين بريطانيا والاسكندرية وبين السويس وبومباى ، وأخذت المراسلات البريطانية الى الهند تعبر هذا الطريق ، وتولى توماس واجهورن نقل المراسلات المارة بالطريق البرى عبر مصر فترة من الوقت ثم تحول الاشراف على هذه المسألة الى شركة

H. Addison; Thomas Waghorn and the Overland (١)
Route, Royal Central, Asian Journal, Vol. XLV; April 1958 Pt.
II/179-185.

أسسها محمد علي للقيام بهذه المهمة • ولقد نقص الوقت الذي تستغرقه الرحلة من لندن الى بومباي الى واحد وثلاثين يوما مقابل ثلاثة أشهر كانت الرحلة تستغرقها للدوران حول طريق رأس الرجاء الصالح • وبدأ التفكير في نفس الوقت في استخدام طرق أخرى للمواصلات عبر شمالى سورية الى الفرات ، ولكن أثبتت التجارب والدراسات التى قام بها البريطانيون بأشراف Chesny فى عام ١٨٣١ أن هذا الطريق أقل نجاحا من الطريق البرى • ولقد عارض محمد علي ارسال بعثة تمسح الفرات وتثبت صلاحية هذا النهر للملاحة البحرية ، ووضع العراقيل الكثيرة أمامها حتى لا يؤثر ذلك على أهمية الطريق المصرى الذى يسير فى ممتلكات الباشا • ولقد زاد اهتمام الجمهور فى بريطانيا والهند باستخدام الطريق البرى عبر مصر لعدة أسباب كثيرة ، أهمها تزايد أهمية الهند الاقتصادية بالنسبة لانجلترا ، فلقد بدأت التجارة بينهما فى عام ١٨١٤ ، وفى نفس العام تم تصدير ٨١٧٠٠٠ ياردة من المنسوجات القطنية الى الهند ، وظلت هذه الكمية تزايد سنة بعد سنة الى أن وصلت الى ٩١٣٠٨٣٣٩١٣ ياردة فى عام ١٨٣٢ ، وبلغت قيمة القطن المصدر الى الهند من ٢٠١٨٢ جنيه انجليزيا الى ٣٢٣٨٢٤٨ جنيه انجليزيا • وزادت قيمة الصادرات من بريطانيا الى الهند فى نفس الفترة الزمنية من ١٨٧٤٦٩٠ جنيه انجليزيا الى ٣٦٧٤٦٧٣ جنيه انجليزيا^(١) •

وكان اهتمام بريطانيا بالطريق البرى المصرى من المظاهر الواضحة التى فسرت الى حد ما ارتباط بريطانيا بالسياسة التقليدية المعروفة باسم سياسة المحافظة على كيسان الامبراطورية العثمانية • فسياسة بريطانيا فى « الشرق الأوسط » قبل عام ١٨٣٣ ، كانت سياسة دفاعية ، ولكنها بسبب التطورات المهمة التى حدثت فى المنطقة مثل احتلال فرنسا

Hoskins, British Routes to India, P. 87.

(١)

للجزائر في عام ١٨٣٠ وغزو محمد على لسورية في عام ١٨٣١ ، بدأت تلعب دورا مهما في توجيه سياسة المنطقة • وعارض بامستون أى تصرف قد يؤدي الى انهيار وتفكك الامبراطورية العثمانية ، وحاول بامستون تشجيع طريق الفرات حتى يصبح بديلا للطريق المصري ولكن هذا المشروع لم يخرج الى حيز التنفيذ • وفي نفس الوقت ازداد الطريق المصري أهمية لأنه كان بمثابة حلقة الاتصال الأساسية بين بريطانيا والمستوطنين البريطانيين في عدن والهند وسيلان وهونغ كونج والصين وأستراليا • وارتفع نتيجة لذلك عدد المسافرين البريطانيين بطريق مصر من ١٤٢٠ مسافرا في عام ١٨٤٣ الى ٢٣٧٥ في عام ١٨٤٥ •

ولقد أدرك اللورد بامستون تماما الأهداف الحقيقية للسياسة الفرنسية في مصر ، ورأى من الضروري حماية طرق المواصلات والتجارة من مشروعات فرنسا التوسعية ولذلك كانت الحكومة البريطانية تفضل انشاء خط حديدى في مصر بين القاهرة السويس ، وهو الجزء الصحراوى من الطريق البرى الممتد عبر مصر من الاسكندرية الى السويس • كما أن البريطانيين أنفسهم تحققوا بدرجة أكبر من أهمية هذا الطريق في منتصف القرن التاسع عشر ، لاسيما وأن عدد المسافرين عبر هذا الطريق قد ارتفع الى ٣٠٠٠ مسافر في عام ١٨٤٧ • وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر صار مشروع الخط الحديدي صورة من صور الصراع الانجليزى — الفرنسى • فلقد وافق محمد على نفسه على انشاء خط حديدى في مصر عام ١٨٣٣ بناء على اقتراح مهندس انجليزى كان يعمل في خدمته هو توماس جالوا (Thomas Galloway) وأحضر جالواى المعدات اللازمة لبناء الخط الحديدي في عام ١٨٣٥ بناء على طلب الباشا ولكن هذا المشروع ظل معلقا حتى مجئ عباس حلمي الأول الى حكم مصر • فلقد عارضت فرنسا هذا المشروع معارضة شديدة وكانت تحبذ مشروعها المفضل وهو مشروع قناة السويس •

كما أظهر القناصل والموظفون الفرنسيون — الذين كانوا يعملون في خدمة محمد على — مخاوفه ، وحاولوا اقناعه بأن بريطانيا لها نوايا عدوانية نحو مصر ، لأن مصر تقع في منتصف الطريق الى الهند •

ونقل الميسيو بيرو دو (M. Pérodeaud ممثل محمد على السياسى فى باريس) الى الباشا رغبة الحكومة الفرنسية فى أن يعطى محمد على لمشروع حفر قناة السويس الأواوية لأن مصر لا تصلح لإنشاء خط حديدى فيها • واعتقد محمد على نفسه بأن هذا المشروع سيؤثر على علاقاته بالدول الأوروبية بأكثر مما يحققه لمصالحه المحلية • وأخيرا أجاب محمد على المستر مرى — قنصل بريطانيا العام فى مصر — أنه لا يرى من المفيد أن يغضب جميع الدول الأوروبية من أجل أن يدفع بالمصالح البريطانية قدما الى الأمام • وعلى الرغم من ذلك لم يشجع دحمد على المشروع الفرنسى واكتفى بتمهيد طريق السويس — الاسكندرية وتعبيده وتأمينه للتجارة • فلم يكن يجب أن تقوم فى مصر مشكلة كمسألة المضائق تجر عليها ألوانا من المتاعب هى فى غنى عنها • ولقد اعترف صراحة للقنصل الفرنسى بأنه لا يحبذ إنشاء قناة بحرية أو سكة حديدية، ولكن اذا وافقت كل الحكومات الأوروبية على واحد من هذين المشروعين فإنه سيقوم بتنفيذه دون أى تردد • وفى مثل هذه الظروف كان محمد على سعيدا لأن يستند الى بريطانيا ، فى رفضه حفر القناة ويعتمد على فرنسا والنمسا فى معارضة إنشاء السكة الحديدية فى مصر • ولكن المشروعين تحققا فى عهدى عباس حلمى ومحمد سعيد ، وأديا الى مزيد من تدخل الدول الأوروبية فى شئون مصر ، وبذلك دخلت مصر فى مرحلة من أخطر المراحل التاريخية التى مرت بها •

ولكن بامستون أراد أن يترك مسألة تعيين الوالى الجديد فى مصر للسلطان • وقد نادى القنصل الفرنسى أيضا بحق عباس الشرعى فى تولى الحكم ، وذلك من أجل استمرار الهدوء فى مصر وعدم اعطاء أى فرصة للتدخل البريطانى بغرض حماية مواصلات بريطانيا مع الشرق • ومهما تكن نوايا الباب العالى نحو مصر وعباس ، فقد اعترف السلطان بعباس حاكما شرعيا وفى ٥ ديسمبر عام ١٨٤٨ أسند اليه حكم مصر •

وكانت إعادة عباس من الحجاز الى مصر على ظهر سفينة بريطانية محاولة من جانب بريطانيا لاثبات صداقتها لعباس ، وقدر عباس ذلك تقديرا كبيرا • وكان هدف بريطانيا هو زيادة نفوذها فى مصر ، ولم يكن مرى من المعجبين بعباس بل لم ينتظر من قدرته وذكائه الشئ الكثير ، ولكنه اعتقد أنه سيكون أقل استجابة للنفوذ الفرنسى من سلفيه ، محمد على وابراهيم • ولقد كانت بريطانيا ماتزال ترغب فى انشاء المسكة الحديدية المصرية التى أصبحت من المسائل الشائكة منذ عهد محمد على • وعندما تولى عباس الحكم طلب بامستون من مرى أن يشرح للوالى أهمية انشاء خط حديدى من الاسكندرية الى السويس ، ورغبة الحكومة البريطانية فى أن يسهل مرور البريد والبضائع والمسافرين عبر مصر • ولكن عندما تسلم مرى هذه التعليمات كان عباس قد سافر الى القسطنطينية لمقابلة السلطان واتمام دراسيم توليه السلطة •

وفى استانبول ، كان سير ستراتفورد كاننج (Sir Stratford Canning) السفير البريطانى هناك — ينظر نظرة مختلفة الى عباس ، فلقد رحب بتودد عباس الى بريطانيا لكنه أظهر بعض التحفظات فيما يختص بأخلاقه وميوله وتأثير أرتين بك عليه ، وكان أرمنيا مواليا لفرنسا (عمل سكرتيرا أول وترجمانا لمحمد على ، ثم صار وزيرا للتجارة والخارجية خلفا لبوغوص بك) • ولكن سرعان ما غير كاننج رأيه فى

عباس بعد مقابلته له ، اذ أكد عباس لكاننج أن التحسينات والتعديلات التي أدخلت في إدارة المرور (الترانزيت) باختيار مراقب أجنبي جديد لها ستستمر وسيتسع نطاقها عند عودته الى مصر باستخدام المزيد من الأجانب واقامة مكاتب جديدة للبريد واستراحات للمسافرين * وتحدث كاننج مع عباس وأرتين بك في مسألة انشاء السكة الحديدية ، وتأكد أن هذا المشروع لن ينفذ بعد وقت قصير ، ولكنه كتب الى بامستون يقول ان فائدة الخط الحديدى « معترف بها واذا أمكن الحصول على رعوس أموال انجليزية فمن الممكن أن تنجح توصيات سعادتك العاجلة في الاسراع بتحقيق هذا الهدف المرغوب فيه (السكة الحديدية)^(١) .

ولكن ماذا كانت سياسة عباس الحقيقية؟ مع أن السلطان قد غمر عباس بالنياشين والأوسمة والألقاب ، حاول أن ينقص من الامتيازات التي كان يتمتع بها محمد على ، وأن يضع ولاية مصر تحت اشرافه المباشر ، ومن ناحية أخرى كان عباس مواطنا عثمانيا مخلصا ، وكان على استعداد تام للاعتراف بأن مصر ليست أكثر من ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية * وأعلن عباس عند عودته من القسطنطينية عن اتجاهاته السياسية التي تلخصت في اقامة علاقات أوثق مع الباب العالي، ومقاومة النفوذ الأجنبى في مصر والتخلى عن تقاليد جده محمد على * ولم ينس عباس أن جده — رغم ذكائه الخارق — قد اضطر للخضوع للسلطان ، واعتقد بأنه — من وجهة النظر الدينية — لا بد أن يكون مخلصا لزعيم المسلمين جميعا وهو السلطان * ودفعه احساسه الدينى الى مقاومة التغلغل الأجنبى في مصر ، وبصفة خاصة نفوذ فرنسا في مصر لأن اتصال عباس الشديد بمحمد على أثناء الأزمة المصرية علمه

Canning to Palmerston, No. 28 of 5 Feb. 1849 in F.O. (١)
78/772; Benedetti to Tocqueville, No. 1; 17 Apr. 1849; M.A.E.,
C.P.; tom. 12.

الى أى درجة كانت وعود فرنسا واهية ولا يعتمد عليها ، وكيف أنها غررت بجده ثم تخلت عنه •

ولكن عباسا كان يميل عموما الى التوفيق بين تعصبه ومصالحه، فكان الطريق البرى عبر مصر — مثلا — فى حالة جيدة جدا ، وكان العمل فى رصف الطريق البرى عبر صحراء السويس يسير بخطى سريعة • ودفعت هذه السياسة مديرى شركة الـ Peninsular and Oriental Steam Navigation Company احدى شركات الملاحة البحرية بلندن — الى ارسال بعثة الى مصر لتنهئة عباس بتقصيه واليا على مصر وه باحثته فى ادخال مزيد من التحسينات فى الطريق البرى • وبعد استشارة لورد بامستون رسميا بخصوص ارسال هذه البعثة ، توجه سير جون بيرى (Sir John Pirie نائب مدير الشركة) الى مصر ، وأثار بيرى عند مقابلته لعباس مسألة الترانزيت الى الهند عبر مصر حتى يتسنى له بعد ذلك الدخول فى موضوع انشاء سكة حديدية فى مصر تسهل المواصلات بين بريطانيا والهند • ولقد ساعد تشارلز مرى سير جون بيرى ، وناقش الاثنان عباسا فى هذا الموضوع وبيننا له أهمية المشروع باعتباره وسيلة لتحسين المواصلات من ناحية ، وباعتباره مشروعا اقتصاديا من ناحية أخرى ، وباعتباره ضمانا لاطراد المصالح المشتركة بين بريطانيا ومصر • وأفهما عباسا أن من الممكن الحصول على رأس المال المطلوب من بريطانيا بضمانات معقولة لتنفيذ المشروع • على أن عباسا رأى أنه ليس من الحكمة أن يقوم بتنفيذ مشروعات جديدة واسعة نظرا لانشغاله فى بناء القناطر الخيرية وبعض الأعمال الانشائية الأخرى التى تتطلب تكاليف باهظة وعمالا كثيرين وهذا لا يتمشى مع سياسته القائمة على الاقتصاد فى نفقات مصر الى حد كبير • ورفض أن يعهد بتنفيذ المشروع الى شركة أجنبية لأن موقف حكومته الشاذ بالنسبة للدول الأوروبية يجعل هذا التصرف مجال تساؤل • ومع ذلك

اعتقد بيرى أن مسألة بناء السكة الحديدية لم تعد الا مسألة وقت فقط.

ولقد أساء بيرى فهم نوايا عباس ، فقد كان عباس مضطرا لأن يستقبل ممثل شركة الـ P.& O. استقبالا طيبا لأنه حمل اليه تهنئة الشركة بتوليته حكم مصر . ولكن مرى — وكان يعرف عباسا جيدا — لاحظ عدم رغبة عباس فى تنفيذ هذا المشروع ، اذ أن التعبير الوحيد الذى استعمله عباس وأوحى بأنه يتعاطف مع فكرة انشاء السكة الحديدية هو (بكاليم) أى سوف نرى ، وهو تعبير تركى تعود الأتراك على استخدامه للتخلص من مناقشة مسألة معينة ولا يدل على الرفض المباشر لها ، ولقد فسر لنا مرى هذا الموقف من جانب عباس ، اذ اعتقد الوالى أن انشاء هذا المشروع سيضاعف بدرجة كبيرة من نفوذ بريطانيا فى مصر ، بل ان هذه الفكرة ازدادت قوة عند عباس عندما عرض عليه رأس مال انجليزى لبناء المشروع .

وعندما علم نائب القنصل الفرنسى فى مصر بوصول بيرى (Pirie) ومطالبته بانشاء خط حديدى ، توجه لمقابلة عباس وحثه على رفض المشروع . ولقد وصف قنصل فرنسا هذا المشروع فى خطاب أرسله الى حكومته بأنه سيف انجليزى يخترق قلب مصر ، وضربة قاتلة لقوة مصر الاسلامية . ولقد أكد عباس للقنصل الفرنسى أن مصر ليست غنية بالدرجة التى تمكنها من انشاء سكة حديدية ، وذكره بأنه لم يسبق لأى دولة أوروبية أن منحت مثل هذا الامتياز لأجانب ، وبناء عليه فان مصر لن تنشئ سكة حديدية أو تسمح لغيرها بتنفيذ ذلك . وشجع رفض عباس للعرض الانجليزى ممثلى فرنسا لبذل الجهود المنظمة ليحولوا دون تنفيذ هذا المشروع نهائيا ، وليس تبدل به مشروع فرنسا المفضل وهو قناة السويس . وأخبر عباس قنصل فرنسا أنه يأمل أن يقرن اسمه بشق قناة بين البحرين اذا أيدته فرنسا والروسيا والنمسا فى

Alfred Walne القائم بأعمال قنصل بريطانيا العام في مصر أثناء تغيب مري في لندن) وفاتحه في الموقف الذي يواجهه وشرح مخاوفه • ولكي يحصل عباس على مساندة الحكومة البريطانية له وعلى مساندة سير ستراتفورد كاننج سفيرها في القسطنطينية تحدثت عباس عن موضوع بناء السكة الحديدية ، وفوض ويلن (Walne) بالاتصال بلورد بامستون وأعلمه برغبته في انشاء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة تحقيقا لرغبة بريطانيا •

والحقيقة التاريخية الجديدة أن الرسالة التي بعث بها ويلن (Walne) الى لندن قد غيرت وجهة النظر التقليدية المعروفة عن هذا الموضوع • وبينت ذلك الأمر الدكتورة هيلين رفلن (Helene Anne Rivlin) في مقال حديث لها عن العلاقات المصرية العثمانية في عهد عباس حلمي الأول • وتمثلت وجهة النظر التقليدية في المقال المكتوب في دائرة المعارف الاسلامية ، وفي كتب شارل رو (Cyailes-Roux) وأنجلو ساماركو (Angelo-Sammarco) وعبد الرحمن الرافعي وغيرهم • وتدعى كل هذه المصادر التاريخية أن بريطانيا عرضت مساعدتها على عباس أثناء صراعه مع الحكومة العثمانية حول تطبيق التنظيمات الخيرية في مصر ، بشرط أن يوافق على انشاء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة • ولكن هذه المصادر أغفلت الحقيقة التاريخية التي وضحت لنا بعد الاطلاع على وثائق هذه الفترة ، وهي أن محاولة تطبيق التنظيمات الخيرية في مصر قد تمت بعد موافقة عباس على انشاء السكة الحديدية • وتخرج الدكتورة رفلن من دراسة هذه الوثيقة بأن عباسا كان قد عرض فكرة انشاء السكة الحديدية مقابل مساندة بريطانيا له ، وأنه لم يفعل ذلك لكي يمنع تطبيق التنظيمات في مصر بل ليحمي نفسه من مؤامرات أعدائه في استانبول • وعلى الرغم من هذه الدراسة التي قامت بها الدكتورة رفلن تظل هناك نقطة تثير الجدل وهي من الذي عرض

أولا فكرة انشاء الخط الحديدي ؟ أهو عباس أم ويلن ؟ ويمكننا اعادة تفسير الجزء الأول من رأى رفلن على ضوء المعلومات الجديدة التى حصلنا عليها من وثائق وزارة الخارجية البريطانية • فلقد ألح مرى على عباس من أجل انشاء المسكة الحديدية قبل أن يتسلم رسالة بامستون اليه المؤرخة فى ٢١ ديسمبر عام ١٨٤٨ التى يطلب منه فيها مفاتحة عباس فى هذا الموضوع ، كما أنه استمر يلح على عباس بعد ذلك من أجل انشاء المسكة الحديدية • ومن ناحية أخرى فان الظروف التى دعا فيها عباس المستر ويلن لمقابلته قد شجعت الأخير على اثاره الموضوع مرة أخرى • وقد ذكر المستر ويلن فى مراسلاته بعد ذلك أنه عندما طلب عباس مقابلته فى خريف عام ١٨٥٠ لاستشارته فى بعض المشاكل التى تواجه حكومته ، انتهر الفرصة واقترح عليه انشاء الخط الحديدي • ولقد اعترف فى عام ١٨٥٩ بأن المشروع قد تم بناء على اقتراحه ومشورته •

وبمجرد أن تسلم مرى رسالة ويلن ، أسرع بالكتابة الى بامستون فى هذا الموضوع ، وقام بامستون بدوره بارسال بعض التعليمات الى السير ستراتفورد كاننج فى استانبول يطلب فيها أن يمنع الباب العالى من اغصاب عباس أو عزله وتعيين سعيد باشا أو أى شخص آخر مكانه • ولكن فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٥٠ طلب الباب العالى من عباس تطبيق التنظيمات فى مصر • والتنظيمات العثمانية هى مجموعة القوانين التى صدرت مستندة الى القواعد التى تقررت فى خط شريف كلخانة الذى كان السلطان قد أصدره فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ لاصلاح الامبراطورية العثمانية • وذلك بتأمين رعايا الدولة على حياتهم وأعراضهم وأموالهم والغاء نظام الالتزام وكل الأضرار المرتبطة به ، وجعل التجنيد منظما وعادلا ، ومحاكمة الأشخاص المتهمين بجرائم محاكمة عادلة وعلمية ، وتساوى جميع الأشخاص أيا كانت ديانتهم فى تطبيق هذه القوانين •

وقد تركزت مطالب الباب العالي في سحب حق الحياة والموت Capital Punishment — أى الاعدام (القصاص) — من الوالى • وكان تطبيق هذه التنظيمات بحذافيرها معناه العودة بمركز مصر الى مركز الباشويات الأخرى في الدولة العثمانية • وقد أعطت سياسة عباس — وخصوصا سياسته نحو أفراد أسرته الذين فروا الى استانبول — مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ — ١٨٥٨) ، الصدر الأعظم الذى تولى هذا المنصب ست مرات ، وأحد رجال الإصلاح في الدولة العثمانية الفرصة للتدخل في شئون مصر والانتقام من عباس واذلاله • فاذا تمكن رشيد من اضعاف نفوذ عباس أو عزله فانه يضمن بذلك سيطرة الدولة العثمانية على شئون مصر الداخلية وتطبيق التنظيمات فيها كغيرها من الولايات في الامبراطورية •

وعندما ظهرت مشكلة التنظيمات وأصبحت مثار جدل بين الوالى والسلطان ، طلب بامستون من ستراتفورد كاننج أن يستمر في تأييد عباس ضد المؤامرات التى تحاك ضده في استانبول بشرط ألا يمتد هذا التأييد الى مساندة عباس في معارضة تطبيق التنظيمات في مصر • حقيقة أن بريطانيا قد صادقت عباس وأظهرت استعدادها للوقوف بجانبه ولكن اختلفت آراء المسؤولين البريطانيين في لندن والقاهرة واستانبول بشأن موضوع تطبيق التنظيمات في مصر • فتشارلز مرى تمادى في تأييده لعباس ضد التنظيمات الى أقصى درجة ، وكان يؤمن بالاعتقاد السائد في مصر بأن الغرض من المطالبة بتطبيقها هو تحقير عباس واهانته • أما كاننج فلم يكن من السهل بالنسبة له أن يتخلى عن سياسته التقليدية تجاه الدولة العثمانية — وهى سياسة اصلاح الامبراطورية — من أجل مصالح عباس حلمى والى مصر ، فحاول أن يعيد ثقة عباس في رشيد باشا ويقنعه بادخال نظم وقوانين الادارة العثمانية في مصر بالتدريج • ومن هذين الاتجاهين المتناقضين تمكن

لورد بامستون من أن يساند حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأن
يضمن انشاء سكة حديدية في مصر تخدم المصالح البريطانية في الشرق •
وهكذا اتبع البريطانيون في علاقاتهم مع مصر والدولة العثمانية خطة
التزام حرفية الفرمانات لاتفاق ذلك مع مصالحهم السياسية فلم يوافقوا
على أى تدبير يرمى الى عزل عباس من باشوية مصر حتى لا ينهدم
بذلك أحد أركان التسوية التي وضعت للمسألة المصرية • ولكن هذه
الخطة نفسها — التزام حرفية الفرمانات — قد جعلتهم من ناحية أخرى
على نحو ما قال بامستون لتشارلز مري في ٢٠ فبراير ١٨٥١ «لا يريدون،
بل انهم ليمتنعون عن تأييد عباس في معارضة تطبيق التنظيمات العثمانية
في مصر» (١) •

وهكذا أدت العوامل السياسية الى انشاء السكك الحديدية المصرية
فلم يكن انشاؤها راجعا لمواجهة مطالب الاقتصاد القومى • وظل مسيو
ليموين (Le Moyne) قنصل فرنسا العام) لا يدري ما اعتزمه عباس
حتى مارس عام ١٨٥١ ، ففي ١٢ مارس أخبر عباس مسيو ليموين
بقراره الذى اتخذه بخصوص مشروع انشاء السكة الحديدية ، ولكن
بناء على طلب القنصل أعطاه عباس تأكيدات قاطعة بأن ادارة السكة
الحديدية في مصر ستبقى في يد الحكومة المصرية • ولكن التأكيدات التي
أعطاهها عباس لم تكن كافية للقضاء على شكوك ليموين ، فظل يعارض
هذا المشروع بصفة غير رسمية • وتساءل : هل تعرض الاستقلال
النسبى الذى حصل عليه والى مصر في عام ١٨٤١ للمصالح السياسية
الحيوية للامبراطورية العثمانية ؟ واذا كان الفرمان قد نص على ذلك
فللباب العالى وحده الرأى الأول والأخير في الموضوع • على أن

(١) انظر :

O.A.A. Omar, Anglo-Egyptian relations and the construction
of the Alexandria-Cairo-Suez railway (1833-1858), PP. 126-129.

السياسة الفرنسية في مصر في هذه الفترة اتسمت بالتردد لدرجة أن الحكومة الفرنسية تأخرت في الرد على مراسلات قنصلها في مصر عدة أشهر • وفي عام ١٨٥١ أرسل عباس مهندسا فرنسيا الى باريس لاجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية ووعد بأنه اذا ساعدت الحكومة الفرنسية عباس باشا في ادخال بعض التعديلات على التنظيمات فانه سيرفض انشاء السكة الحديدية • ولكن لوى نابليون وحكومته رفضا هذا الاقتراح وقالوا ان هذا المشروع سيفيد مصر والعالم • ومن خلال هذه التطورات يتضح لنا أن عباسا كان يهدف الى الحصول على مساعدة فرنسا أو انجلترا للوقوف أمام أطماع الباب العالي • ولكي يحقق هدفه بأي وسيلة ، أخبر عباس تشارلز مري بأن فرنسا تحاول التقرب منه ، وأنه دفاعا عن مصالحه قد يلجأ اليها اذا رفضت بريطانيا مساعدته • وهذه هي احدى المناورات السياسية التي قام بها عباس لكي يصل الى أهدافه •

ويبدو أن الباب العالي قد علم بمشروع السكة الحديدية ، فان مختار بك — الذي أرسله الباب العالي للتفاوض مع عباس في المسائل المتعلقة بين والى والسلطان مثل مسألة التنظيمات وانقاص عدد الجيش المصرى الى العدد المحدد في فرمان الولاية — كان مكلفا باقناع عباس بالعدول عن تنفيذ هذا المشروع ، وأخبره بأنه لا يستطيع البدء فيه دون الحصول على موافقة الباب العالي أولا • وأجاب عباس بأن هذا الاجراء لم يتبع من قبل سواء في عهد محمد على أو ابراهيم باشا ، وبالإضافة الى ذلك فان بناء هذه السكة الحديدية لن يمنعه عن الوفاء بالتزاماته الأخرى ومن أهمها ارسال الجزية السنوية الى السلطان • وفي مثل هذه الظروف ، وجد مري أنه يدافع بمفرده عن هذا المشروع في الوقت الذي نمت الي علمه أن ممثلى الدول الأوروبية لديهم تعليمات سرية أو علنية لمعارضة هذا المشروع • وخوفا من أن يتردد عباس في البدء في المشروع ، أصر مري على أن يبقى عباس متمسكا بما وعد

بك (١٨٢٥ - ١٨٩٩) - وزيره الأرمني - الى لندن لابرار العقود
الضرورية الخاصة بشراء معدات السكة الحديدية مع روبرت ستيفنسون
(Robert Stephenson) مهندس السكك الحديدية المشهور *

ومن ناحية أخرى خشي بامستون معارضة الدول الأوروبية
للمشروع وموقفها العدائي من عباس ، فكلف كاننج بأن يخبر الباب
العالي بأنه قد وضع نفسه في موقف حرب بسبب اثارته لمسألة أحقية
السلطان في الموافقة على المشروع مسبقا ، وعلى الباب العالي في مثل
هذه الحالة اما أن يقف أمام رغبات بريطانيا العظمى أو أن يغضب
الدول التي عارضت المشروع اذا تنحى عن مطلبه السابق * وحاول
بامستون أن يلفت نظر رشيد الى حالتين سابقتين وهما مشروع التناظر
الخيرية ومعاهدة البريد (Postal Convention) التي وقعها محمد
على مع بريطانيا * ولم يتقدم محمد على في كليهما بطلب لكي يحصل
على موافقة الباب العالي على المشروع أو تصديقه على المعاهدة * ولكن
رشيد باشا أوضح لستراتفورد كاننج أن والى مصر لا يستطيع تنفيذ
هذا المشروع دون الحصول على موافقة السلطان ، وأصر على أن يتقدم
الوالى بطلب الاذن من السلطان * غير أنه أنكر معارضته للمشروع
ووعده بالموافقة على انشاء السكة الحديدية لا من الاسكندرية الى
القاهرة فحسب بل الى السويس أيضا بشرط أن ينفذ المشروع بأموال
مصرية *

ولقد احتج رشيد على تصرف عباس ، وهدد بأن الباب العالي قد
يلجأ الى الدول الكبرى الموقعة على تسوية عام ١٨٤١ اذا فشل في
تأكيد حقه * وحاول كاننج من جانبه أن يمنع الباب العالي من اللجوء
الى هذا التصرف ، ولذلك تعهد كاننج بأن يطلب من مرى ايقاف المشروع
وأنه سيضع المسألة برمتها أمام بامستون * وطلب كاننج من مرى أن

يتعاون معه خلال هذه الفترة الى أن تصله تعليمات جديدة من بامستون •
وفي الحقيقة كان لمثلئ فرنسا في استانبول تأثير كبير على موقف الباب
العالئ ، ففرنسا التي وقفت تدافع عن مصر في عام ١٨٤١ هئ نفسها
التي وقفت في بداية الخمسينات من نفس القرن تدافع عن الباب العالئ
وحقوقه في مصر • فلقد تضايق ممثلو فرنسا في كل من القاهرة واسسببرك
من بعثة نوبار الى لندن ، وكتبوا الى حكومتهم بأن عباسا يحاول
الحصول على مساعدة بامستون مقابل انشاء السكة الحديدية من
الاسكندرية الى القاهرة • وورد في تقارير لافاليت La valette
(سفير فرنسا في استانبول) أنه لم يترك أى فرصة تمر دون تحريض
الحكومة العثمانية على معارضة هذا المشروع لكئ يمنع المشاكل التي
قد تنتج منه • ومن ناحية أخرى اعترف لافاليت بأن السكة الحديدية
قد تكون مفيدة ونافعة ، ولكنه اشترط حصول الوالى على موافقة
السلطان ، وألا يعهد بهذا المشروع الى شركة أجنبية ، ولا يحصل الوالى
على قرض أجنبي لانشاء هذا الخط الحديدى •

وفي لندن تقابل نوبار مع بامستون وعرض مشكلة عباس ، واعتقد
بامستون أن من حق عباس انشاء السكك الحديدية اذا شاء دون أن
يطلب موافقة الباب العالئ • أما اذا كان الباب العالئ يرى أن الموافقة
على المشروع أمر ضرورى فعليه أن يرسل هذه الموافقة فقط • كما تبين
بامستون من موزوروس — سفير تركيا في لندن — أن هناك ظروفًا
أخرى تؤثر على الباب العالئ غير مسألة الاتيكييت (أى مطالبة والئ
مصر بالحصول على اذن السلطان) ، فلقد أثرت معارضة كل من روسيا
والنمسا وفرنسا للمشروع على الباب العالئ •

أما في القاهرة فقد اختلفت آراء تشارلز مري عن آراء رئيسه
ستراتفورد كاننج في استانبول فلم ينفذ التعليمات التي كان كاننج قد

أرسلها اليه لأن ذلك يتناقض مع موقفه من مشروع السكك الحديدية ، وضغطه المستمر على عباس لتنفيذ هذا المشروع منذ توليته بأشوية مصر . ومن ناحية أخرى كان عباس مصمما على ألا يعطى للباب العالي فرصة للتدخل في شئون مصر والانقاص من سلطته ونفوذه . ولذلك قرر عباس اتخاذ اجراء حاسم حتى لا يعطى الباب العالي سابقة خطيرة تمنحه حق التدخل في مصر مستقبلا . فبعد الاجراءات الأولية التي تمت بين نوبار وستيفنسون في لندن ، أرسل الأخير أحد مساعديه وهو المستر بورثويك (Borthwick) الى مصر لتوقيع العقد النهائي لإنشاء الخط الحديدى من الاسكندرية الى القاهرة . ولكى يواجهه مرى الجميع بالأمر الواقع ، نصح عباسا بابرارم العقد مع مندوب ستيفنسون . ورأى مرى أن عباسا يستطيع بعد ذلك أن يكتب الى السلطان ليعلنه ببدء العمل في هذا المشروع ويطلب منه حمايته وتأييده . وفعلا وقع استيفان بك — وزير خارجية عباس — العقد مع بورثويك في ١٢ يوليو ١٨٥١ . وكتب مرى الى كاننج في استانبول يشرح له وجهة نظره في التطورات الأخيرة وذكر أنه حاول انقاذ موقف عباس من ناحية ، ومن ناحية أخرى قام بتنفيذ تعليمات بامستون الخاصة بفرض مشروع السكة الحديدية عليه . أما الخطاب الذى كتبه عباس الى السلطان يخبره فيه بنبا توقيع العقد فلم ينجح في استرضاء السلطان . حقيقة أن عباسا اتبع نفس التقليد الذى اتبعه محمد على من قبل ، وهو أنه سوف يطلق اسم السلطان على السكة الحديدية مثلما أطلق اسم السلطان محمود الثانى على ترعة المحمودية التى حفرها محمد على في عام ١٨١٩ ، ولكن عباسا أوضح في خطابه أنه انما يطلب بالحصول على اذن السلطان في حالة واحدة وهى اذا كان الخط الذى ينوى انشاءه هو الخط بين القاهرة والسويس فهو في هذه الحالة سيكون مقصورا على خدمة المصالح البريطانية فقط ، أما الخط الآخر من الاسكندرية الى القاهرة فسيؤدى خدمات جلية لاقتصاد مصر .

سيكون الحال بالنسبة للقناة البحرية عبر برزخ السويس • ولقد حشى بامستون أن تتدخل الدولة العثمانية عسكريا في مصر ولذلك طلب من قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط زيارة ميناء الاسكندرية حتى يشجع عباسا ويؤكد تأييد بريطانيا الأدبي له • كما كتب بامستون الى كاننج في الآستانة يسخر من تصرف الباب العالي نحو مشروع السكة الحديدية وقال ساخرا أنه يعتقد — نتيجة للضجة الكبيرة التي التي أثارت حول هذا المشروع في العاصمة التركية — أن أحدا في تلك العاصمة لم يسمع قط عن السكك الحديدية ، وكأن السكة الحديدية المزمع انشاؤها في مصر هي أول خط حديدي في العالم •

وفي الحقيقة قامت ضجة كبيرة في الآستانة بسبب توقيع عقد إنشاء السكة الحديدية ، وقامت أزمة حادة بين الوالى والسلطان حالت دون الوصول الى أى اتفاق بشأن المسائل المتعلقة بين مصر والباب العالي وخاصة موضوع تطبيق التنظيمات الخيرية في مصر • وتخرج مركز كاننج وشعر بعجزه عن مساندة عباس أو انقاذه ، وأخبر المصدر الأعظم ممثلى عباس الذين كان قد أرسلهم الى الآستانة للتفاوض بشأن التنظيمات أنه لن يقبل هذا التصرف من جانب عباس ، وهو ابرام العقد دون الاستئذان من السلطان • وأكد رشيد باشا أن الوسيلة الوحيدة لانتهاء هذه المشكلة بطريقة مرضية هي أن يكتب عباس الى السلطان يستأذن في إنشاء السكة الحديدية ، وأن يتضمن خطاب عباس كل التفاصيل المتعلقة بطبيعة الأموال التي ستفق على هذا المشروع • ومع أن رشيدا قد علم بوجهة نظر كل من بامستون ومرى ، فإنه صمم على مطالبة عباس بفسخ العقد الموقع بينه وبين استيفنسون وهدد باللجوء الى الدول الخمس الكبرى لحل هذه المشكلة • وكانت الغالبية العظمى من أعضاء الحكومة العثمانية ترى ضرورة عزل عباس لأنه انتهك نصوص فرمان عام ١٨٤١ ، ولكن كاننج استطاع بفضل مجهوداته

المستمرة تخفيف لهجة الباب العالي فرد على خطاب عباس السابق بخطاب ذى لهجة معتدلة • وفى هذا الخطاب وجه الباب العالي اللوم الى عباس لتوقيعه العقد دون موافقة السلطان ، وطلب منه أن يؤجل المشروع حتى يحصل على اذن من السلطان • وأوضح الخطاب أن السلطان لن يوافق على تنفيذ المشروع ما لم يبين عباس أنه سينتقى من إيرادات مصر بعد دفع الجزية السنوية وتغطية نفقات الادارة المصرية ما يكفى لتغطية تكاليف انشاء السكة الحديدية ، وأن السلطان لن يعلن عن موافقته ما لم يتعهد عباس بأن المشروع لن ينفذ بطريق السخرة (Corvée) ، وأنه لن يحصل على قروض أجنبية ولن يعهد الى أى شركة أجنبية بتنفيذ المشروع •

وكان بامستون غير رآيه بالنسبة لموقف عباس ، وأوضح لمرى أنه من الأفضل لعباس أن يخضع لرغبة السلطان وأن يتقدم بطلب للحصول على اذنه وقد وعد باعطاء ذلك من قبل • ولقد قرر بامستون اتخاذ هذا الموقف لأن السلطان لم يعارض انشاء السكة الحديدية فى حد ذاتها وانما تمسك بمسألة شكلية وهى ضرورة موافقة السلطان على أى مشروع كبير يقوم والى مصر بتنفيذه • وبالإضافة الى ذلك تأكد بامستون أن محمد على كان قد طلب قبل موافقة السلطان على بناء القناطر الخيرية قبل أن يبدأ فى تنفيذ العمل فعلا • وزيادة على ذلك فان عباسا نفسه أقر فى خطابه الى الباب العالي ضرورة الحصول على اذن السلطان فى حالة اقامة السكة الحديدية بين القاهرة والسويس ، ولذلك رأى بامستون أن اعتراف عباس بهذا المبدأ بالنسبة للسكة بين القاهرة والسويس لابد أن يسرى على السكة الحديدية الأخرى بين الاسكندرية والقاهرة • وأعلن بامستون أنه لم يكن من المعقول أن تقبل بريطانيا طلب الباب العالي فى حالة نشوء الخلاف حول مسألة انشاء السكة الحديدية أو عدم انشائها •

واستجاب مري على الفور لرأى بامستون ، وحصل على وعد من عباس بالكتابة الى السلطان بطلب الاذن . ولم يجد مري بدا من الخضوع لرغبة وزير خارجيته على الرغم من أن ذلك كان على غير رضى منه . وأقر مري بأنه ليس من حقه أن يثير جدلا بينه وبين لورد بامستون حول هذا الموضوع ، ولكن من حق عباس أن يناقش السلطان في هذا الموضوع . وكتب عباس فعلا الى لورد بامستون فيما يتعلق بالمسائل الواردة في خطاب الصدر الأعظم اليه ، وأظهر استعداداه للكتابة الى السلطان بناء على نصيحة بامستون ، ولكنه أوضح له أن هذه المسائل لم ينص عليها فرمان الوراثة في عام ١٨٤١ . وأضاف أن الهدف الأساسي للباب العالي من وراء اثارة كل هذه المسائل هو عرقلة انشاء السكة الحديدية والتدخل في شئون مصر الداخلية ومن بينها أمورها المالية ، ومن ناحية أخرى ، دار جدل آخر بين مري ورئيسه كاننج في الآستانة ، اتبع فيه مري نفس الأسلوب والطريقة التي اتبعها عباس في خطابه الى لورد بامستون وذكر مري أن عباسا مصمم على عدم قبول كل الشروط الواردة في خطاب الباب العالي لأنها ستثير مشاكل وخلافات بين الوالى والسلطان . وطلب من كاننج أن يعمل على اقناع الباب العالي باعتماد خطاب عباس والموافقة عليها طبقا لنصوص فرمان الوراثة الصادر في عام ١٨٤١ .

واذا ثبتت مخاوف عباس التي أثارها في خطابه الى وزير خارجية بريطانيا وأشار اليها مري في خطابه الأخير الى كاننج ، فانها ستؤدى الى نتائج خطيرة . ولذلك قابل كاننج رشيد باشا وأخبره بموافقة عباس على الاستئذان من السلطان ولكنه ناقشه في الشروط المنصوص عليها في خطاب الباب العالي وذكر له بأنها أحدثت أثرا سيئا الى حد ما في القاهرة . ولكن رشيد باشا أكد أن الباب العالي ليست لديه النية للنظر في المسائل المالية الخاصة بعباس ولكن كل ما يطلبه منه هو

أن يؤكد بشكل قاطع استطاعته تغطية تكاليف انشاء السكة الحديدية من ميزانية مصر العادية * وأعلن أنه لن يعترض على حصول عباس على بعض المساعدات مقدما من التجار تدشيا مع النظام السائد في الآستانة ومصر * وأصر رشيد على موقف الحكومة العثمانية من القروض الأجنبية واستخدام الفلاحين بطريق السخرة * وعلى ذلك وافق الديوان العثماني على رد عباس ، وفي أكتوبر عام ١٨٥١/ ذى الحجة ١٢٦٧ هـ أصدر السلطان فرمان الذي سمح لعباس بانشاء السكة الحديدية ونص على الشروط الآتية :

- (١) عدم اجبار سكان المناطق الواقعة على طول السكة الحديدية بالعمل في بناء السكة الحديدية دون مقابل ، ولكن يجب أن يدفع لهم أجر معتدل ، ويعطوا الخبز الذي يحتاجونه *
- (٢) لا يمكن فرض ضريبة جديدة لانشاء هذا الخط الحديدي ، ولا يمكن زيادة الضرائب الحالية لنفس السبب *
- (٣) يجب أن يخصص الفائض من إيرادات مصر بعد الوفاء بالجزية السنوية للسلطان ونفقات الادارة لانشاء السكة الحديدية *
- (٤) عدم السماح لأي شركة أو مؤسسة أجنبية بانشاء السكة الحديدية *
- (٥) وأخيرا ، لا يجوز عقد قروض أجنبية لمواجهة نفقات اقامة السكة الحديدية *

ولما تأخر وصول فرمان الى القاهرة بعض الوقت انتاب مري قلق شديد ، وكان يرى أنه اذا اضطر عباس الى البدء في تنفيذ المشروع قبل فرمان السلطان فلن تقع عليه أي مسؤولية * وفي ٥ أكتوبر ١٨٥١ وصل مهندسو روبرت استيفنسون ولكنهم لم يبدعوا العمل انتظارا

لوصول فرمان • وأخيرا تسلم عباس الفرمان في ٤ نوفمبر وأصدر أوامره بالبده فى المشروع وبذلك لم يكن هناك ما يبرر بقاء السفن الحربية الانجليزية وكانت قد وصلت الى الاسكندرية فى ١٥ سبتمبر ١٨٥١ بقصد البقاء فى المياه المصرية حتى نتم تسوية مسألة السكة الحديدية •

وهكذا قدر لمشروع السكة الحديدية أن ينفذ فى عهد عباس الأول نتيجة للظروف والمشاكل السياسية التى واجهت مصر • وبعد أن انتهت مشكلة السكة الحديدية طلب كاننج من مرى أن يعمل على تحسين العلاقات بين عباس والقنصلية الفرنسية فى مصر • ولم يكن هذا من المسائل السهلة بالنسبة لمرى اذا استمر لافاليت — السفير الفرنسى فى الآستانة — يهاجم السكة الحديدية والانجليزية وعباسا • وعلى أية حال نجحت بريطانيا فى تشجيع الوالى على انشاء السكة الحديدية فى مصر رغم معارضة ممثلى فرنسا ، وادعى ليموين (Le Moyne) أن عباسا لن يتأخر فى مد الخط الحديدى من القاهرة الى السويس • ولقد عمل ليموين جاهدا لعزل عباس وتعيين محمد سعيد اذ كانت له ميول طيبة نحو فرنسا • ولكن علينا أن نهيز بين اتجاهين سياسيين مختلفين : فالحكومة الفرنسية لم تتبين آراء ممثلها فى كل من الآستانة والقاهرة ، ولم تطلب منهم معارضة مشروع السكة الحديدية أو العمل على تنفيذ مشروع قناة السويس • ولقد أرسل نابليون الثالث الكونت باكيوتشى (Count Bacciochi) سكرتيره الخاص فى مهمة خاصة الى مصر لاعادة العلاقات الودية بين مصر وفرنسا • وشرح عباس للتبعوث الفرنسى أسباب الخلاف بينه وبين فرنسا ، أو بالأحرى بينه وبين ممثلها الدبلوماسيين وأعلن عن استعدادده لتناسى الماضى واقامة علاقات ودية مع فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية • ورأت الحكومة الفرنسية أن تعيين قنصلا جديدا لها فى مصر يساعد على تحسين هذه العلاقات، ولذلك عينت ساباتييه (Sabatier) خلفا لليموين • وقبل أن يغادر

ساباتييه باريس طلب منه نابليون الثالث ألا يظهر أى عداء لبريطانيا — وكانت سياسة الامبراطورية الثانية هي التفاهم مع انجلترا — وألا يتورط في علاقته مع محمد سعيد * وأظهر ساباتييه استعداداه للتعاون مع زميله قنصل بريطانيا العام في مصر وأخبره أنه لن يعارض انشاء السكة الحديدية من القاهرة الى السويس لأنها ستحقق المصلحة المشتركة للجميع^(١) *

فما الدوافع الحقيقية وراء صداقة عباس لانجلترا اذن ؟ لقد نظر عباس الى بريطانيا على أنها حليف مخلص له ، واستطاع بصداقتها له أن يتغلب على أعدائه ويحتفظ بعرشه ، ولقد وافق على مشروع السكة الحديدية لأنه أيقن تماما أنه الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها على تأييد بريطانيا ومساندتها * وكان يعتقد أنه في نظير تحقيق أهدافه وسياسته عليه أن يدفع الثمن للحكومات والأفراد ويوافق على العروض التي تخدم المصلحة الخاصة * وكان يأمل بعد ذلك في الحصول على مساعدة بريطانيا لتغيير نظام وراثة العرش في صالح ابنه الهامى باشا * ولقد تأكد بروس (Bruce) — قنصل انجلترا الجديد في مصر — من اتجاهات عباس هذه وقال ان صداقته لأى دولة أجنبية انما كان لتحقيق أهداف شخصية لا تتفق مع وضعه واليا على مصر^(٢) * وعلى أية حال ترتب على تسوية مسألة السكة الحديدية نتائج مهمة صار لها مغزى في المستقبل * فقد حافظ عباس عملياً على استقلاله الذاتى في المسائل الداخلية ، كما أكدت الحكومة العثمانية مبدأ مهما وهو أنه لا يمكن القيام بتنفيذ أى مشروع كبير بدون موافقة السلطان * ومن ناحية ثالثة أصبحت وساطة بريطانيا ضرورية لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المتنازعة *

Bruce to Clarendon, 16 March 1854 in F.O. 142/18. (١)

Bruce to clarendon, No. 39 of 13 Aug. 1854 in F.O. (٢)

142/18.

وبعد أن انتهت مشكلة السكة الحديدية استؤنفت المفاوضات الخاصة بتطبيق التنظيمات في مصر في نوفمبر ١٨٥١ • وكانت هذه المفاوضات قد بدأت في ٢٤ مايو ١٨٥١ عندما قرر عباس ارسال خير الدين باشا وأدهم باشا الى الآستانة لهذا الغرض ، ولكنها توقفت في أوائل أغسطس بسبب الصراع بين عباس والسلطان حول بناء السكة الحديدية • ونحن نعلم أن عباسا رفض تنفيذ مطلب السلطان بخصوص سحب « حق الاعدام » الا اذا عدل بما يلائم مركز مصر وعادات أهلها وما جرى به حكم الولاية فيها • وتمسك عباس بحق القصاص من أجل المحافظة على الأمن والنظام ، وذلك لأن تطبيق التنظيمات العثمانية قد أخفق في أكثر ولايات الامبراطورية • وفي خلال هذه المفاوضات حاول السفير الفرنسي في الآستانة لافاليت أن يظهر عباسا بمظهر الثائر على السلطان ، على حين أن سفيرى النمسا وروسيا أيدا مساعى سير ستراتفورد كاننج لصالح عباس •

وبالاضافة الى ذلك كتب التجار البريطانيون العرائض الى السلطان يطالبونه بمنح عباس هذا الحق مؤقتا حتى لا يضطرب الأمن الداخلى في مصر • وأخيرا قرر السلطان أن يتنازل بعض الشيء • ففى مارس ١٨٥٢ أرسل السلطان فؤاد باشا الى مصر وأمكن التوصل الى اتفاق مع عباس • وبمقتضى هذا الاتفاق منح عباس حق القصاص لمدة سبع سنوات ، وفى مقابل ذلك وافق عباس على زيادة الجزية السنوية الى الباب العالى الى ٤٠٠.٠٠٠ جنيه^(١) •

وحينما تمت تسوية مسألة «القصاص» استأنف مندوبو عباس في الآستانة عملهم مرة أخرى لوضع قانون التنظيمات الذى يطبق في

De Redcliffe to Malmesbury, 17 June 1852, in F.O. (١)
78/892.

مصر • وفى منتصف يوليو ١٨٥٢ أصدر السلطان فرمانا الى عباس يشتمل على تفصيلات هذه التسوية الخاصة بالتنظيمات بينهما ، وقرىء فرمان رسميا فى القاهرة فى ٢٣ أغسطس ١٨٥٢ • ولقد ترك فرمان لعباس حق القصاص من غير موافقة الباب العالى مقدما على نصوص الاعدام الصادرة به ، على أن يكتفى بإرسال اعلام شرعى بهذه الأحكام ومحاضرها بعد تنفيذ الحكم الى الآستانة ، كما وافق الباب العالى أن يظل انقصاص من حق عباس مؤقتا لمدة سبع سنوات^(١) • وأما فيما يتعلق بإشراف الباب العالى المباشر على شئون الإدارة فان شيئا من ذلك لم يتحقق ، وظل عباس محتفظا بكل سلطاته الداخلية كاملة حسب ما جاء فى فرمان الولاية • وتحسنت العلاقات بعد ذلك بين عباس والدولة العثمانية ، وأرسل عباس فى ٢٠ يوليو ١٨٥٣ بعض القوات المصرية لمساعدتها فى حرب القرم ، وخطب ابنة السلطان عبد المجيد لابنه ابراهيم الهامى باشا ، كما طلب من الباب العالى أن يمنحه لقب «العزيز» ، واتسعت آماله فى تعديل نظام وراثة العرش لمصلحة الهامى باشا • وهكذا اجتاز عباس الأزمة ، ونجحت مصر بعد أزمة التنظيمات فى المحافظة على الوضع الذى نالته فى تسوية ١٨٤٠/١٨٤١ •

(١) انظر ، قبليب جلال ، قاموس الادارة ، ج ٢ ، ص ٩٩ •

٣ - عهد الخديوية المصرية (١٨٦٣ - ١٨٧٩)

أولا - علاقة اسماعيل بآبآب العآلى :

نآآ عباس فى أن يحآفظ على استآقلال مصر الآذآتى ، ولم تقم الدولة العثمانية بأى محاولة للآنتقاص من سيادة مصر فى عهد هآمد سعيد على الرغم من أن مشرع آفر قنآة السويس آدى الى قيام مشكلة مماثلة للمشكلة التى ظهرت فى عصر عباس الأول بشأن موضوع المسكة الحديدية . ولكن الأزمة التى آارت آول موضوع القنآة تركزت أساسآ فى المعركة الدبلوماسية العبيفة بين بريطانيا وعرنسا آآر مما تركزت بين آلوالى والسلطان . آما آهديو اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ففسد عاصر السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) وكانت العلاقات بينهما فى معظم الآوقات علاقات ودية ، آذ عمل اسماعيل على آونيق علاقاته بالدولة العثمانية وآآوسع فى الآنفاق فى العاصمة التركية آآسب الأنصار والقضاء على المناوئين . وكانت شخصية السلطان عبد العزيز من ناحية آخرى مجموعة من الآتنآقضآت ، فقد آآصف بالآرور والعصبية والعناد ، وآان آبآنا مآرددا لآ يستقر على رأى . وكانت وآدته تسيطر عليه وتستغل نفوذها ، فبآعت المناصب المشآرة وآآآرت تعديلات فى الوظائف لكى توفر لنفسها مآردآ آآبنا . ولم يقل عبد العزيز عن وآدته نزوعآ الى استآلال منصبه بعد توليه العرش وذلك لآآطية نفقات اسرافه . وبعد أن آولى اسماعيل بأشوية مصر بفترة قصيرة ، آوجه الى الآستانة ليتسلم فرمان التولية من السلطان . وآوجه اسماعيل الدعوة الى السلطان عبد العزيز لآزيارة مصر ، وفعلا لآبى السلطان الدعوة وآآآ

الى مصر في أبريل ١٨٦٣ ، وكان بذلك أول سلطان عثمانى يزور مصر منذ أن فتحها سليم الأول في عام ١٥١٧ ، وقال السلطان عبد العزيز في الحفلة الرسمية التي أقيمت في القلعة وحضرها رجال السلك السياسى: « لم يكن غرضى من القدوم الى مصر سوى اعطاء واليها دليلا جديدا على حسن نيتى وتقديرى الشخصى له ، ومشاهدة ذلك الجزء المهم من الامبراطورية • اننى أخصص كل جهودى للعمل على تقديم أملاكى ورفاهية جميع طبقات السكان فيها وتوثيق روابطنا بأوروبا • واننى لعلنى تمام اليقين من أن الوالى يسير فى نفس هذا الاتجاه ، وأنه سيقوم بمهمته على أحسن وجه لأنه يسير على خطى ذلك الرجل الممتاز من أمتنا (يقصد محمد على) »^(١) •

وقضى عبد العزيز فى ضيافة اسماعيل عشرة أيام ، وأكدت هذه الزيارة مركز الوالى الأدبى ، فقد حصل على الوسام المجيدى ، أرفع أوسمة الدولة العثمانية • كما كتب قنصل فرنسا العام الى حكومته يقول ان مركز والى مصر الأدبى قد تدعم لسبب واحد هو أن حقوق البلاد لم تنقص فى شىء^(٢) • وغمر اسماعيل السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة ، وزود المصدر الأعظم محمد فؤاد باشا وحده بستين ألف جنيه رشوة من أجل خدمات أداها له ولتعزيز صلات الصداقة بين السلطان والوالى • وساعدت هذه الصداقة اسماعيل فى الحصول على امتيازات جديدة ، من أولها وأهمها نظام توارث العرش فى ولاية مصر • فالنظام الذى فرضه فرمان ١٨٤١ يقضى بأن يتول عرش مصر الى أكبر أفراد أسرة محمد على سنا على غرار النظام المتبع

(١) وثائق عابدين الأمريكية : ج ٣ ، رقم ٣٢ واردة فى أحمد عبد الرحيم مصطفى ، علاقات مصر بتركيا ، ص ٦٩ •

(٢) Douin, Histoire de Règne du Khédivé Ismail; I; P. 18. 78/892.

في الدولة العثمانية ، ولكن هذا النظام أثار بعض المشاكل قبل ذلك *
فلقد حاول ابراهيم قبل وفاته في ١٨٤٨ ابعاد عباس حلمي عن الوراثة
وتعيين ابنه الأكبر أحمد بك * وبعد وفاة عباس في يولييه ١٨٥٤ ، أخفى
أنصاره نبأ وفاته لمدة أربع وعشرين ساعة حتى يتيجوا الفرصة لتولى
ابنه الهامي بإشاع حكم مصر بدلا من محمد سعيد ، ولكن تدخل قنصل
بريطانيا وفرنسا كان حاسما ، وتولى سعيد العرش * وعند وفاته خلفه
اسماعيل دون أية صعوبة * وكان اسماعيل وليا للعهد (قائمقام) خلال
حكم سعيد في مناسبتين اثنتين ، الأولى عندما زار سعيد سورية في عام
١٨٥٩ ، والثانية عندما ذهب الى الحجاز في أوائل عام ١٨٦١ *

وبعد أن تولى اسماعيل العرش كان أكثر من سلفه أملا في تغيير
وراثة العرش لكي يؤول الى أكبر أبنائه ، ونجح اسماعيل في مساعاه
بفضل العطايا والهدايا التي لا تقبل قيمتها عن ثلاثة ملايين من الجنيهات،
وسافر الى الآستانة في مايو ١٨٦٦ حيث بدأت المفاوضات بشأن هذا
الموضوع ، وانتهت بصدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ / ١٢ محرم ١٢٨٣ هـ
الذي قرر « أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع اليها من الأراضي
وكامل ملحقاتها وقائم مقامتي سواكن ومصوع الى أكبر أولاده الذكور
بطريق الارث وبالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريتك * فاذا خلا منصب
الولاية ولم يترك الوالي المتوفى ولدا ذكرا ينتقل الارث حينئذ الى أكبر
اخوته ، وان لم يكن له اخوة فالى أكبر أولاد اخوته المتوفين الذكور » *
ومقابل ذلك وافق اسماعيل على رفع مقدار الجزية السنوية من ثمانين
ألف كيس الى ١٥٠ ألف كيس ، وأن يقدم للسلطان ١٢ ألف جندي
يرفع عددهم الى ١٥ ألفا في مقابل حق الوالي في زيادة عدد جيشه الى
٣٠ ألف * وأبلغ الباب العالي هذا الفرمان الى الدول التي أقرت تسوية
١٨٤٠ / ١٨٤١ * وأوضح أسباب هذا التعديل بقوله : « ان مبدأ الوراثة
الذي ينص عليه الفرمان الثاني لعام ١٨٤١ ينطوى على مضار جسيمة
في بلد كمصر لا تتميز فيه الثروة العامة عن ثروة الحاكم * والواقع

أن كل أمير يلى العرش لا يكون مطمئنا الى مصير أبنائه • فمن البديهي أن تغريه هذه الحالة على التفكير فى اثره ذريته أكثر من التفكير فى اثره الدولة • وقد يتفرع على هذا الخطر خطر أفدح : ذلك أن كل وال قد يعقب فرعا غنيا قويا فينتكون مع الزمن نظام أشبه بنظام الاقطاع قد لا يقل اضراره بالأمن العام عن الأضرار الناتجة عن نظام الممالك»^(١) • وعلى أية حال لم تعترض الدول الأوروبية على التعديل الجديد ، وهنأته جميع الحكومات وكانت بريطانيا أول المهنيين •

ولم تقف أطماع اسماعيل عند هذا الحد ، بل سعى جاهدا للحصول على لقب يميز ولاية مصر عن بقية الدولة العثمانية والحكام العثمانيين والآخرين الذين كانوا يلقبون مثله بلقب وال • ولقد استخدم أسلافه لقب خديوى بصفة غير رسمية (وكلمة خديو نعت فارسي مشتق من كلمة خيفا وهو اسم فارسي من أسماء الله ، فهى لذلك تعنى ربانى أو الهى أو ملك)^(٢) • كما كان الديوان المصرى الأعلى (أى الديوان المحيط بالوالى مباشرة) يسمى بالديوان الخديوى من أيام محمد على • وعلى ذلك حصل اسماعيل فى ٨ يونيو ١٨٦٧ / ٥ صفر ١٢٨٤ على فرمان جديد يعطيه وخلفاءه لقب خديوى ، بعد أن كان (واليا) ، وارتقى اسماعيل بذلك الى مصاف الملوك • وبالإضافة الى ذلك حصل اسماعيل بمقتضى هذا فرمان على حق عقد المعاهدات الادارية والتجارية ، وحق وضع القوانين والأنظمة الداخلية فى مصر من غير قيد • واستطاع اسماعيل بواسطة المال والمهدايا السخية التى أغدقها على السلطان وحاشيته وارسال المساعدات العسكرية للسلطان لخماد ثورة كريت (يوليو ١٨٦١ — نوفمبر ١٨٦٧) ، وأحيانا بتهديد السلطان بسحب

(١) جورج جندي وباك تاجر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية،

ص ٤٠ •

(٢) بيير كرابيتس ، اسماعيل المفترى عليه ، ص ٤٨ •

القوات المصرية من جزيرة كريت ، استطاع أن يحصل على الامتيازات
التي طالب بها^(١) .

ولكن بعد صدور هذا الفرمان اعترى العلاقات المصرية العثمانية
الفتور والخلاف ، وأصبحت الدولة العثمانية حساسة لسيادتها على
مصر ولتطلعات اسماعيل في أن يلعب دورا يتجاوز فيه الحدود التي
نصت عليها الأفرمانات . فعندما أوشك العمل في قناة السويس على
الانتهاء ، قام الخديو اسماعيل في صيف عام ١٨٦٩ بجولة في أوروبا
لدعوة ملوكها ورؤساء حكوماتها الى حضور حفل افتتاح قناة السويس
في نفس العام . وحاول اسماعيل بذلك أن يضع الباب العالي أمام
أمر واقع باحاطة نفسه ببعض صفات السيادة التي لم يعترف له بها
صراحة . وزيادة على ذلك ، انزعج الباب العالي من زيادة عدد الجيش
المصري وتسليحه ببنادق من الطراز الحديث واطرافه ثلاث فرقاطات
مدرعة الى أسطوله الحربي . ونتيجة لذلك استاء المصدر الأعظم غالى
باشا — الذى خلف فؤادا بعد وفاته في فبراير عام ١٨٦٩ — وطالبت
بعض الصحف التركية بعزل اسماعيل من منصبه وارجاع مصر ولاية
عثمانية كباقي الولايات طبقا للأفرمانات . ولذلك أصدر الباب العالي
عقب الاحتفال بافتتاح القناة بشهر واحد فرمان ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩/
٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦ الذى انتقص من سلطته اذ حرم على الخديو
عقد قروض جديدة من غير موافقة الباب العالي ، وحتم عليه عرض
الميزانية العامة والدخل والمصروفات على الباب العالي ، وحظر عليه
بناء السفن الحربية من غير استئذان السلطان .

واذا كان اسماعيل قد استاء من هذا الفرمان فقد أخذ يسعى
لتحسين علاقته بالدولة العثمانية بعد أن اثبتت الأزمة المالية . فسافر

(١) محمد محمود السروجى : المسألة الشرقية ، ص ١٠٤ — ١٠٦ .

الى الآستانة في صيف ١٨٧٢ وبصحبتة اسماعيل المفتش وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية لمساعدته في تحسين العلاقات مع السلطان. وأقنع اسماعيل السلطان بكل الطرق — ومن أهمها طريق الذهب — بالغاء فرمان ١٨٦٩ وأصدر فرمانا آخر في ١٠ سبتمبر ١٨٧٢/ رجب ١٢٨٩ يؤكد فيه الامتيازات التي سبق منحها لاسماعيل ، وينسخ القيود الواردة في فرمان عام ١٨٦٩ ، وفي العام التالي (١٨٧٣) زار اسماعيل الآستانة لكي يحصل على فرمان جامع للمزايا التي نالها مصر منذ تولية محمد على الحكم . وحصل على ما كان يسعى اليه اذ أصدر السلطان في ٨ يونيه ١٨٧٣/ ١٣ ربيع الثاني ١٢٩٠ هـ فرمان الجامع الذي ثبت المزايا الواردة في فرمانات السابقة . ولقد شرح هذا فرمان الموراثة وشكل الوصاية اذا كان الخديو قاصرا . ومنح فرمان اسماعيل من جديد حق سن القوانين واللوائح الداخلية على أنواعها ، وحق عقد اتفاقيات جمركية ومعاهدات تجارية ، وحق اقتراض أى قروض يشاؤها في مصلحة البلاد ، وحق زيادة الجيش أو خفضه كما يشاء ، وحق بناء سفن حربية ماعدا المدرع منها . وخلاصة القول أن هذا فرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة في الاستقلال الذاتي فيما عدا دفع الجزية السنوية (وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه عثمانى) وعدم عقد المعاهدات السياسية وحق التمثيل الخارجى ، وعدم صنع المدرعات الحربية . وهكذا أرسى هذا فرمان ومعاهدة لندن (١٨٤٠) الأساس الذى استند اليه استقلال مصر قبل الاحتلال البريطانى في عام ١٨٨٢^(١) .

ثانياً — علاقة اسماعيل بالغرب :

وهكذا نجح اسماعيل في استبعاد النفوذ العثمانى من مصر ، ولكنه في معاملاته واتصالاته بالأوروبيين كان أقل توفيقا . ويبدو أن

M. Rifaat. The awakening of modern Egypt, P. 115. (١)

اسماعيل كان يتوهم حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر ، وظل هذا الوهم مسيطرا عليه حتى أدرك خطأه في نهاية عهده • ولقد شغل عصر اسماعيل مسألتان أساسيتان لهما مغزى دبلوماسى هما الامتيازات الأجنبية وقنصاة السويس • ولقد نشأت هاتان المسألتان قبل عصر اسماعيل كما أشرنا قبل ذلك بالنسبة لمسألة قناة السويس ، أما بالنسبة للامتيازات فيجدر بنا أن نرجع الى تاريخها الماضى •

(أ) الامتيازات الأجنبية وانشاء المحاكم المختلطة :

الامتيازات (Capitulations) هى معاهدات تجارية نظم السلاطين العثمانيون بمقتضاها أمور التجارة مع الدول المسيحية • ولكن عندما ضعفت الامبراطورية أصبحت الامتيازات الممنوحة للأجانب بمثابة حقوق مكتسبة ، وصارت « فى مصر عدوانا على السيادة الأهلية ، ومشاركة للحكومة فى سلطتها » • ولم يطالب بها شعوب الدول الأوروبية فحسب بل طالب بها أيضا السكان المحليون الذى استطاعوا — ببعض الوسائل — الحصول على الحماية القنصلية • كما شكلت الامتيازات الأجنبية مشكلة بالنسبة لرجال الادارة فى كل الامبراطورية العثمانية ، فانها كانت مشكلة خطيرة على وجه الخصوص فى مصر فى القرن التاسع عشر لازدياد عدد الجاليات الأجنبية بها ، ونمو اقتصادها ، ورغبة حكامها فى الاستقلال السياسى • فوجد فى مصر سبع عشرة محكمة قنصلية مختلفة تمارس كل واحدة منها قانونا مختلفا • وقد تكرر حدوث تضارب فى الأحكام عندما يكون أحد أطراف النزاع مواطنا عثمانيا ، أو عندها يكون الطرفان من رعايا دول مختلفة ، وكثيرا ما كان التحكيم يخضع للضغط الدبلوماسى • ولقد أصبحت الجاليات الأجنبية ومن يتصلون بها من الجهات صاحبة الامتيازات فى داخل مصر اذ ان الرعايا الأجانب لم تكن مقاضاتهم أمام المحاكم الجنائية المحلية ، وكانوا فى مأمن من تفتيش الشرطة لحال اقامتهم ، وكانوا يتهربون من الجانب الأكبر من الضرائب المحلية •

وفي عهد محمد على و ابراهيم وعباس لم تحصل الجاليات الأجنبية على مزايا جديدة ، ولم تسبب أى مشكلة خطيرة بالنسبة للحكومة المصرية . فقد عمد عباس الى وقف نزوح الأجانب الى مصر . ولكن بمجىء محمد سعيد تغير الموقف لأنه كان يحب الأجانب ويتساهل معهم ، فنزح عدد كبير منهم الى مصر في عهده ولقد كتب أحد الكتاب الأوروبيين المعاصرين لهذه الفترة يقول : « أما سعيد فكان ضعيف الارادة ، يخضع دائما لمطالب القنصل ، وقد طغى سيل الأجانب في عهد اسماعيل ، واحتموا بنظام الامتيازات الأجنبية وانتفعوا من تبذير الحكومة وسفهاها »^(١) . وزادت فعلا سلطة الأجانب على سيادة الحكومة في عهد اسماعيل . وحاول اسماعيل — عندما ناب عن عمه في ادارة البلاد في عام ١٨٦١ — اتخاذ بعض الخطوات الأولى لتعديل نظام الامتيازات في مصر . فأرسل الى القنصليات منشورا دوريا يحتوى على مسودة لائحة تبيح القبض على الرعايا الأجانب واستجوابهم ، ولكن لم يلق هذا المشروع أى تشجيع . وعندما تولى اسماعيل عرش مصر استأنف جهوده في هذا المجال . فلقد قام وزيره الأرميني نوبار باشا باعداد المخطط اللازمة والاشراف على المفاوضات مع الدول الأوروبية . ولم يجد اسماعيل ونوبار غضاضة في التدخل الأجنبى في ولاية القضاء وشرع نوبار في تنفيذ مشروعه وأعد في أغسطس عام ١٨٦٧ مذكرة اقترح فيها الغاء نظام الامتيازات وتوحيد نظام القضاء في مصر وانشاء المحاكم المختلطة وجعل قضاتها من المصريين والأجانب ، على أن تقوم حكومة الخديو بتعيين القاضى الأجنبى . كما اقترح أن تسير المحاكم المختلطة طبقا لقوانين مستمدة من القانون الفرنسى وتقوم بوضعها لجنة دولية ، وتتنظر هذه المحاكم في القضايا المدنية والجنائية وتقتصر

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

اختصاصات القناصل على رعايا بلادهم^(١) • واجتمعت اللجنة في القاهرة وحضرها مندوبو بريطانيا والنمسا والمجر وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والروسيا والولايات المتحدة الأمريكية^(٢) •

ولقد رفضت فرنسا كل هذه الاقتراحات ، وعمأت بواسطة قنصلها العام في مصر المسيو تريكو Tricou على احباط المشروع • أما الدول الأوروبية الأخرى المهتمة بهذا المشروع فقد وافقت عليه مع بعض التحفظات المختلفة • واستمرت المفاوضات لمدة ست سنوات ، ولكن وافقت الدول في عام ١٨٧٣ — ماعدا فرنسا — على مشروع نوبار في شكله النهائي ، كما وافقت أيضا على القوانين الستة التي تطبقها المحاكم المختلطة • ولكن فرنسا وافقت في العام التالي بعد أن أخطرتها الحكومة المصرية بأنها ستفتح المحاكم المختلطة من غير اشتراك فرنسا، وأنها في الوقت نفسه ستلغى المحكمة التجارية في الاسكندرية ، وافتمتحت هذه المحاكم في عام ١٨٧٥ • وفيما يلي خلاصة القواعد التي قام عليها نظام هذه المحاكم^(٣) :

- (١) تختص بالفصل في المنازعات المدنية بين المصريين والأجانب، وبين الأجانب الذين ليسوا من جنسية واحدة •
- (٢) تفصل في المنازعات العقارية اذا كان أحد الطرفين من الأجانب ولو كان الطرفان من جنسية أجنبية واحدة •
- (٣) تفصل في المسائل الجنائية بالحكم على المتهمين الأجانب في بعض المخالفات البسيطة •
- (٤) أما الجنح والجنايات التي تقع من الأجانب فلا تختص بالحكم

(١) انظر ، نجيب مخلوف ، نوبار باشا ، ص ٥٩ — ٧٠ .

(٢) Marlowe, Anglo-Egyptian relations. P. 88.

(٣) Marlowe, Op. Cit., PP. 89-90.

فيها ، بل بقيت من اختصاص المحاكم القنصلية ، مع استثناء الجرائم التي تقع على قضاة المحاكم المختلطة ، أو مأموريها القضائيين أثناء قيامهم بعملهم فتختص بالحكم فيها •

وقررت لائحة المحاكم المختلطة فتح ثلاث محاكم ابتدائية في الاسكندرية وفي القاهرة وفي المنصورة عين لها سبعة عشر قاضيا أجنبيا واثنا عشر قاضيا مصرياً • وأنشئت أيضا محكمة عليا للاستئناف بالاسكندرية مكونة من أحد عشر قاضيا سبعة منهم من الأجانب وأربعة من المصريين ، ولهذه المحكمة حق الاشراف والادارة العامة ، وتنتخب القضاة حكوماتهم ، ويعينهم الخديو بمرسوم منه ، ويصدرون أحكامهم باسمه • وهكذا أصبح نظام القضاء المختلط قضاء أجنبيا ، اذ خضع المصريون به للقضاء الأجنبي • وكانت المحاكم المختلطة محاكم أجنبية ليس لها الصبغة المصرية ، فغالبية القضاة من الأجانب ولم يسمح لقاض مصري بأن يرأس الجلسات ، وأصبحت اللغة الأجنبية هي لغة التعامل والمرافعات ، أما اللغة العربية فلم يكن لها وجود في تلك المحاكم ، « ومن أراد أن يتكلم بها لم يجد من يسمع له الا اذا شاء المترجم أن يترجمها للغة أجنبية ، فرنسية كانت أم ايطالية »^(١) • ولم يكن القضاء المختلط سوى مظهر من مظاهر التدخل الأجنبي ونوع من أنواع الوصاية الأجنبية التي تنتقص السيادة القومية في أهم أركانها وهي سلطة التشريع • ويتحدث الرافعي عن هذا النظام فيقول^(٢) :

« فمن يوم أن انشئت المحاكم المختلطة توطدت مصالح الدائنين الأجانب من الشركات والأفراد ، واستقر الرهن العقاري ونزع الملكية على قواعد مضيعة للأموال المدنيين من الأهليين وحقوقهم ، ولا يوجد في العالم محاكم تشبه المحاكم المختلطة في قسوة اجراءاتها حيال المدنيين،

(١) الرافعي ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥١ •

وتعريض أموالهم وأموالهم للبيوع الجبرية بأبخس الأثمان ، وبأسرع من لمح البصر ، وتحميلهم فادح النفقات والمصاريف الرسمية وغير الرسمية •

وقد كانت (المحاكم المختلطة) حربا على مصر وعلى الخديو اسماعيل الذى أنشأها ، فانه لما ارتبكت أحواله المالية أصدرت ضده الأحكام جزافا للدائنين الأجانب ، وتشددت فى تنفيذها ، وأسرفت أقلام محضريها فى اقتضاء ما كان يحكم به على الخديو ، حتى أوقعت الحجز على منقولات القصور الخديوية ، وأعلنت بيعها بالمراد ، وأظهرت من التحيز للأجانب فى دعاوهم على الحكومة ما جعلها مضرب الأمثال فى امتهان العدالة ، فكانت من الكوارث التى أنقلت كاهل الخزانة والبلاد بالمغارم الباهظة ، ورأى اسماعيل من تحيزها للأجانب ما جعله ينقم من نوبار باشا الذى كان السبب فى انشائها •

ولم تلغ الامتيازات الأجنبية الا بمقتضى معاهدة مونتريه (Montreux Convention) فى ٨ مايو ١٩٣٧ التى نصت على إلغاء هذه الامتيازات ، وعلى بقاء المحاكم المختلطة حتى ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ ، أى مدة اثنتى عشرة سنة ، وهى المدة التى سميت باسم « فترة الانتقال » ، وبانتهائها تلغى المحاكم المختلطة ويصبح الاختصاص كله للقضاء الوطنى •

(ب) مسألة قناة السويس وتطورها منذ عهد اسماعيل :

أما مشروع قناة السويس فلقد أحدث أزمة سياسية عنيفة بين بريطانيا وفرنسا • ولقد رأينا كيف أن بريطانيا كانت تفضل دائما إقامة السكة الحديدية وعرقلة تنفيذ مشروع قناة السويس ، ولقد نجحت فى التحكم فى طرق المواصلات العالمية عبر مصر عندما وافق عباس الأول على تنفيذ مشروع السكة الحديدية • وأكمل تنفيذ المشروع فى عهد

محمد سعيد ، فبعد أن انتهى انشاء السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة في عام ١٨٥٦ ، بدأ مد الخط الحديدى الى السويس وافتتح في عام ١٨٥٨ • ولكن في نفس الوقت أظهر والى مصر اهتماما كبيرا بمشروع قناة السويس الذى هدد المكانة التى كان يتمتع بها الطريق البرى عبر مصر • وكان بطل مشروع قناة السويس في ذلك الوقت هو فرديناند ديليسبس ، الذى جاء الى مصر أول مرة في عام ١٨٣١ لتولى منصب مساعد قنصل فرنسا في مصر • ولقد كانت هناك صلات قديمة بين محمد على ووالده الكونت ماتيو ديليسبس (Mathieu Delesseps) عندما كان قنصلا عاما لفرنسا في مصر في عام ١٨٠٣ • واتصل فرديناند بمحمد سعيد اذ طلب منه محمد على أن يهتم بتربيته الرياضية ، فنشأت صداقة متينة بينهما • وقرأ ديليسبس عندما كان في الاسكندرية البحث الذى وضعه المهندس الفرنسى لوبير عن وصل البحرين المتوسط والأحمر في عهد الحملة ، وظل ديليسبس منذ هذا الوقت مهتما بالمشروع مع أنه انتقل من منصبه في مصر • وما أن علم بتولى سعيد الحكم حتى أرسل يهنئه بتولى العرش ثم أسرع بالحضور الى مصر • وفي ٣ نوفمبر ١٨٥٤ منح محمد سعيد صديقه ديليسبس امتياز انشاء قناة السويس وقد انطوى على شروط مجحفة بحقوق مصر ، اذ رخص الامتياز لديليسبس انشاء وإدارة شركة تتولى حفر قناة السويس واستغلالها لمدة تسعة وتسعين عاما ابتداء من تاريخ افتتاحها للملاحة ، ونص الامتياز أيضا على اعفاء جميع الآلات والمهمات التى تستوردها الشركة من الخارج من الضرائب الجمركية ، واعطاء الشركة الحق في أن تستخرج بدون مقابل جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمباني التى ستكون تابعة لها من المناجم والمحاجر المملوكة للحكومة • وسمح الامتياز للحكومة المصرية بأن تتقاضى ١٥٪ سنويا من صافي الأرباح ، أما الباقي فيوزع بين الأعضاء المؤسسين وبين حملة الأسهم بنسبة ١٠٪ للأولين و ٧٥٪ للآخرين • وبالإضافة الى ذلك أعطى الامتياز الشركة العالمية

العالي بعدم الموافقة على المشروع • وفي الوقت الذي قام فيه لورد ستراثفورد دي ردكليف (سير ستراثفورد كاننج سابقا) بعرقلة المشروع في الآستانة ، أوضح لورد كلارندون Clarendon — وزير خارجية إنجلترا — للسفير الفرنسي في لندن بأن الغرض الحقيقي من وراء تنفيذ هذا المشروع غرض سياسى ، بل انه سيؤخر فعلا اتمام مشروع السكة الحديدية من الاسكندرية الى السويس • وأضاف كلارندون أن المشروع لا يخرج عن كونه فكرة نابليونية عداوية لانجلترا انحدرت الى ورثة نابليون • ولقد أقيمت مساعي ستراثفورد دي ردكليف نجاحا كبيرا لدى السلطان ، فأرسل الباب العالي خطابا شديد اللهجة الى سعيد باشا « يحذره فيه عواقب عمله الجرىء » (١) •

ولم يتخاذل ديليسبس أمام معارضة الحكومة البريطانية للمشروع بل اتصل ببعض الزعماء البريطانيين واتصل كذلك بالرأى العام الانجليزى لاقناعه بقيمة المشروع من الناحية العملية ومن الناحيتين الحضارية والانسانية ، ولقد أظهرت بعض الشركات التجارية المهمة مثل شركة الهند الشرقية وشركة الـ P. & O. لخطوط الملاحة عطفها على المشروع • وفي ٥ نوفمبر ١٨٥٥ كون ديليسبس لجنة دولية من المهندسين (من بينهم عدد من كبار المهندسين الانجليز) لدراسة مشروع القناة وابداء الرأى فى صلاحيته وامكان تنفيذه حتى يرغب الناس فى الاكتتاب فى أسهم الشركة عند تأسيسها • وانتهت اللجنة من وضع التقرير فى ٢ يناير عام ١٨٥٦ وأيدت فيه انشاء القناة البحرية بين البحرين بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد • وبعد أن أطلع فرديناند سعيد باشا على تقرير اللجنة ، منح الوالى ديليسبس عقد الامتياز الثانى فى ٥ يناير ١٨٥٦ ، وانقسم الى قسمين : القسم الأول وهو باب الالتزامات ويتكون من تسع مواد ، والقسم الثانى وسمى الامتيازات ، ويتكون من أربع عشرة مادة • وقد تقرر فى باب الالتزامات

(١) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٢٧ — ٢٨ •

أن تقوم الشركة على نفقتها وتحت مسؤوليتها بكافة الأعمال والمنشآت اللازمة لحفر قناة للملاحة البحرية الكبرى وحفر ترعة للماء العذب تربط النيل بالقناة الملاحية وتستخدم في أغراض الري والملاحة النهرية، وتتفرع قبل وصولها الى بحيرة التمساح الى فرعين للري والتغذية ، ويتجه أحدهما شمالا الى الفرما والثانى جنوبا الى السويس . أما المادة الثانية فتعتبر من أهم المواد اذ نصت على أنه « للشركة الحق في تنفيذ الأعمال المنوطة بها بمعرفتها أو بواسطة مقولين تعطى لهم هذه الأعمال بالناقصة العامة أو بالممارسة . وفي جميع هذه الحالات يكون على الأقل أربعة أخماس العمال الذين يستخدمون في هذه الأعمال من المصريين » . وكان الهدف الحقيقي من المادة الثانية هو تحقيق أغراض سياسية ومكاسب مادية للشركة ، فمن الناحية السياسية أرادت الشركة أن تتغلب على معارضة انجلترا من ناحية العمال الأجانب وتبديد شكوك تركيا من أهداف فرنسا وسعيد السياسية ، فقالت جريدة قناة السويس (L'Isthme de Suez) في عام ١٨٦١ « ولا يخفى أن وضع المادة الثانية أريد به دفع الاتهامات عن سعيد باشا وتعزيز مركزه ، تلك الاتهامات التي يروجها البعض من أنه يرمى الى حركة استقلالية أو تعريض أملاك الدولة العثمانية لخطر الضياع »^(١) .

وعلى الرغم من ذلك استمرت الحكومة البريطانية في معارضتها للمشروع ، وصرح بامستون في مجلس العموم البريطاني في عام ١٨٥٧ بأن المشروع سيوجد فاصلا مائيا بين مصر والدولة العثمانية . وإذا كانت انجلترا قد كفت بعد صدور عقد الامتياز الثانى عن معارضة المشروع على أساس مسألة العمال الأجانب ، فإنها أثارت من ناحية أخرى مسألة تسخير الفلاحين في حفر القناة . وبالإضافة الى ذلك

(١) العدد ١٥/١٢٠ يونيه ١٨٦١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٣ .

احتوى عقد الامتياز الثانى على كثير من التسهيلات والاسراف من جانب الحكومة المصرية فى المزايا التى منحتها للشركة فى مقابل حصة صغيرة لمصر من صافى الأرباح . وقد علق سعيد هذا العقد على مصادقة السلطان العثمانى عليه . وبعد الحصول على هذا العقد أراد ديليسبس أن يسجل تدخل الحكومة لجمع العمال من أجل حفر القناة فى وثيقة رسمية يستصدرها من سعيد تأميناً لصالح الشركة . واستجاب سعيد لرغبة ديليسبس وأصدر فى ٢٠ يوليو ١٨٥٦ لائحة عرفت باسم « لائحة استخدام العمال الوطنيين فى أشغال قناة السويس »^(١) . وفى ديسمبر ١٨٥٨ تكونت شركة القناة برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك (٨٠٠٠٠٠٠٠ جنيه تقريبا) موزعة على ٤٠٠٠٠٠ سهم قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيه) . واكتتب سعيد بـ ١٧٧٦٤٣ سهم أى ٤٤ر٥٪ تقريبا من مجوع الأسهم . وفى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩ بدأ حفر قناة السويس دون أن يصدق السلطان على عقد الامتياز ، وازداد غضب انجلترا وسعت لدى الباب العالى لوقف العمل فأصدر أمره الى سعيد بايقاف العمل فى ١٩ مايو ١٨٥٩ .

واستغلت انجلترا الموقف الدولى فى أوروبا فى ذلك الوقت للقضاء على المشروع فقد قامت الحرب بين فرنسا والنمسا فى ٢٦ أبريل ١٨٥٩ ، ونتيجة لذلك اهتمت فرنسا بدرجة كبيرة بالمسائل الحربية ، بينما تخلت النمسا عن تأييدها للمشروع وسعت لدى الباب العالى لاييقاف العمل فى القناة^(٢) . ولقد أثرت معارضة الدول والباب العالى على موقف سعيد اذ شعر بخطر اندفاعه فى تأييد ديليسبس ، وتأزمت العلاقات بينهما . وفى ٩ يونيه ١٨٥٩ أرسل شريف باشا — ناظر الخارجية المصرية —

(١) الشناوى ، المرجع السابق ، ص ٣٣ — ٣٤ .

Hallburg, The Suez Canal, P, 165.

(٢)

بناءً على تكليف من والى الى ديليسبس يطلب منه وقف العمل فوراً في مشروع القناة لأن السلطان لم يصدق بعد على عقد الامتياز . واستمرت انجلترا في معارضتها الشديدة للمشروع لدرجة أنها أرسلت وحدات من أسطولها الى الاسكندرية في يوليو ١٨٥٩ لعزل سعيد من منصبه واييقاف العمل في القناة بالقوة . ولحسن حظ سعيد أن استدعى الأسطول مرة أخرى الى قاعدته في مالطة بسبب بعض التطورات الحربية في أوروبا في ذلك الوقت . ولقد غادر ديليسبس مصر بعد ذلك الى فرنسا يلتمس مساعدة الامبراطور نابليون الثالث . وفي أكتوبر عام ١٨٥٩ أرسل الباب العالي الى مصر مندوب والى في الآستانة يحمل خطاباً الى والى يطلب منه فيه ضرورة ايقاف العمل في مشروع القناة . وعلى الفور اجتمع شريف باشا بقناصل الدول الأوروبية في مصر وطلب منهم أن يشيروا على رعايا دولهم الذين يعملون في المشروع بالتخلي عن أعمالهم . وقد استجاب جميع الأجانب الذين يعملون في المشروع لأوامر قناصلهم سوى المستخدمين والعمال الفرنسيين فقد رفضوا الاستجابة لأوامر ساباتييه (Sabatier) فنصل فرنسا العام في مصر . ولقد حدثت بعض التطورات في فرنسا عندما وصلت أنباء هذه الأزمة ، فاتصل ديليسبس بالامبراطورة أوجيني ، وطالبت الصحافة الفرنسية الحكومة بتأييد شركة قناة السويس وقابل وفد أعضاء مجلس ادارتها الامبراطور نابليون الثالث في ٢٣ أكتوبر ١٨٥٩ . وقبل الامبراطور التدخل ، وقررت الحكومة الفرنسية في ٢٦ أكتوبر ١٨٥٩ نقل ساباتييه من مصر لأنه لم يحتج على القرارات التي اتخذت في اجتماع شريف مع قناصل الدول . وبسبب هذا الموقف حاول سعيد تحسين علاقته بفرنسا باتخاذ موقف سلبي نحو المشروع ، فحكومته لم تكره المصريين على العمل في تنفيذ المشروع ، ولكنها لم تضع عراقيل أمام الشركة عندما استأنفت استخدامهم بل تركتها وشأنها تتعاقد مع من شاء منهم أن يعمل في خدمتها .

وبذلك تدخلت الحكومة الفرنسية رسمياً ، وطلب السفير الفرنسي من الصدر الأعظم الحصول على موافقة السلطان على مشروع القناة . ولكن الباب العالي لم تكن له ارادة حرة بالنسبة لهذا الموضوع ، بل انتهج خطة تدل على أنه ألعبوبة في أيدي فرنسا وبريطانيا . وعلى أية حال أصدر الصدر الأعظم غالى باشا مذكرة في ٤ يناير ١٨٦٠ الى سفيرى الدولة العثمانية في باريس ولندن مفادها أن القرار النهائى فى مسألة القناة يتوقف على ضمان حقوق الدولة ذات السيادة على مصر وسلامة الملاحة فى القناة ، وذلك بأن يكون وضعها شبيها بوضع البوغازين ، متفقاً مع مصالح أوروبا عامة وتركيا خاصة . وعلى الرغم من مذكرة الباب العالي ومعارضة انجلترا للمشروع استطاع ديليبس أن يجد نفوذاً قوياً على الوالى فاطمأن على مساعدة فرنسا وعاد الى تعضيد المشروع بكل قواه . فقام سعيد فى عام ١٨٦١ بزيارة برزخ السويس وتفقد العمل فى قناة السويس ، كما رأى ضرورة التوسع فيه ، فأمر بزيادة عدد العمال الى عشرين ألفاً . ومن الأمور التى دفعت سعيداً الى التوسع فى تسخير المصريين فى حفر القناة حيازته لعدد ضخم من الأسهم بلغ ١٧٧٦٤٢ سهماً ، فلم يسعه اذن أن يرى المشروع يصاب بالفشل بسبب عدم كفاية الأيدى العاملة المصرية لدى الشركة . ولقد حق ديليبسبس أن يقول « ان وجود الوالى فى البرزخ كان أسعد حادث وقع لنا »^(١) . وعندما توفى سعيد فى ١٨ يناير عام ١٨٦٣ كانت مياه البحر المتوسط قد وصلت الى بحيرة التمساح .

ولم يؤد موت سعيد الى عرقلة عمل الشركة فى تنفيذ المشروع فكان اسماعيل باشا لحسن حظ الشركة مؤيداً من حيث المبدأ للمشروع

F. De Lesseps. Lettres, journal et documents, IV (1)
110-112.

لا سياسية : أخذت الحكومة المصرية على عاتقها حفر جزء من ترعة المياه العذبة يمتد من القاهرة الى وادى الطميلات — وكانت الشركة قد قامت بحفر الجزء الآخر الممتد من الوادى الى بحيرة التمساح * وحاول اسماعيل بهذين الاتفاقين تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة وانتزاعها ملكية الأفراد من الأراضى التى يقتضيها انشاؤها * وقد تنازلت الشركة للحكومة عن حقوقها فى ملكية الأراضى الواقعة على طول هذه الترعة واتفقا معا على تنظيم دفع الالتزامات المالية الباقية^(١) .

ولكن فى أوائل شهر ابريل ١٨٦٣ أرسل الباب العالى مذكرتين احدهما الى لندن وباريس والثانية الى والى مصر يوضح فيهما أنه رغم عدم رغبته فى القضاء على المشروع ، فانه لا يوافق عليه الا اذا ضمنت حيدته * وأصر الباب العالى على وجوب الغاء السخرة ذات النتائج الخطيرة على الزراعة المصرية والمناقضة لقوانين الامبراطورية العثمانية التى لا يقرها الوالى الجديد ، كما أصر الباب العالى على وجوب الغاء استعمار الأجانب للأراضى الواقعة على جانبى ترعة المياه العذبة فى السويس * وغضبت فرنسا من مذكرة الباب العالى فى أبريل ١٨٦٣ ، وفوجئت انجلترا باتفاق ٨ و ٢٠ مارس ووبخت قنصلها فى مصر كلكهون (Colquhoun) لعدم عرقلة هذا الاتفاق * وطلب اللورد رسل (Russell) — وزير خارجية بريطانيا — أن يوضح للوالى أنه لا يعدو أن يكون حاكما اداريا يباشر سلطته باسم سيده ، وأنه لا يتمتع بأى حق فى منح ديليسبس حقوقا تخص السلطان عبد العزيز * وحاولت الحكومة البريطانية منع زيارة السلطان عبد العزيز لمصر خوفا من أن تحاول الشركة الاتصال به والتأثير عايه ، ولذلك أرسل السير هنرى بلور سكرتيه (Stevens) الى مصر لمراقبة المشرفين على أمور الشركة فى مصر ، ومعرفة مبلغ اتصالحهم بحاشية السلطان *

Douin, op, cit, I, P, SS.

(١)

وفي نفس الوقت شكت الحكومة الفرنسية في نوايا السلطان ، فأصدر المسيو دروان دي ليس (Droin de Lhuys) — وزير خارجية فرنسا — تعليماته الى المسيو تاستو (Tastu) قنصله في مصر بمراقبة نشاط السلطان^(١) . ومن ناحية أخرى ، رفض اسماعيل أن ينقض الاتفاقين ، قائلاً لكل من خاطبه في شأن القناة أنها أصبحت أمراً واقعياً بالفعل^(٢) . وفي الواقع لم يكن اسماعيل يستطيع القضاء على الامتيازين رغم صدق تحذير السلطان — خوفاً من اغصاب شركة القناة والحكومة الفرنسية . ولكن قرر اسماعيل ارسال نوبار باشا الى الآستانة لكي يرضى كلا من انجلترا وفرنسا والباب العالي دون أن يتنازل عن حقوق مصر . وفي الآستانة عمل نوبار على الاعتماد على انجلترا للقضاء على امتيازات شركة القناة ، وعلى فرنسا للتغلب على محاولة كل من انجلترا والباب العالي فرض السيادة العثمانية على مصر . وبعد المناقشات التي تمت مع نوبار باشا ، أصدر الباب العالي في أوائل أغسطس ١٨٦٣ مذكرته التي نصت على موافقته على القناة من حيث هي ممر بحري وتجاري ، بشرط أن يتفق الموالي مع الشركة على استرجاع الأراضي وترعة المياه العذبة ، وأن تلغى السخرة وتوجد الضمانات الكافية لأن تقتصر القناة على التجارة وحدها ، ثم يعطى اسماعيل مهلة مذكرة أبريل أشهر لكي يجرى مع الشركة اتفاقاً معقولاً ، على أن تصبح مذكرة أبريل نافذة المفعول اذا ما انتهت هذه المهلة دون عقد اتفاق بين الطرفين^(٣) . وسافر نوبار باشا بعد ذلك الى باريس لكي يبلغ مجلس ادارة الشركة بشروط الباب العالي ويواصل السعى لحل مسألة الأراضي ومسألة السخرة . وتلخصت مطالب الموالي في الرسالة التي بعث بها نوبار الى الشركة فيما يلي^(٤) :

-
- (١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .
 (٢) Douin, Op. Cit., I; P. 52.
 (٣) Marlowe, The making of the Suez Canal, P. 189
 (٤) الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩٠ .

١ — انقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة الى ٦٠٠٠ ر٦ لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفا) يضر بالبلاد وبالزراعة .

٢ — زيادة أجورهم وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم ، لى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة .

٣ — الغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى ، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدها اتمام التربة العذبة ، وتعويض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته فيها .

وقد رفضت الشركة — ومن ورائها الحكومة الفرنسية — هذه الشروط . وطلب مجلس ادارة الشركة من نابليون الثالث التدخل ليحكم فى هذا النزاع ، ووافق اسماعيل على هذه الخطوة . وفى ٢١ أبريل ١٨٦٤ تمكن نوبار من عقد اتفاق مع ديليسبس وافق فيه على الغاء المسخرة واعادة الأراضى المتنازع عليها الى الحكومة المصرية . وفى ٦ يولية ١٨٦٤ أصدر نابليون الثالث حكمه الذى أقر الغاء المسخرة مع تعويض الشركة بمبلغ ٣٨ مليون فرنك ، وتنازل الشركة على الجزء الذى حفرته من القناة البحرية وفى أن تعفى سفنها من الرسوم . كما وافق الامبراطور على اتفاق نوبار — ديليسبس بشأن الأراضى ، ولم يترك للشركة سوى الأراضى اللازمة لنجاح المشروع ، وقد قدرت بثلاثة وعشرين ألف هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر أى أكثر من فدانين) ، منها ١٠٢٦٤ هكتارا على جانب القناة البحرية وملحقاتها و ٩٦٠٠ هكتار للتربة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة . أما الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع (ومساحتها ٦٠٠٠٠ هكتار) فقد تقرر اعادتها للحكومة المصرية . وقد بلغ مجموع

التعويضات التي ألزمت بها الحكومة المصرية للشركة ٨٤ مليوناً من الفرنكات (٣٣٦٠٠٠٠ ر. جنيه) وتدفع على مدى خمسة عشر عاماً . ولم تستطع الحكومة البريطانية معارضة الحكم الذي أصدره الامبراطور نابليون الثالث ، وهكذا قوى مركز الشركة وسارت في تنفيذ مشروعها . وبعد ضغط متكرر من جانب الحكومة الفرنسية أصدر السلطان العثماني في ١٩ مارس ١٨٦٦ فرماناً يوافق فيه على الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس . وبعد ثلاث سنوات انتهى العمل في حفر القناة وافتتحت للملاحة في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ . وأقام اسماعيل حفلاً فخماً بهذه المناسبة شهدته أعظم شخصيات أوروبا في ذلك الوقت مثل الامبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث ، والامبراطور فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وغيرهما من الشخصيات البارزة في أوروبا ، وحضر الاحتفال أيضاً السفير البريطاني في الآستانة السير هنري اليوت وعقيلته . ولقد بلغت نفقات هذا الحفل حوالي ١٤٠٠٠٠٠ ر. جنيه ، وهكذا ظهر اسماعيل بمظهر الملك العظيم ولكن على حساب مصر والديون التي أرهقت مالياتها وسلمتها في النهاية لانجلترا .

الفصل السادس

نمو الوعي القومي وقيام الثورة العربية

١ — عوامل نمو الوعي القومي في مصر •

٢ — الثورة العربية •

١ — عوامل نمو الوعي القومي في مصر

التغلغل الاستعماري الغربي في مصر :

شجعت سياسة محمد علي الأجانب على المجيء الى مصر لأنه كان يستعين بالعملاء الأجانب لتصريف منتجاته في الأسواق الأوروبية . فعندما غزا بونابرت مصر في عام ١٧٩٨ ، كان في مصر أقل من مائة أوروبى أغلبهم تجار في مراكز مثل الاسكندرية ودمياط . وكانت التجارة الأوروبية مع مصر في السنوات التي سبقت الغزو الفرنسي تحتضر ، وبدأت الشركات الغربية تغلق متاجرها وتنقل تجارتها الى أماكن أخرى . ولكن تغير الوضع في القرن التاسع عشر نتيجة لازدياد انتاج القطن المصرى واتساع كمية التجارة مع أوروبا . ففي عام ١٨٣٣ بلغ عدد الأجانب في مصر نحو خمسة آلاف وفي عام ١٨٣٧ ضمت الاسكندرية أكثر من سبعين شركة تجارية أجنبية أغلبها من اليونان وفرنسا وانجلترا والنمسا وبريطانيا .

وعندما تولى عباس حلمى الأول الحكم ، فقد الأجانب التشجيع الذى كانوا يلقونه في عهد محمد علي . وعمد عباس — بسبب معاداته للغرب — الى وقف التغلغل الأجنبى في مصر بعدما تزايد نتيجة لانتشار الانقلاب الصناعى في أوروبا واتجاه الدول الى البحث عن مواطن جديدة للمواد الخام أو أسواق لتصريف منتجاتها . ولما كان عباس يخشى بصفة خاصة توطد النفوذ الفرنسى في مصر ، فقد طرد عددا من الفرنسيين المشتغلين في المصانع والمعامل ، بلغ عددهم نحو ستمائة .

ولكن بمجرد ذيوع نبأ وفاة عباس، جاء الى مصر من كل بقاع أوروبا المحتالون والباحثون عن الذهب، على حد قول المسيو ساباتييه، قنصل فرنسا العام في مصر في ذلك الوقت. وتدفقوا بأعداد هائلة كما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة. وفي الفترة التي بين عامي ١٨٥٧، ١٨٦١ دخل مصر حوالي ٣٠٠٠٠٠ أجنبي كل عام^(١). وأدى انشاء قناة السويس ورواج القطن المصري الى ازدياد عدد النازحين الى مصر حتى بلغوا ٨٠٠٠٠ في عام ١٨٦٥، واستمر ذلك حتى انهارت أسعار القطن عام ١٨٦٦ فانخفض عددهم الى ٥٠٠٠٠^(٢).

وكان محمد سعيد مسئولا عن ذلك أيضا بسبب حبه للأجانب وتساهله معهم وحرصه على ارضائهم. ومن ناحية أخرى أصبحت خزانة والى مصر هدفا مغريا للأجانب، وتنافس قناصلهم في التقدم بأغرب المشروعات غير المعقولة في نظير الحصول على عمولة أو نسبة من الغنيمة. « وهكذا أصبحت مصر »، كما يقول لاندز (Landes) في كتابه Bankers and Pashas « ميدانا للنهب. فلم يكن هناك شيء مستحيل لا يصلح عذرا للاغارة على خزانة الوالى. فاذا سرق شخص بسبب اهماله هو فان الحكومة هي المخطئة بسبب عجزها عن المحافظة على النظام والأمن، ثم يطالب بالتعويض. واذا أبحر شخص بقاربه وتسبب باهماله في جنوحه فان الحكومة هي المخطئة لأنها تركت رمالا على الشاطئ في تلك الجهة ثم يطالب بالتعويض. وفي احدى القضايا نجح أحد النبلاء النمساويين (واسمه كاستيلانى) بمساعدة حكومته في انتزاع مبلغ ٧٠٠٠٠٠ فرنك على أساس أن ثمانية وعشرين صندوقا

(١) دافيد لاندز، بنوك وباشوات، ترجمة عبد العظيم أنيس، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٠.

من شرائق الحرير قد تلفت بسبب تعرضها للشمس عندما تأخر سفر
القطار من السويس الى القاهرة»^(١) • وكان فشل محمد سعيد في
مقاومة أصحاب الادعاءات في التعويضات الجسيمة على الحكومة
المصرية ، من أهم العوامل التي أدت الى استفحال الأزمة المالية •
وعندما عجزت الحكومة المصرية عن دفع مرتبات موظفيها المدنيين
والعسكريين ، اضطر سعيد الى عقد أول قرض له في باريس في ١٧ يوليو
١٨٦٠ وقيمته ٢٨ مليون فرنك • ثم عقد القرض الثاني مع بيت
فرولنج — جوشن (Fruhling-Goschen) الانجليزى — الألمانى بلندن
في ١٨ مارس ١٨٦٢ وقيمته ٣٩٣٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى ، وقبل وفاة
سعيد بأسبوعين بلغت ديونه السائرة والثابتة حوالى ٧٤٠٠٠٠٠٠ جنيه
انجليزى^(٢) •

وفي عهد الخديو اسماعيل ازداد تغلغل النفوذ الأجنبى في مصر ،
وأخذ الكثيرون ممن وفدوا الى مصر في استثمار أموالهم استنادا الى
الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من دفع الضرائب وتمنحهم الحق
في أن يحاكموا أمام محاكمهم الخاصة ، واستنادا الى الوصاية الدولية
التي بدأت بمعاهدة ١٨٤٠ • ولقد ظهرت في عهد اسماعيل تبعية مصر
المالية والاقتصادية للأجانب ، اذ أنهم جاءوا برعوس أموال استثماروها
في انشاء المتاجر والبنوك والبيوتات المالية والشركات وما الى ذلك •
وبالاضافة الى ذلك استحكمت الأزمة المالية في عهد اسماعيل فأدى هذا
الى تدخل الدول الأجنبية في شئون مصر المالية والسياسية • فاستمر
اسماعيل في سياسة عقد القروض حتى بلغت ديونها في عهده
١٢٦٣٥٤٣٦٠ جنيه انجليزيا • وفي عام ١٨٧٦ أفلست مصر وأصبحت
ضحية سهلة للسيطرة الأجنبية ، وكان اسراف اسماعيل من أفظع
النكبات التى أصيبت بها مصر ، وصور أحد الأجانب هذا الاسراف

(١) المرجع السابق ، ص ٨٤ •

(٢) محمد مؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٥٥ — ٥٦ •

خير تصوير حين قال :

« كان اسماعيل يغترف المال من الخزانة العامة بكلتا يديه لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب ، بل ليسد نهم الطامعين الملتفين حوله • فكم من فرنسيين وإيطاليين وإنجليز كانوا تعساء في بلادهم ، ثم نالوا بعد أن هبطوا مصر الرخاء والنعيم ! لقد كان الخديو مستعدا على الدوام أن يهبهم المراكز والقصور والمنح (البقاشيش) ، أو يعهد اليهم بالتوصيات على التوريدات ، وما كان أشد دهشة السياح إذ يرون في القاهرة أو الاسكندرية جماعة من الأوروبيين ليس لهم من المزايا الا مظهر الرجل الأنيق ، يقومون بمهمة الموردين لنائب الملك (الخديو) ، ويربحون من هذه التجارة أرباحا باهظة ، لا يتصورها العقل ، فليس ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تأثيث إحدى السرايات الخديوية ، أو توريد بعض الصور أو التحف والطرف ، وكم من أناس جاءوا من أوروبا مثقلين بالديون ، فما كادوا يستقروا في القاهرة ويأوون الى إحدى قاعات الانتظار في سراى عابدين ، حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين » •

وابتدع اسماعيل الوسائل المختلفة للحصول على القروض من الأجانب والأهالى ، وساعده في ذلك أخوه في الرضاة ووزير مالىته اسماعيل باشا صديق (المعروف بالمفتش) • فعندما توقفت البيوت المالية عن الاقتراض بسبب الحرب الفرنسية البروسية في عام ١٨٧٠ ، ابتدع له اسماعيل المفتش طريقة تعد بمثابة ضريبة تفرض على أطيان الأهالى وصدر بها القانون المعروف بلائحة المقابلة في ٣٠ أغسطس عام ١٨٧١ • وكان هذا القانون يقضى بأنه اذا دفع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدما أعفت الحكومة أطيانهم

(١) انظر ، الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج٢ ، ص ٤٨ •

على الدوام من نصف المربوط عليها • وقد بلغت الديون حدا غير معقول أدى في النهاية الى التدخل الأجنبي وفقدان مصر لاستقلالها المالى • وأخذ هذا التدخل شكلا خطيرا في عام ١٨٧٥ ، عندما اشترت إنجلترا أسهم مصر في قناة السويس ، وبذلك خُطت إنجلترا أول خطوة نحو احتلال مصر • وفي العام التالي أصبح استقلال الخديو الذاتى مقيدا بسبب ازدياد سيطرة أصحاب الديون العالميين • ولما رأى اسماعيل أن حالة الخزانة قد ساءت بدرجة كبيرة ، طلب من إنجلترا أيضا إيفاد موظف مالى لدراسة حالة الحكومة المالية ، ولبت الحكومة البريطانية نداء اسماعيل ، وأرسلت اليه بعثة مكونة من أربعة من موظفيها برياسة ستيفن كيف (Stephen Cave) • وقد بين «كيف» في تقريره الذى وضعه أن أسباب سوء الحالة المالية هي فداحة الشروط التى عقدت بها القروض المتوالية ، والى الاسراف فى مسائل غير ذات أهمية • وخافت فرنسا من أن تستأثر إنجلترا بالنفوذ لدى اسماعيل ، ولذلك أرسلت هي أيضا أحد موظفيها ، وهو المسيو فليليه (Villet) ليعاون اسماعيل فى تنظيم ماليته • وعندما شعر اسماعيل بارتباط المالية المصرية ، أراد استرضاء الدائنين ، فاستجاب لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين وأصدر مرسوما فى ٢ مايو ١٨٧٦ بإنشاء صندوق الدين (Caisse de la Dette Publique) وأن يكون من أربعة أعضاء ، عضو انجليزى وعضو فرنسى وعضو نمسوى وعضو ايطالى • وكانت مهمة هذا الصندوق هي تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية • ولم تر إنجلترا فى هذا الصندوق الكفاية لضمان مصالح الدائنين ، فرفضت أن تعين مندوبا عنها فى صندوق الدين •

كانت إنجلترا تعمل على وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلى فى ادارة الحكومة المصرية ، ويجعل مصر أكثر خضوعا للدول الأجنبية فى سياستها وقصرفاتها الداخلية • ونتيجة لضغط الدائنين الأجانب ، أصدر الخديو مرسوما فى ١٨ نوفمبر بفرض الرقابة الأجنبية

المصرية ، وأن يشرف عليها مراقبان أحدهما انجليزي (لمراقبة الايرادات العامة للحكومة ويسمى مفتش الايرادات) ، والثانى فرنسى (لمراقبة المصروفات ، ويسمى مفتش الحسابات والمدين العمومى) * وبصدور هذا المرسوم الخديوى تبدأ فترة جديدة فى تاريخ مصر تعرف عادة باسم الحكم الثنائى أو المراقبة الثنائية (Dual Control) * وفى يناير ١٨٧٨ ، طلبت الحكومتان الفرنسية والانجليزية تشكيل لجنة عليا للتحقيق^(١) * وقامت لجنة التحقيق العليا بفحص كل نواحى الادارة المالية ، وقدمت تقريراً مبدئياً الى اسماعيل شرحت فيه الحالة المالية وبينت عيوبها ، وذكرت ما تراه لاصلاحها واقتрحت ما يلى^(٢) :

١ — أن يسلم اسماعيل أراضيه وأراضى عائلته للدولة لسد عجز ميزانية الحكومة *

٢ — أن يتنازل الخديو عن الحكم المطلق *

٣ — أن يقبل مرتباً سنوياً *

٤ — وأخيراً أن يقوم باجراء اصلاحات ثانوية فى الادارة المصرية *

وفى ٢٣ أغسطس قبل اسماعيل فحوى التقرير دون ابداء أى تحفظ ، وبعد خمسة أيام كلف نوبار باشا بتشكيل الوزارة ، وأقر اسماعيل فى خطابه الى نوبار مبدأ المسئولية الوزارية ، بحيث يحكم عن طريق مجلس وزرائه وبالاشتراك معه * وأشرك نوبار فى الوزارة وزيرين أوروبيين هما ريفرز ولسن (Wilson) ، رئيس لجنة التحقيق الانجليزى وزيراً للمالية ، والمسيو دى بلنيير (De Blignières) ، العضو

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٥٨ .

(٢) أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادى ، ص ٢٧٩ .

الفرنسي بصندوق الدين وبلجنة التحقيق ، وزيرا للأشغال + ولقد كان لسياسة هذه الحكومة أثر كبير في تطور الحركة القومية لأنها كانت وزارة أجنبية + وقد أقصت تلك الوزارة الموظفين المصريين عن النفوذ والسلطة ، وعزلت بعضهم بحجة الاقتصاد ، وعينت بعض الأجانب في الوظائف المهمة بمرتبات كبيرة + وكان من سوء حظ هذه الوزارة ، أنها استهلت حكمها بعقد قرض جديد بشروط مجحفة لم تخصص أرصده لأى غرض جاد في حين كان ولسون يملأ وزارة المالية بالموظفين الانجليز ، وأغلقت المدارس ، وقررت تسريح عدد كبير من الجنود ، وإحالة ٢٥٠٠ من ضباط الجيش الى الاستبداد +

وهكذا فشلت وزارة نوبار الأوروبية في تنفيذ برنامجها الإصلاحى وأثارت سخطا واسع النطاق + وفى ١٨ فبراير ١٨٧٩ تجمع نحو ٦٠٠ ضابط وساروا الى نظارة (وزارة) المالية + وفى طريقهم الى وزارة المالية شاهدوا نوبار فى عربته فأهانوه ، وهاجموا ولسن عندما تصدى للدفاع عن نوبار ، وقاموا بحبس الاثنين فى احدى حجرات الوزارة + وتدخل اسماعيل فى هذه المسألة بناء على طلب القنصل البريطانى العام فى مصر ، وفى اليوم التالى قدم نوبار استقالة وزارته + ولقد اعتقد البعض أن الخديو اسماعيل هو الذى دبر هذه الحادثة ، ولكن اللورد كرومر وسير ادوارد مالت (Malet) قنصل بريطانيا العام فى مصر ، والقنصل الفرنسى يؤكدون أن حادثة قصر النيل لم تكن نتيجة أى تدبير أو تأمر + فالذين يحملون الخديو اسماعيل مسئولية ما حدث لا يقيمون وزنا للرأى العام المصرى الذى نما بشكل بارز فى تلك الفترة وأصبح عاملا جديدا مستقلا عن الخديو +

وفى ٢٢ مارس عام ١٨٧٩ كلف الأمير محمد توفيق بتشكيل الوزارة الجديدة ، (وهى الوزارة الأوروبية الثانية) ، وذلك بعد المباحثات التى جرت بين لندن وباريس وتم الاتفاق فيها على عدم اشتراك الخديو فى

اجتماعات مجلس النظار (الوزراء) ، وتعيين محمد توفيق رئيسا للمجلس ، واعطاء الوزيرين الأوروبيين (الانجليزى والفرنسى) فى الوزارة حق الاعتراض Veto على اقتراحات مجلس الوزراء • ولم يلبث أن وقع الصدام بين الوزارة والخديو عندما أعلنت الوزارة أن البلاد فى حالة افلاس ، فاستقالت الوزارة فى ٧ أبريل ، وشكلت فى اليوم التالى « الوزارة الوطنية » برئاسة محمد شريف باشا • وكان تأليف الوزارة الوطنية ، وابعاد الوزيرين الأوروبيين منها معناه انتهاء التدخل والنفوذ الأجنبى الذى فرضته الوصاية الدولية على مصر • وفى ٤ مايو عام ١٨٧٩ أخبر الخديو اسماعيل انجلترا وفرنسا ، أن رأى العام المصرى لن يسمح بدخول الأجانب فى الوزارة •

وفى ١٧ مايو قدم محمد شريف باشا لمجلس شورى النواب (المجلس النيابى فى مصر) لائحته الأساسية (الدستور) ، ولائحة الانتخاب الجديدتين • وقد خولت اللائحة الأساسية المجلس سلطة البرلمانات الحديثة المثلة فى حق اقرار القوانين واقرار الميزانية ، ومسئولية الوزارة أمامه • ولقد لقى هذا المشروع تأييدا كبيرا ، ولكن تصفيق الأعضاء لم يفعل شيئا لتقوية مركز الخديو اسماعيل خارجيا، اذ صممت الحكومتان البريطانية والفرنسية على مطالبة الباب العالى بعزله ، وفى ٢٦ يونيو — أى قبل الفراغ من مناقشة اللائحة الأساسية — أرسل الصدر الأعظم الى اسماعيل البرقية التالية : « ان الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيرا فى مصر بلغت من خطورة الشأن حدا يؤدى استمراره الى ايجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية ، ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به فرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان ارادته بناء على قرار مجلس الوزراء باسناد منصب الخديوية المصرية الى صاحب السمو الأمير توفيق باشا » •

النهضة الثقافية والفكرية :

أخذ الوعي القومي ينمو في مصر نتيجة لانتشار الثقافة والاتصال بالحضارة والفكر الأوروبيين وحيوية الشعب المصري واستعداداه لمسايره حركة التقدم والرقى . ومن أوضح الشواهد على ذلك ما كتبه عبد العزيز جالويش في مقال له نشره في صحيفة القلم عام ١٩١٠ وعنوانه « الحركة الوطنية في مصر » حيث يقول : « ان التسعور باوطنية اصطلاح افرنحى انتعلت بدوره الى السرق من مطاوى العلوم العصريه واصول المدنيه الحدينه النى اهندي أبيها أهل العرب »^(١) . وبفد كانت البعثات العلميه النى ذهبت الى اوروبا في منتصف القرن اناسع عتسر هى الوسيطه الوحيده النى نفلت أنى مصر نفدم أوروبا وخبره علمانها . وتأثر أحد المصريين بالانصال بأوروبا ، وظهر ذلك في اتجاهاته الفكريه فيما بعد ، فبدا يفارن بين ما عندنا وما عند العرب ويبحث عن اسباب التخلف والتأخر . كان هذا الشخص هو النسيخ رفاعه الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى أضفى عليه مؤرخوه لقب : « زعيم النهضة الثقافيه في مصر في القرن التاسع عشر » . نتسأ الطهطاوى في الأزهر وتعلم العلوم الدينيه كما تعلمها غيره ، ثم صحب البعثة العلميه الأولى الى باريس في عام ١٨٢٦ اماما لمطلبة البعثة ، يؤمهم في الصلاة ويعظمهم ويرشدهم . ولكن بهرته الحضارة الأوروبية ، فعكف على دراسة اللغة الفرنسيه من تلقاء نفسه ، ثم اتجهت ميوله بعد ذلك الى دراسة التاريخ والجغرافيا ، والفلسفه والآداب الفرنسيه ، وقرأ مؤلفات فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو وراسين^(٢) .

-
- (١) صحيفة القلم ، العدد الأول ٧ مارس ١٩١٠ ، وارده في محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنيه في الادب المعاصر ، ج ١ ، ص ٥٢ .
- (٢) رفاعه الطهطاوى ، تلخيص الابريز ، ص ١٦٠ .

ولقد استفادت منه مصر بعد عودته من فرنسا في مجالات التعليم والترجمة ، وألف كثيرا من الكتب كان يخصص فيها الفصول الطوال للتحديث عن الوطن والوطنية * ومما أثار في نفسه هذه العاطفة أنه شاهد بعينيه الثورة التي قام بها الشعب الفرنسي في عام ١٨٣٠ ، وكيف ضحى الفرنسيون بأرواحهم في سبيل وطنهم * وفي الواقع ، كان رفاة الطهطاوى هو أول من كتب — نثرا وشعرا — في معنى الوطن والوطنية وحب الوطن في العصر الحديث ، ويعتبر كتاب رفاة الطهطاوى « مقدمة وطنية مصرية » هو أول كتاب من نوعه في مصر في الوطنية المصرية * ويحدد الطهطاوى في هذا الكتاب معنى الوطنية ، ويدعو الى تمجيد الوطن المصرى فيقول : « حب الوطن من الايمان * ومن طبع الأحرار احرار الحنين الى الأوطان * ومولد الانسان على الدوام محبوب ومنشؤه مألوف له ومرغوب ، ولأرضك حرمة وطنها ، كما لوالدتك حق لبنها ، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ، ولا ينسى دارا بها قبائله * * * »^(١) * ويناشد المربين في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » أن يغرسوا الوطنية في نفوس طلابهم لأن « الوطن هو عش الانسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجمع أسرته ومقطع سرته وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاه هواؤه ورباه نسيمه وحلت عنه التمام فيه * * * »^(٢) * وللطهطاوى أيضا شعر وطنى زاخر بالحب المصرى ، فيتغننى في قصيدته « المجد الأثيل » بمجد مصر وقوتها حين يقول :

أبناء مصر نحن موطننا أصيل

حسب عريق زانه مجد أثيل

(١) رفاة الطهطاوى ، مقدمة وطنية مصرية ، ص ٣ .

(٢) رفاة الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، ص ٩١ .

وفخارنا في الكون جل عن المليك

لرحابنا تطوى المهامه^(١) بالطلاق^(٢)

ولقد طرح رفاعة الطهطاوى في كتابه « تخليص الابريز الى تليخيص
باريز » بعض النظريات السياسية المهمة ، ومهد الطريق للتخلص من
الولاء لسلطان الدولة العثمانية الذى كان في موضع العصمة عند المصريين
وسائر أبناء العالم الاسلامى * ورأى الطهطاوى أن الولاء لسلطان
الدولة العثمانية ليس قدرا على المصريين ، فلقد استطاع غيرهم من
الأمم التخلص من ظلم حكامهم ، ويقول في هذا الشأن : « وقد سبق
لفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته
بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية ، وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة
البربون من باريس وأشهروهم مثل الأعداء ، ولا تزال الفتنة باقية
الأثر » * وهكذا أوحى رفاعة الطهطاوى الى المصريين والى محمد على
نفسه بالتخلص من السيادة العثمانية ، ويعتبر هذا الاتجاه في الواقع
بمثابة رد على رأى العام التقليدى وقياداته من المثقفين المحافظين
الذين كانوا يومئذ يجدون غضاظة في الثورة على «الخلافة العثمانى»^(٣) .
واستكمل الطهطاوى كل النظريات السياسية والاجتماعية التى ناقشها
في « تخليص الابريز » في كتاب آخر أصدره في عام ١٨٦٩ بعنوان
« مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية » * ويعتبر هذا

٠ (١) المهمة : المفازة والبرية القفر .

(٢) الطلاح : الأبل الهزيلة ، والمعنى أن رحابنا مقصودة من أقصى
الجهات يقدم اليها الانسان فتتهزل مطايا بطول المسافة .

(٣) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ج ٢ ، ص ١٣٢ —

الكتاب هو أول كتاب ظهر في مصر في الفكر السياسي والاقتصادي المصري نظريا وتطبيقيا ، فهو كتاب في الاقتصاد والسياسة ويشتمل كذلك على فصول تاريخية دعت الضرورة الى ادماجها لتوضيح الفلسفة الاجتماعية التي كان رفاة الطهطاوى يعتنقها ، ويدعو اليها • ويرى بعض الكتاب أنه « اذا كان تخليص الابريز في أساسه كتابا عن الحضارة الفرنسية بقلم مفكر كان يعتقد أن بعث مصر لا طريق اليه الا الأخذ بأهم مقومات الحضارة الأوروبية في زمنه ، فان « مناهج الأبواب » في أساسه محاولة مصرية لبناء المجتمع المصري على أسس الديمقراطية البورجوازية التي كان رفاة الطهطاوى يؤمن بها مع جنوح شديد الى اليسار الليبرالى أو الى اليمين البروليتارى أى الى الراديكالية » (١) •

والأفكار التي بشر بها الطهطاوى في هذا الكتاب تنحصر في تثبيت فكرة القومية المصرية • وفكرة الدولة العلمانية (الزمنية) ، وتثبيت مقومات المجتمع البورجوازي سياسيا واقتصاديا • ومن الأفكار المتقدمة التي ردها الطهطاوى مطالبته بتقويض الأركان الأساسية التي يقوم عليها الاقتصاد الرأسمالى الليبرالى وبتدخل الدولة لحماية العمال من الملاك أو أصحاب رؤوس الأموال بفرض حد أدنى للأجور باعتبار أن العمل هو الأساس الأول للقيمة في الانتاج ثم يليه رأس المال • وندد الطهطاوى باستغلال الملاك للفلاحين ، ودافع في « مناهج الأبواب » عن أصحاب الجاليب الزرعاء ، فكتب يقول : « فحديث الزرع للزرع لا يدل على شيء من جواز استحواز المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ، ولا يستند في غبن الأجير الى أن المالك دفع رأس ماله في مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها ، فهو الأحق بالاستحواز على المحصولات

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٨ •

الجسيمة وأنه الأولى بربح أمواله العظيمة ، فهو الأصل في التبريح ، وأن عملية الفلاح انما هي فرعية أنتجها وحسنها رأس المال • فان هذه التعديلات محض مغالطة • • فمواكسة المالك له في تقليل أجرته محض اجحاف به ووصف استملاك الأراضي والمصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالأجير نظرا الى ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للأجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية وهذا لا يثمر محبة الأجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) ، فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا » (١) •

ومن زعماء النهضة الفكرية الأدبية الذين دعوا الى الفكرة القومية المصرية على (باشا) مبارك (١٨٢٤ — ١٨٩٣) ، الذى عمل على مصانعة والى عباس حلمى الأول لينقذ البقية الباقية من المدارس التى يتهدها عباس بالاغلاق ، كما استثمر غرور الخديو اسماعيل وطموحه فى اصلاح التعليم والتوسع فيه وتهيئة وسائل الثقافة لمن ينشدها من الناس • وعاش على مبارك فى فترة شهدت فيها مصر أحداثا سياسية مهمة ، فبعد أن أتم تعليمه فى مدرسة المهندسخانة بتفوق بالغ ، اختاره سليمان باشا الفرنساوى فى عام ١٨٤٤ فيمن اختارهم لدراسة الفنون الحربية فى مدرسة خاصة أنشأها محمد على بفرنسا وعرفت باسم « المدرسة المصرية الحربية بباريس » • وعاد على مبارك من البعثة عام ١٨٥٠ فلم يلحق بحكم محمد على ولا بحكم ابراهيم القصير ، ولحق بحكم عباس وسعيد ، واسماعيل ، وتوفيق • وشغل مناصب مهمة ، فكان وزيرا للمعارف والأشغال وأنشأ دار العلوم ودار الكتب • وكان على

(١) رفاعة الطهطاوى ، مناهج الالباب ، ص ٩٥ — ٩٦ .

مبارك يؤمن بالتعليم وبأثره في نهضة الشعوب وارتقاء الأمم ، وكان يحث عليه ويعمل على نشره ، ويرى أن تحرر المصريين لا يتم بدونه ، والتحرر كما كان يراه المصريون حينذاك « هو التحرر من الطغيان التركي وسيطرة الأتراك على أجهزة الحكم ومراكز السلطة في الدولة ، فإذا كان للأتراك من عصبية الحاكم ما يسندهم ويقومهم ، فلن يشاركهم المصريون في التقدم واحتلال مناصب الحكم ما لم يشعر الحاكم بحاجته إليهم »^(١) . وكان على مبارك مصريا لم ينس مصريته فكتب يقول ان المصريين « أقرب الناس الى الاصلاح وأسرعهم تقدما في سبيل العلاج اذا وجدوا حاملا على ذلك » . فحبه لمصر هو الذي دفعه الى نشر التعليم وحمله على الكتابة والتأليف .

ففيما بين ١٨٨٧ ، ١٨٨٩ أصدر على مبارك الأجزاء العشرين من كتاب «الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» وهو من أروع آثاره . والخطط مجموعة من المعلومات والحقائق عن مصر ، تاريخها القديم والحديث وجغرافيتها ومدنها وقراها وترعها وبحيراتها وشواطئها وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم . وكان كتاب «الخطط» ولا يزال وسيظل مرجعا لتسراجم الرجال الذين صنعوا تاريخ مصر الحديثة ، وخاصة أولئك الذين عاشوا وبنوا تاريخها ونهضتها في القرن التاسع عشر . ويعد كتاب «الخطط» تكملة وتجديدا لخطط المقرئزي ، ولكتاب تخطيط مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية . ومن أهم مؤلفات على مبارك أيضا قصة « علم الدين » ، التي تعتبر القصة الأولى في تاريخ الأدب المصري الحديث . «وعلم الدين» قصة خيالية في أربعة أجزاء يدور الحديث فيها بين عالم مصري من الأزهر وعالم أوروبي

(١) حسين فوزي النجار ، على مبارك ، ص ١١١ .

من انجلترا ، ويبدأ الحديث في مصر فيقف العالم الانجليزى موقف التلميذ يسأل الشيخ المصرى عن حقيقة حياة كل ما يراه من مظاهر الحياة المصرية وتاريخها ، ثم يرحل الرجلان الى أوروبا فينقلب الموقف ويتخذ الشيخ المصرى موقف التلميذ يسأل رفيقه الانجليزى عن كل غريب يراه * وبذلك ينطوى هيكل القصة الفنى على بحث في الوطنية ، اذ يظهر اعتزاز المؤلف بمصر من أول القصة الى آخرها * وينسب اليها جميع العلوم النافعة والفنون والعادات والقوانين والمدنيات ، ويقول ان مصر هى سبب كل تقدم وحضارة في العالم * وهكذا انطلق على مبارك من هذه القصة الى الوطنية المصرية والى وصف الوطن وصما يكاد يكون الأول من نوعه *

ولقد قام على مبارك بتأسيس بعض المنشآت العلمية الهامة مثل مدرج المحاضرات في دار الكتب بسراى الجماميز ، وعهد الى بعض أساتذة المدارس بالقاء المحاضرات فيه لتثقيف أذهان الطلبة * وكان ممن اشترك في القاء المحاضرات فيه عالم مصرى له علاقة بتطور الفكرة القومية في مصر وهو الشيخ حسين المرصفى (ت ١٨٨٩)^(١) * وقد تولى المرصفى تدريس اللغة والآداب في دار العلوم وتعلم اللغة الفرنسية * وللمرصفى كتاب أسماء رسالة « الكلم الثمان » نشره في عام ١٨٨١ ، وهو دراسة في بعض الألفاظ التى ظهرت على بساط البحث لأول مرة في تاريخ مصر — منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر — مثل الوطن والحرية والأمة والعدالة والظلم والسياسة والحكومة والتربية * وقد اهتم المرصفى بالحركة القومية ، وظهر ذلك خلال تعريفه للفظة أمة * ثم

Hourani, Arabic thought, p. 194; J.M. Ahmed, The intellectual (١١) origins of Egyptian nationalism, pp. 21-22.

يتحدث أيضا في كتابه عن الوطنية ، ويدعو الى خدمة الأمة • والوطن عند المصرفى — هو « تلك القطعة من الأرض التى تعمرها الأمة » والحكومة هى « قوة تحصل من اجتماع طائفة من الأمة لاهضاء مقتضيات الطبيعة على وجه يقرب من رخاء الكافة » • ويتضح من هذه الأمثلة أن رفاة الطهطاوى وعلى مبارك وحسين المصرفى هم أول من اهتموا فى القرن الماضى بتحديد كلمة الوطنية وتعريفها • ولقد أسهم هؤلاء الرواد بجهد ملحوظ فى نمو الوعى القومى فى مصر حتى ظهرت بعد ذلك مدرسة الاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى التى تمخضت عن جهود جمال الدين الأفغانى وجهود تلاميذه التى سنشير اليها بعد قليل •

نشأة الصحافة المصرية :

واذا كنا قد أشرنا الى رفاة الطهطاوى على أنه فى طليعة رواد النهضة الحديثة فى مصر ، فاننا لا نغفل الدور الخطير الذى لعبه أيضا فى حياة الصحافة المصرية • فالصحيفة الأولى التى عرفت مصر ، وهى « الكوريه ديجيت » (Courier d'Egypte) — أى بريد مصر — صدرت لأول مرة فى ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ بأمر بوناپرت ، واختفت بجلاء الحملة • وكانت تصدر باللغة الفرنسية • والصحيفة الثانية كانت « لاديكاد ايجيبسيان » (Le Décade Egyptienne) وهى بالفرنسية أيضا ، وقد صدرت بأمر بوناپرت فى أول أكتوبر ١٧٩٨ لنشر بحوث المجمع العلمى المصرى • وبعد أن استقر الأمر لمحمد على فى حكم مصر أصدر الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ لى يطلع الشعب المصرى على أعمال الحكومة ويقف على اصلاحاته • وكانت الوقائع تكتب أصلا باللغة التركية — لغة مصر الرسمية فى ذلك الوقت — ثم تترجم بعربية ركيكة • ودخلت «الوقائع» مرحلة جديدة من حياتها عندما عهد فى ١١ يناير عام ١٨٤٢ الى رفاة الطهطاوى برياسة

تحريرها • ووجد الطهطاوى أن المواد التركية كانت تشغل النصف الأيمن من صفحات الجريدة ، وأن المواد العربية تشغل النصف الأيسر منها ، فعكس الوضع بعد توليه رئاسة التحرير • كذلك خطا الطهطاوى خطوة مهمة بأن جعل المادة الأصلية تكتب أولا باللغة العربية ثم تترجم الى اللغة التركية • ثم أضاف خطوة ثالثة بأن جعل أخبار مصر تتقدم كل الأخبار ثم تأتى بعد ذلك الأخبار الواردة من الخارج ، ومنها أخبار الدولة العثمانية • ونجح الطهطاوى فى أن يثبت هذا النظام مدة عام ، ولكن الطبقة الحاكمة التركية أرغمته على التراجع عما أجرى من اصلاحات • واستمرت « الوقائع المصرية » وهى الصحيفة الحكومية فى الظهور فى عهدى عباس وسعيد ، وكانت تعبر عن حياة الدولة من ناحية وعن سياسة الحكام واتجاهاتهم من ناحية ثانية •

ولكن مصر شهدت فى عصر اسماعيل مولد الصحافة الوطنية ، فظهرت الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية • أما العوامل التى ساعدت على نمو الصحافة المصرية فى عهد اسماعيل فتتلخص فيما يلى (١) :

(١) بدأ الكيان الشعبى لمصر يتكون فى ذلك الوقت •

(٢) رغبة اسماعيل فى الاعتماد على الصحافة الوطنية فى الدفاع عنه ضد الباب العالى من ناحية وضد الأجانب المقيمين فى مصر من ناحية أخرى وضد حكوماتهم •

(٣) قيام الحرب بين الروس والعثمانيين (١٨٧٦ — ١٨٧٨) وعدم

(١) انظر ، سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى ، ص ١٤ — ٢٣ •

رغبة اسماعيل في الاشتراك فيها دفعه الى ترك الصحافة الوطنية تتحدث عن الحرب بحرية وطلاقة لم تكن موجودة من قبل * ولم تلبث الكتابة عن الحرب أن تطورت من موضوع الحرب الى معالجة المسائل السياسية المعاصرة *

(٤) أدى ظهور الحركة الفكرية في مصر الى ظهور ما يعرف « بالرأى العام المصرى » الذى أخذ يناقش استبداد اسماعيل والديون التى اقترضها والتدخل الأجنبى في شئون مصر *

(٥) ظهور جمال الدين الأفغانى في مصر فجأة واقامته فيها بعض الموقت *

(٦) هجرة العناصر السورية الى مصر فرارا من اضطهاد الدولة العثمانية ومشاركتهم في حركة النهضة الفكرية المصرية *

وعلى أية حال بدأت الصحافة الوطنية بداية مصرية بصحيفة « وادى النيل » التى أنشأها الشاعر الشاعر عبد الله أبو السعود (١٨٢٠ — ١٨٧٨) في عام ١٨٦٧ وكان أول صحفى سياسى ظهر في مصر الحديثة * وظلت هذه الصحيفة تصدر مرتين في الأسبوع حتى ألغيت بأمر الحكومة عام ١٨٧٠ * وبعد عامين ظهرت صحيفة أخرى تسمى « نزهة الأفكار » أشرف على اصدارها ابراهيم بك المويلحى (١٨٤٦ — ١٩٠٦) أحد تلامذة جمال الدين الأفغانى ومحمد عثمان جلال (١٨٢٨ — ١٨٩٨) أحد تلامذة رفاة الطهطاوى * ولم يصدر من هذه الصحيفة الا عددان ، ثم عطلها اسماعيل بناء على مشورة شاهين باشا ناظر الحربية ، اذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدى اليه من اثاره الخواطر^(١) *

(١) الزائفى ، عصر اسماعيل ، ج١ ، ص ٢٤٨ .

وفي الفترة ما بين ١٨٧٥ و ١٨٨٢ ظهر عدد وفير من الصحف الوطنية منها صحيفة الأهرام التي قام بتأسيسها رجلان لبنانيان هما سليم وبشارة تقلا . ونشأت الأهرام أسبوعية بمدينة الاسكندرية حيث تنقيم الجاليات الأجنبية وتروج الحركة التجارية . ثم انتقلت الى القاهرة وأخذت تصدر أسبوعية . واشترطت نظارة (وزارة) الخارجية المصرية في ذلك الوقت على صاحبى الأهرام عدم الخوض في السياسة . وتم تنفيذ ذلك حتى قامت الحرب الروسية - التركية ، فتدخلت الأهرام في الشؤون السياسية ، وعندما انتهت الحرب وأصبحت مصر مجالا للمساومات السياسية بدأت الأهرام في مناقشة وضع مصر الدولي . وظهرت في عام ١٨٧٧ جريدة سياسية أسبوعية تسمى «الوطن» ، أنشأها ميخائيل أفندى عبد السيد ، واستمرت تصدر الى ما بعد الاحتلال الانجليزى . ولقد اشتركت جريدة الوطن أيضا في الحديث عن الحرب الروسية التركية ، وهاجمت الوزيرين الأوروبيين ودافعت عن النواب المصريين في داخل مجلس شورى النواب . وظهر في نفس السنة جريدة أسبوعية أخرى هى «مصر» قام بتحريرها سورى يدعى أديب اسحق بوحى من أستاذه جمال الدين الأفغانى . وكان يشاركه في تحريرها صديقه سليم نقاش . وقد وجهت تلك الجريدة النقد للحكومة في أمور كثيرة من أهمها اعتماد الحكومة المصرية على الأجانب الى درجة كبيرة . وقد وصف أديب اسحق ذلك بأنه « بربرية أوروبية لا يجوز السكوت عليها لأن القوم نازعوننا الأرض التي جبلت بدم آبائنا ، وأصبحوا أمراء في بلادنا » . ودافعت جريدة مصر عن مصر دفاعا قويا تسبب في تعطيلها أكثر من مرة . ودافعت عن مجلس شورى النواب وهاجمت الوزيرين الأوروبيين . واشترك في تحرير هذه الجريدة كل من الأفغانى ومحمد عبده ، ونشرا بها مقالات سياسية عبرت عن روح الأفغانى وكفاحه من أجل الحرية . وأصدر يعقوب صنوع في عام ١٨٧٧

صحيفة هزلية اسمها « أبو نظارة زرقاء » صور فيها الظالم الذى يعانى به الناس فى أيام اسماعيل معتمدا فى ذلك على فن المحاورات باللغة العامية . واتصل صنوع بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وقيل انه هو الذى أوعز اليه باصدار تلك الجريدة لانتقاد سياسة اسماعيل . وقد لاءمت صحيفة « أبو نظارة » طبع العصر نفسه وجاءت فى زمن تعددت فيه ألوان الحياة وبداية التفرنج والأخذ عن الغرب . وهاجم صنوع فى جريدته أيضا جميع الأمراء والوزراء والموظفين الأجانب فى الحكومة فنفاه اسماعيل من مصر فرحل الى باريس واستأنف اصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضا الخديو منتقدا أعماله .

ولقد لعبت هذه الصحف الوطنية دورا مهما فى تنمية التيار التحررى ، الا أن الحكومة قاومت هذا التيار بكل ما تملك من اجراءات وسلطات ، وأغلقت كثيرا من هذه الصحف الوطنية . ولم يؤثر ذلك فى التيار الوطنى القوى ، رغم ما قامت به وزارة شريف باشا ، فى نوفمبر عام ١٨٨١ من وضع أول قانون للمطبوعات فى مصر . فأصدر السيد عبد الله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦) — خطيب الثورة العربية الذى ترك مهنة التعليم الى الصحافة — فى مدينة الاسكندرية فى يونيو عام ١٨٨١ صحيفة أسبوعية أطلق عليها اسم « التتكيك والتبكيك » ، وكتبها بالعربية الفصحى والعامية ، ليقرأها الخاصة والعامة على السواء . وسماها بهذا الاسم لأن مقال النديم فيها كان ينقسم الى قسمين ، أولهما « التتكيك » ، بمعنى السخرية من المجتمع المصرى فى عيوبه الاجتماعية ، وثانيهما « التبكيك » ، بمعنى تأنيب المجتمع على هذا العيب من عيوبه . وألقد برع النديم فى عرض طرق الإصلاح الاجتماعى مما جعله ، بلا منازع ، صحفى القرن التاسع عشر . فنشر أزجالا اجتماعية فى « التتكيك » نالت شهرة واسعة فى ذلك الوقت ، فقال فى الفرنجة والتقليد للغربيين ونبذ التقاليد المصرية والتعليم الأمر الذى جلب

الخراب لكثير من الأسر التي غالت في هذا السبيل ما يلي^(١) :

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان

ياما نصحتك يابنجر وقلت لك أوعا بعنجر
فضلت تسكر وتفنجر لما صبح بيتك خربان
شرم برم حالى غلبان

الحق عندك ياخويه ياللى طليت وشك بوية
ولبست سروال أبو أويه ومشيت تقادلى النسوان
شرم برم حالى غلبان

وبعد أن انتقل عبد الله النديم الى القاهرة غير اسم صحيفته الى «الطائف» (تيمنا باسم البلدة المشهورة بالحجاز) وأخرجها في ثوب جديد ، وتركزت سياستها في مواصلة الكتابة عن تاريخ الخديو اسماعيل والنقمة على الخديو توفيق بسبب اهتمامه بالدول الأوروبية واعتماده عليها ، وشرح حالة البؤس التى يعيش فيها الفلاح المصرى ودعوة الحكومة الى العناية ، والمطالبة بالاصلاح النيابى والدفاع عن الثورة العرباية • ومن المساوىء الاجتماعية التى تعرض لها النديم في مقالاته مثلا : « الضرائب والقسوة المتبعة في تحصيلها من حجز المواشى والضرب بالكرباج ، بل انه سجل أن احدى السيدات جلدت بالكرباج

(١) على الحديدى ، عبد الله النديم ، ص ١١٦ - ١١٧ .

حتى الموت لأنها رفضت أن تتدلى بالمكان الذي كان زوجها يضع فيه أمواله ، وكان مدينا للحكومة بمبلغ ٤٥ قرشا «^(١) . وهكذا تغيرت أحوال المجتمع ، وأصبح المصريون يقرأون في الصحف من يخاطبهم بأن « قد حان لكم أن تعلموا أن الراعى لكم ولستم للراعى . انبذوا الخوف جانباً وقاوموا سيوف الظلم ، ولا تهابوا من يروم ابعاد الحق ، لا تخشوا سطوة مدير أو عامل أو حاكم . . . » . وبهذا ساعدت الصحف الوطنية التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على نمو الرأي العام وتوعيته ، وتوجيه الأنظار الى الإصلاح ، مما أدى الى قيام الثورة العربية وتطور الحركة القومية في مصر ، وأصبح شعار الأمة المصرية « مصر للمصريين »^(٢) .

أفكار جمال الدين الأفغانى :

لعب جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ — ١٨٩٧) دوراً مهماً في ظهور الصحف الوطنية في مصر في عام ١٨٧٧ ، وأثمرت دعوته في مصر أكثر مما أثمرت في غيرها لأن التربة كانت مهيأة لتقبلها بفضل الجهود السابقة التي قام بها رفاعة المصطفى وعلى مبارك . وكان جمال الدين الأفغانى مصالحي دينياً ، وفيلسوفاً حكيماً ، وزعيماً سياسياً ، ولقد خبر جمال الدين عن كثب دسائس الاستعمار الأوروبي ومطامعه ، اذ نشأ في أفغانستان التي تنازعتها النفوذ الانجليزى الروسى ، وعانى الآلام من الجهل المنتشر واستغلال الغرب الذي لا يعرف غير مصلحته . ودعا الأفغانى الى حركة الجامعة الاسلامية التي هدف من ورائها الى تخليص أمم الشرق الاسلامى من قيود التسلط الغربى الأوروبى . ولم تكن أفغانستان

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٨٣ .

Mac Coan, Egypt as it is, p. 85.

(٢)

وحدها هي مجال عمله ونشاطه ، بل عرفته فارس والهند ، وخبرته مصر وتركيا ، وأفادتا من نضجه السياسى ومن علمه وأفكاره . وزار مصر أول مرة فى أوائل عام ١٨٧٠ ، ثم عاد إليها فى ٨ مارس عام ١٨٧١ وأقام بها حتى أغسطس عام ١٨٧٩ . وبدأت تظهر على يديه فى مصر نهضة علمية وأدبية ولكنها لم تتطور الى الناحية السياسية الا فى نحو عام ١٨٧٦ . وكان الأفغانى « بنفسيته ودروسه وأحاديثه ، ومناهجه فى الحياة ، مدرسة أخلاقية ، رفعت من مستوى النفوس فى مصر ، وكانت على مر الزمن من العوامل الفعالة للتحويل الذى بدأ على الأمة وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول فى شئون البلاد » (١) . وفى الحقيقة بذر جمال الدين الأفغانى بذور الثورة الوطنية ورعى جيلا ثوريا متحررا ندين له مصر بالكثير من تطورها الحديث والمعاصر .

لم يحاضر جمال الدين الأفغانى فى الأزهر خلال اقامته فى مصر ، وانما كان أغلب لقاءه وتدريسه لمن التفتوا حوله فى منزله وفى المقاهى والمقارنات العامة . والتف حوله خيرة الطلاب من مجاورى الأزهر وبعض علمائه وخلاصة المثقفين المصريين . وكانت الظروف التى تمر بها مصر فى ذلك الوقت تسمح بتقبل مبادئ الأفغانى أو « حكيمة الشرق » ، اذ بدأ التدخل الأوروبى فى شئون مصر ، فاشتدت انجلترا أسهم مصر فى قناة السويس ، وجاءت بعثة كيف الى مصر ثم تكون صندوق الدين فى عام ١٨٧٦ . ومن أبرز مظاهر النهضة السياسية التى حدثت فى أواخر عصر اسماعيل نشاط الصحف السياسية واقبال الناس عليها ، وظهور روح المعارضة واليقظة فى مجلس شورى النواب (الذى

(١) الراجعى ، عصر اسماعيل ، ج٢ ، ص ١٣٤ .

كان اسماعيل قد أنشأه في نوفمبر عام ١٨٦٦) على يد نواب تتلمذوا عليه وتأثروا به من أمثال عبد السلام بك المويلحي * ولما أثارت أفكار الأفغانى اسماعيل ذا النزعة الاستبدادية ، خشى الأفغانى بطشه ولجأ الى المحافل الماسونية ذات النشاط السرى والمتمتعة بالرعاية والحماية الأجنيبتين * وعندما يئس جمال الدين الأفغانى من المحفل الماسونى الاسكتلندى بسبب خوف أعضائه من بأس الحكومة وبتطشها ، أنشأ محفلا وطنيا جديدا قسمه شعبا ، شعبة مهمتها مراقبة الشئون العسكرية لمطالبة ناظر الجهادية بانصاف الضباط الوطنيين الذين تجاوزوا في الخدمة بالسودان الحد الذى تستوجبه القوانين ، وشعبة ثانية للحقانية وثالثة للمالية وأخرى للأشغال وبقية المؤسسات والمصالح الحكومية مهمتها المحافظة على حقوق الموظفين الوطنيين ومساواتهم بغير المصريين الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة * وعن طريق هذه الهيئات الماسونية التى كانت تضم ممثلين للطبقة الحاكمة وللمثقفين تبودلت الأفكار بين أولئك الذين كانوا على صلة بالحياة السياسية وأسرار الحكومة ، فخلقت بينهم رابطة من التضامن ترجح نشوء « الحزب الوطنى المصرى » فى هذه البيئات (١) *

كان الأفغانى يهاجم اسماعيل لاستبداده واسرافه وتمكينه الدول الأوروبية من مصر فخطب مرة قبل خلع اسماعيل فقال : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنتب ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟... لماذا لا تشق قلب الذين

Sabry, Episode de la question d'Afrique, L'empire (١)
égyptien sous Ismail et l'ingérence Anglo-Française (1863 - 79),
p. 349.

يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » • بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر كبير في إيقاظ الناس وتنبيه الحكوميين الى حقوقهم قبل المحاكمين • ومن ناحية أخرى كان الأفغانى يتوسم الخير في الخديو توفيق ، اذ رآه وهو ولى للعهد ميالا الى الشورى ، ينتقد سياسة أبيه واسرافه ، وقد اجتمعا في المحفل الماسونى ، وتعاهدا على اقامة دعائم الشورى • ولكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم، وهاله أمر جمال الدين الأفغانى وطلب مقابلته فذهب اليه بعد ملاحظة أيام • وقال توفيق لجمال الدين : « اننى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أراهم في أعلى درجات الرقى ولكن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح ن يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المثيرة للنفوس، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » • فأجابه جمال الدين الأفغانى : « ليسمح لى سمو الخديو أو أقول في حرية وإخلاص ان الشعب كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادهِ ولكنه ليس محروما من وجود العالم والعاقل • فالنظر الذى تتظرون به الى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به الى سموكم • فان قبلتم نصيح هذا المخلص وأسرعتم في اشراك الأمة في حكم البلاد حكما شوريا ، وأمرتم باجراء انتخاب نواب من الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وارادتكم كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » • وغضب توفيق أشد الغضب على الأفغانى وأسرها في نفسه • ولما كان توفيق حاكما ضعيفا خائر الارادة ، تدخلت الحكومة البريطانية وطلبت اليه أن يبعد الأفغانى عن البلاد خشية تقاظم الحال ضدهم وضد الأوروبيين عامة • فأصدر توفيق أمره بنفى الأفغانى في أغسطس عام ١٨٧٩ •

وعلى الرغم من ابعاد جمال الدين عن مصر تركت مبادئه وأفكاره أثرها في المجتمع المصرى ، وظلت النفوس ثائرة تتطلع الى اصلاح

نظام الحكم ، واقامته على دعائم الحرية والشورى • وجمال الدين الأفغانى من الوجهة الروحية والفكرية « أبو الثورة العربية » ، لأن الثورة العربية هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل فى ظهورها فى عهد اسماعيل ، وكان كثير من زعمائها من تلاميذه ومريديه • وقد اتصل بهم فى مصر كثير من المصريين الذين لعبوا أدوارا مهمة فى تاريخ مصر الحديث من أمثال محمد عبده وسعد زغلول • وكان أقربهم الى نفسه الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) لأنه لمس فيه حسن الاستعداد والحماسة للإصلاح • واستفاد الشاب الصوفى فى ذلك الوقت الكثير من أسقاده ، فأنصرف عن ممارسة الزهد ، وعن اعتزال الناس ، وأخذ يتذوق الحياة العامة ، وأقبل على دراسة العلوم المختلفة التى خلّت منها مناهج التدريس فى الأزهر كالفلسفة وعلم الكلام والرياضيات والأخلاق والسياسة •

وبعد اتصال محمد عبده بالأفغانى بدأ يكتب فى الأهرام فى السنة الأولى من صدورهما (عام ١٨٧٦) ، وكان مجاورا ، قبل أن ينال شهادة العالمية • ثم اتصل بالصحافة اتصالا قويا بعد أن نال شهادة العالمية (١٨٧٧) ، وبعد أن نزل اسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ونفى استاده • وفى أكتوبر عام ١٨٨٠ عهد اليه رياض باشا برئاسة تحرير الوقائع المصرية ، وكان يعمل فى ذلك الوقت محررا بها ، فحول الجريدة من صحيفة بلاغات وقرارات ادارية الى منبر للنقد والتوجيه والأدب • وقد أحصى تلميذه ومؤرخ حياته ، محمد رشيد رضا ، عدد المقالات الاصلاحية التى كتبها فى الجريدة ، فبلغت ستا وثلاثين • وتتحدث تلك المقالات كلها عن وجوب اصلاح مصر على أسس واعية متفتحة ، على غرار سبل الاصلاح فى أوروبا • وفيها نقد للمفاسد الاجتماعية والادارية ، ودعوة لبناء نهضة متدرجة متطورة ، ورفع مستوى التفكير

الشعبي بترقية مناهج التعليم ونشر وسائله ، وإقامة حكم دستوري
يقيد سلطات الحكومة ويؤمن الحريات للشعب^(١) .

وقد مهد له هذا الاتجاه ليكون أحد رجال الثورة العربية ، وإن
كان ظهوره لم يتضح الا في المرحلة الثانية من الثورة . ويقول الأستاذ
أحمد أمين في كتابه « زعماء الإصلاح » انه « اذا كان للثورة العربية
أسباب ، فكان هو سببا من أسبابها ، ولكنه سبب بعيد ، لا كعبد الله
القديم سبب قريب ، ثم انقلب الشيخ محمد عبده سببا قريبا يوم
حميت النار ، فلتن اتهم بأنه من زعماء الثورة وحوكم عليها ، لقد كان
ذلك حقا »^(٢) . وحوكم محمد عبده بعد فشل الثورة العربية ، ونفى
الى خارج مصر ثلاث سنوات ، بعد أن سجن ثلاثة أشهر ، وتنتقل في
مدة النفي بين لبنان وفرنسا وانجلترا وتونس ، ثم عاد الى مصر بعد
أن عفا عنه الخديو توفيق . فانصرف الى اصلاح الأزهر والى الدعوة
لتطوير الفكر الاسلامي . واستمر في جهاده الفكري والاجتماعي حتى
توفي في عام ١٩٠٥ .

وفي أثناء منفاه ، اجتمع محمد عبده بأستاذة الأفغانى في باريس
حيث أنشأ جريدة العروة الوثقى لاثارة العالم الاسلامي ضد الانجليز
على احتلالهم لمصر . وصدر أول عدد من هذه الجريدة في ١٣ مارس
١٨٨٤ ، وكان لها تأثير كبير في مصر والعالم الاسلامي ، فمنعت من
الدخول الى مصر والسودان والهند . ووضعت الحكومة المصرية غرامة

(١) محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ،

ج ٢ ، ص ٣٣٩ ، J.I. Alexander, The thruth about Egypt, pp. 1-3 .

(٢) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص ٣١١ .

قدرها خمسة جنيهاً على كل من توجد عنده نسخة منها * ولقد أفردت المجلة بعض صفحاتها للكلام في الوطنية المصرية والحث عليها ، وفيها برزت آراء محمد عبده في الوطنية المصرية وإيمانه بها مرادفة للوحدة الإسلامية العثمانية * وقد حدد محمد عبده القومية المصرية بقوله : « ان الشعب المصرى لا يفنى ولا يندغم فى غيره من الشعوب التى تغلبه على حكومته ، وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه * ذلك بأن ذل الغلب وفقد الاستقلال لا يضعف حيويته ويقلل نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش فى كل حال ، يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ويتزوج وينسل ويحفظ مشخصاته القومية * والحكومات أعراض تزول وهو لا يزول ... » * وتوقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور بسبب موقف الحكومة البريطانية منها وعدم السماح لها بدخول مصر والسودان والهند * وفى عام ١٨٨٩ ، عاد محمد عبده الى مصر ، واعتزل منذ ذلك الوقت الحياة السياسية كلية وخصص جهوده للإصلاح الدينى والاجتماعى .

ففى أواخر أيامه ، كان هدفه فى جميع أعماله وكتاباته سد الثغرة القائمة فى المجتمع الإسلامى ، والاعتراف بالحاجة الى التغيير وربط هذا التغيير بمبادئ الإسلام * ولذلك كانت المهمة التى اضطلع بها محمد عبده ذات شقين : أولاً ، إعادة تحديد ماهية الإسلام الحقيقى ، وثانياً ، النظر فى مقتضياته بالنسبة الى المجتمع الحديث * ويحدد محمد عبده هذين الهدفين فى مطلع سيرة حياته فيقول :

« الأول ، تجريد الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى منابعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد

من شسطه ، وتنقل من خاطه وخبطة ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الاسلامى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعنا على البحث في أسرار الكون داعيا الى احترام الحقائق الثابتة مطالبنا بالتعديل عليها في أدب النفس واصلاح العمل • كل هذا أعده أمرا واحدا وقد خالفت في الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمة اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم •

«أما الأمر الثانى ، فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير...» وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعا في عمى عنه وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والمضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة • نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بالك من مدة تزيد على عشرين قرنا • دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والفعل» (١) •

وكان من بين الذين تأثروا أيضا بأراء جمال الدين الأفغانى عبد الله النديم • فلقد بدأ حياته السياسية بالاقبال على حلقة الأفغانى ورفاقه ، وعكس النديم أثر تلك الحلقة في عدة مقالات نشرت لها جريدتا «مصر» و«التجارة» الوطنيتان • ثم أسس في عام ١٨٧٩ مع

(١) محمد رشيد رضا ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١ •

جماعة من الأدباء جمعية سميت باسم « الجمعية الخيرية الإسلامية » وعين مديرا لمدرستها ، وكان ييثر آراء الوطنية المصرية بين صفوف الطلاب وحلقات المعلمين • وقد شارك عبد الله النديم الأستاذ الامام محمد عبده فى آرائه السياسية والاجتماعية ، ولكنه كان أقرب الى الوطنية المصرية منه الى الفكرة الإسلامية ، وكان أكثر من زميله محمد عبده انغماسا فى السياسة والحزبية • وكان النديم أول أديب مصرى يعالج مشاكل القومية المصرية بأسلوب شعبى فى صحيفته « التكتيت والتبكتيت » • كما يعتبر النديم من أعظم خطباء مصر فى القرن الماضى ، وهو أول خطيب سياسى فى تاريخها الحديث • فرأى فيه زعماء الثورة العرباية حليفا صادقا ، ولقبوه بخطيب الثورة ، واتخذوا جريدته (الطائف) لسانا ناطقا بدعوتهم وثورتهم •

وهكذا تولى النديم مهمة الاعلام للحركة الوطنية والدعاية لها ، وارشاد الشعب الى الطريق المصحح اليها • فهو الذى حمل العريضة التى أعدها عرابى ليجمع عليها توقعيات عمد وأعيان الريف يعلنون فيها باسم الأمة تفويض عرابى فى المطالبة بمطالبها • وظل النديم مع زعماء الثورة حتى حلت الكارثة الكبرى باحتلال إنجلترا لمصر ، فاختلف عشر سنوات فى مصر ، ولم تستطع الحكومة ، خلال تلك المدة ، العثور عليه رغم أنها رصدت مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يرشد عليه • فقد عرف الذين آووه وأخفوه التضحية فى سبيل الوطن وقدموا نفوسهم من قبل قربانا لوطنهم فى ميدان القتال ، فلا أقل من أن ييذلوها فى سبيل من بث فى قلوبهم هذا الشعور ، الشعور بالكرامة وبالعزة الوطنية • وبعد تلك المدة ظهر النديم من مخبئه ، فقبض عليه وحبس ثم نفى الى يافا بفلسطين • وعندما تولى الخديو عباس حلمى الثانى الحكم ، عفا عنه وعاد النديم الى مصر ، ولكنه لم يعد ذليلا يدفع ثمن العفو عنه خضوعا

وخنوعا لذوى السلطان ، بل عاد كما خرج ثائرا • فأنشأ مجلة أسبوعية في عام ١٨٩٢ أسماها «الأستاذ» • وكانت سياسة الأستاذ « ذات أهداف منها الإصلاح الاجتماعى ، وإصلاح التعليم والدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب ، والدفاع عن اللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، والدعوة الى تدريس المواد كلها بالمدارس باللغة العربية » • ولقيت تلك المجلة اقبالا عظيما دل على مكانة النديم فى النفوس ، وتأثر به الشباب المصرى فخرج فى مظاهرات كبيرة على رأسها مصطفى كامل • ولكن الحكومة أغلقتها خوفا من أثرها على المصريين ، وقررت إبعاده عن مصر ، فذهب الى استانبول وظل بها حتى مات فى عام ١٨٩٦ •

ظهور طبقة ملاك الاراضى الزراعية :

تعرض المجتمع المصرى لحدوث بعض التطورات الهامة فى الفترة الممتدة من أواخر عصر محمد على حتى عام ١٨٨٢ • وبدأت هذه التطورات فى مجال طبقة الفلاحين بظهور نظام الملكية الخاصة الذى تجسد فى سلسلة من التشريعات واللوائح ، وكان أهمها اللائحة الأولى عام ١٨٤٦ التى أتاحت حرية التعامل بالأراضى ، وتوسعت فى حقوق الملكية فسمحت لمستغلى الأرض أن يتصرفوا فيها بالمرهن أو التنازل للغير عن حق الانتفاع • ثم حدث فى عهد كل من سعيد واسماعيل تغييرات فى نظام الملكية الزراعية فى مصر ، اذ ساعد تأثير الأفكار الاجتماعية والقانونية الأوروبية ، وانتشار محاصيل جديدة (مثل محصول القطن) على قيام مجتمع زراعى مختلف ، واقتصادى فردى محل المجتمع التقليدى القديم فى القرية • وأحدثت اللائحة السعيدية التى أصدرها سعيد فى ٥ أغسطس عام ١٨٥٨ تطورا خطيرا فى نظام ملكية الأرض ، اذ أعطت هذه اللائحة لمستغلى الأرض الحق فى تأجيرها لمدة ثلاث سنوات ورهنها وبيع حقه فى استغلالها وحق توريث الحق فى الانتفاع • على أن الحكومة

احتفظت ، رغم ذلك ، بملكية الأرض ، ولم يكن للفلاح ، قانونا ، سوى حق الانتفاع بها^(١) .

ونتيجة من هذه اللائحة أن زادت قيمة الأرض ، وعلا سعرها ، واستقر الفلاح في أرضه . وقد استمر هذا الاتجاه في عهد اسماعيل ، فأصدر في ٣٠ أغسطس عام ١٨٧١ ما يعرف باسم «قانون المقابلة» لعلاج أزمتته المالية . وقد نص على أنه اذا دفع مالك الأقطان عنها المقابلة وهي ستة أمثال ما عليها من الضرائب في السنة ، مرة واحدة أو في مدى ٦ سنوات ، تعفى أقطانه من نصف ضرائبه الحالية بصفة مستديمة (المادة ٣ من اللائحة) ، ولا تزداد ضرائبها في المستقبل ، وبذلك يمنح فيها حقوق الهبة والتوريث والاسقاط والوصية والوقف وقفا خيريا ، أو أهليا بعد الاستئذان والحصول على الأمر العالي ، كما يعطى له ثمن ما يؤخذ منها للمنافع العامة أو بدل عنه ، وتحرر له حجة شرعية بالأقطان التي دفع عنها المقابلة تثبت دفع المقابلة والحصول على الامتيازات المذكورة .

ونتيجة لهذه التطورات ، ازداد ثراء وأهمية مجموعة صغيرة من الفلاحين وهم المعروفون باسم مشايخ القرى . وفي العقود السابقة تم تعيين مشايخ القرى بواسطة الملتزمين ، ولكنهم أصبحوا وكلاء عن الحكومة نتيجة لعودة محمد على الى نظام الملكية الفردية محل ملكية الدولة ، فلقد استمر وضعهم الاقتصادي والاجتماعي في النمو حتى وصل الى الذروة في عهد اسماعيل ، اذ أصبحوا من ملاك الأراضي الأغنياء وتمتعوا بنفوذ سياسي كبير في المناطق التي كانوا يعيشون فيها .

(١) انظر نص اللائحة في محمد كامل مرسى ، الملكية العقارية في مصر ،

ص ١٢٥ - ١٤٦ .

وكانت الحكومة في عهد سعيد قد اتخذت ضد هذه الفئة إجراءات كان لها نتائج مهمة • فبعد تولية سعيد العرش قرر في عام ١٨٥٥ — ١٨٥٦ جمع أولاد العمدة (ظهر هذا اللقب في حوالى منتصف القرن التاسع عشر) والمشايخ وأقاربهم للجنيد ، وسمى ذلك «بلمة العمدة»^(١) • وبذلك ألغى سعيد الاعفاء الذى كان يتمتع به أبناء مشايخ القرى ، وكان هدمه من ذلك هو أن يتساوى جميع المصريين في الخدمة العسكرية • وعلى أية حال ، فتش سعيد مجال الترقى الى الرتب العسكرية العليا أمام الضباط المصريين الذين جندوا من بين أبناء هؤلاء المشايخ ، وكان من بينهم أحمد عرابى باشا ، الذى كان ابنا لأحد مشايخ القرى في الشرقية •

وكان تطور الزراعة ، كذلك من أهم العوامل التى أحدثت تغييرا اجتماعيا في ريف مصر • حقيقة كانت ، صر تزرع القطن من قبل ولكنه كان قصير التيلة • أما القطن طويل التيلة فقد أمر محمد على بزراعته في عام ١٨٢١ ، وأصبح من أهم حاصلات مصر الزراعية ، وخصصت مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية للمحصول الجديد ، واستثمرت زراعته بعد وفاة محمد على • وفى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) اتجه أصحاب مصانع الغزل والنسيج الى البلاد الأخرى بعد أن حرمت أوروبا من القطن الأمريكى • واشتد الطلب على القطن المصرى من البلاد الصناعية ، فارتفعت كمية القطن المصدر من ٣٥٠.٠٠٠ قنطار في عام ١٨٥٠ الى ٢.٠٠٠.٠٠٠ قنطار في عام ١٨٦٥ ، كما ارتفع سعر القنطار الى ٤٥ ريالا في عام ١٨٦٤ بعد أن كان متوسط

(١) محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى في القرن التاسع عشر ،

ثمنه ١٢ ريالاً في عام ١٨٦١ • وتسابقت الحكومة وكبار أصحاب الأقطان وصغارهم في بذل أقصى الجهود للاكثار من زراعة القطن فأصبح القطن يزرع في جميع مديريات الوجه البحري ، بعد أن كان من قبل يزرع في مديرتي المنوفية والغربية بصفة أساسية ، وفي مديرتي الدقهلية والشرقية بصفة ثانوية • على أنه بنهاية الحرب في عام ١٨٦٥ ، انتهى التوسع الكبير في زراعة القطن لأن الولايات المتحدة الأمريكية عادت الى تصدير القطن بعد الحرب ، فانخفض سعره حتى بلغ متوسط ثمن القنطار ٢١/٤ ريالاً في عام ١٨٦٦ • ولقد استفاد الفلاح من ارتفاع أسعار القطن بسبب تلك الحرب ، ولكن هذا اليسر ما لبث أن تبدل عسراً بعد أن هبطت أسعار القطن • وعلى أية حال استفاد مشايخ القرى من الأزمة المالية ، لأنهم كانوا يقرضون المال لجيرانهم المعسرين وترتب على هذه العملية مزايا كبيرة بالنسبة لهم •

كما ازدادت أهمية مشايخ القرى السياسية نتيجة للتطور الدستوري الذي قام به اسماعيل بإنشاء مجلس شورى النواب في عام ١٨٦٦ • وتكون هذا المجلس من عدد لا يزيد على ٧٥ عضواً لمدة ثلاث سنوات ، وينتوى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها في المديريات ، وجماعة الأعيان في القاهرة والاسكندرية ودهياط • وكانت الغالبية العظمى من أعضاء المجلس (٥٨ الى ٦٤ في الدورات المختلفة) من بين مشايخ القرى • وقد أدت هذه التطورات الى ظهور طبقة من كبار ملاك الأراضي الزراعية أخذت تتجه بالنظام الزراعي نحو الرأسمالية ، وتعمل على تثبيت الملكية الزراعية من ناحية والمشاركة في الحكم من ناحية أخرى • وأوضحت هذه الطبقة ذات مصلحة أساسية في سياسة الحكومة الاقتصادية والمالية ، وبدأت تتحرك عندما اشتدت الأزمة المالية في أواخر أيام اسماعيل •

وكانت الصحافة الوطنية تشجع أعضاء المجلس وتذكرهم بواجب الدفاع عن حقوق مصر وتخفيف بؤس الفلاح ، كما طالبت المجلس بأن ينزع المسؤولية عن الضرائب ويجعل الوزارة مسئولة أمامه ويفرض الضرائب على الأجانب وبخاصة الوزيرين اللذين كانا يتقاضيان راتبا سنويا قدره ٦٠٠٠ جنيه * وعندما رأى الوزيران الأوروبيان وقوف المجلس موقف المعارضة تجاه الوزارة الجديدة التي تكونت برئاسة محمد توفيق ، قررا التخلص من المجلس ووافقهما على ذلك رياض باشا — وزير الداخلية — لما عرف عنه من ميول استبدادية * واعترض الأعضاء على طلب الحكومة فض المجلس ، وقدموا الى الخديو اسماعيل في ٢٩ مارس ١٨٧٩ عريضة يحتجون فيها على امتهان الحكومة لحضور المجلس ، ويعارضون المشروع المالي الذى أعدته الحكومة لاعلان الافلاس والغاء قانون المقابلة *

وواصل أعضاء المجلس العمل من أجل التخلص من التدخل الأجنبي ، ف عقدوا اجتماعات كثيرة كان من أهمها الاجتماع الذى عقد فى منزل اسماعيل راغب باشا فى ٢ أبريل عام ١٨٧٩ (وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب فى أول انشائه) وأطلقت عليه الصحف اسم «الجمعية الوطنية» وأحيانا «الحزب الوطنى»^(١) * ووضع المجتمعون — وكانوا من ضباط الجيش وأعضاء مجلس شورى النواب وكبار الباشوات والزعماء الدينيين : مسلمين ومسيحيين ويهود — لائحة سميت باسم «اللائحة الوطنية» طالبوا فيها الخديو بانتخاب مجلس نواب يتمتع بنفس المزايا التى تتمتع بها المجالس الأوروبية المماثلة ، وتشكيل وزارة مصرية خالصة مسئولة أمام المجلس ، وابعاد الأوروبيين

(١) الرافعى عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٨٠ — ١٨٣ ،

J.M. Landau. Parliaments and parties in Egypt, pp. 87-90.

عن الاشراف على مالية البلاد ، وأخيرا الابقاء على قانون المقابلة • وكان هذا المطلب الأخير تلبية لرغبة كبار ملاك الأراضي الزراعية الذين حضروا الاجتماع • وقدم توفيق استقالته تمشيا مع رغبة الأمة ، وبين أن سبب استقالته كان يرجع الى أن الوزيرين الأوروبيين لم يستشيروا في شئون الوزارة • وقابل الخديو اسماعيل قناصل الدول الأوروبية ولخص لهم «اللائحة الوطنية» • وأخبرهم بأنه كلف شريف باشا بتشكيل الوزارة الجديدة التى تكونت من بعض الأعضاء الذين اشتركوا فى مشروع اللائحة الوطنية • وحقق شريف باشا المطالب الوطنية بوضع دستور على أحدث المبادئ العصرية عام ١٨٧٩ ، ولكن الأزمة المالية التى انتهت بعزل اسماعيل حالت دون اصداره والعمل به •

وهكذا اشتركت الطبقة المالكة الجديدة فى الحياة السياسية ، وكونت مع غيرها من العناصر الأخرى الناقمة على سياسة رياض باشا مثل محمد شريف باشا ومحمد سلطان باشا (الذى كان يمثلك نحو ثلاثة عشر ألف فدان من أجود الأقطان) حزبا سريا أسموه « الحزب الوطنى » ، واتخذوا من مدينة حلوان مركزا له • وقام الحزب فى ٤ نوفمبر عام ١٨٧٩ باصدار أول بيان سياسى له يحدد فيه أهدافه التى تلخصت فى انقاذ مصر من التدخل الأجنبى والاستغلال الأوروبى والنهوض بالأمة المصرية عن طريق التعليم • وكانت صحافة هذا الحزب تتكون أساسا من جريدتى مصر والتجارة ، ولكن بعد أن ألغتهما الحكومة أوفد أعضاء الحزب أديب اسحق الى باريس لانشاء جريدة الأهرام هناك لمعارضة رياض باشا • وتعددت الاجتماعات السرية لهذا الحزب ، وكان من بين الذين حضروا تلك الاجتماعات أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود سامى البارودى وبعض مديرى المديريات مثل مدير مديرية الشرقية ومدير المنيا • وكان الهدف من ضم المديرين

الى الحزب هو نشر الدعاية له في الأقاليم • وقام الحزب أيضا بنشر عدة منشورات في الصحف الفرنسية عن تكوين الحزب الوطنى حددت واجباته وطلبوا الحكومة بمراعاة مصالح مصر • وتمثلت سياسة الحزب الاقتصادية في النقاط التالية (١) :

١ — أن تعاد الى الحكومة المصرية جميع أملاك الخديو •

٢ — أن يلغى النص القاضى بتخصيص السكة الحديدية للقرض الممتاز (فى قانون التصفية) فان لم يرض بذلك الدائنون من الانجليز تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام •

٣ — أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنظمة ديناً واحداً مضموناً بمال الأمة والبلاد بفائدة مقدارها ٤ ٪ •

٤ — أن تقام ادارة مراقبة وطنية خاصة مؤتمنة يكون فيها ثلاثة من الأجانب تعيينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية •

وأدى وجود جمال الدين الأفغانى فى مصر الى تطور الحزب الوطنى نتيجة للمبادئ الثورية التى نشرها فى مصر خلال تلك الفترة • ومن ناحية أخرى ، كان لظهور هذا الحزب أثر كبير فى قيام الثورة العربية ، اذ تألفت من طبقة ملاك الأراضى الزراعية وطبقة الموظفين — ولا سيما العسكريين منهم — نواة البورجوازية المصرية التى تصدت للتدخل الأجنبى السياسى والعسكرى فى عامى ١٨٨١ — ١٨٨٢ وهى الحركة المعروفة باسم الثورة العربية •

(١) الرافعى ، الثورة العربية والاحتلال الانجليزى ، ص ٧٢ •

٢ - الثورة العرابية

قيام الثورة :

تزعّم الثورة الوطنية التي قامت في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر أحمد عرابي باشا (١٨٤١ - ١٩١١) وكان ابنا لأحد مشايخ القرى في مديرية الشرقية • ولما لم يتم دراسته بالأزهر - بعدما قضى به أربع سنوات - التحق بالجنديّة في ١٨٥٤ جندياً عادياً. تنفيذاً لما قرره سعيد من تجنيد أولاد العمد والمشايخ • وما لبث أن رقى بعد سنتين إلى ملازم ثان ثم إلى رتبة ملازم أول ثم إلى يوزباشى (نقيب) بعد سنة ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائم مقام «عقيد» وكان أول مصرى وصل إلى هذه الرتبة • وكان أحمد عرابي هو أول من ثار من أجل كرامة المصريين وأكد على أصله المصرى واعتز به وهاجم الأرستقراطية التركية • وقد كون عرابي آراءه السياسية الأولى - كما يقول المستر بلنت (Blunt) (١) - أثناء صلته القرية بسعيد باشا ، وكانت هذه الآراء تتمثل في المساواة بين طبقات الأمة ، وضرورة احترام الفلاح باعتباره العنصر الغالب في القومية المصرية • ويقول بلنت ان « هذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة بين مصلحي ذلك العصر فقد كانت حركة الأزهر ترمى إلى اصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز ، بينما كانت حركة عرابى فى جوهرها قوامها الجنسية ، وقد جعلها هذا أوضح فى معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر

(١) W.S. Blunt, The secret history of the English occupation of Egypt, p. 131.

شهرة وذيوعا » • وبدأت هذه الدعوة في النضج في عهد اسماعيل عندما عادت الخطوة في الجيش الى العنصر التجريسي الدخيل • وفي أوائل عهد اسماعيل وقع خلاف بين عرابي وبين اللواء خسرو باشا الشركسي فقدمه الى مجلس عسكري وتمكن من فصله من الجندية ، وظل عرابي ثلاث سنوات مبعدا عن عمله حتى عفا عنه اسماعيل بعد أن ظلت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاث مهمة في غير سبب ظاهر •

وهكذا تأصلت في نفس عرابي روح الكراهية لضباط الجيش من الشراكسة والترك الذين عارضوا ترقية الضباط المصريين ، اذ ظل عرابي — نتيجة لهذه السياسة — برتبة قائم مقام لمدة تسعة عشر عاما • ويعتبر عام ١٨٧٥ نقطة تحول هامة في حياة أحمد عرابي ، فلقد ألحق عرابي بالحملة الحبشية في تلك الحرب (١٨٧٥ — ١٨٧٦) التي قامت أصلا بناء على رأى الحزب الشركسي التركي في الجيش • ولم يكن عمل عرابي في تلك الحرب هو عمل الجندي المحارب بل كان « مأمور مهمات » بمصوع • ولمقد أغضبت هذه الحرب عرابي غضبا شديدا • اذ أبيدت في أثناءها فرقة مصرية بأكملها بسبب الخلافات بين كبار الضباط الأتراك وبين القادة الأمريكيين الذين استخدمهم اسماعيل في الجيش منذ عام ١٨٦٩ ، وكان من هؤلاء الجنرال ولیم لورنج (Loring) الذي اتهم بأنه كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالأحباش ويطلعهم على كل شيء • ونقم عرابي وكثير غيره من الضباط المصريين على الخديو ، وأيقن منذ هذه الحرب أنه لا صلاح لمصر الا بالقضاء على الفساد من أساسه •

وعبر هؤلاء الضباط عن سخطهم بعد عودة حملة الحبشة بتأسيس جمعية « مصر الفتاة » السرية التي انضم اليها كذلك بعض الطلبة والأدباء ونهى الجمعية التي أنشأها أصلا على الروبي وانضم اليها على فهمي وأحمد عرابي وعبد العال حلمي • ولم يلبث أن أصبح عرابي عضوا بارزا فيها • وكان هدف هذه الجمعية في ذلك الوقت ، الى جانب

التخلص من الطبقة الشركسية التركية في الجيش وفتح باب الترقى أمام المصريين ، القضاء على حكومة اسماعيل وعزل الخديو نفسه بصفتة مصدر الفساد في مصر • وازداد اتصال عرابي بالناقمين من العناهر المدنية من أعضاء الحزب الوطنى واقترح خلع اسماعيل ، ولكن عطفي حد قول عرابي « لم يكن يوجد يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فان مقترحي لم ينفذ وان حاز القبول ، وقد ألقى عزل اسماعيل بعد ذلك عبثا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو أننا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل اذ اننا كنا نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد علي كليا فإنه لم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد ، وكنا نستطيع أن نعلن إقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين (الأفغانى) على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل عند جسر قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » • واتخذ أعضاء جمعية « مصر الفتاة » من جريدة « أبو نصارة » لسان حالهم •

وعندما تولى محمد توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) الحكم بعد عزل والده ، اعتقد المصريون أن الخديو الجديد سوف يحقق لهم الكثير من الآمال ، فقد سبق له الانضمام الى المعارضة في عهد أبيه ، وكان من تلاميذ جمال الدين الأفغانى • ولكن توفيق كان ضعيف الشخصية ، ولقته خلع والده درسا أثر فيه طيلة حياته ، اذ اقتنع بأن المحافظة على عرشه تقتضى الاعتماد على انجلترا وفرنسا والانصياع لارادتهما • ولقد أثبتت له انجلترا وفرنسا أن فى امكانهما حماية عرشه ، وذلك عندما حاول السلطان العثمانى إلغاء بعض الامتيازات التى سبق أن منحها لخديو مصر بمقتضى فرمان الشامل الصادر فى ٨ يونيو عام ١٨٧٣ • فاعترضت الدولتان على ادخال أى تغيير جوهرى فى مركز مصر السياسى ، وما كانت انجلترا وفرنسا تهدفان من وراء ذلك صالح مصر أو محمد توفيق بل تدخلتا من أجل حماية مصالحهما الخاصة ،

السياسية والتجارية والمالية في مصر • وأصرت الدولتان على أن يخلو فرمان اسناد الخديوية الى توفيق من أى كلمة تحتمل أكثر من معنى • وأخيرا أصدر السلطان في ٧ أغسطس الفرمان الجديد الذى أكد سيادة السلطان العثماني ، وحدد عدد الجيش المصرى بثمانية عشر ألف جندي ، كما نص على أن تدفع مصر جزية سنوية قدرها ٧٥٠.٠٠٠ جنيه تركى ، وألا يعقد الخديو قروضا جديدة الا اذا كان الغرض منها اصلاح المالية المصرية وبشرط موافقة الدائنين أو ممثلهم الرسميين •

وما أن اطمأن محمد توفيق بصدور فرمان السلطان حتى أنجه الى الحكم المطلق وأظهر رغبته في التخلص من محمد شريف باشا ، رئيس الوزراء • وكان شريف باشا قد قدم استقالته من الوزارة عقب قولية توفيق الحكم ، ولكن الخديو طلب منه البقاء في الحكم ، وكفنه في ٣ يوليو ١٨٧٩ بتشكيل الوزارة الشريفيه الثانية • وكان شريف ، كما سبق لنا الاشارة الى ذلك ، من أنصار النظام الدستوري • وفي ١٧ أغسطس عام ١٨٧٩ قدم شريف استقالة وزارته وكان ذلك يرجع الى تمسكه ببرنامجه الدستوري ، وعدم اطمئنان ممثلى انجلترا وفرنسا الى بقائه في الوزارة لميوله الدستورية هذه • وألف توفيق وزارة برياسته هو نفسه في ٢٨ أغسطس • وحتى يجعل الوزارة المصرية خالصة ، ولا يغضب انجلترا وفرنسا ، أصدر الخديو مرسومين في ٤ سبتمبر و ١٥ نوفمبر عام ١٨٧٩ باعادة نظام المراقبة الثنائية، ووافقت انجلترا على تعيين سير ايفلن بيرنج (Evelyn Baring) ، كما وافقت فرنسا على تعيين المسيو دى بلنيير (de Bilignières) وسمح لهذين الممثلين بحضور جلسات مجلس النظار (الوزراء) على أن يكون رأيهما استشاريا ، ولكن أصبح لهما نفوذ كبير في الحكومة بحيث لا يصدر أمر له علاقة بالأمر المالية دون موافقتهما ، وأصبحا منذ ذلك الوقت الحاكمين الحقيقيين لمصر • وعلى أية حال لم تستمر وزارة توفيق طويلا ، اذ استدعى رياض باشا من أوروبا — بناء

على نصيحة كل من انجلترا وفرنسا - وعينه رئيسا للوزارة في ٢١
سبتمبر عام ١٨٧٩ •

اختار محمد توفيق مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ - ١٩١١) لما عرف
عنه من ميل للحكم المطلق ، ورغبة عن النظم الدستورية ، واذعان للتدخل
الأجنبي • فلقد ظل رياض باشا يتعاون خلال الفترة التي شغل فيها
منصب رئيس الوزراء (من ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ الى ٩ سبتمبر ١٨٨١)
مع المراقبين الماليين اللذين كانا يحكمان من وراء ستار • حقيقة ان
رياض قد قام ببعض الاصلاحات ، اذ ألغى السخرة والضرب بالكرج
كما ألغى ما يقرب من ثلاثين ضريبة من الضرائب البغيضة التي فرضت
في عهد اسماعيل ، ولكن كل ذلك لم يغير من نظرة طبقة ملاك الأراضي
الزراعية اليه لموقفه العدائي السابق من مجلس شورى النواب ، ثم
لإلغائه قانون المقابلة في ٦ يناير عام ١٨٨٠ • كما أعطى رياض حكام
الأقاليم سلطات واسعة فأرسلوا الناس الى السجن والى أقاليم
السودان دون محاكمة • وبالإضافة الى ذلك ، أصدر توفيق في ١٧ يوليو
عام ١٨٨٠ قانون التصفية (لتسوية الديون) الذي أصبح أساسا لنظام
مصر المالي حتى عام ١٩٠٤ • ولقد جاءت هذه التسوية نتيجة للسيطرة
الأجنبية على الحكومة المصرية التي أصبحت عاجزة عن التصرف في
مصادر دخلها • ولم يقابل المصريون قانون التصفية بشيء من الارتياح ،
بل اتهموا الخديو وحكومته بالاستسلام للأجانب لأنه من غير المعقول
أن يخصص قانون التصفية نصف دخل الدولة لمصلحة الأجانب • ولم
يحسب قانون التصفية حسابا لحقوق أصحاب الديون من الأهالي ،
فألغى دين المقابلة ، وحدد مبلغ ١٥٠.٠٠٠ جنيه انجليزى تعويضا يدفع
على أقساط سنوية لمدة خمسين سنة • وازداد سخط طبقة ملاك الأراضي
اذ رأوا أنهم لم يعوضوا التعويض الكافي نتيجة لإلغاء دين المقابلة •
ومما زاد من تدهور الموقف أن رياض باشا كرم الصحف لأنها شنت

هجومًا عنيفًا على سياسة حكومته وصادر الصحف الوطنية لنشرها مقالات
 ضد الحكومة ، ومنع بعض الجرائد مثل « أبو نضارة » من دخول مصر .
 وبذلك مهد السبيل لقيام الثورة وحدث نضال حاد ذي ثلاث شعب :
 « بين روح القومية الصاعدة ، والسلطة الخديوية المتهاوية ، والأجانب
 بنفوذهم القوي في البلاد » (١) .

ومما ساعد أيضًا على ازدياد السخط العام في مصر ، سياسة عثمان
 باشا رفقي ، وزير الحربية في وزارة رياض باشا . وكان رفقي رجلاً
 شركسيًا متعصبًا لبنى جلدته يعمل على ترقيتهم لأعلى المناصب دون
 جدارة واستحقاق . ودفعه بغضه الأعشى وكرهه للمضطرب المصريين في
 الجيش إلى إصدار قرارات ٢١ يوليو عام ١٨٨٠ التي وجد فيها المصريون
 اضطهادًا ظاهرًا لهم ، فتلك القرارات التي أصدرها رفقي حرمت المصريين
 حق الترقى في الجيش وقصرت الترقيات والتعيينات على الأتراك
 والشراكسة الذين أراد لهم أن يظلوا العنصر السائد في الجيش . ولم
 تقتصر سياسة عثمان رفقي على ذلك ، بل كان يسخر الجند في أعمال
 لا تمت بصلة إلى الجندية كحفر الترع ومد السكك الحديدية وزراعة
 أراضي الخديو . وعارض الضباط الوطنيون هذه السياسة ، وتوالت
 اجتماعاتهم السرية ، وكان أهمها الاجتماع الذي عقد بدار أحمد عرابي
 في ١٦ يناير عام ١٨٨١ وحضره على فهمي الديب ، قائد الحرس
 الخديوي ، وعبد العال حلمي ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى الروبي ومحمد
 عبيد . واختار المجتمعون عرابي زعيمًا لهم لكي ينوب عنهم في رفع
 شكاياتهم إلى الخديو . وروى عرابي ما حدث في هذا الاجتماع الذي
 تم فيه انتخابه زعيمًا للحزب العسكري : « قالوا كلهم أنا فوضنا إليك
 هذا الأمر فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك ، فقلت : كلا ، بل

(١) محمد مصطفى صفوت ، الاحتلال الإنجليزي لمصر ، ص ١٤ — ١٥ .

انظروا الى غيرى وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى ، فقالوا انا لا نبغى غيرك ولا نشق الا بك ، فأبنت لهم أن الأمر عسير ، ولا يسهل الحكومة الا قتل من يتصدى له ، فقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا ، فقلت لهم : أقسموا على ذلك ، فأقسموا على السيف والمصحف «^(١)» . واختير عرابى لجرأته وصدقته ووطنيته ، وذهب وبرفقته زميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى لمقابلة رياض باشا ، ورفعوا اليه باسم الضباط عريضة طلبوا فيها عزل عثمان رفقى من وزارة الجهادية (الحربية) واسناد هذا المنصب الى وزير وطنى ، كما طالبوا بمصالح نظام الترقية فى الجيش .

وحاول رياض اقناع الضباط بسحب العريضة ولكنهم رفضوا وأصرروا عليها . واجتمع مجلس النظار برياسة الخديو واستقر الرأى على تقديم الضباط الثلاثة للمحاكمة أمام مجلس عسكرى . واستدعى الضباط ائى وزارة الجهادية بقصر النيل ، وما كاد ثلاثتهم يدخلون الوزارة فى أول فبراير عام ١٨٨١ حتى تم القبض عليهم ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى . ولما شاع ذلك النبأ فى دوائر الضباط الوطنيين ، هجم انضباط محمد عبيد على رأس قوة من جنوده على قصر النيل ، وأخرجوا الضباط الثلاثة من السجن . وتوجه الجميع بعد ذلك الى قصر عابدين وجددوا طلب عزل وزير الجهادية ، فاستجاب توفيق لمطالبهم ، وعزل عثمان رفقى وعين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية .

ولاشك فى أن انتصار عرابى فى هذه الجولة على الخديو توفيق قد أدى الى ذبوع صيته فى جميع أنحاء البلاد ، وأصبح موضع اعجاب

(١) الرافعى ، المراجع السابق ، ص ٨٦ .

الأعيان والفلاحين • ويرى بلنت أثر هذه الحركة على مركز عرابي وشعبيته فيقول : « أصبح مقامه في بضعة أسابيع مقام رجل ذي نفوذ وقوة في مصر ، أو على الأقل أصبح يعزى اليه القوة • وصارت تنتقاطر عليه المظالمات من أناس عانوا المظلم ، ولقد أذاع صيته خارج القاهرة ظهوره بمظهر من يحمي الفلاحين من جور الحكام الشراكسة ، واتصل به كثيرون من الأعيان وأشياخ البلاد ، وكان يرد كلاهما يسعه من رد حسن أو بما يدخل في طوقه المحدود من عون ، وكان يؤثر في الناس تأثيرا حسنا أينما لقوه بحسن محضه وبابتسامته الجذابة وفصاحته في الحوار • ويجب أن نذكر أنه في تاريخ مصر لم يبرز في مدى ثلاثة قرون على الأقل فلاح بسيط الى حد أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خطرها ، أو الى حد أن يصبح داعية اصلاح أو الى أن يهمس بكلمة تدعو حقا الى الثورة »^(١) • وهكذا أصبح أحمد عرابي زعيم العسكريين والمدنيين أو بالأحرى — كما يقول بعض المؤرخين — زعيم الحركة الشعبية الوطنية المطالبة بالحرية •

ولم تقتصر مطالب زعماء الحزب العسكري على المسائل المتعلقة بالجيش ، بل تعدت ذلك الى الرغبة في الاصلاح واقامة العدل على قاعدة الحرية والاخاء والمساواة • وذلك لا يتم الا بانشاء مجلس النواب وايجاده فعلا • ولم يوافق توفيق — بطبيعة الحال — على هذه الخطوات ورأى فيها اعتداء على سلطته وحقوقه ، ولذلك لم يكن متوقعا أن تصفو العلاقات بينه وبين زعماء الحزب العسكري • واعتقد الخديو أيضا أن محمود سامي البارودي هو سبب ما في الجيش من فوضى ، وأغضبه رفض عرابي والبارودي لمحاولة الحكومة تسخير الجنود في حفر القراع

(١) روثستين ، تاريخ المسألة المصرية ، ترجمة عبد الحميد العبادي ،

بقصد ابعادهم عن العاصمة ، وازدياد اتصالاتهم بزعماء الحزب الوطنى .
ولذلك قرر الخديو عزل البارودى من منصبه وعين مكانه صهره داود
يكن باشا ، الذى اتبع الشدة فى معاملة ضباط الجيش ، فحظر عليهم
الاجتماع بالمنازل أو التحدث فى السياسة ولكن أمراء الآلايات ردوا
اليه هذه الأوامر العسكرية قائلين انها « مخالفة للقوانين العسكرية
ومهينة للشرف العسكرى » *

ووجد عربى أن الحل الطبيعى للتخلص من تلك الحالة هو اقامة
الحياة النيابية الدستورية ووضع حد للسيطرة الانجليزية والفرنسية على
الحكومة ، فاتصل بالعلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان لمساعدته
على تحقيق ذلك . واجتمع عربى بزعماء الحزب الوطنى ، وكان قد تجمع
لديهم بعض عرائض يطالب الشعب فيها بعزل وزارة رياض ودعوة
مجلس نواب على أساس دستورى ، واتفق معهم على القيام بمظاهرة
سلمية تأييدا لمطالب الأمة ، وحدد لهذه المظاهرة الوطنية يوم ٩ سبتمبر
عام ١٨٨١ أمام سراى عابدين . وكتب عربى الى وزير الحربية يخبره
بأمر هذه المظاهرة ، وطمان قناصل الدول الأوروبية على أرواح الأجانب
فى القاهرة *

وفى اليوم المحدد لهذه المظاهرة الوطنية ، احتشد فى ميدان عابدين
ما يقرب من أربعة آلاف جندى معهم مدفعيتهم وضباطهم ، وتجمعت
وراءهم الآلاف من أهل القاهرة ووفود الأقاليم لترى تحدى أحد
«فلاحى» مصر للخديو الذى كان يعتقد ألا رأى الا رأيه . ونزل توفيق
الى الميدان يحيط به المستر تشارلز كوكسن (Cookson) قنصل انجلترا
بالانسكندرية ، والجنرال الأمريكى استون (Stone) رئيس أركان حرب
الجيش المصرى ، وسير أوكلاند كلفن (Sir Auckland Colvin) المراقب
المالى البريطانى ، وبعض الضباط الأوروبيين والوطنيين . وقد شجع
كلفن الخديو على أن يواجه الجيش بنفسه ، وكان يوحى اليه بما يقوله

وما يفعله * ويروى عرابى بنفسه ما حدث فى ذلك اليوم التاريخى المشهود فيقول : « ولما وقفت بين يديه (الخديو) مشيرا بالسلام خاطبني بقوله ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ فأجبتة بقولى : « جئنا يامولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » ، فقلت : « وما هى هذه الطلبات » ؟ فقلت : « اسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى فرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » فقال : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد أعمل زى ما أنا عاوز ، وقد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا » ، فقلت : « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » * وعند ذلك أشار كلفن على الخديو بالعودة الى القصر ، وأخذ كوكسن يغدو ويروح بين عرابى والخديو حتى جاءه آخر الأمر يخبره باستسلام الخديو لبعض هذه المطالب * فأقال وزارة رياض باشا فى اليوم التالى ، وبعد أربعة أيام أسندت الوزارة الى محمد شريف باشا بطل الدستور ، كما أحال المطالب الخاصة بتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش الى القسطنطينية *

ولقد ظل شريف باشا مترددا فى تشكيل وزارته الثالثة حتى تعهد له العرابيون بعدم تدخل العسكريين الوطنيين فى السياسة ، وأسند نظارة الجهادية والبحرية الى محمود سامى البارودى * وأوضح شريف باشا فى كتابه الذى رفعه الى الخديو الأسباب التى دفعته الى قبول الوزارة ، وأشار الى أنه قبلها نزولا على ارادة الأمة * وحرص شريف على أن يضع فى برنامج وزارته الجديدة ما يدعو الدول الأجنبية الى الاطمئنان على مصالح رعاياها ، لأن الدول الأوروبية لم تكن راضية عنه منذ أن وقف مواقفه المشهورة فى عهد الخديو اسماعيل * وفى يوم

١٨ سبتمبر ١٨٨١ ، قابل شريف وفدا من الأعيان على رأسهم محمد سلطان باشا وسليمان باشا أياظة وعبد السلام المويلحي وغيرهم ، وقدموا له عريضة موقعا عليها من ١٥٠٠ من عمد البلاد والأعيان يطلبون فيها انشاء مجلس النواب وبث روح الحرية في مصر . وفي ٢٢ سبتمبر ١٨٨١ ، أصدرت الوزارة القوانين العسكرية التي اقترحتها لجنة اصلاح الجيش في عهد البارودي والتي اشتملت على القوانين الخاصة بتحسين حالة الضباط والجنود وكفالة حقوقهم في الترقيات والمرتبات والمعاش . وعندما تولى شريف الوزارة تقرر أن يسافر عرابي وآلايه الى رأس الوادي بمديرية الشرقية وأن يسافر عبد العال حلمي وآلايه السوداني الى دمياط . وفي ٨ أكتوبر عام ١٨٨١ ، سافر آلاي عرابي من القاهرة بين مظاهر الحماسة والتكريم ، وخطب في المودعين قائلا : « ساداتي واخواني : بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية وقطعنا غرس الاستبداد . ولا نفثنى عن عزمنا حتى نحبي البلاد وأهلها ، وما قصدنا بسعيننا الفساد ولا تدميرا . ولكن لما رأينا أننا بتنا في اذلال واستعباد ولا يتمتع في بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة » (١) .

وعمل شريف على اقامة الحياة النيابية في مصر ، اذ أنه كان مقتنعا قبل عام الثورة بضرورة انشاء مجلس نيابي كامل السلطة . وفي ٤ أكتوبر ١٨٨١ ، أصدر الخديو مرسوما باجراء الانتخابات ، وفعلنا افتتح مجلس النواب في ٢٦ ديسمبر عام ١٨٨١ وانتشغل شريف منذ اجراء الانتخابات في اعداد دستور أو « لائحة أساسية » لعرضها على المجلس ، وفي ٣ يناير عام ١٨٨٢ عرض شريف الدستور على المجلس ، وقال في خطابه الذي ألقاه بهذه المناسبة : « لما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على

(١) الرافعي ، الثورة العربية ، ص ١٥٣ .

مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعا كما أوضحت ذلك منذ ثلاث سنوات وكررتة بالمعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا ، استغلت مع رفاقى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم ، وقد تمت ، وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن ، فقد أعطت لكم الحرية التامة ، فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال هامورى الحكومة من أى درجة وأى صنف كانوا ، وتصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح ، وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أى ضريبة أو نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق واقرار منكم ، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقهم ، والغاية فانه لم يجبر عليكم فى شىء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، انه لا يخفى عليكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ، ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهداتها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بعقود خصوصية ، والبعض بقانون التصفية ، فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعا لنظرها أو لنظر النواب ؟ حاشا ، لأنه يجب علينا قبل كل شىء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشىء ما حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية «^(١)» • وهكذا تضمن الدستور مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب ، ومراقبة أعمال الحكومة ، وحق اقرار القوانين والضرائب • ومن ناحية أخرى ، حرم دستور شريف مجلس النواب حق مناقشة الميزانية واقرارها من أجل المحافظة على التزامات مصر المالية قبل الدول الأوروبية ، وحتى لا يؤدى ذلك الى تدخل انجلترا

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ — ١٨٧ •

وفرنسا في شئون مصر • ولذلك دب الخلاف بين شريف باشا والمجلس،
اذ رأى الأعضاء أن من حقهم مناقشة الميزانية والموافقة عليها مادام لهم
حق الرقابة على الإدارة العامة لمصر •

التدخل الأوروبي وانفراد إنجلترا بالاحتلال :

وفي الوقت الذي حدثت فيه « أزمة الميزانية » بين الوزارة
والمجلس ، حاولت الدولة العثمانية والدولتان الاستعماريتان إنجلترا
وفرنسا ، استغلال الظروف التي تمر بها مصر والتدخل في شئونها •
فبالنسبة للدولة العثمانية كانت مصر جزءا حيويا من ممتلكاتها وازدادت
أهميتها خصوصا بعد مؤتمر برلين (١٨٧٨) لأنها كانت المركز المناسب
المتوسط الذي يستطيع منه السلطان نشر دعايته للجامعة الإسلامية في
شمال إفريقيا ووسطها ، ومن ناحية أخرى انتهز السلطان عبد الحميد
كل فرصة للتدخل في شئون مصر وتعزيز مركزه فيها ، ولذلك وجد في
حادث عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) فرصة سانحة للتدخل وانتحال حق
الإشراف عليها • فأرسل وفدا إلى مصر برياسة على نظامي باشا في
٦ أكتوبر ١٨٨١ دون أن يستشير مصر أو يتباحث مع حكومة الخديو في
هذا الشأن • واقتنع المسيو تسو (Tissot) . - سفير فرنسا في الآستانة -
بأن غرض السلطان من إيفاد هذا الوفد هو إرسال قوة عثمانية تحتل
مصر وتحل الجيش المصري وتوزع الضباط المصريين على الفرق العثمانية
المقيمة في أماكن قاصية من الإمبراطورية ، وخلع توفيق وتنصيب وال
عثماني عادي يحكم مصر لمدة خمس سنوات • كما سرت الإشاعات في
مصر بأن الأتراك على وشك التدخل لإقرار النظام في مصر ، وأرسل
سنكفكز (Sienkiewicz) ، قنصل فرنسا العام في مصر ، إلى باريس
أن الجاليات الأوروبية قد انزعجت لهذا الاحتمال^(١) • وأعلن السلطان

(١) Tissot à Barthélemy Saint Hilaire, 15 Sept. 1881, Docu-
ments diplomatiques français, 1er Série, IV, No. 134.

أن الهدف من البعثة هو ابلاغ الخديو توفيق بموافقته على الطريقة التي نجح بها في تسوية مشاكل مصر . وفي الواقع لم يكن هناك مبرر على الاطلاق لزيارة الوفد العثماني لمصر ، فقد ثارت انجلترا وفرنسا ، وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامة الوفد العثماني في مصر . وفي نفس الوقت قررت انجلترا وفرنسا ارسال بارجتين الى ميناء الاسكندرية ، ولكنهما غادرتا الميناء في ٢٠ أكتوبر عام ١٨٨١ غداة مغادرة الوفد العثماني لمصر^(١) .

وأما فيما يختص بانجلترا ، فقد ظلت سياستها الخاصة نحو مصر تعمل حتى عام ١٨٧٠ على بقاء العلاقات بين السلطات والخديو كما تحددها فرمانات ١٨٤١ و ١٨٧٣ و ١٨٧٩ . ولكن بعد فتح قناة السويس للملاحة في عام ١٨٦٩ رأت الحكومة البريطانية أن من الضروري الاشراف على مصر ذاتها ، وأخذت بهذا الرأي فعلا بعد شرائها للأسهم الخديو في قناة السويس عام ١٨٧٥ . وزاد اهتمام انجلترا بمصر بعد احتلالها لجزيرة قبرص في عام ١٨٧٨ ، وفكرت جددا في احتلال مصر والاستئثار بها وحدها بعد أن احتلت فرنسا تونس في عام ١٨٨١^(٢) . وأما فرنسا ، فقد بنت سياستها على أساس مصالحها الاستعمارية ، وكانت ترى أن صلتها بمصر قديمة ووثيقة اذا قورنت بصلات الدول الأخرى بمصر ، وترى أن مشروع قناة السويس هو مشروعها . ولذلك أصرت على ألا يكون للدولة العثمانية نفوذ حقيقي في مصر ، وعملت أيضا على عرقلة نمو المصالح البريطانية الاستعمارية فيها ، وانثقت مع انجلترا في عام ١٨٧٥ على أن يكون النفوذ الفرنسي الاستعماري مساويا للنفوذ الانجليزي الاستعماري في مصر . وزاد اهتمام فرنسا بمصر

(١) Rifaat, The awakening of modern Egypt. pp. 186-187.

(٢) محمد مصطفى صفوت ، الاحتلال الانجليزي لمصر ، ص ٣٠ — ٣٥.

عندما جاء الجمهوريون الى الحكم في فرنسا في أواخر عام ١٨٧٧ • وبذل وادنجتون (Waddington) جهده لمنع احتلال انجلترا لهذه البلاد • وفي عام ١٨٨١/١٨٨٢ لعب جمبنا ، زعيم الجمهوريين الفرنسيين ورئيس الوزراء ووزير الخارجية ، دورا خطيرا في المسألة المصرية • فلقد حرص تماما على ألا يترك للحكومة الانجليزية فرصة واحدة للتدخل وحدها في مصر ، وعمل على الاشتراك مع الحكومة المصرية في الخطوات التي تتخذها نحو المصريين ، وكان جمبنا — وهو يهودى الأصل — يرى أيضا أن تأييد الحكم النيابى الديموقراطى في مصر يتعارض مع مصالح فرنسا الاستعمارية، وأقنع حكومة الأحرار في انجلترا بزعامة جلادستون (Gladstone) بالتعاون مع الحكومة الفرنسية في مصر لصيانة مركز الخديو والنفوذ الأوروبى •

وأظهر جمبنا كرهه للحركة الوطنية المصرية ودمغها « بالتعصب الاسلامى » و « بالاتجاهات العسكرية » و « بالأحلام الثورية » • واستغل جمبنا فرصة افتتاح مجلس النواب في مصر لتطبيق سياسته وأقنع الحكومة البريطانية بارسال مذكرة مشتركة الى مصر في ٨ يناير عام ١٨٨٢ • وقد جاء فيها : « ان الحكومتين الفرنسية والانجليزية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقا للأحكام الفرمانات التي قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد لاستتباب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التي يهتم فرنسا وانجلترا أمرها ، والحكومتان متفقتان اتفاقا وطيدا على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد تهدد النظام القائم في مصر • ولا يخامرهما شك في أن الجهر بعزمهما في هذا الصدد سيكون له أثره في انتقاء الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو • ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها • وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة

والطمأنينة والقوة التي هو في حاجة إليها لإدارة شئون الشعب المصري والبلاد المصرية» (١) •

وواجه المصريون المذكرة المشتركة بالسخط لاسيما عندما علموا بأن توفير قد قبل المذكرة وكتب إلى قنصلى إنجلترا وفرنسا يشكر حكومتيهما على ما تبديان من عطف نحوه • وإذا كان توفير لم يعبأ بالرأى العام في مصر ، فإن المذكرة قد أضعفت مركزه أمام الشعب المصري • وشعر المصريون بأن مثل هذه الخطوة الخطيرة التي اتخذتها الدولتان ما كانت لتتخذ دون تدبير مقصود وأنها مقدمة لتطورات هامة • واجتمع قادة الثورة في وزارة الحربية لبحث الموقف ، وهناك انضم اليهم محمود سامي البارودي الذي بدد مخاوفهم وغضبهم ، وأسرع إلى مجلس الوزراء لكي يخبر زملاءه بالأثر الذي أحدثته المذكرة المشتركة على الضباط • فتوجه الوزراء برياسة شريف باشا إلى الخديو ، واتفق الجميع على إرسال مذكرة إلى الباب العالي معربين عن رفضهم لها ، ولأم أعضاء مجلس النواب الخديو الذي اعتقدوا أنه طالب من مالت (Malet) ، قنصل إنجلترا العام في مصر ، أن يحصل من الحكومة الانجليزية على هذا التصريح •

وعلى أية حال ، فقد أدرك المصريون ضرورة توحيد صفوفهم وأصبح اسم عرابي والمزعماء العسكريين على كل لسان لاسيما وأن المذكرة المشتركة قد أوضحت بطريق غير مباشر أن التدخل العسكري غير بعيد الاحتمال • وشجعت المذكرة المشتركة المصريين على تحدى المراقبة الثنائية وأصر أعضاء مجلس النواب على موقفهم بالنسبة لمسألة

(١) Gambetta à Sienkiewicz, 7 Janv. 1882, Documents diplomatiques français, 1^{er} Série, IV, pp. 217-218.

الميزانية • وفي ٢٦ يناير ١٨٨٢ طلب قنصلا انجلترا وفرنسا — بايعاز من الرقيبيين الأوروبيين — ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية • ولما كان شريف يخشى تدخل الدولتين في مصر ، فقد أراد أن يرجىء مسألة حق المجلس في مناقشة الميزانية • ولكن الزعماء المدنيين والعسكريين لم يوافقوا على هذا الرأي ، وانفض العربابيون من حول شريف وعملوا على اقصائه عن الحكم • وازاء مطالبة المدنيين والعسكريين باسقاط وزارة شريف ، قدم الأخير استقالته في ٢ فبراير عام ١٨٨٢ وألف محمود سامي البارودي في ٤ فبراير عام ١٨٨٢ وزارة الثورة ، وتقلد أمور وزارة الحربية فيها أحمد عرابي • ومما لاشك فيه أن سقوط وزارة شريف واسناد الوزارة الى البارودي يعد انتصارا حاسما للحزب العسكري ، وتحديا سافرا للمراقبة الثنائية والتدخل الأجنبي •

وفي ٧ فبراير عام ١٨٨٢ أقرت حكومة الثورة «اللائحة الأساسية» أو الدستور متضمنا مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب ، وحق المجلس في اقرار الميزانية • وفرح النواب والمصريون جميعا من مدنيين وعسكريين لصدور الدستور ، ويتجلى ذلك في الكفلات العديدة التي أقيمت غداة صدور الدستور • وبقدر ما فرح المصريون كان استياء الأجانب ، وحققت الدولتان على وزارة الثورة واثارت ثائرتها ووجهت صحفها المطاعن اليها وعمل كل من مالت وكلفن على تشويه الثورة لدى الحكومة البريطانية ولدى الرأي العام البريطانى • وظلت انجلترا تنتظر الفرصة المواتية للتدخل حتى وقع حادث المؤامرة الشركسية فاستغله الانجليز أسوأ استغلال • ولقد كان لهذه المؤامرة الخطيرة أثر كبير في تطور الأحداث بعد ذلك • وكان هدف المؤامرة التي اكتشفت خيوطها في ابريل عام ١٨٨٢ اغتيال الوزراء وكبار زعماء الحزب الوطنى واعادة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل الثورة • وكان المتآمرون من الأتراك والشراكسة الذين يحركهم اسماعيل من منفاه • ولما كان المتآمرون

جميعا من العسكريين فقد تشكلت محكمة عسكرية لمحاكمتهم ، وأصدرت في ٣٠ أبريل حكمها بتجريد أربعين من كبار المتآمرين — ومنهم عثمان رفقى — من رتبهم ونفيهم الى أقاصى السودان • ومن ناحية أخرى اعتقد قنصلا انجلترا وفرنسا وكذلك الخديو توفيق أن المؤامرة من اختلاق الحكومة ، وأبدى الأخير عطفه على المتهمين • وأشار مالت على الخديو برفض الحكم ، واشتدت حيرة توفيق ووقف موقفا مبهما أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن أخذ برأى مالت ، وبذلك خطا الخديو خطوة أخرى عجلت بالوصول الى المغاية التى رسمتها انجلترا وهى الاستيلاء على مصر •

ورأى الخديوى توفيق بايحاء من مالت أن يعرض الحكم على السلطان ، فغضب زعماء الثورة من اقحام السلطان فى هذه المسألة الداخلية ، وعدوه تنازلا عن الامتيازات التى حصلت عليها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية • وأرادت حكومة الثورة أن تحبط مؤامرات الأجانب ، فاقترحت على توفيق تخفيف الحكم من ثقله نفسه ، وأخبرته بأن الوزارة ترضى أن ينفى المحكوم عليهم الى أى جهة من الجهات دون أن تمس رتبهم أو ألقابهم وانما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش • غير أن توفيقا لم يرض بهذا ، ووقع على أوراق الحكم بنفى المتآمرين الى خارج مصر مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش • ولام البارودى الخديو على تعديل الحكم والنزول على رغبة قنصلى انجلترا وفرنسا ، وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى أمر التعديل • وحرص مالت الخديو على رفض ذلك ، وكتب الى وزارة الخارجية البريطانية ، فى ١٨ مايو عام ١٨٨٢ يقول : « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف الى أقصى الخطر » • ودعت وزارة الثورة مجلس النواب من عطلة دون اذن من الخديو وازداد

الموقف تخرجاً • وأعلن عرابي أن الوقت قد حان للتخلص من أسرة محمد علي •

وعندما علم توفيق بدعوة المجلس ، أعلن لقنصلى إنجلترا وفرنسا أن اجتماع المجلس غير قانوني ، مستندا في ذلك الى المادة رقم ٩ من لائحة المجلس الأساسية التي تخوله وحده حق دعوة المجلس أثناء عطلة • ولجئ أكثر النواب دعوة الوزارة وحضروا الى القاهرة ، ولكنهم لم يوافقوا على عقد المجلس بصفة رسمية لعدم شرعية الاجتماع غير العادي الا بأمر من الخديو • وكانت وزارة الثورة قوية في بادئ الأمر لأنها كانت معتزة باجماع النواب على تأييدها ، ولكنها فوجئت برئيس مجلس النواب ، سلطان باشا يدعو الى الحكمة والروية • فقد انقاد سلطان باشا لتهديد مالت بالتدخل الأوروبي ، خاصة وقد امتلأ قلبه حقدا على عرابي ، فانضم هو ونحو ثلاثين آخرين من أعضاء المجلس الى الخديو ، بالرغم من أن الغالبية العظمى من أعضاء المجلس كانوا مائز اللون مواليين للوزارة • وازاء هذا التردد من قبل بعض أعضاء المجلس في مشايعة الوزارة ، قدم البارودي استقالته الى الخديو ، ولكن توفيقا عجز عن اقامة وزارة في مصر • وبذلت المساعي لتسوية الخلاف بين الوزارة والخديو الى أن أمكن الوصول الى تسوية ظاهرية فحسب على أساس بقاء الوزارة وتعديل الحكم العسكري حسبما ارتآه الخديو (١٦ مايو ١٨٨٢) •

أوجدت هذه التطورات التي شهدتها مصر ، من اجتماع مجلس النواب وتهديد الخديو بالخلع ، في نظر شارل دي فريسينييه (Freyceinet) — رئيس وزراء فرنسا الذي كان قد خلف جمبتا في ٣١ يناير عام ١٨٨٢ — « موقفا ثوريا » Situation Révolutionnaire يدعو في نظره للتدخل على أساس التعاون مع إنجلترا والتآزر مع الدول الأوروبية •

فاقترح فريسينيه في ١٢ مايو القيام بمظاهرة بحرية هدفها ارباب
العسكريين القائمين بشئون الحكم في مصر واسقاط الوزارة ، ووافق
جرانفل — وزير خارجية انجلترا — على هذا الاقتراح في الحال .
وأبحرت السفن الانجليزية الفرنسية الى مصر ووصلت الى الاسكندرية
في ٢٠ مايو . ولكن هذه الترتيبات التي اقترحها فريسينيه كانت وبيلة
على فرنسا ، لأنها أخرجتها عن دائرة العمل الفعلي في الأزمة المصرية .
وكذلك كانت آثارها وبيلة على مصر لأنها أدت الى الاحتلال البريطاني
لها في النهاية . وعلى أية حال حاول الباب العالي اقناع الدولتين
بطريقة ودية بالعدول عن المظاهرة البحرية في مياه الاسكندرية دون
جدوى .

وقد أدت هذه المظاهرة — من ناحية أخرى — الى توثيق العلاقات
بين السلطان وعرابي . وقد أحدث وصول السفن الحربية أثرا عميقا
في مصر ، وعبر عرابي عن موقف المصريين من المظاهرات في رسالة بعث
بها الى بلنت وقال فيها : « ان كل المقيمين بالبلاد قد جزعوا لارسال
السفن الفرنسية والانجليزية ، وهم ينظرون الى هذا الاجراء على أنه
دليل على سوء نية الدولتين ازاء المصريين ، وعلى تدخلها في شئوننا
دون حاجة الى ذلك أو أى سبب معقول . وفي الواقع أن المصريين قد
صمموا على عدم الاستسلام لأي دولة تتود أن تتدخل في شئوننا
الداخلية ، كما صمموا على المحافظة على المزايا التي أكدت لهم المعاهدات
والدول ، وهم لن يسمحوا بالتنازل عن أقل قدر من هذه المزايا مادام
فيهما عرق ينبض بالحياة . وسيبذلون كل ما في وسعهم للسهر على
المصالح الأوروبية وأرواح الرعايا الأوروبيين وأملاكهم وشرفهم ،
مادام هؤلاء الرعايا لا يتعدون الحدود التي ألزمهم بها القانون^(١) .

Blunt, Secret history, pp. 279-280.

(١)

وجرت محاولات كثيرة بعد وصول السفن الحربية لاسقاط الوزارة الوطنية ، وفي النهاية قدم قنصلا انجلترا وفرنسا في ٢٥ مايو ١٨٨٢ الى البارودي انذارا في شكل مذكرة ثنائية طالبت بما يأتي :

أولا : ابعاد عرابي باشا مؤقتا من مصر ، مع احتفاظه برتبه ومرتبته ♦

ثانيا : ارسال على فهمي وعبد العال حلمي الى داخل مصر ، مع احتفاظهما برتبهما ومرتبتهما ♦

ثالثا : استقالة الوزارة الحالية ♦

وأضافت المذكرة : « أن ليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل في شئون مصر سوى المحافظة على الوضع الراهن Status quo ، وأن يعيد للخديو السلطة المختصة به ، اذ بدونها يخشى على هذا الوضع الراهن المعمول به ، وبما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفي فستبذلان الجهد في صدور عفو عمومي من الحضرة الخديوية ، وستسهران على تنفيذ هذا العفو » ♦

وفي اليوم التالي (٢٦ مايو ١٨٨٢) رفضت الوزارة الوطنية المذكرة الثنائية على أساس أن المطالبة التي وردت بها تعتبر اعتداء على المفرمانات والمعاهدات الدولية التي حددت وضع مصر ♦ ولكن الخديو خالف رأى وزرائه وأعلن موافقته على الانذار ، ولذلك استقال البارودي في نفس اليوم احتجاجا على ذلك ، وقال في كتاب ان قبول الخديو الانذار فيه مساس بحقوق السلطان ♦ ولم يتردد الخديو في قبول استقالة الوزارة مهما تكن النتائج ، فهو لم يعد يهمه الا استعادة سلطته المطلقة ولو أدى ذلك الى ضياع مصر ♦ وظل الخديو يومين في حيرة ورفض شريف تأليف الوزارة مادام العرابيون محتفظين بسيطرتهم ، وزاد

الموقف خطرا الى أن وصل الى الخديو رسالة من كبار رجال الجيش والشرطة يقولون فيها انه اذا لم يعد عرابى الى منصبه فى اثنتى عشرة ساعة ، فهم غير مسئولين عما تفضى اليه الحوادث • وطالب العرباويون بخلع الخديو توفيق ولكنهم لما تبينوا عدم موافقة بعض النواب والأعيان على ذلك اكتفوا بالتمسك بعرابى وزيرا للحربية • وفى اليوم التالى (٢٨ مايو) استقبل الخديو وفدا مكونا من بطريك الأقباط وحاخام اليهود والأعيان وكبار التجار ورجوه أن يعيد عرابى الى وزارة الحربية • ونتيجة لذلك لى توفيق هذا الرجاء ، وبذلك فشلت مذكرة ٢٥ مايو فشلا ذريعا •

وتطورت الأحداث فى مصر بسرعة ، وفى ٧ يونيه عام ١٨٨٢ ، وصل الى الاسكندرية وفد من قبل السلطان عبد الحميد برياسة المشير درويش باشا • وقوبل الوفد فى مدينتى الاسكندرية والقاهرة بمظاهرات عظيمة كانت تهتف بسقوط الانذار النهائى ، وكان يسميه الناس يومئذ الملائحة ، وكان الهتاف الشعبى أن يقول أحد الناس « اللايحة اللايحة » فبرد الجميع قائلين « مرفوضة مرفوضة » • ولقد كانت أهداف درويش باشا متعددة ومتناقضة فى نفس الوقت ، فقد كان الهدف الحقيقى من ارسال البعثة مجرد التظاهر بتثبيت مسند الخديوية ، والعمل الجدى فى الواقع لتقرير سلطة الباب العالى ، بالغاء مجلس النواب ، واستدعاء جنود عثمانيين اذا لزم الأمر الى مصر ، ثم التخلص من العسكريين أى من عرابى وزملائه • وقد أخذ درويش يستقصى أسباب الخلاف بين عرابى والخديو ، ولم يقبل عرابى أن يصحبه الى استانبول حين عرض عليه ذلك ، كما أنه رفض أن يتنازل له عما أخذه على عاتقه من حماية الأمن ، الا اذا حصل منه على كتاب رسمى يخليه فيه من كل تبعه •

تزايد رواج الشائعات المقلقة وخصوصا فى الاسكندرية بسبب

وجود الأساطيل الأجنبية في مياهها ، فطلب الأجانب المقيمون بها من قناصلهم أن يأذنوا بالتسلح استعدادا لمواجهة الطوارئ . وتوترت الأعصاب ، وحدث يوم ١١ يونيه عام ١٨٨٢ شجار بين أحد الوطنيين ويدعى السيد العجان وأحد المالطيين من رعايا الانجليز بأحد أحياء الاسكندرية . ولثم يلبث هذا الشجار أن تحول الى مذبحة مروعة . وقد اتهم عرابي وأنصاره بتدبير هذه المذبحة ولكن لا دليل مادي يؤيد هذا الاتهام . وفي الواقع أن المذبحة قد أحزنت عرابي ورفاقه ، لأن اختلال الأمن في البلاد كان لابد أن يسيء اليهم . ولذلك فان مذبحة الاسكندرية كانت ضربة موجهة للحركة الوطنية في الصميم ، كما كانت حجة للخديو وأعوانه من الأجانب على فساد الأحوال الداخلية وتعرض أموال الأوروبيين وأرواحهم للخطر بسبب الحركة القومية التي ظل يصفها الانجليز منذ قامت بالفوضى . ويقيم بعض الكتاب الدليل على اتهام الخديو توفيق وعمر لطفي محافظ الاسكندرية بتدبير المذبحة لأنه كان من مصلحتهما التخلص من عرابي مهما كان الثمن^(١) . وقد ذكر في المناقشات التي دارت في مجلس العموم البريطاني في عام ١٨٨٣ حول مصر نبأ برقية من الخديو الى عمر لطفي على جانب كبير من الخطر وهي : « لقد ضمن عرابي الأمن العام ونشر ذلك في الجرائد ، وقد تحمل مسؤولية ذلك أمام القناصل ، فاذا نجح في ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية وأن عقول الناس في هياج وأن الحرب قريبة الوقوع بين الأوروبيين وغيرهم والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابيا في ضمانه أم هل تخدمنا ؟ » .

(١) Blunt, op. cit., pp. 497; A.M. Broadly, How we defended Arabi, p. 190.

وكان من أثر هذه المذبحة أن قرر قنصل ألمانيا والنمسا وإيطاليا ضرورة التدخل « محافظة على أرواح الأوروبيين » ، ورأوا وجوب تشكيل وزارة جديدة الى أن يتم الفصل في المسألة المصرية . فتم تأليف وزارة اسماعيل راغب باشا في ٢٠ يونيه ، وعين أحمد عرابي وزيرا للحربية بها . ولكن هذه الوزارة لم تنل ثقة الخديو ، ورفضت انجلترا وفرنسا الاعتراف بها . ونشطت الدولتان لايجاد حل نهائي للأزمة . وفي يوم ٢٣ يونيه انعقد مؤتمر من الدول الأوروبية الكبرى في دار السفارة الإيطالية في استانبول لمناقشة مسألة مصير مصر ، وكان الهدف الأكبر للمؤتمر بطبيعة الحال هو القضاء على الثورة المصرية . وكان فريسينيه قد اقترح على انجلترا في ٣٠ مايو ١٨٨٢ — أى قبل مذبحة الاسكندرية — فكرة عقد هذا المؤتمر . وكان هدفه من وراء ذلك هو أن يحول بين انجلترا والافراد بالعمل الآن فرنسا كانت تتوجس خيفة من سياسة انجلترا . ولقد وافقت انجلترا على عقد المؤتمر لكي تخفى نياتها ، أما الدولة العثمانية ، فقد عارضت الفكرة لأنها صاحبة الحق الشرعى في مصر ولا حق لغيرها من الدول في النظر في المسألة المصرية . ولذلك أسرع السلطان بايفاد درويش باشا الى مصر — كما سبق الاشارة الى ذلك — ورأى ذلك سببا عمليا يبرر فيه رفضه فكرة المؤتمر . ولم تشترك الدولة العثمانية في المؤتمر الا في يوم ١٩ يوليو بعد أسبوع من ضرب الانجليز للاسكندرية .

ومن مهازل السياسة الأوروبية ، أن المناقشات في مؤتمر الآستانة بدأت بموضوع ضرورة المحافظة على حقوق الدولة العثمانية وانتهت بالاحتلال الانجليز وحدهم لمصر وسلبها كل ما تتمتع به من حرية واستقلال . ففي ٢٥ يونيه أبرمت الدول المشتركة في المؤتمر بروتوكول انكار الذات (Protocole Désinterresment) وفيه تتعهد الحكومات التي يمثلها الموقعون على هذا أنها في كل تسوية يقتضيها عملها المشترك

لتنظيم شئون مصر لا تسعى الى امتلاك شيء من أراضيها ، ولا الى أى اذن خاص ولا الى أى فائدة تجارية لرعاياها الا ما كان عاما يمكن أن تناله أية أمة أخرى » (١) . وبعد ستة عشر يوما فقط من صدور هذا البروتوكول ، ضربت انجلترا الاسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) بمدافعها الضخمة متعللة بعذر قبيح هو عمل الثوار المصريين على تحصين مدينة الاسكندرية . ولم يشترك الأسطول الفرنسى مع الأسطول الانجليزى فى هذا العمل ، ولا يدل عدم اشتراك الأسطول الفرنسى فى الاعتداء على المدينة أن فرنسا كانت تستنكر ما أقدمت عليه انجلترا ، فلقد كانت ترغب فى التعاون مع انجلترا فى استخدام القوة ضد مصر . ولكن حكومة فريسينيه كانت تخشى الرأى العام الفرنسى الذى كان يعارض سياسة المغامرات الاستعمارية التى كانت تريد تلك الوزارة اتباعها ، واعتبر فريسينيه ضرب الاسكندرية « عملا » اعتدائيا ، لا مبرر له فى نظر فرنسا ولا يمكن الاقدام عليه دون موافقة البرلمان الفرنسى .

ولقد وقفت الثورة المصرية موقف البطولة والشرف ورفضت الانذار الانجليزى الذى طالبها بوقف الاستعدادات الحربية فى خطوط الدفاع البحرية بالاسكندرية . ولقد وصف جون نينيه (John Ninet) — رئيس المجالية السويسرية فى مصر — فى كتابه « عرابى باشا » بطولة المصريين وشجاعتهم فى الدفاع عن مصر وصد العدوان فيقول : « فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كأنما هم فى استعراض حربى لا يخافون الموت الذى يحيط بهم ، وكانت معظم الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس ومع هذا فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف ، وكأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الموت قد بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران

(١) محمد مصطفى صفوت ، الاحتلال الانجليزى لمصر ، ص ٤٨ — ٤٩ .

مدافعه *** وقد أدى الجميع واجبه رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبههم — وانما كانت تثير الحماسة في نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع وهم في مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام»^(١) .

وفي مساء ١٢ يوليو انسحب الجيش من الاسكندرية وتحصن عرابى بجهة كفر الدوار . وعندما تأكد عرابى من انحيار توفيق الى جانب الانجليز ، أرسل تلغرافا الى المديريات والمحافظات يحذر الجميع من اتباع أوامره . كما دعا في خطابه الى يعقوب سامى باشا ، وكيل وزارة الحربية بالقاهرة ، الى عقد جمعية عمومية من العلماء والأعيان لكى تصدر قرارا فى شأن الخديو ، وفيما يجب عمله لصالح الأمة . وفى ١٧ يوليو ١٨٨٢ ، اجتمعت الجمعية العمومية وحضرها نحو أربعمائة عضو وفى مقدمتهم الأمراء الموجودون بالقاهرة وشيخ الاسلام وقاضى قضاة مصر والمفتى والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضاة والتجار ، وبعض كبار ملاك الأراضي . وبعد التشاور فى الأمر ، قررت الجمعية استدعاء الوزراء الى القاهرة وأوغدت لجنة من أعضائها للمسفر الى الاسكندرية لابلاغ الوزراء بقرار الجمعية . وعندما علم توفيق بهذا القرار أمره بعزل عرابى من وزارة الجهادية وعده وحده مسئولا عما يحدث لاصراره على الاستعداد للحرب ورفضه الحضور الى الاسكندرية . وفى ٢٣ يوليو قررت الجمعية العمومية أنه بناء على احتلال القوات الأجنبية للاسكندرية ، ووجود الأسطول البريطانى فى مياهها ، ونظرا للموقف الذى اتخذه عرابى لصد الأعداء ، وجب ابقاؤه فى منصبه

J. Ninet, Arabi Pacha, p. 175.

(١)

بصفته وزيرا للحربية والبحرية على أن يوكل اليه أمر القيادة العامة للجيش المصرى ، وأن يمنح مطلق السلطة فى كل ما يتعلق بالعمليات الحربية ، وألا يلتزم أحد بطاعة أوامر الخديو ووزرائه • وهكذا لم يحفل المصريون بأمر توفيق القاضى بعزل عرابى ، بل ازدادوا تمسكا به والتفافا حوله ، وأضاف الناس الى لقب عرابى لقبا جديدا هو « حامى حى الديار المصرية » • ويعتبر هذا القرار الذى اتخذته الجمعية العمومية أصدق دليل للرد على الذين يدعون أن الثورة العرابية ما كانت الا فتنة عسكرية لم تؤيدها الأمة المصرية •

وبعد هذا التأييد المطلق من جانب المصريين أصدر عرابى أمرا يستدعى الى كفر الدوار خمس الذكور فى كل مديرية ، كما استدعى قدماء المحاربين وأمر باعداد الخيول والمؤن اللازمة للجيش ، وعين البارودى قائدا للقوات المرابطة قرب قناة السويس • كما عين محمود فهمى رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وكان من أكفأ رجال الهندسة الحربية فى مصر • وقد قام محمود فهمى بسد ترعة المحمودية بالقرب من كنج عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ، كما أنه وضع فى خطته سد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبورسعيد عند اللزوم ، وسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانجليز • واشتركت الأمة المصرية بأكملها فى الفضال ضد الانجليز ، وجاءت على اختلاف مذاهبها ونحلها — كما روى عرابى « بالمال والغلال ، والدواب والفاكهة والخضروات ، حتى حطب الحريق وذلك فضلا عما أمدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتزويد جراح العساكر ، ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يملكه من الغلال والماشى ومنهم من خرج عن جميع مقتضياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه » •

وعندما تحصن عرابى عند كفر الدوار ، تحول الانجليز الذين كانوا قد احتلوا الاسكندرية في ١٣ يوليو الى مهاجمة البلاد عن طريق قناة السويس وهى المنطقة التى تركها عرابى مكتشوفة اعتمادا على تعهد فرديناند ديليبس له بالمحافظة على حيده القناة وهو التعهد الذى أقنع عرابى بأن الفرنسيين سوف يدافعون عن مصالحهم • ولكن الانجليز سرعان ما اقتحموا قناة السويس بالرغم من احتجاجات ديليبس ، واحتلوا السويس بأمر من الخديو دون مقاومة فى أوائل أغسطس عام ١٨٨٢ • وفى ١٣ سبتمبر هزموا جيش عرابى فى معركة التل الكبير • وفى ١٥ سبتمبر احتلوا القاهرة ، فكانت بداية الاحتلال البريطانى لمصر • واستدعى الجفرال درورى لو (Drury Lowe) قائد خيالة الانجليز عرابى وطلبة عصمت لمقابلته فى ثكنات العباسية ، وسأل عرابيا « هل يقبلون أن يكونوا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ فقال عرابى لو أن عندنا من القوى الحربية ما يمكننا به اطالة زمن القتال والمدافعة عن البلاد لما قبلنا ذلك » ، فأمر لو (Lowe) باعتقالهما •

وفى ٢٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، دخل توفيق القاهرة وبصحبته رئيس وزرائه محمد شريف باشا (الذى كان قد شكل الوزارة الجديدة فى ٢٠ أغسطس خلفا لوزارة اسماعيل راغب باشا) وولترلى (Sir Garnet Wolseley) ، قائد جيش الاحتلال ، ودوق كنوت (Connaught) ، ابن ملكة انجلترا ، وادوارد مالت ومحمد سلطان باشا • وأقام توفيق فى ٣ أكتوبر مأدبة كبرى وحفلا ساهرا فى سراى الجيزة تكريما للضباط والمقواد الانجليز ، وأنعم على ستمين منهم بالأوسمة المختلفة ، كما أنعم على محمد سلطان بالنيشان المجيدى ومنحه عشرة آلاف جنيه نظير خيائته للعرابيين • وبدأ توفيق بالغاء الجيش المصرى جملة بحجة أنه انضم الى العصاة ، وكان هذا توطئة لمحاكمة قواده وضباطه الا من

انحاز أثناء الحرب الى الخديو • وصدر أمر من توفيق بتشكيل محكمة عسكرية على رأسها محمد رفوف باشا من أنصار الخديو ، كان الأعضاء الا واحدا من أصل شركسى ومن الناقمين على عرابى • وانتهت محاكمة عرابى — وكانت من المهازل الكبرى — بنفيه مع زملائه الى جزيرة سيلان وتجريداهم من الرتب والألقاب والنياشين ومصادرة جميع ممتلكاتهم • واستقر توفيق فى حكم مصر وأرسل الى جلادستون شاكرا الحكومة الانجليزية « باسمه وباسم الشعب المصرى » ، على إعادة النظام فى مصر ومعبرا عن أمله فى أن تتمتع مصر بالرفاهية والسعادة فى ظل نصيحة انجلترا وتوجيهاتها •

وظل عرابى بالمنفى حتى سمحت له الحكومة الانجليزية بالعودة الى مصر • فعاد اليها فى عام ١٩٠١ وعكف على كتابة مذكراته عن الثورة ، وفرغ من كتابتها فى عام ١٩١٠ • وقد اختتم عرابى مذكراته بقوله : فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهارا على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المطلوبة منها ومطالبة الانجليز بالجلاء حتى ينكشف عنها البلاء ••• ثم أناشدهم أن يقولوا لأوصر الاخاء بين أبناء وطنهم ويخرجوا ما فى قلوبهم من غل وضغينة ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم •• هنالك يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم والله على كل شىء قدير ••• » • ومهما كانت النتيجة التى آلت اليها الثورة العرابية ، فلقد سجل عرابى اسمه فى تاريخ الكفاح القومى لمصر أول زعيم للحركة الوطنية المصرية ، وأول فلاح دعا الى حرية بلاده وقام بثورة حقيقية ضد سوء الادارة والحكومة • وهكذا كانت ثورة أحمد عرابى ثورة قومية على الرغم من باطل المبطلين ، ولم يستطع حتى كرومر نفسه أن ينكر قومية هذه الثورة فقد كتب فى كتابه مصر الحديثة : « ان حركة عرابى أكثر من أن تكون مجرد فتنة عسكرية • لقد كان فيها الى حد ما طبيعة الحركة القومية الحقيقية ، ولم تكن هذه

الحركة موجهة كلها أو في جوهرها ضد الأوروبيين والتدخل الأوروبي في الشؤون المصرية ولو أن النفور من الأوروبيين والتجنى عليهم كانا يسيطران على عقول قواد هذه الحركة ، انما كانت هذه الحركة الى مدى عظيم موجهة من المصريين ضد الحكم التركي» (١) .

واذا حاولنا أن نتتبع العوامل التي أدت الى فشل الثورة العربية، نجد أنها تتلخص في العوامل الآتية :

(أولاً) التسابق الاستعماري للسيطرة على مصر :

قامت الثورة العربية في وقت نما فيه الامبريالىزم (Imperialism) الأوروبي وبدأت الدول الاستعمارية كإنجلترا ترى ضرورة تأييد مسند الخديوية والقضاء على الثورة لصيانة «الوضع» القائم الذي يكفل استمراره — في نظرها — ضمان مصالحها وكان من أهمها تأمين طرق مواصلاتها الى الهند عبر قناة السويس • ولقد أخطأ زعماء الثورة عندما اعتقدوا أن صراعهم مع الخديو مسألة داخلية لا يجب أن تنال اهتمام الدول ، وتصوروا أن اظهار الحرص على احترام التعهدات الدولية الخاصة بمسألة الديون كفيلاً وحده بتجريد الدول من أي مبرر للتدخل • ووجه الخطأ في هذا التصور هو أن المسألة المالية في خطوطها العريضة لم تكن الا ستارا في الحقيقة يخفى وراءه صراعا سياسيا بين إنجلترا وفرنسا خصوصا على الاستئثار بالنفوذ في مصر •

ولقد كان هناك من الدلائل ما يشير الى النوايا العدوانية لهاتين الدولتين عندما أرسلتا أسطولييهما الى ميناء الاسكندرية في ١٩ مايو •

Cromer, Modern Egypt, vol. I, pp. 323-324.

(١)

وانتفعت انجلترا الوسائل الدبلوماسية المختلفة التى كانت تبذل فى مؤتمر
الاستانة لحل الأزمة ، بل كانت هناك نية مبيتة لنعقيد الأزمة والتمهيد
للتدخل العسكرى الانجليزى . فلقد اهتمت الحكومة الانجليزية منذ
نوفمبر عام ١٨٨١ بجمع المعلومات الخاصة بالجيش المصرى والتحصينات
القائمة فى البلاد . وقام سير جارنت وولزلى (Sir Garnet Wolseley)
— الذى عين قائدا للحملة البريطانية فيما بعد — واللورد تشيلدرز
بدراسة التقارير التى وصلت لندن بهذا الخصوص حتى يمكنها اعداد
الحملة اذا ما اقتضت الظروف . وبدأت الاستعدادات العسكرية منذ
شهر مايو عام ١٨٨٢ ، وقدم وولزلى الى تشيلدرز فى ٣ يوليو خطة
حربية للزحف على القاهرة ، عين فيها موقع القتل الكبير الذى كان من
المحتمل أن يلقى فيه الانجليز المقاومة من جانب المصريين . وهذه
المسائل تكشف فعلا عن نية بريطانيا المبيتة لتصفية الثورة العربية ،
فالتحصينات المصرية التى تذرعت بها للتدخل لم تدعم فجأة ، كما أنها لم
تكن تشكل خطرا على الأسطول الانجليزى . وعلى ذلك كان التسابق
الاستعمارى على مصر من أهم الأمور التى ضيقت على الثورة العربية
فرصة النجاح وعملت على تصفيتة . ومن ناحية أخرى ، لم يفهم
العربىون الموقف الدولى على حقيقته اذ اعتقدوا أن فرنسا لن تسمح
لانجلترا بالتدخل المسلح بمفردها .

(ثانيا) تصدع الجبهة الداخلية :

كان التصدع والانقسام الذى حدث فى الجبهة الداخلية من أهم
العوامل التى ساعدت الانجليز على التدخل لتصفية الثورة العربية .
وقد نتج هذا التصدع بسبب الخلاف الذى نشأ بين الزعماء العربيين
وأعضاء مجلس النواب من المدنيين حول موضوع خلع الخديو توفيق
واعلان الجمهورية . ودفع ذلك الاتجاه من جانب العربيين وبعض

الزعماء المدنيين من أمثال سلطان باشا — رئيس مجلس النواب — الى طعن الثورة من الخلف فقام بتوزيع رسائل الخديو على كبار الضباط ، وأعلن توفيق في هذه الرسائل أن الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بأمر من السلطان خدمة للخديو وتأييدا لسلطته • واستعان الانجليز بسلطان باشا على رشوة البدو الموجودين غربى القناة بين الاسماعيلية ورأس الوادى ، فاستمال أكثرهم بالمال والرشاوى والوعود ، واتخذ الانجليز منهم مرشدين وأدلاء للزحف على تلك المناطق الصحراوية التى لا يسهل على الجيش المهاجم أن يتعرف على مسالكها • وعندما دخل الجنرال وولزلى القاهرة فى ١٥ سبتمبر صاحبه سلطان باشا نائبا عن الخديو ، وأصبح له نفوذ كبير فى القاهرة اذ أمر بالقبض على من حامت حولهم التشبهات باعتبارهم المحرضين على الثورة أو من زعمائها • كما ذهب سلطان باشا فى ٢٨ سبتمبر على رأس جماعة من الأعيان الى وزارة الداخلية وطلبوا من رياض باشا — وزير الداخلية — أن يأذن لهم بتقديم بعض الهدايا الى كل من الأميرال سيمور ، قائد الأسطول الانجليزى الذى دمر الاسكندرية ، والجنرال وولزلى والجنرال درورى لو شكرا لهم على انقاذ البلاد من غوائل الفئة العاصية • وفى نظير المساعدات والتأييد التام الذى لقيته انجلترا من سلطان باشا ، أنعمت عليه ملكة انجلترا بوسام سان ميشيل وسان جورج الذى خوله لقب سير • وهكذا أدى الانقسام فى النهاية الى تضعف قوة المقاومة •

(ثالثا) خيانة رجال الجيش والبدو :

لعبت خيانة بعض رجال الجيش دورا مهما فى تصفية الثورة العربية ، اذ رافق بعض الضباط الموالين للجيش الانجليزى فى زحفه من ناحية الشرق وساعده وأمدوه بالمعونة • وكان من أشهر الضباط الخونة الأميرالاي على يوسف الشهير بخنفس ، قائد قلب الجيش

المصرى ، الذى اشتراه سلطان باشا بالمال ، فأطلع الانجليز على الخطة التى وضعها عرابى للهجوم على مواقع الانجليز فى القصاصين وسلم وولزلى الرسم الذى وضع لها • وكان يتقدم الجيش الانجليزى أثناء زحفه على التل الكبير لفيف من ضباط أركان حرب المصريين من حزب الخديو لارشاد الجيش الانجليزى أثناء سيره فى الصحراء • ومن بين الضباط الذين وقعوا تحت تأثير سلطان باشا أيضا ، عبد الرحمن حسن ، قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، وراغب ناشد ، أحد ضباط مقدمة الجيش والأميرالاي حسن رأفت قائد الآلاى الثانى مدفعية ، والأميرالاي أحمد عبد الغفار ، قائد الآلاى الأول خيالة • ولو لم تحدث الخيانة لاستمرت مقاومة العرابيين طويلا ولما انتهى الموقف الى ما انتهى اليه • ولهذا لم يكن من المصادفة أن أطلق الشعب المصرى المثل القائل « الولس كسر عرابى » بعد الهزيمة •

(رابعا) الحرب النفسية وتأثر الوجدان الدينى بفكرة الخلافة الاسلامية:

لم تتخذ الدولة العثمانية موقفا واضحا من الثورة ، اذ انتهزت قيام الثورة لاسترداد الامتيازات التى سبق لمصر الحصول عليها • فتظاهرت أحيانا بتأييد الخديو ، وتارة أخرى بتأييد العرابيين حتى تستفيد من وراء هذه السياسة ، ولكن انجلترا وحدها هى التى استفادت من هذه السياسة الحمقاء ، اذ تخاذلت الدولة العثمانية فى بادئ الأمر عن الاشتراك فى مؤتمر الآستانة ، ثم تراجعت عن هذا الموقف واشتركت فى المؤتمر وقبلت ارسال جيش عثمانى الى مصر ، ولكن بعد ضياع الفرصة اذ كانت انجلترا قد قصفت الاسكندرية بمدافعها • وفى أثناء المفاوضات التى دارت بين اللورد دفرن (Lord Dufferin) — سفير انجلترا فى القسطنطينية — والحكومة العثمانية للاتفاق على موضوع ارسال الجيش العثمانى الى مصر ، ضغطت انجلترا على السلطان لاعلان

عصيان عرابى • فقد كان الجيش والوطنيون يعدون توفيقا من الخونة لخروجه على خليفة المسلمين ، وكانوا يرون عرابيا مدافعا عن الخليفة ضد انجلترا المعتدية • وحملت انجلترا السلطان عبد الحميد ، الذى أنعم على عرابى بالألمس بالوسام المجيدى الأكبر ، على طعن عرابى طعنة قاتلة بذلك القرار ، وقد نشر بجريدة الجوائب التركية (وكانت تصدر باستانبول باللغة العربية) فى ٦ سبتمبر •

وأحضر الانجليز آلاف النسخ من هذه الجريدة الى مصر ، وأخذ أعوان سلطان باشا وعمر لطفى يوزعونها سرا فى صفوف الجيش وبين العمدة ومشايخ البلاد والأعيان فى الريف والمدن فانضم كثير منهم الى معسكر الثورة المضادة بسرعة اثر ذلك أمثال « السيد الفقى » من المنوفية و « أحمد عبد الغفار » عمدة تلا • ونتيجة لهذا القرار ضعفت الروح المعنوية ضعفا شديدا • وجاء فى هذا الاعلان : « أن الدولة العليا السلطانية تعلن أن وكيلها بمصر هو حضرة فخامتو دولتو محمد توفيق باشا ، وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية • • وأن تصرف الدولة العلية السلطانية الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ويتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة » • وهذا يدل على أن الجهاد الوطنى كان فى جوهره جهادا اسلاميا يدور فى فلك الولاء للسلطان وهو خليفة المسلمين ، أو هكذا تصور الناس • فظل عرابى يعتمد على مساعدة السلطان وتأبيده ، حتى أعلن عصيانه ، فكان لهذا الاعلان أسوأ الأثر كما يقول عرابى نفسه فى مذكراته (١) •

(١) مذكرات عرابى ، ج٢ ، ص ١٧ — ٢٠ •

الفصل السابع

الحركة الوطنية

من الاحتلال الى الحماية

- ١ — سياسة الاحتلال البريطاني في مصر ♦
- ٢ — عوامل ظهور الأحزاب السياسية ♦
- ٣ — الأحزاب السياسية واتجاهاتها ♦

١ — سياسة الاحتلال البريطاني في مصر

دخلت انجلترا مصر حين لم يكن فيها قوة يعتد بها اذ ضعفت الخديوية المصرية وقضى على مجلس النواب المصرى والمراقبة الثنائية. وادعت بريطانيا أنها جاءت لتخليص مصر من الفوضى واصلاح حال الفلاح المصرى وادخال المدنية والحضارة الغربية الى مصر، ولكنها جاءت فى الحقيقة لحماية مصالحها السياسية والحربية والاستراتيجية . ولم تفكر انجلترا فى ضم مصر الى ممتلكاتها أو فرض الحماية عليها لما قد ينتج عن ذلك من مشكلات دولية ومحلية ، ولكنها عملت على أن تكون وحدها صاحبة النفوذ الفعلى فى مصر . ولقد وضع دفرن Dufferin — سفير انجلترا فى القسطنطينية الذى أرسلته حكومته الى مصر فى ٣ نوفمبر عام ١٨٨٢ لتسوية المسألة المصرية — فى اعتباره كل هذه المسائل . واشتملت التعليمات التى أرسلتها الحكومة البريطانية الى اللورد دفرن على شىء من التناقض : ففى الوقت الذى تؤكد فيه رغبتها فى تقصير مدة الاحتلال بقدر الامكان ترى من اللازم أن تضع عن كاهلها هذه المهمة حتى توفر الضمانات الكافية لاقرار السلام وتثبيت سلطة الخديو ، ولنمو قدرة المصريين على الحكم الذاتى ووفاء مصر بعهودها للدول الأوروبية . وحاول دفرن أن يحل المشاكل التى واجهته بطريقة تتفق مع مصالح انجلترا ، وأن يضع نظاما مستقرا من شأنه تأييد سلطة الخديو ومنع الاستبداد فى الادارة والحكم ، ولم يكن هدف دفرن اقامة حكومة مسئولة أو بناء نظام برلمانى حقيقى وانما تمهيد الطريق لحكم انجلترا فى ظل جيشر الاحتلال . ولذلك رأى تصفية الثورة بتكوين لجان

تحقيق ومحاكم لهذا الغرض ، وانشاء جيش جديد تحت قيادة انجليزية بحيث لا يضم العناصر التي سبق لها الاشتراك في الثورة • واقتراح دفرن كذلك انشاء بوليس للمحافظة على النظام في الأقاليم تحت اشراف مفتش عام انجليزي والنساء المراقبة الثنائية ووضع الشئون المالية تحت اشراف مستشار مالى انجليزي له حق حضور جلسات مجلس الوزراء^(١) •

أما من ناحية نظام الحكم ، فقد رأى ضرورة استمرار حكم الخديو وحق تعيين الوزراء على أن يأخذ بنصيحة المعتمد البريطاني في كل هذه المسائل وينفذها • كما رأى أن النظام النيابي الذي يناسب مصر هو انشاء مجلسين نيابيين ، أحدهما يعرف بمجلس شورى القوانين والآخر بالجمعية العمومية • ويتكون المجلس الأول من ثلاثين عضوا تعين الحكومة منهم أربعة عشر ، وتنتخب مجالس المديرية بقية الأعضاء • وقد عرف المجلس « بشورى القوانين » لأن أعضائه لم يكن لهم الحق في اجازة أى قانون بل يبدون آراءهم فيما تعرضه الحكومة عليهم من مشروعات ، ولها الحق في أن تقبل رأى المجلس أو ترفضه • كما لم يكن من حق هذا المجلس النظر في بعض أبواب الميزانية المتعلقة بالايادات والنفقات التي حددتها المعاهدات الدولية • أما الجمعية العمومية فتتكون من اثنين وثمانين عضوا ، ينتخب الأهالى منهم ستة وأربعين عضوا فقط والباقيون هم الوزراء الستة وأعضاء مجلس شورى القوانين الثلاثون • وكان من اختصاص هذه الجمعية ألا تقرض ضريبة مقررّة جديدة من غير موافقتها ، وأما فيما عدا ذلك فرأيها كراى مجلس الشورى استشارى محض • كان هذا اذن هو الدستور الذى

(١) Marlowe, Anglo-Egyptian relations, pp. 132-133.

وعلى أية حال ، كانت المسألة المالية هي أول مشكلة واجهت كرومر عند تعيينه ، إذ كان يريد مواجهة النفقات التي استلزمها الاضطرابات التي نشبت في السودان ، الى جانب نفقات جيش الاحتلال والتعويضات التي طالب بها الأجانب بسبب حريق الاسكندرية ، والنتائج المترتبة على انتشار وباء الكوليرا وانخفاض منسوب النيل في عام ١٨٨٣ • ورأى كرومر أنه لا بد من المساس بقانون التصفية (Law of Liquidation) — الذي وضع في أوائل عهد توفيق — وذلك بأن تستولى الحكومة المصرية على ما خصص لصندوق الدين وتمتد الى احتياطيته • ولذلك دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر دولي في لندن في عام ١٨٨٥ لبحث الوسائل الواجب اتخاذها لتلافي افلاس مصر والنظر في تعديل قانون التصفية • وانتهى المؤتمر بعقد اتفاقية بين الدول السبع التي حضرت المؤتمر (وهي ألمانيا والنمسا وفرنسا ، وبريطانيا وايطاليا وروسيا والدولة العثمانية) في ١٧ مارس عام ١٨٨٥ تهدف الى تحسين مالية مصر • وتوصلت انجلترا الى ذلك باسترضائها ألمانيا وروسيا عن طريق اختيار عضوين ألماني وروسي في صندوق الدين • ونتيجة لذلك تمكنت مصر من الحصول على قرض مقداره تسعة ملايين من الجنيهات بضمان الدول الكبرى وبفائدة قدرها ثلاثة في المائة •

وعملت قرارات مؤتمر لندن على تحسين أحوال مصر المالية ، فتم دفع تعويضات حريق الاسكندرية ، وسد عجز السنوات ما بين ١٨٨٢ و١٨٨٥ ، وبقي لدى الحكومة بعد ذلك مليون جنيه وجه الأعمال الري • وفي الواقع تقدم نظام الري في مصر في عهد الاحتلال البريطاني حتى عام ١٩١٤ بسبب اتباع سياسة التخصص الاقتصادي التي فرضتها انجلترا على مصر • وكانت هذه السياسة قائمة على تخصص مصر في الزراعة وبخاصة القطن، فتتوفر بذلك المواد اللازمة للمصانع الانجليزية،

وتصبح في نفس الوقت سوقا رائجة للمنتجات الانجليزية • ويفسر ذلك اهتمام انجلترا بتحسين نظام الري ، فأصلحت القناطر الخيرية ، وأنشئت قناطر أسيوط (١٩٠٢) واسنا (١٩٠٩) وزفتى (١٩٠٣) ، وتم تشييد خزان أسوان فيما بين ١٨٩٨ و ١٩٠٢ وأمكن بواسطته خزن المياه الكافية للري الصيفي • وأدى الاهتمام بالري الى زيادة مساحة الأراضي الزراعية زيادة غير كبيرة من ٤٨١٠٠٠٠٠ فدان في عام ١٨٧٩ الى ٤٩١٣٦٧٨ فدان في عام ١٨٨٩ ، ثم الى ٤٩٥٨٠٠٠ فدان في عام ١٨٩٩ و ٦٥٨٠٠٠٠ فدان في عام ١٩١٣ • كلما زادت مساحة المحصول بنسبة أكبر من زيادة مساحة الأراضي الزراعية ، بسبب انتشار الري الدائم فازدادت مساحة المحصول من ٤٧٦٢١٧٨ فدان في عام ١٨٧٩ الى ٧٠٣٢٧١١ فدان في عام ١٨٩٩ ثم الى ٧٠٣٢٧١٢ فدان في عام ١٩١٣ (١) • وانصرفت عناية الاحتلال كلها الى زراعة القطن ليجعل مصر بلدا متخصصا في انتاج هذا المحصول ، فازدادت مساحة أرض القطن من ٤٩٥٧٠٧ فدان في عام ١٨٧٩ الى ١٧٢٣٠٩٤ فدان في عام ١٩١٣ ، أي من ١١٪ من المساحة الكلية للأصناف الى ٢٢٪ (٢) •

ومن ناحية أخرى ، تبني الاحتلال الانجليزي كذبا سياسة العطف على الفلاحين « أصحاب الجلابيب الزرقاء » حتى لا يظهر نوايا انجلترا الحقيقية • فلقد أدرك الاحتلال أن ازدياد ثروة الفلاح وانتعاش حالته سيؤديان بالضرورة الى زيادة دخل الحكومة ، ولذلك خفف وطأة الضرائب وألغى الكرباج والسخرة (٣) ، ودفعت هذه الأعمال الفلاحين

(١) أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادي ، ص ٦٠ — ٦٢ •

(٢) روشستين ، تاريخ المسألة المصرية ، ص ٢٨٠ — ٢٨٣ •

(٣) Cromer, Modern Egypt, vol. II, chs. XLIX & L.

الى الاعتقاد بأن الاحتلال نصير « أصحاب الجلابيب الزرقاء » ، ولكن سرعان ما اكتشف الفلاح المصرى أن الاحتلال لا يضر له خيرا وذلك عندما وقعت حادثة دنشواى عام ١٩٠٦ • وكانت سياسة التخصيص الاقتصادية التى فرضها الاحتلال قد قضت بالفعل على كل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعى • فأهملت الصناعة ولم تتخذ التدابير الكفيلة برقيها ، بل ألغت الحكومة البعثات الصناعية الى الخارج ، وفرضت فى أبريل عام ١٩٠١ على جميع المصنوعات القطنية فى مصر ضريبة مقدارها ٨٪/ تعادل الرسوم الجمركية التى كانت تحصل اذ ذاك عن الواردات من الغزل والمنسوجات القطنية • وبالإضافة الى سياسة فرض الضرائب على المصنوعات القطنية وغيرها ، كان رؤساء المصالح الحكومية من الانجليز يؤثرون السلع البريطانية • ومن بين العوامل التى أدت الى انهيار الصناعة أيضا أن أصحاب رؤوس الأموال من المصريين فضلوا استثمار مذكراتهم فى استصلاح الأراضى وفى الزراعة، وبخاصة بعد استقرار قواعد الملكية التامة فى الأراضى • وصور اللورد كرومر فى تقريره عن عام ١٩٠٥ تدهور الصناعة اذ كتب يقول : « ان المنسوجات الأوروبية حلت محل المنسوجات الوطنية ، وبانقراض المنسوجات الوطنية أخذت الصناعة الأهلية تنقرض أيضا • • • » والنتيجة التى نخرج بها من هذا العرض الموجز هى أنه بانتقال السلطة الى يد الانجليز تم توجيه الاقتصاد المصرى لخدمة المجتمع الغربى ، وظل المجتمع المصرى محتفظا بطابعه الزراعى فترة غير قصيرة •

وفى مجال الادارة ، حرص كرومر على حرمان المصريين من المشاركة فى ادارة شئون البلاد فقد جعل هذه الادارة جهد المستطاع ادارة بريطانية • ولقد أثبتت هذه السياسة أن ما ذكره اللورد دفرن فى تقريره وهو أن الانجليز كانوا يريدون « أن يحيا المصريون حياتهم التى

ألفوها وأن يديروا حكومتهم » كان مجرد كلام نظري فقط . فمن عام ١٨٩٦ الى عام ١٩٠٦ ازداد عدد الموظفين في الحكومة المصرية من ١٩٣٤ موظف الى ١٣٣٧٩ موظف ، وازداد من بين هؤلاء عدد الموظفين الأجانب من ٧٩٠ موظف الى ١٢٥٢ موظف أى الى نحو الضعف ، في حين أن عدد الموظفين المصريين قد ازداد من ٨٤٤٤ موظف الى ١٢٢٠٧ موظف أى بزيادة نحو ٥٠٪ فقط . وكان في عام ١٨٩٦ من بين الموظفين الأجانب ٢٨٦ موظف انجليزى فقط ، فأصبح عدد الموظفين البريطانيين ٦٦٢ موظف في عام ١٩٠٦ . وكانت الوظائف الصغيرة من نصيب المصريين، اذ شغل الـ ١٣٠٠٠ موظف مصرى وظائف سعاة البريد وعمال السكك الحديدية والتلغراف وما الى ذلك ، في حين أسندت الوظائف الادارية الكبرى الى الأوروبيين وخاصة الانجليز . ففى مصلحة السكك الحديدية مثلا وجد ٣٦ مراقبا يتقاضى الواحد منهم سنويا ٦٠٠ جنيه فأكثر ، وشغل هذا المنصب من المصريين أربعة فقط ، وكان العدد الباقي من الأوروبيين . وكان فى نفس المصلحة أيضا ٩٣ مفتشا يتراوح مرتب الواحد منهم فى الشهر ما بين ٢٦ جنيها و ٤٨ جنيها فى الشهر منهم ٧٤ أوروبيا و ١٩ مصرى .

وواضح من هذه الأمثلة البسيطة أن الاحتلال البريطانى كان يعمل عامدا على ابقاء المصريين فى حالة من القصور والعجز والاعتماد على الانجليز فى القيام بشئون الوظائف المهمة . وأخذت سياسة « نجلزة الادارة المصرية » فى التفاقم بعد أن اطمأن الاحتلال الى مركزه الدولى منذ توقيع الاتفاق الودى (Entente Cordiale) فى عام ١٩٠٤ ، اذ تضاعف بعد ذلك عدد الموظفين الانجليز فى الحكومة المصرية . ففى عام ١٩٠٦ كان هناك مستشار انجليزى فى نظارة الداخلية . أما نظارة المالية فكان المستشار المالى ووكيلاها ومراقب الضرائب بها من الانجليز .

وكان في وزارة الأشغال مستشار ووكيلان وافتش عام للرى • كما شغل الانجليز أيضا منصب وكيل نظارة الحربية وسردار الجيش المصرى (قائد عام الجيش) • وشغلوا كذلك مناصب المستشار القضائى والمدعى العمومى والافتش العام للنيابات في نظارة الحقانية • وبذلك سيطر الانجليز من مستشارين ووكلاء للنظارات ومديرين للمصالح على جميع النظارات عدا نظارة الخارجية لقلة أهميتها حيث لم يكن لمصر ، وهى ولاية عثمانية ، علاقات دبلوماسية رسمية مع الدول • وقام جورست (Gorst) — المعتمد البريطانى بعد كرومر — بفتح مكتب دائم في لندن لتوظيف الانجليز في الحكومة المصرية •

ولم تؤد سياسة التعليم في عهد الاحتلال البريطانى الى تخريج كفايات مهمة تسد حاجة البلاد ، فاهمال كرومر للتعليم كان من أهم مظاهر حكمه ومن مميزات ادارته كلها • ولقد وعد اللورد دفرن في تقريره المشهور بأن ترقية التعليم ستكون من أهم ما يحرص عليه الانجليز حتى لا تكون صيحة « مصر للمصريين » صيحة جوفاء ، ولكن ما أعظم الفرق بين القول والعمل في معاملة الانجليز للمصريين • ففي عام ١٨٨٨ بلغت الميزانية المخصصة للتعليم في مصر ٧٠٠٠٠ جنيه فقط في حين أن ما أنفقه اسماعيل على التعليم في وقت الأزمة المالية كان ٨٧٠٠٠٠ جنيه • ثم أخذت ميزانية التعليم تزداد بعد عام ١٨٩٠ ، فبلغت في عام ١٩٠٦ بعد الحاح الرأى العام المصرى والبريطانى ٣٦٢٠٠٠ جنيه ، وبرغم ذلك فان هذا المبلغ لا يكاد يبلغ في الحقيقة ٣٪ من مصروفات تلك السنة • وفي خلال الخمس والعشرين سنة الأولى من عهد الاحتلال الانجليزى بلغ مجموع الايرادات التى حصلتها الحكومة المصرية ٢٥٨٠٠٠٠٠٠ جنيه أنفق منها على التعليم ٢٨٠١٠٠٠ جنيه فقط أى نحو ١٪ (١) •

(١) روثستين ، تاريخ المسألة المصرية ، ص ٢٩٣ — ٢٩٦ •

ومن الأمثلة الصارخة الدالة على عدم تشجيع الانجليز للتعليم أنه لم يكن بمصر في عام ١٩١٤ سوى ٦٨ مدرسة ابتدائية وثانوية تتفق عليها الحكومة ، في حين كانت توجد ٧٣٩ مدرسة خاصة يتردد عليها ٩٩٠٠٠ تلميذ و ٣٢٨ مدرسة من مدارس الارساليات وغيرها تضم ٤٨٠٠٠ تلميذ^(١) . ولم يقتصر اهمال التعليم على عدد المدارس بل ان المدارس تحولت الى معامل تخرج موظفي الحكومة وأصبحت الى حد بعيد أداة لنجاسة المصريين . ولم يكن في مصر كلها سوى ست مدارس عالية ، كان أشهر ما يدرس بها علم الحقوق والهندسة . واستمر ارسال الطلبة في بعثات الى الخارج ، ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء الطلبة لم تذهب الى فرنسا كما كان الحال من قبل ولم تدرس العلوم التي أوفدت من أجل دراستها الى الخارج . ففي الفترة السابقة على الاحتلال الانجليزي لمصر ذهب الى فرنسا ٨٠٪ من مجموع المبعوثين ، كما درس ٩٦٪ منهم الموضوعات الفنية ، أما في عهد الاحتلال فقد أوفد ٧٥٪ من هؤلاء المبعوثين الى انجلترا وانصرف ٦٥٪ منهم الى دراسة العلوم الانسانية والاجتماعية^(٢) .

ولما شعر كرومر في أواخر عهده بالاهتمام بالتعليم العالي والرغبة في انشاء جامعة مصرية ، حاول القضاء على تلك الفكرة ونصح أصحابها بضرورة الانصراف الى نشر التعليم بين الشعب لأن ذلك أنفع للبلاد من انشاء الجامعة . وشرع كرومر فعلا في الاستكثار من الكتاتيب حتى يقف سيل التبرعات للجامعة وترتب على ذلك أن أبناء الأثرياء وحدهم هم الذين كان في امكانهم تلقى التعليم الفني والعالي بالسفر الى

(١) Safran, Egypt in search of political community, p. 55.

Safran, op. cit. pp. 55-56.

(٢)

الخارج • وبالإضافة الى كل هذه المساوئ التي ارتكبها كرومر ، قام
باسناد وظائف التدريس الى الانجليز دون المصريين • وشرع دوجلاس
دنلوب (Douglas Dunlop) ... الذي عينه كرومر مستشارا للتعليم — في
عام ١٨٩٠ في سياسة «النجلة» فقصر التعليم في مصر على الأهداف
التي ترمى اليها انجلترا ، وعمل على زيادة عدد المدرسين الانجليز في
المدارس الابتدائية وما فوقها وجعل اللغة الانجليزية هي اللغة الأولى
في المدارس • وهكذا ضمنت انجلترا تفوق اللغة الانجليزية في دوائر
الحكومة على حساب العربية • وقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن
استياء المصريين من سياسة الاحتلال التعليمية بقوله مخاطبا كرومر :
بناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للعلم يا «لورد» معهدا
وأنتك أخضبت البلاد تعمدا وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وانه قضاء عليها أو سبيل الى الردى
ويتضح من هذا العرض أن سياسة الاحتلال قد تأثرت في تلك الفترة
بثلاثة عوامل هي ربط التعليم بالحاجة الى موظفين لدواوين الحكومة ،
والمتطور الاقتصادي في مصر ، ونمو الحركة الوطنية بين الطبقة المثقفة .
واذا كان الاحتلال قد قام ببعض التغييرات في المجالين الاجتماعى
والاقتصادى فان هذه التغييرات لم تكن الا تدعيما وامتدادا لاتجاهات
المجتمع والاقتصاد المصرى التي كانت قد ظهرت في أواخر عصر
اسماعيل • فعندما احتل البريطانيون مصر كانت قد تغيرت أسس البنيان
الاقتصادى ، فقد تطور الاقتصاد المصرى من النظام الاقطاعى الى
الاقتصاد القائم على الجهد الفردى ، وارتبط بالسوق العالمية نتيجة
للتخصص في زراعة القطن وما تبع ذلك من نشاط في حركة التصدير
ونمو في رأس المال وقيام مؤسسات قضائية وادارية • وكانت مصر قبل
الاحتلال البريطانى قد شهدت قيام الحكومة المركزية والادارة الحديثة
على النمط الغربى ، فتنسرب الى البلاد النظام الغربى للتعليم — على

حساب النمط التقليدي الذي أصاب بعض القصور — وكان هدفه تزويد البلاد بالموظفين • كما ازداد تدفق الأجانب على مصر ، وتغلغل الأساليب والعادات الغربية في المجتمع المصري ، وبخاصة في المدن • وعندئذ أخذت أسس التشكيل الاجتماعي تتضح ، ففي القمة كانت الطبقة الحاكمة القائمة على أرستقراطية الأرض التركية — المصرية ، وفي القاعدة بقيت فئات الفلاحين وأرباب الحرف أو الـ (tiers état) التي برزت منها طبقة وسطى جديدة من أصحاب المهن والموظفين • وتوزع كبار رجال الدين وصغارهم بين هاتين الطبقتين • أما البورجوازية الصناعية والتجارية فإن اختكارات محمد علي الصناعية والتجارية قد عرقلت نموها باستثناء التجار ورجال الأعمال الأوروبيين • ولكن بعض الأعمال التي قام بها الاحتلال كانت مسئولة عن حدوث تغييرات كمية كبيرة ، فمن طريق الادارة الجديدة التي أدخلها الى مصر والغاء السخرة والضرب بالكرباج نقل الاحتلال ، طوعا أو كرها ، الى المصريين المفهوم الخاص بأن السلطة خدمة اجتماعية وليست تسلطا ، وأن الوظيفة خدمة عامة وليست اقطاعية ، وأن الناس متساوون بالفعل أمام القانون ، وأن حقوقهم هي التي تحدد سلطة الحكومة وأن لم ينص على ذلك دستور مكتوب •

أما بالنسبة للانتعاش الذي أصاب الأدب العربي في مصر في ظل الاحتلال فلم يكن مرتبطا بالسياسة الانجليزية ، وإن يكن الانجليز قد خلقوا — في حدود ضيقة جدا — بيئة تشجع على العمل الخلاق والفكر الخلاق • ويجب أن نشير هنا الى الخطى الواسعة التي خطتها مصر نحو الامتزاج بالحضارة الأوروبية في أواخر عصر اسماعيل • ففي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، أخذت طوائف لبنانية وسورية كثيرة من الذين تخرجوا من مدارس اليسوعيين والبعوث الدينية الأوروبية والأمريكية المختلفة تهاجر الى مصر منذ عصر اسماعيل فرارا من اضطهاد العثمانيين أو سعيا وراء الرزق • ولم تلبث هذه الطوائف أن شاركت

في حياتنا الأدبية عن طريق الصحف مثل الأهرام وطريق الكتب والمؤلفات والمترجمات • واشتركوا معنا في نهضتنا الأدبية والثقافية ، وكانوا قد سبقونا إلى العناية بالآداب الغربية في بلادهم • وأخذ هؤلاء المهاجرون والمصريون جميعا يعملون في حقل غربي جديد وهو ترجمة الآداب الأوروبية بمعناها الواسع • ولم تتأثر هذه الموجة بالاحتلال بل ازدادت حدة وشدة • فترجم محمد عثمان جلال (١٨٢٩ — ١٨٩٨) وغيره من المصريين الكثير من أعمال عمالقة الكتاب الغربيين من أمثال موليير (Molière) وسانت بيير (Saint Pierre) وراسين (Racine) ولاسيما كتابه (Alexandre le Grand) ، ولافونتين (La Fontaine) وكذلك ترجم بعض هؤلاء المهاجرين السوريين لشكسبير وغيره من الغربيين^(١) • وقد توج هذا المجهود الخاص بترجمة روائع الأدب العالمي بالثمرة المنتظرة ، وهي ظهور أدب مصرى انساني يتمثل في إنتاج محمود سامي البارودي (١٨٤٠ — ١٩٠٤) وأحمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) وحافظ إبراهيم (١٨٧١ — ١٩٣٢) واسماعيل صبري (١٨٥٤ — ١٩٢٣) وغيرهم • حقيقة أن الاهتمام بالتراث العربي قد ظهر في عصر اسماعيل ، ولكن خطأ شعراء النهضة عندنا بشعرنا خطوات واسعة ، فاستأنفوا حياتهم القديمة الشخصية ، وطوعوه ليؤدي حياتنا العامة أداء دقيقا • وبذلك أخذت مصر نصيبها من التفوق والامتياز وتبوأ مكانة ممتازة في تاريخ الشعر العربي الحديث •

ولكن ظهر في مصر في مطلع القرن العشرين جيل جديد تتقف ثقافة عميقة بالآداب الانجليزية وغيرها من الآداب الغربية واختلف عن الجيل السابق في فهم الشعر وتصوره • فأرادوا أن يكون الشعر قبل كل شيء تصويرا لعواطف انسانية تزدحم بها النفس الشاعرة ، وتندفع على لسان

(١) شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، ص ٢٤ — ٢٦ •

الشاعر لحنا خالدا يصور صلته بالعالم والكون من حوله^(٢) • ومن رواد هذا الجيل عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ — ١٩٥٨) ، و ابراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ — ١٩٤٩) ، وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ — ١٩٦٣) • وقد تخرج الأولان من مدرسة المعلمين العليا • أما العقاد فلم يدرس دراسة منتظمة ، ولكنه حقق لنفسه تنقفا أصيلا بالانجليزية وما أنتجته قرائح الشعراء والنقاد فيها • ولم يلبث الثلاثة أن ألفوا مدرسة شعرية رائعة بثت روحا جديدا في شعرنا الغنائي ودفعته قدما نحو تطور واسع • ومهما كان الأمر فيجب ألا ننسى أن التأثير بالرومانسية الأوروبية كان نتيجة لروح التساؤم الشديد الذي سرى بين الشباب لأن المستعمر وأعوانه حالوا بينهم وبين حريتهم • فلقد تفتحت أعينهم في أوائل هذا القرن على الاحتلال الانجليزي المبغيض الذي داس ثرى الوطن وأمجاده •

ومن بين العوامل التي ساعدت على انتعاش الأدب العربي في مصر ذلك النضج الذي طرأ على بعض تلامذة جمال الدين الأفغاني ، ورجوع بعض أعضاء البعثات من أوروبا بعد أن تلقوا تعليما عميقا في الدراسات الانسانية ، وحملوا لنا زادا من الحضارة الأوروبية • وكان من ثمرة هذه النهضة أن تأسست الجامعة المصرية وفتحت أبوابها في عام ١٩٠٨ ، وألقيت بها محاضرات في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ألقاها أساتذة مصريون وأوروبيون من المستشرقين • وبدل هذا بشكل واضح على أن مصر انتقلت في حياتها الفكرية نقلة كبيرة ، فهي لا تدرس العلم والأدب الغربي لإنشاء جيش أو طبقة من موظفي الدواوين أو معلمى اللغات في المدارس كما كان الحال في عهد محمد علي ، وإنما تدرسهما من أجل أنفسهما ، ومن أجل البحث الحر والمتعة بهذا البحث • وقد خلق كل ذلك جمهورا لديه الفراغ والتعليم والرغبة في القراءة مما ساعده على اقتحام أسوار الحضارة والثقافة الأوروبية •

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ — ٩٦ •

٢ — عواهل ظهور الأحزاب السياسية :

انتهت الثورة العرابية بسجن زعمائها وتشييدهم ، وخمدت الحركة الوطنية طوال عهد توفيق بسبب ذلك التحالف البغيض بينه وبين سلطات الاحتلال التي ارتمتى في أحضانها ودان لها بكيانه • واستبعد اللورد كرومر بهصر وأنكر عليها الحقوق النيابية واعتقد أن الاحتلال الانجليزى كان منجاة لها واصلاحا لمالتها وحلا حاسما لمشكلتها • ولكن انجلترا ما كانت تعتمد في احتلالها لمصر على حق شرعى أو قانونى ، اذ كانت البلاد من الناحية الدولية تابعة للدولة العثمانية • وعرضت الحكومة العثمانية في أواخر أكتوبر ١٨٨٢ الدخول في مفاوضات مع انجلترا بشأن جلائها عن مصر • ولم تهتم انجلترا بطلب الدولة العثمانية ، ولكنها وجدت في النهاية أن من صالحها التفاهم مع الحكومة العثمانية بشأن المسألة المصرية لتقوية مركزها في « الشرق الأوسط » • ولذلك قررت ايفاد سير هنرى درمند ولف (Sir Henry Drummond Wolff) في بعثة الى استانبول والقاهرة للتفاوض مع الحكومة العثمانية على أساس تحديد موعد للجلاء في سنوات معينة ، والاتفاق على عودة الاحتلال ثانية بالاشتراك مع الدولة العثمانية في ظروف معينة تحدد • واستغرقت مهمة البعثة المدة من أغسطس عام ١٨٨٥ الى يوليو عام ١٨٨٧ ، وتوصل السير درمند ولف الى اتفاق مع الحكومة العثمانية في ٢٢ مايو عام ١٨٨٧ ، ولكن عملت فرنسا وروسيا على فشل هذه الاتفاقية ، وهددتا السلطان لأن انجلترا لم تعين في هذه الاتفاقية تاريخا فعليا قريبا للجلاء عن مصر • وأبلغتا السلطان أنه اذا وافق على شروط السير هنرى

درمند ولف فانهما تصبحان في حل من احتلال أى جزء من أجزاء
الامبراطورية العثمانية فتحتل فرنسا سورية ، وتحتل روسيا أرمينيا •
وتحت تأثير هذه المعارضة القوية رفض السلطان التصديق على الاتفاقية،
وبذلك لم تعد إنجلترا تفكر اطلاقا في احتمال دعوة الدولة العثمانية
للتعاون معها في المسألة المصرية ، بل أخذت تقوى تدريجيا لديها فكرة
اطالة أمد الاحتلال في مصر • ومما ساعدها أيضا على التمدادى في هذا
الاتجاه معارضة اللورد كرومر الشديدة للجلء •

وهكذا ضعفت فكرة الجلء عن مصر فعلا بعد عام ١٨٨٧ بسبب
زيادة المصالح البريطانية في البلاد ، وأصبحت قناة السويس « مصلحة
امبراطورية » ، وزادت مصالح إنجلترا التجارية والقطنية في مصر • كما
زادت أهمية مصر في نظر إنجلترا حين فكرت الحكومة البريطانية جديا
في استرجاع السودان لمصر • وفي الحقيقة كان اتفاق الحكم الثنائى
(Anglo-Egyptian Convention) الذى أبرمته إنجلترا مع مصر في ١٩
يناير عام ١٨٩٩ قد ثبت أقدامها في وادى النيل كله بحيث لم يمكن أن
تتزعزع عن مكانها مادام هذا الاتفاق معمولاً به باعتباره نظاما أساسيا
للموضع السياسى في السودان ، ولذلك فان انهاءه بانفاقية ١٢ فبراير
عام ١٩٥٣ ، قبل اتفاقية الجلء ، كان الخطوة الصحيحة لتحقيق الجلء،
واقتلاع السيطرة الأجنبية من وادى النيل • وعلى الرغم من ذلك ظل
مركز إنجلترا في مصر مزعزا الآن مصر ظلت من الناحية الشرعية
خاضعة لسيادة الدولة العثمانية ، كما أنها لقيت معارضة قوية من جانب
الشعب المصرى والدول الأوروبية وخصوصا فرنسا • ونتيجة لذلك رأت
إنجلترا أن من الضرورى أن تصلح علاقاتها مع فرنسا لتأمين مركزها
في مصر ، وجعلت مفتاح ذلك مسألة مراكش • ووقعت إنجلترا معها في
٨ أبريل عام ١٩٠٤ الاتفاق الودى (Entente Cordiale) الذى حصلت
به على اعتراف فرنسا بمركزها الفعلى في مصر ، مع الاحتفاظ بالحالة

السياسية فيها دون تغيير • وبهذا الاتفاق ثبت الاحتلال البريطاني أقدامه في مصر من الناحية الفعلية ، ولم يعد هناك ما يحول دون فرض السيادة البريطانية الكاملة على البلاد سوى ذلك الخيط الشرعي الرفيع ، الذي كان يربط مصر بالدولة العثمانية • ولكن لم تمر عشر سنوات أخرى حتى أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر وأصبح مركزها مضمونا من الناحيتين الفعلية والشرعية •

وعلى أية حال فرضت إنجلترا على مصر في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١٤ حماية مقنعة (veiled protectorate) ، ففي حين ظلت السلطة الشرعية في البلاد في أيدي الخديو ومجلس الظفار ، تركزت السلطة الفعلية في يد اللورد كرومر الذي استمر في منصبه حتى عام ١٩٠٧ • ولكن اذا كانت الحركة الوطنية قد همدت في السنوات العشر الأولى التي تلت الاحتلال ، فان الوضع قد تغير بعد اعتقال عباس حلمي الثاني كرسى الخديوية عقب وفاة أبيه في ٧ يناير عام ١٨٩٢ • وكان عباس الثاني شابا طموحا لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره عندما استدعى من النمسا حيث كان يتعلم في التريزيانوم (Theresianum) — أى مدرسة الأمراء وكان عباس شديد الإعجاب بجده اسماعيل وكان يحتقر والده لضعفه واستسلامه • وساءه عندما عاد الى مصر أن رأى الانجليز قد فرضوا سيطرتهم على وزارات الحكومة ومصالحها ، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع • ولقد شجعه مستشاروه على استرداد حقوقه باعتبار أن فرنسا — ومن ورائها روسيا — تسندان استقلال مصر الذاتي • وقام عباس بتغيير الحاشية التي أحاطت بوالده وتوود الى المصريين الذين أحبوه واستبشروا به خيرا لدرجة أن كرومر اعتقد أن المبادئ العرابية قد عادت الى الظهور تحت اسم جديد هو لقب الخديوية ، وأن الحالة قد أصبحت كثيرة الشبه بما كانت عليه عند بدء ثورة ١٨٨١/١٨٨٢ • وفي الواقع كان عباس جريئا واسع الأمل ،

« مصر يا بحثا » كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول^(١) . وعندما حاول الخديو القضاء على سيطرة الاحتلال اصطدم بكرومر الذى قرر أن يلقنه درساً يفهمه حقيقة الموقف فى مصر .

بدأ عباس مقاومة الاحتلال فأقال وزارة مصطفى فهمى فى يناير عام ١٨٩٣ ، وكانت وزارة موالية وخاضعة للنفوذ الانجليزى وتحظى بثقة كرومر وتأييده . ولذلك كانت اقالة الوزارة هى أول دور من أدوار ذلك النزاع الخطير ، اذ احتج كرومر بشدة على مسلك الخديو ولم يعترف بوزارة حسين فخرى باشا (١٨٤٣ — ١٩٢٠) التى عينها عباس مكان الوزارة المقالة . وأيدت الحكومة البريطانية كرومر فاضطر عباس الى التراجع والموافقة على اقتراح كرومر بتولية رياض باشا على رأس وزارة جديدة ، وبالإضافة الى ذلك استصدر كرومر نصيحة من الحكومة البريطانية لعباس بألا يجرى تعديلا وزاريا دون استشارة المعتمد البريطانى . ولقد أثار موقف عباس هذا عطف الشعب والثقافة حوله ، ولكن السياسى العجوز تصيد فرصة أخرى لتوجيه لكمة قوية الى عباس عندما احتك الخديو بكتشنر — سردار الجيش وقتذاك — فبادر كرومر الى الاتصال برياض باشا يطلب تقديم اعتذار رسمى من الخديو عباس ينشر فى الصحيفة الرسمية ويهدد بخلعه . ولم يجد عباس بدا من الاعتذار لأنه وجد نفسه « وحيدا للمرة الثانية » ، ولكن هذه الحادثة كانت ضربة قناضية لنفوذ عباس فى الجيش . ولقد انتهى الأمر فى الجيش الى ما توقعته صحيفة الأهرام فى تعليقها على الحادث حين قالت : « ان الضباط والعساكر المصريين سينتهى بهم الأمر الى أن لا يعرفوا رئيسا عسكريا سوى كتشنر باشا ، ولا رئيسا سياسيا سوى اللورد كرومر »^(٢) .

(١) كرومر ، عباس الثانى ، ص ٢١ ، ٢٨ .

(٢) محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ، ج ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢ .

ووجد الخديو نفسه وحيدا أمام كرومر لاسيما وأن قنصلى فرنسا وروسيا اللذين كانا يشجعانه على مقاومة الانجليز قد تخليا عنه ، ولكن لم يكن من خصال عباس الشاب الاستسلام للهزائم • وحاول عباس الاحتماء بالدولة العثمانية والسلطان صاحب السيادة الشرعية على مصر من الانجليز ، فارتضى بين أحضان السلطان عبد الحميد كما يرتضى الطفل بين يدي أبيه طلبا للحماية من كلب ضار • ولكنه لم يلق من السلطان سوى النصائح والتشجيع على مقاومة الاحتلال لأن السلطان نفسه كان عاجزا عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها • وكتب سفير بريطانيا في استانبول في هذا الشأن يقول : «ان السلطان نصح الخديوى بطريقة أبوية أن يفوض أمره الى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويثق بفعل الزمن ، محافظا دائما على العلاقات الحسنة مع الانكليز » •

أما في داخل مصر فلم يدع عباس حلمي فرصة للاتصال بالشعب الا اقتنصها ، ولذلك مدحه الشعراء ومجدوا فيه وطنيته الصادقة وكانت شيئا جديدا من جانب أسرة محمد على التى عاملت المصريين من قبل بكثير من الترفع والاحتقار • ولقد دفع الشعراء الى مدحه خلال الفترة الأولى من حياته شعور وطنى خالص • وحاول عبد الله النديم أن يجمع المصريين حوله عن طريق صحيفته «الأستاذ» ، واستأنف جهاده الذى بدأه مع عربى برغم ما ذاق فى سننى اختفائه العشر من آلام • ووجد عباس فى مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) الزعيم الوطنى الشاب الذى استطاع فى حدائة سنة أن يحمل علم الجهاد منذ عام ١٨٩٠ عندما كان طالبا بالمدرسة الثانوية • وقد تلقى مصطفى كامل دروسه الأولى فى الوطنية وفى السياسة على يد عبد الله النديم منذ عودته من منفاه ، وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العربية ودسائس السياسة الانجليزية ، وحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة واحدة تواجه الاستعمار • وجاهر مصطفى كامل فى أول حديث له نشر

في جريدة الأهرام في ٢٨ يناير عام ١٨٩٥ بالمطالبة بالجلء • وهكذا كان عباس محور الحياة السياسية والوطنية في ذلك الوقت • وسعى للاستناد على المثقفين في نضاله لأن طبقة كبار ملاك الأراضي من المصريين قد ترددت بين الولاء للخديوية أو الاحتلال الذي حاول في سياسته الداخليه كسبهم بجانبه بأن عين منهم نوابا في الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين • واتفق مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية من بعض الشبان الممتازين بالوطنية ممن بلغوا التعليم العالي في مصر والخارج •

وفي ذلك الوقت أيضا كان لتقدم الشعور بالحرية ونمو الروح القومية في أوروبا وآسيا وفي الدولة العثمانية بوجه خاص أثر كبير على مصر التي تملك ناصية الشرق والغرب • وميز الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهور القوميات المتوثبة في ألمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان والصين ، ومن ثم تأثرت مصر بهذا التيار اذ لم يكن من المعقول أن تعيش عن العالم بمعزل أو أن تنسى مجدها القديم أو استقلالها • ولم يكن الحكم البريطاني مهما تشدق الاستعماريون بقوته ونزاهته سوى حكم أجنبي دكتاتوري لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يمثل أمانى الشعب المصرى أو يعمل على تحقيقها • حقيقة أن سلطات الاحتلال في مصر قد اكتسبت الى جانبها العمد والمشايع وكبار الملاك الزراعيين وبعض العناصر الأخرى ولكنها فشلت في اجتذاب رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن المثقفين والبورجوازيين الذين لم يمتلكوا أرضا ولم يتأثروا بسياسة الاحتلال الزراعية • وعلى ذلك لم يمت الشعور القومى في مصر بل قام شعبان الجيل الجديد أو الطليعة المثقفة الناشئة من المحامين والأطباء والمهندسين والصحفيين والمعلمين وغيرهم ينادون بحقوقهم السياسية • فكانوا يتوقون الى أن يلعبوا دورهم في الحياة السياسية ، ويحملون الأوتوقراطية الخديوية مسئولية الكوارث التي حلت بمصر ، ويتجهون الى تحديد السلطة الخديوية باعتبار ذلك وسيلة للتخلص من التدخل الأجنبى • ولقد تأثر

هذا الجيل من المثقفين تأثرا كبيرا بالاتجاهات الغربية واختلف عن أولئك الذين تنظمذوا في الأزهر وتأثروا بالبيئة الدينية التي كان لها وزن كبير خلال الثورة العرابية • وحدث تصادم بين الفكر التقليدي والفكر المتأثر بالغرب ، وانعكس ذلك في برامج الأحزاب السياسية التي ظهرت في مصر فيما بين عامي ١٩٠٧ و ١٩١٤ •

تزعم مصطفى كامل اذن الحركة الوطنية بعد الاحتلال ، وذكر المصريين بماضيهم وجمال تاريخهم ، وخصص كل جهوده لاثارة عاطفة الوطنية وتمجيدها • وكانت نشأة مصطفى كامل تختلف عن نشأة أحمد عرابي وغيره من زعماء الثورة العرابية ، فهو لم يثقل تعليمه في الأزهر، بل تلقاه في المدارس الأميرية ثم أكمله في فرنسا لأن عباسا اصطفاه وأرسله في هذه البعثة • وفي فرنسا تعرف مصطفى كامل بفرنسيين من أعداء السياسة البريطانية هما السيدة جوليت آدم Mme Juliette Adam (١٨٣٦ — ١٩٣٦) أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب ، والمسيو فرنسوا دلونكل (François Deloncle) الزعيم السياسي وعضو البرلمان الفرنسي • وقد زار مصطفى كامل مجلس النواب الفرنسي في عام ١٨٩٥ وقدم اليه عريضة تطالب حكومة فرنسا بالعمل لاستقلال مصر : « جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة — فرنسا — التي حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الاسلامي الوثائق بها ؟ ... فلتحى فرنسا محررة الأمم » (١) •

وعلى الرغم من أن مصطفى كامل قد سلم بالمفهوم الليبرالي

(١) عبد الرحمن الرافعي ، مصطفى كامل ، ص ٥٠ — ٥٢ .

للوطنية ، فانه كان ممن ورثوا الفكر السياسى لدى جمال الدين الأفغانى : فكان قوى العقيدة الدينية ورأى « أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يجب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وما تملك يده »^(١) . ولقد آمن مصطفى كامل بأن لمصر كيانا مستقلا ولكنه أيد النفوذ العثمانى فى مصر ، اذ اعتقد أن ذلك هو السبيل الوحيد لنسأة الاستعمار . وقد أجاب الأميرالاي بارنج Baring (شقيق اللورد كرومر) عندما قابله فى لندن عام ١٨٩٥ وسأله عن جنسيته بقوله « مصرى عثمانى » ، وأضاف قائلا عندما تعجب بارنج لجمعه بين الجنسيتين بقوله : « ليس فى الأمر جنسيتان بل فى الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية » . وقال مصطفى كامل كذلك فى خطبة له فى الاسكندرية عام ١٨٩٧ : « ان مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الانجليز فى مصر »^(٢) . ولما كان مصطفى كامل يعتمد فى مطالبته بالجلء وتمتع مصر باستقلالها الذاتى على ما للدولة العثمانية من حقوق دولية فى مصر ، فانه كان من الطبيعى أن يؤيد حركة « الجامعة الاسلامية » تحت لواء السلطان العثمانى . وكتب مصطفى كامل فى عام ١٨٩٨ كتابا بعنوان « المسألة الشرقية » دافع فيه عن الدولة العثمانية دفاعا مجيدا وأكد ضرورة المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية قائلا : « ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى ، وأن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق »^(٣) . ويختتم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه بالدعوة الى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله : « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ ، ٣٤٦ — ٣٥٤ .

(٣) مصطفى كامل ، المسألة الشرقية ، ص ١٣ .

انكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء •
فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعا حول راية السلطة السنية ، وأن
يدافعوا عن ذلك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم في هذا
الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدا وواجب المسلمين
أن يلتفتوا أجمعين حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة ، وأن يعززوها
بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها
رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية»^(١) • ولقد أنعم عليه السلطان في
عام ١٨٩٩ برتبة «التماييز» فصار مصطفى بك كامل ، وفي عام ١٩٠٤
منحه السلطان رتبة الباشوية •

حقيقة ، دعا مصطفى كامل الى التقارب الوثيق مع الدولة العثمانية
واعتنق أفكار حركة الجامعة الاسلامية ، ولكنه بلا منازع كان أول مصري
اكتمل لديه الوعي القوي فأداه تأدية من يشعر بمعناه شعورا لا تردد
فيه • فكان مصطفى كامل هو أول من هتف بعبارة « تحيا مصر » ، وكان
دائم الاستعمال للتعبيرات القومية المصرية الواضحة في خطبه وبياناته •
ولقد تجلى ايمانه بمصر في رسالته الأولى التي بعث بها الى الأدبية
والمؤرخة مدام جوليت آدم ، ولم يكن يومها قد تعرف عليها ، اذ قال :
« ان لى آمالا كبيرا ، فانى أريد أن أوقف في مصر الهرمة مصر الفتاة •
هم يقولون ان وطنى لا وجود له • وأنا أقول ياسيدتى انه موجود •
وأشعر بوجوده بما أنس له في نفسى من الحب الشديد ••• » ورد
مصطفى كامل على رحالة ألماني زعم أن الحركة الوطنية غريبة عن مصر ،
برسالة جاءت فيها الفقرة التالية : « ان المصريين الفاعمين بالدعوة
الوطنية العاملين ضد الاحتلال الانجليزى الساعين في سبيل تحرير
وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين وأغلبهم أبناء الفلاحين

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ •

أما أننا فافخر وأنتشرف بأننى ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون يظهر اذن جليا أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الأصل عن الفلاحين ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين فى الماضى لأنهم اما اخوتنا أو آباؤنا • • • » .
وقد دعا مصطفى كامل الى هذه الأفكار فى جريدة « اللواء » التى صدر العدد الأول منها فى ٢ يناير عام ١٩٠٠ ، وعاونهُ الخديو عباس على إصدارها • وكانت « اللواء » بمثابة مدرسة علمت المصريين حقوقهم وواجباتهم وبصرتهم بحقائق بلادهم ومساوئ الاحتلال وحثتهم على الجهاد فى سبيل الاستقلال • وبالإضافة الى النواحي السياسية اهتمت اللواء أيضا بالمسائل الاقتصادية والأدبية والعلمية •

ولقد بدأ مصطفى كامل فترة جديدة من كفاحنا القومى تختلف فى تفاصيلها عن الفترة السابقة : ففى حين اعتمدت الثورة العرابية على قواها المحلية وحدها ، استندت حركة مصطفى كامل فى البداية الى كل من الخديو وفرنسا والدولة العثمانية • وكان الاستقلال الذى طالب به مصطفى كامل هو استقلال مصر الذاتى كما تقرر فى معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ ، فنفر بعض المصريين اذ رأوا فى هذه الدعوة استبدالا لتبعية بأخرى • ولكن فهم مصطفى كامل للظروف الدولية هو الذى دفعه الى الاتجاه نحو الدولة العثمانية ، اذ أنه أيقن أن انقطاع العلائق يؤدى الى سقوط مصر فى يد الانجليز • ومن ثم رأى مصطفى كامل أن جلاء انجلترا عن مصر هو الرمز للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فان المتخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال • كما دفعه هذا الفهم للظروف الدولية المحيطة بالقضية المصرية أيضا الى اللجوء الى الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا لأكراه انجلترا على الجلاء عن مصر • وكانت الصفة الدولية للقضية المصرية تستند من الناحية القانونية الى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، والفرمانات المؤكدة لهذه المعاهدة ، الى جانب الفرمانات التى أصدرتها الحكومة العثمانية فى عهد الخديو

اسماعيل بشأن اختصاصات ومسئوليات الخديوية • ولكن مصطفى كامل لم يلبث أن خاب أمله في فرنسا ، وصدمت الحركة الوطنية صدمتين • الصدمة الأولى بعد حادث فاشودة عام ١٨٩٨ الذي دل على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا في احتلال مصر ، والصدمة الثانية بعد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ • وبذلك ضعف أمل مصطفى كامل في تدخل أوروبا لانتقاذ مصر وانهار ركن من أهم أركان سياسته ، وكتب الى جوليت آدم في ١٠ مايو ١٩٠٤ يقول : « ان مواطني يكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجلترا نفسها ••• ان موقفى الشخصى يعد من أصعب المواقف وأخطرها ، فان جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا اما أصدقاء للانجليز أو يائسين من الكفاح » (١) •

ولكن مصطفى كامل لم ييأس بل استمر في طريقه يحمل علم الجهاد مناديا بالجلء • ولقد استطاع مصطفى كامل أن يجتذب اليه بعض الأعيان المتصلين بالسراى وكثيرا من الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى، من الموظفين والطلبة والمحامين • وبدأت مظاهر اليقظة القومية تظهر في الشباب المثقف بشكل عملى في عام ١٩٠٥ ، عندما فكروا في انشاء ناد للمدارس العليا وتم افتتاحه في أبريل عام ١٩٠٦ • وكان هذا النادى بمثابة معهد وطنى علمى أخلاقى تكون فيه جيل من خيرة الشباب المصرى، اذ امتزج الطلبة بالمتخرجين فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى • وقد ظل النادى قائما يؤدى مهمته خير أداء حتى أغلق بأمر السلطة العسكرية البريطانية في أوائل الحرب العالمية الأولى •

ولقد تأصلت الحركة الوطنية في نفس مصطفى كامل ، ورأى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان وقال : « كل احتلال أجنبى

(١) أحمد رشاد ، مصطفى كامل ، ص ١٨٣ •

هو عار على الوطن وبنيه » • ولذلك خالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب اليه ، وأفاد من أخطاء العربيين وحاول رآب الصدع الداخلي الذي نفذ منه المستعمر • فعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين المصريين وبين الخديو عباس الثانى ، وتجنب الصدام بينه وبين الخديو حتى فى الأوقات التى تيقن فيها ألا مجال لحفظ الود بينهما • كما حاول من ناحية أخرى التوفيق بين عنصرى الأمة الدينيين — عنصرى المسلمين والأقباط — اللذين يتكون منهما الشعب المصرى ، وقال : « ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » • وحرص على نشر التعليم ادراكا منه أنه أداة لنشر الوعى القومى الصحيح والقضاء على النعرات الدينية التى كان هو يحاربها بكل قوته ، وانهم كرومر بالاهمال المقصود للتعليم • وأصدر مصطفى كامل فى عام ١٩٠٧ صحيفتين باللغتين الفرنسية والانجليزية : ظهرت الأولى وهى صحيفة الانتدار اجبسيان (L'Etendard Egyptien) فى ٢ مارس من نفس العام ، والثانية وهى ذى اجبسيان استاندر (The Egyptian Standard) ، بمعنى اللواء ، فى اليوم التالى ، وكانتا صورتين لجريدة اللواء الصادرة باللغة العربية مع تعديل فحواهما بما يناسب المستوطنين الأجانب بمصر • وأشرف مصطفى كامل على تحرير هذه الصحف الثلاث بنفسه ، واختار لتحرير الصحيفتين الصادرتين بالفرنسية والانجليزية محررين من خيرة الكتاب الأوروبيين^(١) • وتوجت جهود مصطفى كامل فى عام ١٩٠٧ بإنشاء الحزب الوطنى فى مواجهة ظهور حزب الأمة ، على الرغم من أن مصطفى كامل كان لا يؤمن بإنشاء حزب رسمى اعتقادا منه أن ذلك من شأنه أن يؤدى الى انقسام الأمة •

Goldschmidt, The Egyptian Nationalist Party; 1892-1914, (١)
in Political and social change in modern Egypt, pp. 314-315.

ولم يعيش مصطفى كامل طويلا بعد تأليف حزبه ، فقد أسلم الروح في ١٠ فبراير عام ١٩٠٨ ، ولكن حياته القصيرة لم تمنع أفكاره من تكوين تيار قوى استمر عشرات السنوات من بعد وفاته . وكانت زعامة الحزب الوطنى من نصيب محمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) ، وكيل الرئيس الراحل ، وزميله فى الرأى والعمل . ودعا محمد فريد الى ايجاد نهضة مصرية شاملة فى مختلف الحقول . ولم يرض أن تنحصر قومية مصر فى مفاهيم سياسية عابرة ، بل دعمها بتراث علمى ، وتسنى له بذلك تطوير وطنية زميله وصلها . ولقد انغمس محمد فريد فى الحركة الوطنية منذ أن تخرج من مدرسة الحقوق عام ١٨٨٧ ، فأخذ يكتب مقالات وطنية فى صحف ذلك العهد (خاصة فى المؤيد) حول تاريخ مصر القديم والحديث ، ووجوب اعطاء مصر حقوقها السياسية ومنحها دستورا تقدميا . ويعتبر محمد فريد من أوائل الداعين لتأسيس الجامعة المصرية ، ومن المسهمين فى الحركة التعاونية وفى نقابات العمال ، ومن المطالبين بانصاف الفلاحين ونشر الثقافة واشراك الشعب فى تقرير مصيره . كما أشرف محمد فريد على عدة دراسات موضوعية عن أوضاع مصر الزراعية والثقافية والصناعية ، وكان على اتصال مستمر بالجمعيات المصرية فى أوروبا ومن الممكن أن تعتبر هذه الجمعيات من الدعائم التى رسخت بها القومية المصرية فى الربع الأول من القرن العشرين . فقد كانت تعقد مؤتمرات دورية لدراسة أوضاع مصر فى مختلف الحقول ، والبحث فيها على أسس علمية واعية متفتحة . هذا الى جانب أثر تلك المؤسسات فى الدعوة لمصر وحقوقها فى أوروبا . واشترك محمد فريد أيضا فى المؤتمرات العالمية ، مثل مؤتمر الشعوب العنصرية والسلام ، والاشتراكية الدولية . وكان فريد ينادى فى هذه كلها بمبدأ « مصر للمصريين » . وقال فى خطاب ألقاه فى مدينة ليون ، فى حفلة أقامتها الجالية المصرية هناك لتكريمه : « لا تظنوا أن أبا الهول نائم تماما . كلا ، فإنه ينام باحدى عينيه وينظر

بالأخرى الى الأمم الفاتحة التى توالى على مصر وذهبت كأمس الدابر . وهو رابض مكانه يمثل الأمة المصرية الأبدية التى لا يؤثر فيها المعرون بل هى دائما ملأى بالحياة ومن طبيعتها أن تتغلب على الفاتحين فتدمجهم فيها . وهذا ما يجعل أملنا شديدا فى نيل استقلالنا وحريتنا » .

لم يستمر موقف الخديو عباس حلمى الثانى من الاحتلال فترة طويلة ، اذ تضعضع عباس وخار عزمه أمام اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر . وفقد الخديو الأمل فى أية مساعدة حقيقية من المصادر التى كان يرجو مساعدتها ، فبدأ سياسة التسليم للاحتلال بعد حادث فاشودة ، ووافق على اتفاقية السودان عام ١٨٩٩ . وتوالى خضوعه للاحتلال اذ شهد العرض الذى كان يقيمه جيش الاحتلال فى ميدان عابدين بمناسبة ميلاد الملكة فيكتوريا ثم الملك ادوارد السابع من بعدها ، ووقف للمرة الأولى تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر فى عام ١٩٠٤ ، مرتديا بدلة التشريفة الكبرى يحيط به حرسه الخاص ، وقبل تعيين ياور انجليزى له فى عام ١٩٠٥ وهو الجنرال واطسن . وانصرف عباس فى غمرة يأسه الى المال يجمعه فى شره ولا يبالي شيئا غير تحقيق منفعته ، متعذرا عن مسلكه بأنه يعادى دولة قوية قاهرة تحتاج فى حربها الى المال ، وبأنه لا يدري أينتهى الأمر بظفره فينجح فى اجلائها أم تظفر هى فتطرده خارج مصر ؟ وأدى انحراف عباس الى تحول الشعب عنه وسخطه عليه ، كما فترت علاقة الخديو بمصطفى كامل . وهكذا خضعت « السلطة الشرعية الحاكمة » فى مصر للاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٦ ، ولم يبد الخديو أى اعتراض على تزايد السيطرة البريطانية فى الادارة . ولقد أدى هذا التغيير فى موقف الخديو الى حدوث انقسام فى صفوف الحركة الوطنية التى ظلت متحدة متماسكة فترة من الزمن ، فانقسمت الى ثلاث جماعات متميزة كونت فى عامى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ الأحزاب السياسية المصرية الرئيسية

الثلاثة في تلك الفترة ، وهى الحزب الوطنى وحزب الاصلاح الدستورى
وحزب الأمة •

وهكذا يتبين أن تطور الحركة الوطنية وحدوث تغييرات اجتماعية
وفكرية من أهم العوامل التى أدت أخيرا الى قيام الأحزاب السياسية •
فلقد تيسر للأعيان والمثقفين — وهما الطبقتان الأساسيتان اللتان لعبتا
الدور الأساسى فى الحياة الحزبية فى مصر — الاتصال بأوروبا وبفكرها
المسياسى • كما شهدت الفترة التى سبقت قيام الأحزاب وواكبتها صدور
مجلات وجرائد اهتمت كثيرا بنشر الفكر الأوروبى فى عام ١٨٩٨ ، فقد
كانت فى مصر ١٦٩ جريدة ومجلة وبلغ عددها عام ١٩١٣ الى ٢٨٢ •
وهذه الصحف وان كانت تعبر أساسا عن وجهات نظر سياسية قد تضمنت
كثيرا من الأعمال الفكرية ذات القيمة الكبرى • وبالإضافة الى ذلك
توجد عوامل أخرى سياسية واقتصادية ساعدت على ظهور وتكوين تلك
الأحزاب السياسية وهى :

(١) حادثة طابة ١٩٠٦^(١)

طابة هذه موقع على رأس خليج العقبة الى الجنوب الغربى من
أم الرشراش أو ايلات الحالية • وعندما تولى عباس الثانى خديوية مصر
فى عام ١٨٩٢ أرادت الدولة العثمانية أن تخرج سيناء من فرمان التولية
ولكن عارضت انجلترا وانتهى الخلاف بأن بقيت ادارتها فى يد مصر •
ولكن فى يناير عام ١٩٠٦ احتل الأتراك طابة فى محاولة لانتزاع ما تيسر
لهم انتزاعه من سيناء • وقد تدخل الانجليز لوقف محاولات العثمانيين
والاحتفاظ بسيناء لمصر وأدى ذلك الى قيام أزمة عنيفة بين الدولة

(١) يونان ليبب رزق ، أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابة ، المجلة
التاريخية المصرية ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤٧ — ٣٠٥ •

العثمانية وبريطانيا من يناير الى مايو عام ١٩٠٦ • ورأت انجلترا أن قبول مطالب الدولة العثمانية يعتبر خطرا على حرية قناة السويس وسلامة مصر والأسرة الخديوية، وأرسلت انجلترا قوة الى خليج العقبة • وبدأت المحادثات بين الانجليز والعثمانيين وتكونت لجنة انجليزية - مصرية - عثمانية لرسم الحدود المصرية واتفق على تحديدها بخط فاصل ادارى بين ولاية الحجاز ومصرفية القدس وشبه جزيرة سيناء ، جعل كل شبه جزيرة سيناء - باستثناء خليج العقبة - ملكا لمصر ، وبقيت مدينة طابة ملكا لمصر •

وقد اجتذبت هذه الحادثة اهتمام الرأى العام المصرى فانقسم ازاءها : فقلل الكثيرون من أهمية طابة وأظهروا عطفًا على وجهة النظر العثمانية ، وأنكروا على بريطانيا تدخلها فى المشكلة • ومما دعا هذا الفريق الى اتخاذ مثل هذا الموقف استنكارهم لدور الحماية الذى اتخذته انجلترا فى المشكلة وخشوا أن تكون تلك مقدمة لانهاء السيادة العثمانية وضم مصر الى انجلترا أو اعلان الحماية عليها • أما الفريق الآخر ، فكان يرى أنه يجب ألا يقع تنازل للسلطان عن أى جزء من الأراضي المصرية ، بحكم أن مصر مقيض لها أن تستقل عن كل من انجلترا والدولة العثمانية • وكان الفريق الأول أقوى من الفريق الثانى • وكما حدث ابان أزمة فاشودة كان معظم المصريين على استعداد للتضحية بمصالحهم الشخصية فى سبيل التعبير عن كرههم للاحتلال البريطانى • وقد انزعج تلامذة محمد عبده لهذا الاتجاه ودعوا الى اجتماع يضم من ينحون نحوهم - وكان هذا الاجتماع هو أساس نشأة حزب الأمة • أما مصطفى كامل فانه رفض الاعتراف بحق انجلترا فى حماية مصر وطالبها بسرعة الجلاء ، ووقف بجانب الدولة العثمانية يدافع عن مطالب دولة الخلافة • ووقفت صحيفتا اللواء والمؤيد تعضدان الدولة العثمانية وتحملان على الانجليز ، وهذا امتداد لايمان مصطفى كامل والشيخ

على يوسف (صاحب المؤيد) بفكرة الجامعة الاسلاميه وأهميه المحافظة على سيادة السلطان العثماني في مصر^(١) . وتعتبر حادثة طابة السبب المباشر لظهور الأحزاب السياسية .

(٢) حادثة دنشواي (١٩٠٦) :

وفي نفس العام وقعت أيضا حادثة دنشواي المشهورة فاستثارت الشعور القومي فغذى الحركة القومية بزاد جديد ، وأخذت به تمتد الى أعماق الريف . ويتلخص الحادث في أن بعض الضباط الانجليز خرجوا في رحلة لهم الى مديرية المنوفية لصيد الحمام على مقربة من قرية دنشواي . واستاء أهالي دنشواي من صيد الحمام ، واشتعلت ثورتهم عندما أصابت طلقات الضباط الجرن وأشعلت فيه النار وعندما أطلقوا النار على الأهالي . وفي ٢٧ يونيو عام ١٩٠٦ أصدرت المحكمة التي شكلت لمحاكمة أهالي دنشواي أحكاما لا تقبل الطعن تقضى على أربعة من الفلاحين بالشنق ، وعلى اثنين بالسجن مدى الحياة ، وعلى واحد بالسجن لمدة ١٥ سنة وعلى ستة آخرين بالسجن سبع سنوات وعلى ثلاثة بالحبس سنة مع الشغل مع جلد كل منهم خمسين جلدة . ونفذ المحكم في اليوم التالي على مرآى من الآباء والأبناء والأزواج ، وآمن في ذلك الوقت من لم يكن قد صدق دعوة « مصطفى كامل » عندما قال . « لا يغرنكم من المحتلين نعومة اللبس فقد يغلب عليهم زبانية الجحيم » . وهكذا أثارت هذه الحادثة الشاعر ضد وحشية الانجليز وقربت بين المصري العادي ومصطفى كامل ، وانتهزت صحيفتا (اللواء والمؤيد) هذه الفرصة فأخذتا تنشران آراءهما عن الجامعة الاسلاميه وتتناولان بؤس الفلاحين وتعددان بالسياسة الانسانية التي كان الانجليز ينادون

Ahmed, The intellectual origins of Egyptian nationalism, (١): pp. 59-60.

بها وبمهمتهم الحضارية التي يدعونها • كما انضم الأقباط الى موجة النقد العامة ضد الاحتلال البريطاني — وبذلك حقق مصطفى كامل الوحدة الدينية التي كان يصبو اليها • وقد وصف قاسم أمين الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله : « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول • وترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة » (١) • وبعد أيام من تنفيذ الحكم نشر حافظ ابراهيم قصيدته عن دنشواى ويقول فيها :

ليت شعري ... أتلک محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟
كيف يحلو من القوى المتشفی من ضعيف ألقى اليه القيادا ؟

وهكذا أدت حادثة دنشواى الي انتعاش الحركة الوطنية بعد فترة الركود والضعف التي انتابتها قبل وقوع الحادث • وأضاف تزايد العداء ضد الاحتلال الى صفوف الحركة الوطنية العناصر الكثيرة التي كانت مترددة من قبل • كما زادت حادثة دنشواى من روح التذمر بين الفلاحين وركزتها وبلورتها ووجهتها ضد الاحتلال وهذا يعتبر تحولا جديدا في تاريخ الحركة الوطنية لأنه قبل دنشواى حمل سكان المدن وحدهم ، وبخاصة المثقفين ، عبء الحركة الوطنية • ولقد تزايدت قوة الفلاحين وأصبح من الصعب مواجهتها كما حدث فعلا في ثورة ١٩١٩ • وبسبب هذه القوة التي اكتسبتها الحركة الوطنية واصلت سلطات الاحتلال عملها لتشجيع الفريق المتعاون مع الاحتلال من كبار الملاك والفئة المنضمة

(١) الرافعى ، مصطفى كامل ، ص ٢٠٣ •

اليهم من المثقفين على مواصلة جهودهم • وهكذا ساعد حادث دنشواى على بلورة الوضع فى مصر واستقطابه فى النهاية ، الى أن ظهرت بشكل رسمى الأحزاب المصرية الرئيسية الثلاثة المعروفة حينئذ •

(٣) سياسة الاحتلال الاقتصادية وأثرها فى إثارة السخط :

تدفق رأس المال الأجنبى فى مصر بعد عام ١٨٩٧ لأن إعادة فتح السودان بمساعدة انجلترا ثبت مركز الاحتلال فى مصر وأكسبه صفة الدوام فاطمأن أصحاب رعوس الأموال من الأجانب ، فتضاعف رأس المال الأجنبى خمسا وعشرين مرة بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٠٧ فثارت مخاوف المصريين • وزاد من مخاوفهم أن ثلاثة أرباعه كان مستغلا فى شركات الأراضى والرهون العقارية ، وأدى هذا الى أن الأراضى التى يملكها الأجانب تضاعفت ثلاث مرات بين عامى ١٨٨٧ و ١٩٠٦ وهدد ملكية المصريين لأراضيهم • وبالإضافة الى ذلك اشتمكى كثيرون من المصريين من العقبات التى وضعها كرومر فى سبيل قيام الصناعة فى مصر • كما أن صغار الملاك والفلاحين المعدمين لم يفيدا كثيرا من سياسة الاحتلال الاقتصادية ولم تتحسن حالتهم ، فتخفيض الضرائب كان ضئيلا واستمرت الضرائب مرتفعة تصل الى أكثر من ربع القيمة الايجارية للأرض • وكانت قروض البنك الأهلى (تأسس فى عام ١٨٩٨) تعطى بضمان الأراضى ، لذلك ساعدت كبار الملاك ومتوسطيهم على زيادة ملكياتهم ، أما صغار الملاك فساعدتهم على الاحتفاظ بأراضيهم دون أن ينتزعها منهم المرابون ، لكنها لم تمكنهم من تحسين حالهم بزيادة ملكياتهم ، فتركوا لعوامل تفتيت الملكية الناتجة عن نظام الوراثة ، وأدى هذا الى تضخم عدد صغار الملاك الذين يملك كل منهم فدانا أو أقل ، وهى مساحة ضئيلة لا تعول أسرة ، لذلك كان بعضهم يؤجر أراضى اضافية من كبار الملاك أو يعمل أجيرا ، وفقد بعضهم أرضه وتحولوا

الى اجراء • لذلك فان سياسة كرومر الزراعية أدت الى حركة استقطاب في الملكيات الزراعية ، والى زيادة التناقضات الطبقية بين كبار الملاك وصغار الملاك والفلاحين وتقوية روح التذمر في الريف •

وكان من بين العوامل التي زادت من تذمر صغار الملاك والفلاحين ذلك الارتفاع الكبير في الأسعار بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٦ حين وقع حادث دنشواى ، فقد تضاعف سعر القنطار من القطن وتضاعفت القيمة الايجارية للأرض حوالى مرتين ونصف فزاد ثراء كبار الملاك ولحق الضرر بهذا القطاع الكبير الفقير من أهل الريف • وهكذا انقسم الريف قبيل دنشواى الى ملاك أغنياء أمادوا من سياسة الاحتلال الزراعية ، وفلاحين وصغار ملاك لم يفيديوا كثيرا من تلك السياسة • هذا حال الريف ، أما بالنسبة للمدن فلم يكن الوضع أحسن حالا ، اذ ارتفعت تكاليف المعيشة وبخاصة ايجار المساكن ارتفاعا كبيرا في نفس الفترة قبيل دنشواى ، وتأثر بذلك الفقراء وذوو الدخل المحدود • كما عبر العمال عن استيائهم باضرابات متوالية ، اذ أضرب عمال السجاير بالقاهرة في عام ١٨٩٩/ ١٩٠٠ يطالبون برفع أجورهم ، وقاموا باضراب آخر في ديسمبر ١٩٠٣ • ولقد أسهم ارتفاع تكاليف المعيشة الذي اشتدت وطأته عام ١٩٠٧ في تحريك العمل الجماعى للطبقة العاملة • وقد أصبح موضوع « غلاء المعيشة » في هذه السنة من الموضوعات اليومية في الصحف وفي أماكن التجمع بالأحياء الوطنية بالقاهرة والاسكندرية • بل لقد أصبح — على حد ما جاء في الأهرام (فبراير ١٩٠٧) — « حديث السواد الأعظم من الشعب الذى يصرف جل كلامه واهتمامه الى الغلاء المحدث به من كل جهة : غلاء المأكول وغلاء المشروب وغلاء المسكن وغلاء الملابس » • وتألفت في القاهرة « لجنة للدفاع عن حقوق المستأجرين » جعلت أهدافها « تخفيض ايجارات المساكن ، ووضع

حد لاستبداد المالكين ، ووضع نظام لرفع الايجارات «^(١) . وقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن هذا الاستياء في القاهرة فقال :

أيشنكى الفقر غاديننا ورائحتنا ونحن نمشى على أرض من الذهب
وعلى أية حال ظل الأمر كذلك ولم تستعد مصر استقرارها الاقتصادى
الا قبيل الحرب العالمية الأولى .

(٤) أثر الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) :

بعد أن تلتقت القيصرية الروسية أول ضربة في حرب القرم أمام إنجلترا وفرنسا والدولة العثمانية في أوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، تلاشى النفوذ الروسى فى أوروبا الى حد كبير ، واضطرت روسيا الى الاتجاه وجهة شرقية ، الى التوسع فى شمال آسيا ووسطها ، حيث أخذت تصطدم بالنفوذ الانجليزى ، ثم بنفوذ اليابان الذى أخذ يظهر ويتفوق فى شرقى آسيا . فانهزمت القيصرية الروسية فى حربها مع اليابان فى أوائل القرن العشرين ، حين دمرت الجيوش اليابانية الجيوش الروسية فى شرقى آسيا فى موقعة موكدن Mukden (فبراير - مارس ١٩٠٥) ، وحين حطم الأسطول اليابانى الأسطول الروسى فى موقعة تسوشيما Tsushima (مايو ١٩٠٥) . وقد ألهم انتصار اليابان على روسيا مشاعر الشرقيين وزودهم بالأمل فى كسر حدة الموجة الامبريالية الأوروبية ، كما جذبت اليابان الانتباه لأنها كانت فى فترة قصيرة قد اصطنعت أساليب التقدم فى جوانبه المادية وقفزت طفرة واحدة الى حيز الدول الكبرى . كما ربط الشرقيون بين انتصار اليابان وبين أخذها بالنظام البرلمانى الأوروبى الذى عزى اليه تقدم اليابان

(١) أمين عز الدين ، تاريخ الطبقة العاملة المصرية ، ص ٧٦ - ٧٧ .

وقوتها واثارت موجة من الاعجاب بهذا النظام تجاوبت أصدائها في الشرق الأقصى وفي ايران وتركيا ومصر ذاتها • وقد استرعى انتصار اليابان نظر مصطفى كامل ، فقدمه الى أبناء مصر ليحثهم ويشجعهم على استئناف كفاحهم ، حتى النهاية ، ولذلك ألف كتابا عن اليابان نشره في عام ١٩٠٤ تحت عنوان « بلاد الشمس المشرقة » •

وتعرض مصطفى كامل في هذا الكتاب لتاريخ اليابان من أقدم العصور حتى عام ١٨٩٤ — حين حاربت الصين ثم تدخلت الدول الأوروبية لحماية الصين • كما تناول الحرب الروسية اليابانية • والكتاب في مجموعه يدور حول مدح اليابان التي لم تعتمد الا على قوتها الذاتية للتخلص من التقاليد الموروثة البالية ولتكون بلدا صناعيا كبلاد أوروبا ولتسمو الى مصاف الدول الكبرى • وكان هدف مصطفى كامل من وراء تأليف الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار الى الأمة اليابانية التي لم تكن شيئا مذكورا يوم أن كانوا أصحاب الحول والطول • وأراد مصطفى كامل أيضا أن يبين للمصريين كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداف الوطنية ، وكان ذلك الدرس الذي قدمه لمواطنيه مناسبا للظرف على أثر توقيع الوفاق الودى الذى حطم الأمل الخاص باستعادة مصر أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا ، بل لقد ألف حافظ ابراهيم قصيدة عن نهضة اليابان أحرزت شعبية واسعة •

وفي غمرة كل هذه الأحداث والتيارات ظهرت الأحزاب السياسية التي سنعرض لنشأتها وبرامجها بشيء من التفصيل في الصفحات التالية •

٣ — الأحزاب السياسية واتجاهاتها :

حزب الأمة :

لم تجد دعوة مصطفى كامل تجاوبا بين طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية والمثقفين من أبنائهم لأنهم حرصوا على صيانة أهدافهم الطبقية . وقد انتهى الأمر الى ظهورهم في كتل يعرف باسم حزب الأمة . ولقد شعر المثقفون من أبناء تلك الطبقة بحاجتهم الى صحيفة تعبر عن اتجاههم ، ولذلك فكروا في اصدارها عام ١٩٠٣ لكنها لم تتحقق الا بعد أن ألحت الظروف في اصدارها ، وفي ظل اشتداد الحركة القومية ولاسيما بعد حادث طابة الذي تحطم على صخرته كل أمل يعقده المصريون على دولة الخلافة . فدعا أحمد لطفى السيد (١٨٧٣ — ١٩٦٣) — من شيعة الشيخ محمد عبده — لاجتماع وضعت فيه خطة العمل والمبادئ التي تقوم عليها جريدة مستقلة تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص الى الدولة العثمانية أو الى الخديو أو سلطات الاحتلال البريطاني في مصر . وبعد اقناع كبار ملاك الأراضي الزراعية تألفت شركة «الجريدة» (وهو اسم الصحيفة السياسية) واكتتبوا لانشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، وصدر العدد الأول منها في ٩ مارس عام ١٩٠٧ .

وكتب لطفى السيد في افتتاحية العدد الأول من «الجريدة» يقول : « ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، وراميتها ارشاد الأمة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الأخذ بها ،

واخلاص النصح للحكومة والأمة ، بتبيين ما هو خير وأولى • تنقذ أعمار الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن ، من غير تعرض للموظفين والأفراد في أشخاصهم أو أعمالهم التي لا مساس لها بجسم الكل الذي لا ينقسم ، وهو الأمة «^(١) • ولقد بدأت «الجريدة» في الصدور ببرنامج مرسوم تضمن ستة مبادئ هي :

- ١ — قبول نوع الحكومة القائمة •
- ٢ — عدم نشر المسائل التي تثير حساسيات دينية •
- ٣ — خلق رأى عام صحى فى البلاد •
- ٤ — بحث مسائل المصلحة العامة بواسطة باب خاص •
- ٥ — التعامل مع الآخرين بروح الاعتدال •
- ٦ — الجرأة فى التعبير عن المبدأ •

وفى ٢١ سبتمبر من نفس العام قرر أعضاء شركة الجريدة تحويلها الى حزب سياسى أطلقوا عليه اسم حزب الأمة ، على أن تكون صحيفة الجريدة هى لسان حال هذا الحزب • وكان قوام هذا الحزب جماعة من الباشوات والملوك مثل محمود سليمان باشا ، وحسن باشا عبد الرزاق ، وحمد بك الباسل ، وفخرى بك عبد النور وسليمان أباطة وعبد الرحيم الدمرداش وعلى شعراوى باشا ومحمد الحفنى الطرزى وعبد الخالق ثروت ومحمد الشريعى • وقد رأس الحزب بعد تأليفه محمود سليمان باشا ، العضو بمجلس شورى القوانين وأحد كبار أثرياء الصعيد ، وتولى مكانه حسن عبد الرزاق الذى كان صديقا حميما لمحمد عبده ، ثم خلفه فيها على شعراوى •

Ahmed. op. cit., pp. 85-112.

(١)

وقد أطلق اللورد كرومر على رجال هذا الحزب اسم « أتباع
المرحوم المفتى السابق الشيخ محمد عبده » (the followers of the late
Mufti, Sheikh Mohammed Abdou) ^(١) ، كما وصفهم محمد رشيد
بأنهم « أركان أصدقاء الشيخ محمد عبده من كبار رجال الحكومة ووجهاء
القطر » • وذكر كرومر في التقرير الذى رفعه الى حكومته فى عام ١٩٠٦
أن أعضاء هذا الحزب « مجردون عن صبغة الجامعة الاسلامية » وهذا
نص ما كتبه ^(٢) :

«They are truly Nationalists in the sense of wishing to
advance the interests of their countrymen and co-religionists,
but they are not tainted with Panislamism».

وكان الشيخ محمد عبده قد افترق عن أستاذه جمال الدين الأفغانى
فى عام ١٨٨٤ ، وعاد الى مصر بعد أربع سنوات عندما صدر عفو الخديو
توفيق عنه • وانصرف بعد عودته الى مصر الى الاصلاح والتجديد عن
طريق التربية والتعليم ، واختلف فى ذلك عن أستاذه الذى أراد أن يكون
ذلك الاصلاح والتجديد عن طريق السياسة دون سواها • كما أدرك
الشيخ محمد عبده أنه لن يستطيع البقاء فى وطنه وتنفيذ برنامجه فى
الاصلاح الا بمداواة الانجليز ، فخرجهم من مصر لا يمكن أن يتم
الا بالسير فى الجهاد عن طريق الحكمة • ولذلك بنى محمد عبده خطته
على تربية الأمة المصرية وتكوينها ، حتى تكون مصدر الادارة والسياسة
فى بلادها • وأيقن محمد عبده — منذ البداية — أنه لن يتمكن من تنفيذ
اصلاحاته الا من طريق رسمى ، وهذا يوضح لنا سبب اتصالاته بالخديو

Alexander, The truth about Egypt, p. 81. (١)

Alexander, op. cit., p. 81. (٢)

والإنجليز • وكانت علاقات محمد عبده بالخديو طيبة في بادئ الأمر ، فأقنعه باصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف ، ولكن سرعان ما انقلب الشيخ محمد عبده معارضا له بسبب تصرفه في أموال الأوقاف ، وتوترت العلاقات حتى ان الخديو غضب ممن شاركوا في تشييع جنازة الشيخ محمد عبده في عام ١٩٠٥ •

وفي الفترة الأخيرة من جهاده تمكن الشيخ محمد عبده من أن يجتذب اليه فريقا يعتد به من التلاميذ والمريدين ، من كبار رجال الحكومة والأعيان ، الذين تأثروا بمذهبه في الاصلاح والتجديد عن طريق التربية والتعليم • ويعتبر « سعد زغلول » من أشد من تأثر بتعاليم الأستاذ الامام ، ومن أقطاب شيعته ، فلم يكن كغيره تلميذا فحسب ، بل كان — كما يقول تشارلز آدمز (مؤلف كتاب الاسلام والتجديد في مصر Islam and Modernism in Egypt — مريدا • وكان أيام طلبه للعلم في كنف محمد عبده ، فاستفاد من علمه ومن أخلاقه وبلاغته ولذا اختاره ليعاونه في تحرير الوقائع المصرية • وكان سعد في البداية يؤمن بالتعاون مع البريطانيين في اصلاح الادارة سالكا السبيل المهادى الذى سار عليه محمد عبده والذى أصبح مبدأ من مبادئ شيعته فيما بعد • وهذا المبدأ يخالف تماما المبدأ الذى سنه مصطفى كامل • فلقد أعاد المهتمون بشئون السياسة المصرية من شيعة الأستاذ الامام النظر في سياسة الاعتماد على الدول الخارجية (فرنسا والدولة العثمانية) في الحصول على استقلال البلاد ، ورأوا الارتكاز على الشعب نفسه في الحصول على الحرية • وكان من بين الذين تأثروا أيضا بمذهب الأستاذ الامام لطفى السيد الذى اكتمل تفكيره السياسى والقومى حين فكر فى اصدار الجريدة • وقد كتب الى الخديو قبل ذلك بسبع سنوات تقريرا ضافيا يفصح فيه عن اتجاهاته الفكرية والسياسية الجديدة يقول

فيه : « ان مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها وان المصاحبة الوطنية تقضى أن يرأس الخديو حركة شاملة للتعليم العام »^(١) . ويذكر المرحوم الأستاذ شفيق غربال أن للأستاذ أحمد لطفى السيد الفضل في أنه ارتفع بموقف الأعيان من مستوى المصالح التي يفهمونها الى مذهب يسعى للمصلحة العامة ويقدس الحرية ويحتكم للعقل^(٢) .

وكان لطفى السيد يدرك أن مصر لم تفقد شيئاً من العلاقة الشرعية التي تربطها بالدولة العثمانية التي نظمته معاودة لندن في يوليو عام ١٨٤٠ . وتحقق أنه لا يمكن الاعتماد على فرنسا ولا على أية دولة أخرى في المسألة المصرية ، فلن « يحرر مصر الا المصريون » . ولم يجد لطفى السيد وسيلة يدعو بها المصريين سوى الصحافة التي كان يهواها ، ومن ثم كان التفكير في اصدار صحيفة «الجريدة» التي كان ظهورها يعتبر بداية التطور الكامل لفكرة القومية المصرية المستندة الى الفهم الصحيح للشعب ومقوماته باعتباره مجموعاً له مثله الخاصة وتفكيره الخاص . واذا كان حزب الأمة قد تكون من عنصرين هما عنصر المفكرين من ذوي العقائد الحرة ، وعنصر الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة ، فان العنصر الأول هو الذى كان يقود المعركة . وكان المثقفون من أعضاء هذا الحزب أصحاب مذهب سياسى اجتماعى ، اذ تشبعوا بالنظريات الأوروبية الليبرالية وتعاليم محمد عبده ، فلم يتمسكوا بأهداب التقاليد بل رحبوا بالتطورات الاجتماعية . ودعوا الى التحرر الفكرى والى التعاون مع الأوروبيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط الثقافية والاقتصادية والسياسية . وكان الكثيرون ممن نqm الأزر عليهم فيما

(١) أحمد لطفى السيد ، قصة حياتى ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) محمد شفيق غربال ، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ،

ج ١ ، ص ٢٨ .

بعد لتقدمية أفكارهم من أعضاء حزب الأمة أو من المنتظمين عليه — مثل أحمد لطفى السيد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرزاق •

وقد جاء فى ديباجة برنامج الحزب أن الاستقلال التام لا يمكن الحصول عليه بالكلام وأن هناك مقدمات ينتج عنها هذا الاستقلال وأن لهذه المقدمات أغراض يجب السعى إليها • وبعد ذلك تضمن برنامج الحزب المبادئ التالية^(١) :

١ — أن يعضد بسعيه وأمواله ونصائحه حركة التعليم العام والمشروعات التى تساعد على تحقيق رغباته العامة من التقدم الى المدنية •

٢ — أن يوجه همه ويصرف قواه للحصول على حقه الطبيعى ، وهو الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة ، بالسعى فى توسيع اختصاصات مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية حتى يكون له رأى محدود فى القوانين التى يعامل بها كقوانين المحاكم الأهلية والادارة والرئ ونحوها حتى يصل بالتدرج الى المجلس النيابى الذى يوافق حالة البلاد السياسية •

٣ — أن يواصل السعى ولا يدع فرصة تفوته فى مساعدة نهضة التعليم حتى يصبح موافقا لرغائبه موصلا الى مقاصده فيكون فى مدارس الحكومة الابتدائية مجانية واجباريا •

٤ — أن يسعى ما استطاع فى توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا الى تقدم زراعة البلاد وانماء حاصلاتها وتثويع مزروعاتها •

(١) يونان لبب رزق ، الحياة الحزبية فى مصر ، ص ٥١ — ٥٢ .

٥ — ألا يهمل الصناعة بل يدأب على رقيها بفتح المدارس الحرة
أو الأميرية •

٦ — أن تعطى الوظائف في المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى
الكفاءة والاستحقاق مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان حتى يتأتى
للمصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم •

٧ — أن تكون محاكمة الأجانب المقيمين في مصر جنائيا أمام المحاكم
المختلطة •

ومن الواضح أن حركة حزب الأمة استهدفت أهدافا مستمدة من
طبيعة نشأته وتكوينه • وكان من أهمها المطالبة بالدستور ، لأنه يتيح
لهذه الطبقة الاشتراك في الحكم مع السلطين الشرعية (الخديو) والفعلية
(الانجليز) • ولم يكن حزب الأمة يعتقد أن الانجليز هم الأعداء
الوحيدون الذين يجب أن توجه كل الجهود لمحاربتهم — كما يرى مصطفى
كامل — وانما كان يرى أن الخديو ، بسلطته ، لا يقل خطرا على مصالح
الأمة عن الانجليز بسلطتهم المطلقة • وهكذا نجد أن حركة حزب الأمة
تستهدف الخديو والانجليز معا • أما الهدف الثانى فكان الاستقلال عن
كل من الدولة العثمانية وانجلترا ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة لتلك الطبقة
التي لم ترغب فى العودة الى أوضاع ما قبل الاحتلال اذ تعرضوا
لاستبداد الخديو ويطانته وازدراء الأتراك والجراكسة والأرمن
والأرناؤود • وبذلك رفع حزب الأمة لواء « القومية المصرية » وأخذ
يدعو الى الاستقلال التام ، ولكن على أساس التدرج ، فالاحتلال فى
نظره قوة أتت بها ظروف سياسية وتذهب بها ظروف سياسية ، فان
صدق وعده وترك مصر لأهلها « فذلك ما يجب على انجلترا الاتيان به »
والا فلن يستطيع أن يغير من صبغته شيئا ولا أن ينتقل من كونه احتلالا

فعليا الى أن يكون احتلالا بالقانون»^(١) • ومن هنا كان حزب الأمة يرى أن تقوية الأمة سوف يؤدي الى زوال الاحتلال ، ولذلك دعا قبل كل شيء الى اعداد الأمة وتعليم الشعب الجاهل بعكس الحزب الوطنى الذى كان يرى أن الاحتلال هو علة المعلن •

وقد أدى هذا الاختلاف بين الحزبين فى النظر الى الاحتلال الى وجود اختلاف فى التعامل معه • ففى الوقت الذى رفض الحزب الوطنى الاعتراف بالاحتلال أو التعامل معه ، اعترف حزب الأمة بالانجليز حقيقة واقعة ورأى ضرورة التعامل معهم لوضع أيديهم على مواطن الاصلاح بوصفهم القوة الفعلية فى البلاد • وكانت الجريدة تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يعنى عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطته أو نفوذه • وكان هدف هذه السياسة بطبيعة الحال هو اعداد الأمة للاستقلال الذاتى ، الى أن تنتهى الظروف بما يؤدي لزوال الاحتلال ، أو حتى « يستأثر حب الاستقلال الذاتى بجميع حواس الأمة وملكانها ، على صورة تنفجر فى الحال عن الاستقلال الفعلى العام »^(٢) • وكان مذهب المثقفين من أعضاء حزب الأمة هو • « أن الوطنية ينبغى ألا تكون اندفاعا عاطفيا أعمى ، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادى المتزن • وينبغى ألا تقام على أساس من الأوهام التى لا سبيل الى تحقيقها ، من مثل التعلق بالجامعة الاسلامية أو الرابطة العثمانية • والأحرى بالمصرى أن يفكر فى نفسه أولا ، وفى مصلحته قبل كل شيء ، وهى مصلحة يتفق فيها سائر المصريين — وهم يعنون بهم المقيمين فى مصر ممن استوطنوها — على اختلاف

(١) الجريدة فى ٦ يوليو عام ١٩٠٨ •

(٢) الجريدة فى ١٧ مايو عام ١٩٠٨ •

وعلى أية حال فنتفسير الصلة التى قامت بين حزب الأمة والاحتلال أن كرومر كان يستغل عدم موافقة الأغنياء على تطرف الحزب الوطنى وكرههم اتجاهه نحو الدولة العثمانية فشجع هؤلاء وغيرهم من المعتدلين فى نظرتهم الى الاحتلال متوسما فيهم الوقوف فى وجه الخديو عباس والأوتوقراطية الخديوية * ومن ناحية أخرى ، فإن كثيرا من العناصر البارزة فى تكوين الحزب كانت تنتمى الى أسرات لعبت دورا فى الثورة العرباوية ، ومن هنا كانت معارضتهم للسلطة الخديوية المطلقة وكذلك معارضتهم لسلطة الانجليز * وإذا كان رجال حزب الأمة قد حرصوا على حسن صلتهم بالاحتلال فلأنهم كانوا يعتقدون أن مصر فى ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحه ، وأن الطريق الأمثل للتقدم هو اصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال * وعلى الرغم من ذلك اتبع حزب الأمة فى ذلك كل وسيلة شريفة توصل للمقاصد التى كان أعظمها منح الأمة الاستقلال الذاتى الى أن تهيأ الظروف بما يؤدى الى زوال الاحتلال *

ولكن الكثيرين من المصريين لم يستجيبوا لآراء حزب الأمة ودعوته مثلما استجابوا لأسلوب مصطفى كامل واللواء ، فلم تلق أيديولوجية « القومية المصرية » قبولا يماثل قبول أيديولوجية « الجامعة الاسلامية » التى وجدت رواجا كبيرا فى مجتمع عاش طول عمره اسلاميا * كما أن صحيفة الجريدة على الرغم من أنها راجت رواجا حسنا ، واستطاعت أن تثبت كيائها ، لم تحظ بانتشار يماثل جرائد الحزب الوطنى ، التى كانت تقدم لقراءها المقالات الحماسية التى تخاطب العاطفة * ومع ذلك فبفضل الدراسة العميقة والفهم الواسع الأفق والادراك الشامل الذى امتاز به أحمد لطفى السيد ، أثارت الجريدة موجة من الفكر والوعى استطاعت أن توسع أفق الثقافة المصرية بمزجها بالثقافة الغربية ونقلها

آراء الكتاب والمؤلفين وفقهاء الدستور والعلوم السياسية • فأنثارت في أفق الثقافة المصرية تصورا جديدا للحكم ونظامه وعلاقة الحكومة بالأفراد على أسس علمية الى أفكار مدنية لا علاقة لها بالدين • ولأحمد لطفى السيد الفضل الأكبر فى تحويل الوطنية المصرية نحو الوجهة الديموقراطية ، ذات الطابع العلمى المدروس • وقد صبغ ايمانه القومى بصبغة مناقبية ودعمها ببحوث كانت الأولى من نوعها — فى ماهية الأمة، والوطن ، ووضع الفرد فيهما • والى جانب عنايته بتعويد الشعب على تعابير الأمة والوطن المصريين ، وتعريفه الشخصية المصرية خلال التاريخ ، عنى بتمصير القيم ، فجعل الأخلاق والعادات والمناقب مصرية، بعد أن كانت عربية أو اسلامية • ولقد حدد الشخصية المصرية فى مقال كتبه فى صحيفة الجريدة فى عام ١٩١٣ جاء فيه^(١) :

« كذلك نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقا أن ننتسب الى وطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية وشركسية أو سورية أو رومية • أقمنا فى مصر وطنا لنا وعقدنا معها عقد صدق ترزقنا من خيرها ونقوم على مصالحها ونفدى شرفها بأرواحنا • فما النزر اليسير الذى لايزال يجب الانتساب الى قوم غير المصريين أو الى وطن غير مصر الا ناكث عهده ومتاجر بشرفه • اذ من القواعد الأولية للعيشة الانسانية أن « الغرم بالغنم » فالذى يعيش فى مصر يجب أن يدفع ثمن هذه المعيشة الراضية محبة لها وحنانا عليها ، وأقل أقدار المحبة عدم عقوقها والانتساب الى غيرها » •

وهكذا حاول أحمد لطفى السيد أن يكشف عن الشخصية المصرية الأصلية ويبرز سماتها وملامحها ويلمس أهدافها الحقيقية ، ولم يكن

(١) الجريدة فى ٩ يناير عام ١٩١٣ •

ذلك غريباً على ابن القرية الذى نشأ « فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها الا الوطن المصرى ولا تعتز الا بالمصرية ولا تنتمى الا الى مصر ، ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور .+ وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد » . ولذلك ندد لطفى السيد بفكرة الجامعة الاسلامية وقال انها غير ملائمة للعصر ولا متفقة مع النمو الذاتى المستقل للشعب المصرى .

وعلى الرغم من أن أحمد لطفى السيد حاول أن يرتفع «بالأعيان» من أعضاء حزب الأمة عن مستوى المصالح التى يفهمونها الى مذهب يسعى للمصلحة العامة ، فان الحزب لم يتحول الى حزب قومى بمعنى الكلمة ، ولم يحظ بشيء من شعبية الحزب الوطنى .+ ومن ناحية أخرى لم يحقق الحزب أيضا آمال كرومر والدوائر الانجليزية بسبب قيامه فى الوقت الذى اتسعت فيه الهوة بين المصريين والانجليز .+ فبعد توقيع الاتفاق المودى مع فرنسا ، أظهر كرومر علنا نيات الاحتلال واعتبر نفسه السيد الأمر الناهى الذى يستطيع أن يسير الدولة كيفما شاء .+ ونتيجة لذلك انهارت الآمال التى علقها حزب الأمة على التعاون مع الانجليز .+ كما كان التقرير الأخير الذى نشره كرومر على أثر رحيله من مصر ضربة موجهة الى حزب الأمة ، لأنه صب اختقاره على المبادئ التى اعتر بها مفكروه وظنوا أن انجلترا تسعى الى تطبيقها فى مصر .+ فقال كرومر فى تقريره (١) :

Can any sane man (Cromer asked) believe that a country which has for centuries past been exposed to the worst forms of misgovernment at the hands of its rulers, from Pharaohs to

Egypt, No. 1 (1907), Cd. 3394, p. 7, cit. in Ahmed, op. (١) cit., pp. 71-72.

Pashas, and in which but ten years ago, only 9,5 per cent. of the men and 3 per cent. of the women could read and write, is capable of suddenly springing into a position which will enable it to exercise full rights of autonomy».

وهاجمت الجريدة «التقرير وانتقدته ، وما لبث أن تطور النهج الذى سار عليه حزب الأمة بعد انتهاء عهد كرومر (١٩٠٧) فى ظل سياسة الوفاق فى عهد خلفه السير الدون جورست (Sir Eldon Gorst) عندما أرادت إنجلترا فى عهده — وكان واحدا من رجال الاحتلال خدم فى مصر من عام ١٨٨٦ الى عام ١٩٠٤ — معالجة الحركة القومية بطرقها من زاوية جديدة وهى كسب الخديو بجانب الاحتلال باسترضائه برد بعض السلطات اليه ، وكانت الخطة تقتضى ألا يمعن المعتمد البريطانى فى هذا الارضاء أو الاغصاب ، ولكن جورست انحرف نحو السلطة الشرعية — كما كان يمثلها عباس — انحرافا شديدا • فأخذ يرضى شره الخديو الى السلطة والمال ويطلق يده فى كل ما تشتهي نفسه منهما ، واغتر الخديو وأسرف فاستثار هذا الحركة القومية فى جانبها المتطرف، المتمثل فى الحزب الوطنى ، والمعتدل الممثل فى حزب الأمة (الذى كان كرومر يطلق على مثقفيه اسم الجيوند Girondists ، أى المعتدلين)^(١) حتى تطور على نحو يتناول منهجه فى الحملة على الاحتلال ثم الخديو، ولا غرو فقد لمس « الأعيان والمثقفون » فى ظل سياسة الوفاق مبلغ اشتداد الخديو الذى هدّد طموحهم فى المشاركة فى الحكم أو التفاهم مع الاحتلال على مصلحة مصر • وهكذا صرف جورست المصريين الى محاربة الخديو بدلا من محاربة المحتلين ، ووقف الانجليز موقف المتفرج ، يتدخلون للتوسط ولحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك • وتحقق

Ahmed, op. cit., pp. 44-57.

(١)

بذلك ما أوصى به اللورد دفرن في تقريره الذى وضعه فى السنة الأولى للاحتلال ، اذ نصح بأن لا يتولى الانجليز حكم مصر المباشر وادارتها، مقترحا أن تحكم بأيد مصرية موالية للاحتلال ، حتى تنقح أخطاء الحكم على رءوس المصريين أنفسهم . ولما اتخذ حزب الأمة موقف المعارضة من السلطة الشرعية والفعلية بدأ الخلاف بين أعضائه فقد رفض الموظفون منهم الوقوف موقف المعارضة دون حماية تسندهم اذ ارتبطوا بحزب الأمة على أساس التعاون مع الحكومة ، وانقسم فريق الأعيان: فمنهم من رأى أنه يستطيع الافادة الشخصية من علاقته السياسية بالخدوي فانشقوا على الجريدة وهاجموها ، ومنهم من ظل يؤلف الحزب، وكانوا يؤمنون بأن مصالحهم باعتبارهم طبقة لا تتفق مع محاولات الخديو التوسع فى سلطانه ، فلا غرو أن تمثل حملة لطفى السيد على سياسة الوفاق حقيقة موقفهم من الخديو واتجاهات المثقفين . واستخدم الاحتلال القوة فى نهاية عهد جورست للتكيل والضغط على الحريات والمحاكمات ومصادرة الصحف .

ولكن قلت حدة التوتر بين حزب الأمة والوكالة البريطانية خلال الفترة التى شغل فيها اللورد كتشنر منصب المتمد البريطاني فى مصر (١٩١١ — ١٩١٤) ، خلفا لجورست . وكان كتشنر أيضا قد عمل من قبل فى مصر ، وكان قائدا عاما للجيش المصرى الذى هزم الدراويش واسترجع السودان . وكان كتشنر رجلا عسكريا صرفا يحتقر السياسة والساسة ويؤمن بضرورة ايجاد حكومة قوية تتمشى مع مطالب دعاة القوة فى مصر وفى انجلترا على السواء ، خاصة أن سياسة الوفاق قد أدت الى فصم عرى الصلات التى قامت بين الخديو والوطنيين . ولهذا كان على كتشنر أن يعود الى سياسة كرومر ويسير على نفس النهج لكى يخدم أغراض بلاده ، ولكن بوسائل جديدة قامت على الامعان فى سياسة الرياء وبطرق المسألة المصرية من جانب المصريين ، فمسعى

يسترضى « أصحاب الجلابيب الزرقاء » بحماية الملكية الصغيرة (إذ أصدر قانون الأفدنة الخمسة الذى نص على عدم امكن نزع ملكية من يمتلكون أقل من خمسة أفدنة بسبب تراكم الديون عليهم) ، والمثقفين بمنحهم حق التمثيل فى تنظيم جديد حل محل المجالس التمثيلية القائمة هو الجمعية التشريعية ، مع خنق الحريات وتشتيت الاتجاه المتطرف من النضال القومى والقضاء عليه . وهكذا ألغى كتشنر نظام الهيئتين شبه النيابيتين القائمتين : الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، وأنشأ بدلها نظام الجمعية التشريعية فى يوليو عام ١٩١٣ مشكلة من ٦٦ عضوا يمثلون المهن والهيئات ، وكانت مدة العضوية ٦ سنوات يتغير ثلثهم كل سنتين ، أما انتخابها فكان على درجتين ، وقد بلغ أعضاؤها من كبار ملاك الأراضي ٤٩ عضوا .

ومن المحتمل أن الهدف الذى كان يسعى اليه كتشنر من اعادة تشكيل الحياة النيابية السورية أن يوصل أبوابها أمام فئات «السياسيين» وأن يجعل الجمعية التشريعية أداة تمثيل لأصحاب المصالح الزراعية الذين لا يتأثرون بالتهيج السياسى ، مما يؤدى الى تغليب الاعتدال على علاقاتها بالحكومة فيكون استعمالها للسلطات الممنوحة لها استعمالا معقولا . ولكن قدر لهذه الجمعية أن تتحول من محض هيئة استشارية الى أداة قوية للمعارضة برزت فيها كتلة الوطنيين الدستوريين من المحامين والأعيان الذين تزعمهم سعد زغلول . وكانت الجمعية التشريعية هى الساحة التى تبلورت فيها هذه الزعامة حول سعد زغلول، ففى أول جلسة انتخب باجماع الآراء وكيلا للجمعية ، فتجلى بمناقشاته حرصه على رعاية مصالح الأمة . وهكذا أصبحت الجمعية التشريعية أداة لتدريب رجال السياسة البرلمانيين الذين تزعموا ثورة ١٩١٩ وتصدروا الحياة السياسية فى أعقابها .

الحزب الوطنى :

بعد أن تكون حزب الأمة بقليل ظهر الحزب الوطنى على مسرح الأحداث السياسية بصفة رسمية • وعلى أية حال قام هذا الحزب أولا «حركة» سياسية قبل قيامه حزبا رسميا منظما له رئيس وأعضاء ومجلس ادارة • ولقد كتب مصطفى كامل فى اللواء فى عام ١٩٠٧ • « ان الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أولى مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها ، موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة قد ظهر بأعماله واتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة »^(١) • وكان مصطفى كامل قد فكر فى عام ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزبا منظما على غرار الأحزاب الأوروبية ، ولكنه اعتزم تنفيذ فكرته فعلا فى عام ١٩٠٧ • ففى تلك السنة ساعد حادث دنشواى — كما ذكرنا قبل ذلك — على بلورة الوضع فى مصر بحيث أدى الى ظهور الأحزاب المصرية الثلاثة • وكان من الطبيعى أن يتأثر موقف الخديو عباس الثانى بالأحوال التى جددت بعد دنشواى من حيث قوة الحركة الوطنية واتجاه الوضع السياسى الى الاستقطاب ، فكان عليه أن يحدد موقفه الى جانب الحركة الوطنية لعدة عوامل ، منها ما بدا من قوة الحركة الوطنية وقوة الشعور ضد الاحتلال • ومنها أنه بعد أن زار لندن فى عام ١٩٠١ قابل فارس نمر (١٨٥٦ — ١٩٥١) ، حليف كرومر وصاحب جريدة المقطم وصرح له باستعداده للتعاون مع الاحتلال ومع كرومر ، ولمح الى شرط يضعه لهذا التعاون وهو أن يكون له نصيبه فى حكومة البلاد • لكن هذا الشرط لم يتحقق فما كان كرومر يقبل منه سوى التسليم الكامل دون مقابل •

(١) الرافعى ، مصطفى كامل ، ص ٢٥٥ •

ومن ذلك يتبين أن النزاع بين عباس الثانى والمحتملين كان نزاعا على نفوذ الحكم ولم يكن نزاعا على حقوق الأمة ولا على مبادئ القضية الوطنية . وضايق عباسا الثانى موقف كرومر ووجد فى دنشواى فرصة للانتقام .

وكانت القطيعة — كما نعلم — قد قامت بين عباس الثانى ومصطفى كامل منذ نوفمبر عام ١٩٠٤ ، لكن الطرفين تجنبنا التطرف فى العداء لشعور كل منهما بضعف موقفه تجاه الاحتلال وحاجته الى الآخر . وحين وقعت حادثة دنشواى رأى فيها كل منهما فرصة لتوجيه ضربة قاضية لكرومر وسياسته ، فكاتب مصطفى كامل الخديو عن طريق رئيس ديوانه أحمد شفيق باشا ينشد تعاونه ، ووجد استجابة لدى عباس . بذلك أفاد مصطفى كامل من اتصالات عباس فى بريطانيا وما له من أعوان هناك ، فى الحملة الناجحة التى قام بها فى لندن ضد سياسة الاحتلال . وحين عاد كل من عباس الثانى ومصطفى الى مصر فى خريف عام ١٩٠٦ توسط الدكتور محمود صادق رمضان (١٨٦٨ — ١٩٤١) ، طبيب القصر ، والصديق الحميم للزعماء الوطنيين بين الطرفين ، فاجتمع عباس الثانى سرا فى أكتوبر بكل من مصطفى كامل ومحمد فريد ولطيف باشا سليم (وهو من أكبر أنصار مصطفى كامل) . وفى هذا الاجتماع رسمت خطة التعاون بين الطرفين ، وتقرر انشاء الحزب الوطنى ، كما تقرر اصدار جريدتى الاجبسيان ستاندارد باللغة الانجليزية ، وليتندار اجبسيان باللغة الفرنسية ، وتم رصد مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه انجليزى لتحقيق ذلك . وقد عاد التعاون بين الخديو ومصطفى كامل ، وتوالت اجتماعاتهما . وهكذا أدت حادثة دنشواى الى عودة التعاون بين الخديو ومصطفى كامل ، كما أدت الى أن الحكومة البريطانية تبينت خطأ سياسة كرومر فى مصر فكفت عن تأييدها ، فأدى ذلك فى النهاية الى استقالة كرومر وتعيين جورست محله .

وبعد ظهور «الجريدة» أخذ مصطفى كامل يشك فيها ليولها الانجليزية ، وعندما عاد من أوروبا في أكتوبر عام ١٩٠٧ ، ألقى خطبة مهمة بالاسكندرية (٢٢ أكتوبر) جعلها دعوة عامة الى الانضمام الى الحزب الوطنى ، واتخذ «الجلء» مبدأ للحزب ، حتى صار أصح تعريف له أنه « حزب الجلء » . وقد تكلم مصطفى كامل فى خطبته عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى ، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق ، بعد أن كان الانجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الأمة ، وأبان لأول مرة أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها الى الاستقلال ، وقال فى هذا المصدد^(١) :

« ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدة وأرشدتنا الى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس اذا لم يتبعوها ، وهى أن الأمم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها ، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة » .

وفى ٢٧ ديسمبر من نفس العام عقدت أول جمعية عمومية للحزب اجتماعا حافلا تمثلت فيه طبقات الأمة ، وافتتح مصطفى كامل الاجتماع بخطبة تحدث فيها عن أغراض الحزب فقال^(٢) :

« اننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل نحن قبل كل شئ حزب حياة للأمة وانهاض لها ، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة ، وهو يرمى الى الاستقلال أس كل سعادة ، ويعمل لنشر التعليم حتى

(١) انظر نص الخطبة فى المرجع السابق ، ص ٤٦٦ — ٤٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى ، هو يرمى قبل كل شيء انى أن يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمة ، وأقصد بالمصرى ليس فقط الذى نراه فى المداين يجد ويعمل ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومقتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل تقوم به هو انهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو ممثل النشاط المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ، فليحي عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته » ♦

وتم التصديق فى هذا الاجتماع على لائحة الحزب التى نصت على أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وأن الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة فى كل سنة فى شهر ديسمبر باسم « المؤتمر الوطنى » ، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الادارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر فى اقتراحات الأعضاء ♦ كما تقرر أن تؤلف اللجنة الادارية من ثلاثين عضوا عدا الرئيس ، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات ، وتجتمع مرة فى كل شهر على الأقل ، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيرا وأميناً للصندوق من بين أعضائها ، ولجنة تنفيذية من ثمانية أعضاء من بينهم الوكيلان والسكرتير وأمين الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الادارية ، وتجتمع مرة فى كل أسبوع على الأقل ، وينشأ ناد للحزب وفروع له فى الأقاليم ♦

ولقد اشتمل برنامج الحزب الوطنى على ما يأتى (١) :

(١) يونان، ليبي رزق ، الحياة الحزبية فى مصر ، ص ٥٨ .

١ — استقلال مصر كما قرره معاهدة لندن في عام ١٨٤٠ وضمنته
اقرمانات السلطانية — ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر للأسرة محمد
على ، والضامن للاستقلال الداخلي للبلاد (ويدخل تحته كافة البلاد
التي ضمنت لمصر بمقتضى فرمانات سلطانية) ، وهو الاستقلال الذي
وعدت انجلترا باحترامه وتعهدت رسميا بذلك .

٢ — ايجاد حكومة دستورية في البلاد بحيث تكون الهيئة الحاكمة
مسئولة أمام مجلس نيابى تام كمجالس النواب في أوروبا .

٣ — احترام المعاهدات الدولية والاتفاقيات المالية التي ارتبطت
بها حكومة مصر لسداد الديون . وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية
مادامت مصر مدينة لأوروبا ، ومادامت أوروبا تطلب هذه المراقبة .

٤ — انتقاد الأعمال الضارة بكل صراحة ، والاعتراف بالأعمال
النافعة والتشجيع عليها ، وارشاد الحكومة الى خير الرعية ورغائبها
والاصلاحات اللازمة لهما .

٥ — العمل لنشر التعليم في أنحاء الديار على أساس وطنى صحيح
بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحاربة الخزعبلات والترهات ،
ونشر المبادئ الدينية السليمة الداعية للرقى ، وحث الأغنياء والقادرين
على بذل المساعدة لنشر التعليم بتأسيس الكليات في البلاد . وارسل
الارساليات الى أوروبا ، وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال .

٦ — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل فروع الحياة ، والعمل
والجد وراء نيل الأمة استقلالها العلمى والاقتصادى .

٧ — ارشاد الأهالى بكافة الوسائل الممكنة الى حقائق الأحوال
وبث الشعور الوطنى فيهم ، ودعوتهم للاتحاد والائتلاف ، وتمكين
الحبة بين المسلمين والأقباط وتببيهم الى واجباتهم نحو بلادهم ،
والعمل للمحافظة على الأمن العام والسكينة في كافة أرجاء القطر .

٨ — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد في تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد السكان فتزداد الأمة قوة على قوتها •

٩ — تقوية روابط المحبة بين الوطنيين والأجانب وإزالة سوء التفاهم بينهم ، والسعى لجعل محاكمة المجرمين الأجانب أمام المحاكم المختلطة •

١٠ — بذل الجهود لتقوية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية ، وإنماء علائق المحبة والثقة بين مصر ودول أوروبا ، ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لإيجاد أنصار لها في كل أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعد على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية ، والتغلب على المساعي التي تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة •

وهكذا كان الحزب الوطنى يختلف عن حزب الأمة في مبادئ أساسيين : أولهما هو عنفه في مهاجمة الاستعمار وتخصيصه حياته لغرس بغضه وكراهيته في نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة الى الوطنية والى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة الى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة عام ١٨٤٠ التى تمنح مصر استقلالاً داخلياً وتعترف بالسيادة التركية • ومن ناحية أخرى يتضح من برنامج الحزب الوطنى أن الحزب لم يهتم اهتماماً كبيراً بالمشكلات الاقتصادية • وأهمل المشكلات الاجتماعية إهمالاً يكاد يكون تاماً • ويرجع ذلك الى أن تكوين الحزب الوطنى والأحزاب السياسية الأخرى التى عرفت مصر كان تكويناً بورجوازيًا ، بحيث كانت وسائلها مقصورة فى أغلب الأحوال على التهيج والاثارة بحكم أن المشكلات السياسية ، لا الاقتصادية أو الاجتماعية هى التى خلقتها ،

ولأن كبار رجالها كانوا من الأغنياء والمحامين والأدباء والصحفيين والأطباء والمهندسين ، لا من رجال الاقتصاد أو ممثلى الطبقات • فلتقد استطاع مصطفى كامل أن يجتذب اليه بعض الأعيان المتصلين بالسراى وكثيرا من الفئات المثقفة فى مصر من الطبقة المتوسطة ، من الموظفين والطلبة والمحامين ، وخصوصا من الشباب الذين ألهم شعورهم بقوته الخطابية النادرة ، ولكنه لم يجتذب اليه الخاصة من جيله سواء أكانوا من الأعيان أم من المفكرين^(١) • ولذلك فان القول بأن الحزب الوطنى كان يمثل الانتلجنسيا (Intelligentsia) قول غير صحيح ، لأن الطبقة المثقفة كانت منقسمة بين الحزب الوطنى وحزب الأمة • وكانت الصفوة المتعلمة تعليما غربيا من هذه الطبقة تنحاز الى حزب الأمة • ولعل هذا هو السبب فى أن هذا الحزب كان يقف موقفا تقدميا من التطور الاجتماعى ، بينما كان الحزب الوطنى يقف موقفا رجعيا ، كما ظهر من موقفه من قاسم أمين •

كما أن مصطفى كامل لم يكتسب تأثيرا قويا على الفلاحين فى القرى ، وذلك لسببين : أولهما أن نشاط الحزب الوطنى قد تركز فى المدن دون القرى ، وكان نشاطه الرئيسى فى القاهرة والاسكندرية ، وثانيهما ، أن الاحتلال كسب مهادنة الفلاحين فى الريف بالغاء السخرة والكرياج ، وما أجراه من الاصلاحات الزراعية والمالية ، ويضاف الى ذلك أن دعوة مصطفى كامل التى تنتجه الى توثيق الصلات بالدولة العثمانية ، لم تكن تلقى حماسة من الفلاحين ، الذين ذاقوا مرارة العسف التركى • ولعل تخلص الدعوة الوطنية فى عام ١٩١٩ من التعق بالدولة العثمانية ، كان من الأسباب التى دفعت الفلاحين الى الاشتراك

(١) فتحى رضوان ، كفاحنا الوطنى فى نصف قرن ، ص ٧٣ - ٧٤ •

في هذه الثورة • ومع ذلك يمكن القول بأن مصطفى كامل كان قد لقي استجابة كبيرة لدى الفلاحين بعد موقفه الرائع من مأساة دنشواي • أما الطبقة العمالية ، فقد بدأت محاولات الحزب الوطني لاجتذابها جدياً عندما انتقلت قيادته الى محمد فريد • فظهرت فيه الدعوة الى انشاء نقابات للعمال ونشر الجمعيات التعاونية وتنظيم نشر الثقافة الشعبية في مدارس الشعب اليلية التي كانت تعلم العمال القراءة والكتابة ومبادئ التربية الوطنية والدين وتاريخ مصر والتاريخ الاسلامي • فقام محمد فريد مثلاً بانشاء نقابة للعمال في عام ١٩٠٩ باسم نقابة عمال الصنائع اليدوية ، وأصبح لها ١١ فرعاً تضم ٨٠٠ عامل غير العمال المساعدين (وهي ليست أول نقابة للعمال في مصر ، كما يقول الرافي^(١)) : فقد سبقتها نقابة لعمال الدخان ونقابة عمال الترام المختلطة في عام ١٩٠٨) • كما طالب محمد فريد باعادة النظر في القوانين الضريبية لاعفاء العمال والفلاحين والطبقات الفقيرة من الضريبة وتقرير التأمين الاجتماعي للفتات العاملة وتحقيق مستوى لائق لهم من الناحية الصحية والتعليمية • على أن أهم ما عمله الحزب الوطني هو اجتذاب طلبة المدارس الى الحركة الوطنية ويعتبر الطبقة عنصراً جديداً قوياً من عناصر المقاومة الشعبية بحكم كثرتهم وانتمائهم الى طبقات مختلفة وخصوصاً الطبقات الوسطى والفقيرة •

كانت سياسة محمد فريد الوطنية استمراراً لسياسة مصطفى كامل ، فقد وضعاً معاً قواعدها ، واتخذوا الجلاء أساساً لها • وكان محمد فريد شديد الحرص على أن تبقى القضية المصرية قضية الجلاء ، ولذلك كان يقاوم سياسة الأحزاب الأخرى في عدولها عن الجلاء ومطالبتها انجلترا

(١) الرافي ، محمد فريد ، ص ١١٠ •

بالاصلاحات الداخلية ، وكان يرى في هذه الخطة خروجاً على أساس القضية الوطنية • وقال في هذا الصدد : « ان الشعب لا يمكنه أن يصدق بأن أمة أجنبية محتلة بلاد أمة أخرى تساعدنا باخلاص على ترقّيها وتمدينها » • وقال أيضاً في خطبة جامعة عن الحالة السياسية في مصر في عام ١٩٠٨ (١) :

« يقول لنا خصومنا السياسيون كيف نطلب الجلاء من أمة عزيزة الجانب كثيرة الجيوش والأساطيل ، ان هذا المطالب يعد تهوراً وجنونا اذا لم يكن لنا أساطيل تعادل الأساطيل الانكليزية وجيوش تضارع جيوشها ، أى أننا لا نطلب الجلاء أبد الآبدين ، حيث انه من الجون الحقيقي أن نعتقد بأن مصر يكون لها في يوم من الأيام هذه القوة الهائلة ، فكأنهم يقولون للمصريين : اقبلوا الاحتلال شاكرين وامشوا لحكم القوة صاغرين ، فان الحق في جانبها دائماً ، ولذلك ترك بعضهم المطالبة بالجلاء ، وسموا هذا التحول اعتدالاً في المبدأ ، وما هو الا خيانة كبرى للوطن وبنية ، وأخذوا من ثم في تولية وجوههم شطر لوندرة عاصمة الانكاز ، لطلب بعض الاصلاحات البسيطة ، تعمية على الرأي العام وتضليله ، واغتراراً بوعود أعضاء مجلس النواب الانكليزي ، الذين ألفوا ما سموه (اللجنة البرلمانية المصرية) ، لمساعدة هؤلاء المعتدلين على الاصلاح الداخلي ، بشرط عدم التعرض للاحتلال بكلمة ، وقد كثر توجيه الأسئلة من هؤلاء الأعضاء الى وزير الخارجية الانكليزية عن شؤون مصر الداخلية ، كأن مصر أصبحت مستعمرة انكليزية تسأل حكومة انجلترا عن ادارتها ! واستبشر بعض البسطاء خيراً بهذا الاهتمام الظاهري ، الذي من ظاهره الحمة ومن باطنه العذاب ، ونسوا الأمر

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ — ٨٧ •

الأساسى الذى لا يجوز أن يكون لنا مطلب غيره من الانكليز ، ألا وهو

• الجلاء العاجل »

وبالإضافة الى تمسك محمد فريد بالجلاء ، جعل الدستور أساسا
ثانيا للحركة الوطنية ، وهنا أيضا كان متفقا في المبدأ والخطة مع مصطفى
كامل • كما ندد محمد فريد « بسياسة الوفاق » بين المعتمد البريطانى
جورست والخديو عباس حلمى الثانى ، غير أنه تعرض لحرب مشبوبة
من القوتين المتحالفتين • وعمل محمد فريد منذ أن تولى رئاسة الحزب
الوطنى على تحقيق ما يلى^(١) :

(١) الاحتفاظ بوحدة الحزب وتضامن أعضائه ، واحباط المساعى
التي كانت تبذل لحله والتخلص منه •

(٢) انشاء اللجان الفرعية للحزب في أقسام العاصمة وفي البنادر
والأقاليم •

(٣) تأليف مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناع مجانا •

(٤) وضع تقرير سنوى مفصل عن حالة البلاد •

(٥) الدعاية للقضية الوطنية في أوروبا وبخاصة في إنجلترا •

ولكن الحزب الوطنى لم يلبث أن تلقى ضربات قاصمة من الانجليز ،
يعد مقتل بطرس غالى باشا ، رئيس الوزراء ، في ٢٠ فبراير عام
١٩١٠ ، على يد ابراهيم ناصف الوردانى بسبب توقيع اتفاقية السودان
عام ١٨٩٩ ، ورئاسة المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواى ، واعادة
قانون المطبوعات ، ثم سعيه في انقاذ مشروع مد امتياز القناة • وكان

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ — ١٠٣ •

الوردانى صيدليا من المتحمسين لمبادئ الحزب الوطنى المناوئ
للخديو عباس وقتذاك ، بعد أن مال الى مهادنة المستعمرين والاتفاق
مع ممثلهم جورست • وكان الحزب الوطنى يرى أن بطرس غالى هو
عضد الخديو الأيمن فى سياسته الجديدة • ولقد عين اللورد كتنشر
خلفا لجورست ، وتتبع العناصر المتطرفة فى الحزب الوطنى ، وعرضهم
لسلسلة من المحاكمات والاضطهادات ، ولم يكد يمضى عام كامل على
مجيئه حتى كان رئيس الحزب قد هاجر الى خارج البلاد عام ١٩١٢ •

وبقيام الحرب العالمية الأولى ينتهى اندور التاريخى للحزب الوطنى
فى قيادة الحركة الوطنية وتوجيهها ، فبالإضافة الى تشتت أعضاء
الحزب ، فان الحرب العالمية كانت فاصلا حجب الحزب الوطنى فترة
طويلة من الوقت عن الرأى العام • ثم لم تكد تنتهى الحرب حتى كانت
الظروف الدولية والأيدىولوجية التى كان الحزب يعمل فيها وبمقتضاها
قد تغيرت • ففرنسا أصبحت حليفة لبريطانيا ، والدولة العثمانية انهارت
انهيارا تاما • وفضلا عن ذلك ، كانت وفاة محمد فريد واختفاء زعامته
القوية — بعد زعامة مصطفى كامل — عاملا آخر من عوامل تخلف
الحزب • ولكن أهم سبب لتخلف الحزب الوطنى ، هو ظهور قيادة منظمة
جديدة تمثلت فى « الوفد المصرى » الذى كان على رأسه زعيم وخطيب
جماهيرى فذ هو سعد زغلول • وقد اتجهت هذه القيادة فى فطنة وذكاء
الى القاعدة الشعبية الكبرى من الفلاحين ، فتغللت لجان الوفد فى كثير
من القرى الصغيرة فى مصر ، بينما كان الحزب الوطنى لايزال يعتمد
على نشاطه فى المدن • ومنذ ذلك التاريخ ، لم يعد الحزب الوطنى يؤثر
تأثيرا يذكر فى مجرى الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ، بل
أصبح فيما بعد أداة من الأدوات التى كان يستغلها القصر فى ضرب
التحركات الشعبيه •

حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية :

مرت علاقة الحزب الوطنى بالخديو عباس حلمى الثانى بفنره ركود • ولم يشأ الخديو أن ييشى وحيدا بلا حزب ينصره وينطق باسمه ويجمع له الأنصار • فقد كان الخديو أدرى الناس بشعبية الحزب الوطنى وصعوبة مقاومته إلا بسلاح حزبه آخر ينافعه شعبيته ويسلب منه ثقة المواطنين • ومن ناحية أخرى ، فوجىء الخديو بقيام حزب الأمة من أعضاء شركة الجريدة ، وكان معنى ذلك فى نظره أن تلاميذ الامام محمد عبده وأصدقاء الوكالة البريطانية لم يكتفوا بإصدار «الجريدة» لنقف منه موقفًا عدائيا وإنما تجاوزوا هذا العمل بتكوين حزب سياسى يكون له موقف الجريدة • وهكذا وجد الخديو ضالته فى شخص الشيخ على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، صاحب جريدة «المؤيد» التى تأسست عام ١٨٨٩ • وكان على يوسف أزهرى الثقافة ووجه سياسة المؤيد وجهة خاصة ، فجعلها بوقا للرأى المحافظ ، وصارت بذلك صحيفة الفئات المتعصبة والرجعية • ولقد أيد على يوسف الجامعة الاسلامية بكل قواه ، وهاجم حركات القومية والتقدمية ، ولم يفرق بين الاستعمار والتبشير ، بل كان يدعو الى محاربتها معا ، وبسلاح مشترك من الجهاد الدينى والوطنى •

وفى ١٥ ديسمبر عام ١٩٠٧ أسس الشيخ على يوسف بايعاز من الخديو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وقد تلخصت مبادئ هذا الحزب فيما يلى^(١) :

- ١ — تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الادارى •

Landau, Parliaments and parties, pp. 140-142.

(١)

٢ — الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلال القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيقها ، والوفاء بها .
٣ — المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين ، والمصالح المصرية .

٤ — أن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجانا .

٥ — أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى البلاد .

٦ — أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة والاستحقاق مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان ، حتى يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم .

٧ — أن تكون محاكمة الأجانب المقيمين فى مصر جنائيا أمام المحاكم المختلطة ، كما يتقاضون أمامها اليوم فى الحقوق المدنية ، الى أن ينم توحيد المحاكم المصرية لجميع سكانها ، تحقيقا لأعظم مبدأ بين سكان البلد الواحد ، وهو المساواة أمام القانون .

وكان الشيخ على يوسف صحفيا قبل أن يكون مؤسس حزب ، ونجح فى ميدان الصحافة حتى غدا المؤيد من أوسع الصحف انتشارا ، ولكنه لم يصب نجاحا فى ميدان الحزبية فلم ينضم اليه غير عدد قليل من دعاة الرجعية والجمود ومن نحا نحوهم من غمار العامة . ولم يحظ حزب الإصلاح الدستورى بتأييد جماهيرى مثل ما حظى به الحزب الوطنى ، كما أنه لم يحظ بتأييد طبقى مثل ما تمتع به حزب الأمة . وهكذا انقسمت مصر ازاء النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية الى معسكرين ، أحدهما يحارب الاستعمار ، ويتذرع الى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، فيعتمد على نفوذ الخديو أنا ، وعلى نفوذ تركيا أنا آخر ، وعلى نفوذ فرنسا فى بعض الأحيان . وذلك هو الحزب الوطنى — كما رأينا — يؤيده شباب مصر وطلبة المدارس . أما المعسكر الآخر

فقد جنح الى موالاته الانجليز واكتساب رضائهم ، معتقدا أن مصر في ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم ، وأن الطريق الأمثل للتقدم هو اصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال . وذلك هو حزب الأمة ، يؤيده كبار الملاك ، ويشايعهم نفر من أصدقاء الشيخ محمد عبده . وبين هذين الحزبين الكبيرين وقف حزب على يوسف يعبر عن اتجاهات الخديو .

وبالإضافة الى هذه الأحزاب الثلاثة الرئيسية ، تألفت في مصر عدة أحزاب صغيرة في الفترة ما بين ١٩٠٧ و ١٩٠٩ . وكان الاختلاف بينها ينحصر في علاقات كل منها مع الخديو ومع السلطان ومع الاحتلال . ولم تكن بعض تلك الأحزاب بقضايا مصر الأساسية ، من رفاهية مادبة واصلاح اقتصادى ونهضة اجتماعية وثقافية وعلمية . ولم تؤثر هذه الأحزاب تأثيرا جديا في العلاقات بين القوى السياسية الكبرى لأنها في الواقع لم يكن لها جذور ضاربة في الأرض المصرية ، فكلها كانت تمتس فكرا متخلفا أو وضعها مندثرا . وهذه الأحزاب هي :

الحزب الوطنى الحر :

كون فريق باع نفسه للاستعمار حزبا أطلق عليه اسم « الحزب الوطنى الحر » وما هو بوطنى وما هو بحر . وكان الحزب الوطنى الحر أول الأحزاب التى لم تهتم بقضايا مصر الأساسية ، وكانت تمثله صحيفة «المقطم» التى تحيزت لسلطات الاحتلال البريطانى . وقد أسس هذا الحزب محمد وحيد الأيوبي في مايو عام ١٩٠٧ . ولكن الاعلان الرسمى عنه كان في السنة التالية ، حينما كتب الأيوبي مقالا في المقطم يودع اللورد كرومر ، عند انتهاء مدة خدمته ، وداعا حارا ، ويرحب بخليفته ، جورست ، ترحيبا آخر . وفي سبتمبر من تلك السنة كتب الأيوبي رساله مفتوحه الى السير ادوارد جراى (Grey) — وزير

خارجية انجلترا — تحدث فيها عن فوائد الاحتلال البريطانى لمصر ،
ثم استعرض هادىء حزبه التى اشتملت على ما يلى^(١) :

١ — مسألة المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم والاتفاق معهم على كل
ما فيه خير القطر وترقيته وانجاحه وتنبيههم بالحسنى الى مواضع
النقص التى يرى الحزب فى تنبيههم اليها فائدة لمصر وأهلها كما هو
حال الشعوب الضعيفة العاقلة مع الأمم القوية الراقية التى تربط
مصالحهم بمصالحها لأن طريق المسألة هذه هى الطريق الوحيدة التى
تضمن للأمم الضعيفة بلوغ الاستقلال فى كنف الأمم القوية المشرقة
عليها ♦

٢ — مسألة الأجانب من سكان القطر المصرى على اختلاف مللهم
ونحلهم وعدهم جميعا اخوانا لنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ♦

٣ — السعى فى تعميم التعليم الابتدائى بين طبقات الأمة كلها
وتوسيع نطاق التعليم العالى شيئا فشيئا مع اجتناب الطفرة التى تؤدى
الى ضد المقصود وقد تكون عائقا عن ارتقاء المعارف وتقدمها ♦ والاهتمام
بترقية لغة البلاد وتعليم كل ما يمكن تعليمه من العلوم بها على شرط
ألا يكون ذلك سببا فى تقصير المتعلمين باللغة العربية عن سواهم من
المتعلمين باللغات الأجنبية وبعبارة أخرى أن لا يكون تعليمهم باللغة
العربية حائلا دون اتقانهم للعلوم ومباراتهم لآخوانهم الذين يتعلمونها
باللغات الأجنبية ♦ وارسال الارساليات من الطلبة الى أوروبا لتعلم
العلوم حتى يجتمع من هؤلاء الطلبة العلماء الأكفاء الذين يعول عليهم
فى الترجمة والتأليف والتصنيف لكى تبارى لغتنا العربية الشريفة اللغات
الأوروبية فى علومها كما بزتها فى آدابها ♦

(١) يونان ليبب رزق ، المرجع السابق ، ص ٣٢ — ٣٣ .

٤ — السعى في اعداد العامة لقبول الاصلاح والمزايا النافعة في التمدن الغربى وذلك بازالة أوهامهم ومخاوفهم من الاصلاحات الصحية التى لا تقوى الأمة الا بها والاصلاحات الادارية التى لا تنتظم أحوال الأمة الا بها أيضا وما شاكل ذلك •

٥ — السعى الى الحكم النيابى من أبوابه وذلك باقناع الحكومة الانكليزية وجميع الأمم الأوروبية مع الزمان بمسألتنا واخلصنا وتسامحنا وكفائتنا بأننا أهل لذلك الحكم ويكون ذلك تدريجا حتى اذا آن أوانه وأمنت عواقبه باستعداد الأمة له كنا أول المطالبين به بالطرق المشروعة التى تضمن لنا نيله •

٦ — السعى في تفهيم عامة الأمة وبسطائها معنى الوطنية الحقيقية وشروطها وتحذيرها من الذين يضلونها ويموهون عليها ليقعوا الى المصائب والمحن ويقضوا مآربهم الخصوصية أو مآرب الذين يتخذونهم وسائط لقضاء أوطارهم •

وهكذا اشتمل برنامج الحزب الوطنى الحر على مبادئ تدعو كلها الى المسالمة الكاملة للمحتلين وبقائهم في مصر بهدف الاستفادة منهم • ولم يتطرف اتجاه سياسى في تأييد الوجود الاحتلالى بصورة سافرة كما تطرف اتجاه رئيس الحزب وحيد الأيوبي ووكيله نشأت بك • ولما كان هذا الحزب قد تأسس في رحاب جريدة المقطم ، فان فرسان المقطم الثلاثة ، مكاريوس ونمر وصروف ، كانوا من موجهى الحزب من وراء ستار • أما باقى الأعضاء فكانوا من السوريين المتعاونين مع الاحتلال، أو من المصريين الذين رشاهم الاستعمار للحد من نتساط مصطفى كامل وحزبه المتطرف في وطنيته •

حزب المصريين المستقلين :

أثار « الاتجاه الاسلامى » الذى تميزت به أقوال وأعمال الحزب

الوطني مخاوف الأقلية القبطية • وقد احتفى هؤلاء من « الاتجاه الاسلامي » بالمغالاة في رفع شعار المصرية واعتبار أن الوطنية القبطية انما هي صنو للوطنية المصرية بغض النظر عن الدين • وقد أدت وفاة مصطفى كامل وما دخل على الحزب الوطني بل على الموقف السياسي كله من تغييرات الى أن يكون الأقباط ما أسموه « بحزب المصريين المستقلين » • فتفجر العداء بين الحزب الوطني وحزب الأمة من جانب والخديو عباس حلمي الثاني من جانب آخر كان من الأسباب المؤدية الى تخوف الأقباط من الحزبين الكبيرين والى تسورهم بأن هذا التطرف قد يؤدي بمصر الى مهاو خطيرة • وعندما تزايدت الدعوة للدستور تزايدت مخاوف الأقباط من احتمالات الاستجابة لهذه الدعوة وما يمكن أن يترتب عليها من تغيير مركزهم ازاء الأغلبية • وقد أسس هذا الحزب الدكتور في الحقوق أخنوخ فانوس (١٨٥٦ — ١٩١٨) عام ١٩٠٨ • وكان معظم أعضاء الحزب من الأقباط ، باستثناء نفر من المسلمين المتعاونين مع الاحتلال ، مع أن مؤسس الحزب لم يكن قبطيا ولا مسلما ، بل بروتستانتيا • وكانت ثقافته أمريكية فقد درس في كلية أسيوط الأمريكية ثم في الجامعة الأمريكية ببيروت •

وكانت مبادئ الحزب ، شأن مبادئ الأحزاب الأخرى ، محصورة في نطاق مصر كما يلي^(١) :

- ١ — وحدة مصر والسودان •
- ٢ — استقلال مصر •
- ٣ — إلغاء الامتيازات •
- ٤ — سعادة وفلاح سكان مصر •

Landau, op. cit., pp. 144-145.

(١)

٥ — اعتبار كلمة مصرى مطلقة على الأصيل والمتجنس بالجنسية المصرية •

٦ — وجوب تسهيل شروط التجنس •
وتحقيق ذلك يتطلب :

(أ) إقامة صداقة حقيقية بين مصر وبريطانيا •

(ب) إقامة علاقات طيبة مع الأجانب المقيمين في مصر وضمان حقوقهم ومصالحهم بالقانون •

(ج) فصل الدين عن السياسة بالقانون •

(د) فرض ضريبة الدخل على الأجانب •

(هـ) عقد معاهدة بين مصر وبريطانيا ، تعطى بمقتضاها تسهيلات تجارية لبريطانيا وضمانات عسكرية لمصر •

(و) انشاء مجلسين نيابيين لهما سلطة سن القوانين ، ويكون الأجانب المنتخبون الذين أقاموا في مصر خمس سنوات على الأقل نصف أعضاء أحد المجلسين •

(ز) التعليم الابتدائي الاجبارى للجنسين •

(ح) توحيد القضاء ووضع قانون عام ومدنى وجنائى واحد •
ولأخنوخ فانوس عدة مقالات وأبحاث في القومية المصرية الفرعونية ، وفي الوسائل لاعادة بناء مجد مصر القديم • وكان شعاره ورمز حركته مصريون قبل كل شيء • وهذا البرنامج يعطى بلا شك صورة حية للتناقض الذى وقع فيه الأقباط في ذلك الوقت • لأنه لم يكن نابعا من « اقتناع فكرى » بقدر ما كان نابعا من « ضرورات دينية » فسلبه هذا مضمون تقدمى •

حزب مصر الفتاة

تأسس هذا الحزب على أثر نجاح حزب تركيا الفتاة في الدولة العثمانية في عام ١٩٠٨ ، وكان مؤسسه وزعيمه ادريس راغب بك * أما عن مبادئ الحزب ، الذي يكاد يكون مجهولا ، فقد حفظتها لنا رسالة وجهها مؤسس الحزب الى البرلمان البريطاني * ويدعى الكاتب القومية المصرية ، ولكنه يطالب بحماية تلك القومية عن طريق بقاء الاحتلال البريطاني في مصر * ويهاجم سلبية الحزب الوطنى ويدافع عن نيات الاستعمار ويعدد خدماته في مصر * وتأسيس هذا الحزب في الحقيقة يمثل تطرفا سياسيا في الحياة الحزبية المصرية ، فان هذا الحزب كان يدين بالولاء لسلطة الخديو وسلطة الاحتلال ، ويجسد سياسة الوفاق بينهما * ويوضح برنامج الحزب هذا التطرف في الجمع بين الولاء لكل سلطة في مصر ، فيشتمل البرنامج على ما يلي^(١) :

١ — احترام واجلال حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية وامتيازاتها وكذلك امتيازات السلالة الكريمة الخديوية بأكملها *

٢ — احترام حقوق الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر *

٣ — اتفاق أفكار الحزب مع أفكار جمهور من ساسة الانكليز يخص منهم بالذكر جناب اللورد كرومر *

وقد غير ادريس راغب بك اسم الحزب فيما بعد الى « الحزب الدستورى » فتضايق زعماء حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية * ورغم اتخاذ الحزب لهذا الاسم الجديد ، كان ممثلا أميننا لجمود المحافظين الراغبين في الابقاء على الأمور على ما هى عليه ، ورفض

(١) بونان لبسب رزق ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

أسلوب المطالبة العاجلة بحياة دستورية ، وحدد عشرين سنة كاملة
ليستطيع الشعب أن ينال حقوقه الدستورية ويتمكن من استخدامها
استخداما حسنا • وحتى في تصوره لطبيعة الانتخابات بعد هذه الفترة
الطويلة ، وضع شروطا منها أن يكون للمتعلم خمسة أصوات في عملية
الاقتراع التي تجرى لتكوين المجالس النيابية •

حزب النبلاء :

ظهر هذا الحزب في أكتوبر عام ١٩٠٨ ، ليؤكد أن «الأرستقراطية
التركية» لم تنته بعد • ولقد دفع حسن حلمي زاده رئيس الحزب
وسكرتيه محمود طاهر حقي الى تكوين حزب النبلاء ذلك الهجوم الذي
شنه الحزب الوطني على الخديو عباس حلمي الثاني في النصف الثاني
من عام ١٩٠٨ • وبلغ هذا الهجوم الذروة بمقالات محمد فريد المشهورة
« ماذا يقولون » التي عرض فيها بالخديو وسياسته الجديدة (سياسة
الوفاق) ، وذكره بأحاديثه القديمة في الانتصار للدستور والحركة
الوطنية • فكتب في اللواء بتاريخ ١١ أبريل عام ١٩٠٨ يقول : « لا يخطر
على بال مصر أن سمو الخديو المتربى في وسط الأمم الحرة وبجانب أكبر
امبراطور دستوري (الامبراطور فرانسييس جوزيف امبراطور النمسا)
ينخدع بما تزينه له سياسة السير الدون جورست اللينة الممس ، ويضع
نفسه فعلا تحت حماية انكلترا ، بل نحن على ثقة تامة بأن قلبه الكبير
يتألم بقدر تألم قلوبنا ، ان لم يكن أكثر ، من وجود الاحتلال الأجنبي
ببلاده ، وتتوق نفسه العالية الى أن يكون حرا في بلاده ، يحكمها بصفة
أمير دستوري بالاشتراك مع مجلس نيابي عالم بقوته وبواجب عليه ،
ولذلك فنحن نلفظ كل « ما يقولون » ونستمر على القول بأن فكرة المجلس
النيابي سائرة في طريقها ، وليس في استطاعة أحد أن يوقفها » (١) كما

(١) الرافعي ، محمد فريد ، ص ٨١ •

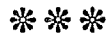
رأى النبلاء أن سياسة تأييد الحزب الوطنى للدولة العثمانية لا تجدى مادام على عدائه للانجليز ، اذ تصوروا أن لا انقاذ للدولة العثمانية من محنتها بدون العون الانجليزى * ولقد أرسلوا فعلا برقية الى السير ادوارد جراى أثناء أزمة البوسنة والهرسك يطلبون منه أن تعمل بريطانيا على المحافظة على الدولة العثمانية * ولقد حدد حسن حلمى بك أهداف حزبه فيما يلى (١) :

١ - الولاء للدولة العثمانية *

٢ - الولاء للأسرة الخديوية *

٣ - التعاون مع بريطانيا لتجديد مصر *

وأيا كان الأمر فان حزب النبلاء لم يقدم فى العمل السياسى المصرى أكثر من مدلول فكرى دون أى عمل فعلى *



وقد أدت جوانب الخلاف بين الأحزاب الرئيسية الى خوض الصحف فى مهاجمات لم تكن تستهدف الحق دائما ، وقد كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة * وقد أفسدت هذه المهاجمات الأخلاق والأذواق ، فتولد فى المصريين ميل جامح للتبع هذا السباب والتشفى بسماعه ، وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا فى شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدتهم فى حفل مصارعة الثيران ، وقد غدا أقدر الناس على السباب وعلى رده هو أبرعهم فى أعين الناس * وبذلك استنفدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصرفت عن مواجهة الاستعمار ، عدوهم الأول ، الذى استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حربا على صاحبه * وارتكبت الصحف

Alexander, op. cit., p. 195.

(١)

باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم •
وكان مقال الجريدة « تعالوا نتفق أو نختلف » من أوضح ما كتب في
بيان الفروق والاختلافات بين هذه الأحزاب ، وقد جاء فيه :

« ••• (فالمؤيد) يتخيز دائماً في سياسته العامة الى احدى
السلطتين ، وأما في جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجرى من
النقيض الى النقيض ، أى من (اللواء) الى (المقطم) • فأحيانا يكون
كالأول ، وأحيانا كالثانى ، وغالبا ينفرد في هذا الميدان الفسيح بذهنكم
النقيضين ، مراعيًا في ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التى ذكرناها •
وأما (الجريدة) فإنها لا تتخيز لجهة من السلطتين ، ولا تتفق مع طرف
من طرفى النقيض ، وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقا بل قلمها
وقف على خدمة الأمة دون سواها ••• وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة
السياسة مع (المؤيد) • وأما (المقطم) فإنه يتخيز الى سلطة قصر
الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخط ، ويقول بالرضا
عن الاحتلال ••• وأما (الجريدة) فإنها لا تقول بالرضا عن الاحتلال
مطلقا •• وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) و(المقطم) متفقتى المذهب ••
وأما (اللواء) فإنها تدعو الى الاستقلال بالطفرة ، وخطتها عدائية
للمحتلين ، ونحن نرى أن الطفرة محال ، وعواقب التشبث بها خطيرة
جدا •• كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التى لا يحكم العدل
بقبحها ليس من الاعتدال الذى هو شعارنا فى شىء » •

كما نعى حافظ ابراهيم فوزى الرأى فى ذلك الوقت بهذه الأبيات^(١):

وصحف تظن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو الى ظله الأرحب

(١) ديوان حافظ ابراهيم ، ج٢ ، ص ٢٠٤ .

وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وهكذا عمل الاحتلال البريطاني على تفتيت الحركة الوطنية المصرية ، ويرجع ذلك الى سياسة التفاهم التي التزم بها المعتمد البريطاني جورست مع الخديو * وعندما قامت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ كان عباس يقوم برحلته المعتادة الى الآستانة ، ولكنه لم يعد الى مصر بعد ذلك * ففي ١٨ ديسمبر من نفس العام فرضت إنجلترا حمايتها على البلاد مسفرة بذلك عن نياتها الحقيقية نحو مصر ، وواضحة جدا لسياسة الغموض التي سارت عليها منذ البداية * وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس حلمي الثاني ، وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر * ومهما كان الأمر ، فقد أنهى خلع الخديو واستبدال الحماية بالاحتلال عهدا كان جهد النضال القومي موزعا فيه بين مقاومة الاحتلال والسعى لإنشاء الحكومة الدستورية ، واتجه المناضلون الى تركيز الجهود ضد الحماية — وليدة الاحتلال — لازالتها ولارغام البريطانيين على الجلاء * وفي ذلك الوقت كان هذا الفريق الذي يرى ضرورة التعاون مع الانجليز وتنظيم علاقة مصر بإنجلترا على أساس الاعتراف باستقلال مصر ، يتبوأ مركز الصدارة في حياة البلاد * ولم يعد هناك من يرى ربط المسألة المصرية بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ وانهار بذلك آخر أساس لنظرية الحزب الوطنى في علاج المسألة المصرية ولم يبق غير مبدأ « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » *

الفصل الثامن

ثورة ١٩١٩

- ١ — قيام الثورة وموقف قيادتها من الجماهير •
- ٢ — القوى الاجتماعية الجديدة في الثورة •

١ — قيام الثورة وموقف قيادتها من الجماهير :

عندما أعلنت الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، قررت بريطانيا اعلان الحماية على مصر ، وهو اجراء وسط بين ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية وترك أمورها على ما هى عليه • ولم يكن فرض الحماية على مصر من جانب واحد أمرا مقبولا من المصريين جميعا لولا ظروف الحرب القى لم تمكن أحدا من الادلاء برأيه صراحة ، خاصة وقد أعلنت الأحكام العرفية فى ٢ نوفمبر، وتحددت الحريات وانتشرت جيوش الاحتلال فى البلاد • وبينما كان الساسة المصريون يفكرون فى مصير البلاد فى فترة أواخر الحرب ، حاولت السلطات البريطانية تثبيت الحماية وربط مصر بالامبراطورية البريطانية لأهميتها بالنسبة الى المواصلات الجوية والبحرية العالمية • ولكن المعتمد البريطانى ريجنالد ونجت^(١) (Wingate) حذر الحكومة البريطانية من طبيعة مثساعر المصريين فى المراحل الأخيرة من الحرب ، ولفت نظرها الى ضرورة تحديد معنى الحماية ، ورغبة كل المصريين — من السلطان الى الفلاح — فى تحقيق استقلال مصر الذاتى •

وبعد انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩، استيقظت الحركة الوطنية المصرية التى اضطرت الى الخمود بسبب ظروف الحرب العالمية، وركب « سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبى

(١) عين ونجت فى هذا المنصب منذ اوائل عام ١٩١٩ خلفا للسير هنرى مكماهون . •

تحت تأثير عجزها عن تقدير الحالة النفسية التي يعانيها الشعب تقديراً واعياً سليماً — إلى مقابلة محاولته السلمية هذه بالعنف والقسوة ، مما فجر الاستياء المكبوت في صدور الناس لمختلف الأسباب السياسية والاقتصادية ، وظهوره في شكل ثورة عارمة ضد الانجليز . فلقد خاضت مصر غمار حرب لم تجن منها شيئاً ، بل زاد فيها الشعب شقاء وخصوصاً طبقة الفلاحين والعمال ، والموظفين . كما وضح للشعب مقدار استغلال انجلترا له مدة الحرب ، وكيف جندت ما يزيد على المليون من خيرة رجاله . فلقد كان المصريون « يربطون بالحبال (عند تجنيدهم) ، ويساقون كالأنعام ، ويقام عليهم الحراس ، وينقلون بالقطارات في مركبات الحيوانات » ، واستولت بريطانيا على المحاصيل الزراعية بثمان بخس ، واشتدت سلطات الاحتلال في جمع الضرائب والدواب^(١) ، وقاسى الشعب المصري الضنك والكرب في حين استطاعت قلة من المصريين وعدد من الأجانب جمع ثروات طائلة .

وعلى ذلك بدت الثورة في شكلها الذي ظهرت به ، انفجاراً بكل ما يحمل مثل هذا الانفجار من طابع الارتجال ، والخطة العفوية والتنظيم السريع ، ولكن هذا « الانفجار » سرعان ما تحول إلى ثورة عندها اشتعل على عناصر جديدة في النضال الوطني ، دلت على وقوع تغيير عميق في كيان المجتمع المصري ، ونقصد بهذه العناصر الأقباط والمرأة المصرية . ولقد كانت القاهرة بحكم قيادتها التقليدي للحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، أول ما ظهر فيها رد الفعل الذي أحدثه القبض على سعد زغلول ورفاقه . ومن القاهرة انتقلت الحركة إلى الأقاليم . وكانت الطبقة البورجوازية في المدن أول من استجاب لنداء الثورة ، وتبعتها الطبقة العمالية فيها . أما في القرى فكان الفلاحون هم

(١) انظر ، عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، ج١ ، ص ٤١ .

الذين حملوا عبء الفضال بتأييد الأعيان • وقد تصدرت الطبقة المثقفة الفضال وقادته منذ البداية ، وانبت أفرادها بين العمال في المدن ، والفلاحين في القرى يوقظون الوعي والشعور وينظمون الصفوف • ولقد مرت ثورة ١٩١٩ بمرحلتين رئيسيتين : مرحلة الثورة العنيفة في مارس ١٩١٩ ، وهى المرحلة التى اشتركت فيها جموع الشعب من فلاحين وعمال ومثقفين من الاسكندرية الى أسوان ، وقطعت خلالها خطوط السكك الحديدية وأسلاك البرق والتليفون في كل من الوجهين البحرى والقبلى ووسائل المواصلات في المدن ، والتي قابلتها القوات البريطانية بكل عنف وقسوة ، ثم المرحلة الثانية بعد مارس ، وهى المرحلة الطويلة التى انحصرت الثورة فيها أو كادت في المدن ، واتخذت شكل مظاهرات الطلبة وتحركات المثقفين •

وقد اتخذ دعاة الثورة في القاهرة أماكن يجتمعون فيها ، يتدارسون شئونهم ويرسمون خططها ومن هذه الأماكن ما كان سريا ومنها ما هو معروف • وفى طليعة هذه الأخيرة : الأزهر وبيت الأمة (بيت سعد زغلول) ، ودار محمود سليمان باشا بشارع الفلكى ومحل جروبي بشارع المناخ ، ومحل «صولت» بشارع «فؤاد» ، وغيرها من الأماكن التى يذكرها الرافعى فى كتابه ثورة ١٩١٩ • وكان الأزهر هو المكان الفسيح الذى لم تستطع السلطة العسكرية اقتحامه ومنع الاجتماعات العامة فيه بسبب مكانته ومنزلته الدينية ، ولهذا أصبح محفلا علما للخطابة يتبارى فيه الخطباء من كل الطبقات ، ويقف على منبره القس المسيحى الى جانب العالم المسلم • وظهر خطباء للثورة عرفوا بمذاهبهم الخطابية التى تسترعى الأسماع من أمثال الأستاذ يوسف الجندى والدكتور زكى مبارك والدكتور محبوب ثابت ، ومن أمثال القمص مرقس سرجيوس والقمص بولس غبريال ، ومن أمثال الشيخ مصطفى القاياتى والشيخ محمود أبو العيون من علماء الأزهر • وفى الحق أن

اتحاد عنصري الأمة في ثورة ١٩١٩ هو أعظم انجازات الثورة اطلاقا ، حتى ولو لم يترتب على قيامها تحقيق أى نصيب من الاستقلال • ولقد قاتل القمص سرجيوس في احدى خطبه : « اذا كان الاستقلال موقوفا على الاتحاد ، وكان الأقباط في مصر حائلا دون ذلك ، فانى مستعد لأن أضع يدي في يد اخوانى المسلمين للقضاء على الأقباط أجمعين ، لتبقى مصر أمة متحدة مجتمعة الكلمة » • وقد استجابت المرأة المصرية كذلك للسفور الوطنى ، فنزلت لأول مرة في حياتها الى ميدان النضال السياسى مسجلة الخطوة الأولى في أخطر تطور اجتماعى في تاريخ البلاد • ففي يوم ٦ مارس قامت السيدات والآنسات بمظاهرة كبرى مكونة من عدد يربو على الثلاثمائة من كرام العائلات ، وأعددن احتجاجا مكتوبا ليقدمنه الى معتمدى الدول يحتجن فيه « على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة » • ولقد وجدت المرأة المصرية في الثورة الناسبة فرصة العمر لتؤكد وجودها في المجتمع المصرى الذى كان يصير على تجاهلها تحت عوامل التقاليد والدين •

ولقد كانت ثورة ١٩١٩ ثورة سياسية قامت من أجل استقلال الوطن ، ولم تقم لاحداث تغيير اجتماعى ، ومع ذلك فلم تخل من ارهاصات طبقية طفيفة • فقد وجد الى جانب طلاب الاستقلال طلاب قوت • فعندما أحاط بعض الثائرين ببيت محمود باشا سليمان في أسيوط ، وكان رئيسا للجنة المركزية للوفد ووالد محمد محمود عضو الوفد المصرى ، لتخريبه واحرقه ، وأراد البعض أن ينبههم الى شخص من يحرقون بيته ، أجابوا : « وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين من الفلاحين ؟ نحن طلاب قوت »^(١) • ولم يكن الوفد ، يتوقع ، عندما بدأت المظاهرات الأولى عقب القبض على سعد

(١) فكرى أباطة ، الضاحك الباكي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٤ .

زغلول وصحبه ، أن هذه المظاهرات سوف تتطور الى ثورة عارمة تكتسح البلاد من أقصاها الى أدناها • والحق لقد كان من رأى سعد زغلول نفسه أن الثورة عمل شاق على بلد أعزل ، ومرهق الأعباء ، ومشحون بالجند والسلاح والأرصاء ، ولكنها اذا كانت واقعة ، فشعور الناس بالاختناق والتماسهم المتنفس للجهر بآلامهم المكبوتة كاف لانفجارها والاستيئاس فيها • ولذلك فلم يدرك أحد أعضاء الوفد (عبد العزيز فهمى) حين أفضى اليه مندوبو طلبة الحقوق فى اليوم التالى للاعتقال بما يهتمون به من القيام بمظاهرات الاحتجاج ، أن هذه المظاهرات سوف تكون فاتحة ثورة جامعة تجتاح البلاد اجتياحا سريعا ، فنصح لهؤلاء الطلبة بالاقلاع عن هذه الفكرة والالتزام الهدوء •

والحقيقة أن الحوادث قد جرت بعد ذلك على غير تدبير الوفد • فقد استولى الشعب بنفسه فى المدن والثغور والقرى على زمام الموقف ، وانتقل الأمر الى أيدي اللجان الثورية والجمعيات السرية وغيرها من التنظيمات التى ظهرت ابان الثورة ، والتى نشأت تلقائيا وسط المعارك دون أن تتلقى وحيا من الوفد • ومعنى هذا أن الشعب قد قفز الى مسرح الحوادث ، سابقا قيادته التى كانت بحكم تكوينها من عناصر معتدلة ، تجزع من العنف وتؤثر حل القضية المصرية فى اطار قانونى داخل مؤتمر الصلح • وفى الحقيقة أن دور الوفد فى التنظيم الثورى سوف يأتى بعد اخماد ثورة مارس ، وعلى يد لجنة الوفد المركزية التى سوف تتشكل بمناسبة سفر الوفد الى أوروبا • وعلى أية حال فان ظهور الشعب على مسرح الحوادث كقوة مهيمنة فعالة ، سوف يكون نقطة تحول فى تاريخ الحركة الوطنية كلها • ففيما يتصل بالوفد ، فان توكيله الذى كان — حتى ذلك الحين — كما يقول الدكتور هيكل فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » — أمرا سوريا لحاجة انجلترا ، قد أصبح حقيقة ملموسة ،

فأصبح الشعب هو الأصل والوفد هو الوكيل • وفيما يتصل بالانجليز، فلم يعد يجديهم أن يكتسبوا تسليما من جانب الدول الأوروبية بمركزهم في مصر واعترافا منها بالحماية، لأن البت في المسألة المصرية لم يعد في يد دول أوروبا، وائتما أصبح في يد الشعب المصري، وبهذا باتت المسألة المصرية مسألة مصرية لا مسألة دولية •

وإذا كانت قيادة الوفد قد انتابها الرعب من ثورة الشعب في مارس فان تلك الثورة لم تحدث هذا التأثير المتخاذل في كل أعضاء الوفد • فنجاح سعد زغلول أفاد كثيرا من ثورة مارس، فبدأ يشعر بأن وراءه قوة شعبية تحميه في موقفه الأمر الذي دفعه الى مزيد من الشورية والتشدد في موقفه، فربط نفسه بالقوة الشعبية أكثر مما ربط نفسه بأعضاء الوفد من الأرستقراطية الزراعية • لذلك عارض زملاءه في قبول مشروع ملنر رغم أن غالبية الوفد من الأرستقراطية الزراعية كانت تحبذ قبوله • فالمسألة في نظره ليست أغلبية بل مسألة توكيل، بمعنى أن سعدا لا يهمه أن أغلبية الوفد تحبذ هذا المشروع ولن يخضع للأغلبية، ولكنه موكل عن الأمة ومسئول أمامها ولن يحترم الا ارادتها • وذلك حقيقة أساسية في الموقف داخل القيادة الوفدية، ألا وهي أن الخلاف بين سعد وبقيّة أعضاء الوفد — باستثناء سينوف حنا وواصف غالى — كان في تقديره قوة الشعب كطاقة ثورية، بل في انزعاج بقية أعضاء الوفد من استمرار الثورة ورغبتهم في الاسراع بحل يتيح لهم شيئا من التنفس السياسى والاقتصادى • هذا بينما كان سعد قد تطور بعد ثورة مارس، التي أجبرت بريطانيا على فك أسره وإطلاقه من منفاه، فمست جوانب نفسه وأذابت جليد الاعتدال الذي اتسمت به مواقفه في فترة الاحتلال وجعلته ابان فترة الاحتلال أقرب ما يكون الى حزب الأمة •

ولقد أفهمت ثورة الشعب في مارس سعد زغلول أن المسرح السياسي القديم في مصر قد اختفى كلية ، وأن حزب الأمة لا يستطيع أن يكون الممثل الرئيسي فيه ، بل أدرك أن مصر أصبحت مسرحا لتحركات ثورية شعبية لم يكن يحلم بها قبل الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم ، فقد كان الموقف يتطلب تطورا في ثورية القيادات القديمة لترتفع الى مستوى التضحيات التي بذلتها الأمة في سخط في ثورة مارس • ولقد عبر سعد زغلول عن احساسه بقوة الطبقات الشعبية وصدق ثورتها في خطابه الذي ألقاه في ٤ يوليو عام ١٩٢٤ في حفل نقابة عمال شركة السكك الحديدية وواحات عين شمس اذ قال : « أفرح كثيرا وأسر كثيرا كلما شعرت أن هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط ، بل هي منبعثة أيضا وعلى الأخص في الطبقة التي سماها حسادنا طبقة الرعاع ، وأفتخر بأني من الرعاع مثلكم • ولو كانت هذه الحركة قاصرة على الطبقة العليا ، لما قامت لها قائمة ، ولما انتشرت هذا الانتشار • ولما انتصر المبدأ الوطني ، فطبقة الرعاع هي الطبقة الأكثر عددا في الأمة ، والتي ليس لها صالح خاص ، والتي مبدؤها ثابت على الدوام مبدؤها الاستقلال التام لمصر والسودان • ان الرجل صاحب الأموال وذلك الموظف في المنصب العالي اذا قال : يحيا الوطن ، فانما يقول تحيا وظيفتي أو مصالحتي ، ولذلك رأيت كثيرا من أرباب تلك المصالح ومن دوى الوظائف تقلبوا أو تغيروا ، ولكن الرعاع أمثالكم ما تغيروا ولا بدلوا عقائدهم » •

وعلى الرغم من ذلك فقد كان سعد زغلول يرفض أن يعطى حركة الشعب في ١٩١٩ مضمونا اجتماعيا ، فيقول في نفس الخطاب : « لا يطرب سمعي أكثر من أن رجلا فقيرا لا قوت عنده ينادى ليحيى الوطن ، وليس يطمع في شيء الا أن يعيش كما هو » • ويتضح ذلك أيضا من سياسته

وهو رئيس وزراء في وزارة الشعب عام ١٩٣٤ ، فلم يعترف بنقابات العمال ، ولم يرفع ثسعار الأرض بالنسبة للفلاحين + والحقيقة أن المضمون الاجتماعي لثورة ١٩١٩ ، كان الضمان الوحيد لبقاء الطبقات الشعبية في صفوف الثورة ، فلما دبر مصرع السردار ، لم يكن الأمر في حاجة الى أكثر من دقائق لكي ينطفئ كل شيء ، وتقف الجماهير عاجزة عن أن تمتد يدها وتنتهي ثورة ١٩١٩ . وهكذا كانت قيادة ثورة ١٩١٩ تنتمي بصفة عامة الى الأرستقراطية الزراعية التي كانت تخشى من الثورة ، وبالذات من تحولها من ثورة سياسية الى ثورة اجتماعية . أما سعد زغلول ، فمع أنه كان يدرك قوة الشعب وطاقاته الثورية ، إلا أنه بدوره كان يرفض المضمون الاجتماعي الشعبي للثورة .

٢ — القوى الاجتماعية الجديدة في ثورة ١٩١٩ :

بدأ الاختمار الثورى ، اذن ، ينساب بين المجتمع المصرى ضد الاحتلال عندما استطاع ذلك الاحتلال بوجهه السافر أن ينفذ الى قلب المجتمع ابان الحرب بطريقة مباشرة وحساسة بالقيم التى كانت قوام ذلك الروح والتى كان يعيها وعيا مباشرا ويحرص عليها حرصه على كيانه وحياته . ولما كان الاحتلال أكثر مأسا واحتكاكا بالقاعدة الشعبية، ونظرا لأنها كانت اذ ذاك وهى البيئة المحافظة تمثل مكن هذا الروح فى قوته — فقد كانت تلك تتأهل بطاقات ثورية كبيرة . وكان هذا الاختمار الثورى ينمو فى فترة الحرب فى ظل الحماية ضد الاحتلال فربط مصر بشعور واحد وان تجلى مختلفا فى مستوياته بين فرد وآخر أو طبقة وأخرى كل باختلاف النظر والاستعداد للتجاوب مع تحديات الاحتلال بين الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية والأعيان . وينبغى أن نشير الآن الى القوى الاجتماعية التى حركت ثورة ١٩١٩ ، وأفزعت الجناح المتخلف من قيادة الثورة ، وطورت من ثورية سعد زغلول . وهذه القوى الاجتماعية الرئيسية ثلاث : الفلاحون والعمال والمثقفون . وقد تطورت كل قوة من هذه القوى الثلاث خلال فترة الاحتلال تطورا جعل من مجموعها ومن تحالفها القوة الضاربة فى ثورة ١٩١٩ .

الفلاحون :

« الفلاح المصرى صبور ، لكنه لا يقبل الظلم والاستبداد ويثور عليهما فى النهاية ، ويجب أن ننظر الى دوره فى ثورة ١٩١٩ باعتباره

حلقة في سلسلة طويلة من الثورات ضد الظلم والاستبداد بالإضافة الى تحرير البلاد من أجنبي ظالم مستبد » • قيل عن الفلاح المصرى في بعض الأحيان أنه مستكين ، يرضى بالظلم وينام على الضيم ، وأن مئات السنين التى عاشها يعانى الظلم والاضطهاد قد صيرته الى هذه الحال من ابتلاء • ولكن هذا القول عار تماما من الصحة • حقيقة أن حرفة الزراعة علمت الفلاح الصبر ، وصحيح أن سيطرة الحكومة المصرية على وسائل الرى وانصرف تجعل رزق الفلاح بل وحياته فى يدها، مما يجعله يقبل الخضوع لسلطانها عن طيب خاطر ، لكن هذا شيء والاستكانة للظلم تىء آخر • والشواهد كثيرة فى التاريخ المصرى على جرأة الفلاح وشجاعته وثورته الدائمة على الظلم • فثار الفلاحون ضد الاحتلال الفرنسى فى مصر ، وثاروا ضد محمد على وابنه ابراهيم خصوصا فى الصعيد ، كما اشتركوا فى الثورة العربية • ومن الثابت أن القبرعات والهبات من المحصولات الزراعية والماشية التى خاض بها الجيش العربى الحرب ضد الانجليز ، كانت من فقراء الفلاحين ، وهم الذين بنوا الخنادق للجيش المصرى فى معارك كفر الدوار •

ولا شك أن النكسة التى أصابت الثورة العربية كان لها أثرها على الفلاحين • كذلك كان لسياسة الاحتلال ازاءهم أثرها • لقد قدر الاحتلال الانجليزى ما للفلاحين كطبقة من وزن باعتبارهم الغالبية الساحقة من الشعب • ولذلك قامت سياسة الاحتلال تجاه الفلاحين على أساسين ، الأول الحرص على اجتذابهم الى صفه وابعادهم عن التأثير بتيار الحركة الوطنية الصاعد • وساعده على انتهاز هذه السياسة ما قام به من اصلاحات فى نظام الرى والصرف واستصلاح الأراضى ، لرفع انتاج مصر كمزرعة تمتد بريطانيا بالمواد الخام وبخاصة القطن وتمكينها من سداد ديونها للأوروبيين • يضاف الى ذلك أن الاحتلال قام باصلاح فى النظام الضرائبى مما أدى الى الغاء كثير من الضرائب

الصغيرة بينما استبقى المصدر الرئيسى للإيراد ، وهو ضريبة الأرض . كما هو . ولقد أدت هذه السياسة الى تحييد شعور الأفلاحين تجاه الاحتلال والى حصر نشاط الحركة الوطنية فى المدن . لكن عدم وجود مضمون اجتماعى لسياسة الاحتلال الزراعية هذه أدى الى أن الرخاء الذى أوجدته راح الى جيوب كبار الملاك الزراعيين ، كما حصل استقطاب فى الملكية الزراعية فقللت الملكيات المتوسطة ، وزادت الملكيات الكبيرة عددا ومساحة ، بينما تعرضت الملكيات الصغيرة للتفتيت وزاد عدد الفلاحين المعدمين . وهكذا زاد الأغنياء غنى وبقى الفقراء على فقرهم فى وقت ارتفعت فيه الأسعار فى أوائل القرن العشرين ، مما أدى الى تذمر الفلاحين .

أما الأساس الثانى لسياسة الاحتلال تجاه الفلاحين فهو ضرورة القضاء بكل سرعة وشدة على أية حركة معادية تقوم بينهم قبل أن تستفحل وتجرفهم فى تيار الحركة الوطنية ، سياسة الارهاب تلك هى التى أملت تصرفات الاحتلال فى حادث دنشواى . كانت دنشواى نقطة تحول فى شعور الفلاحين تجاه الاحتلال ، اذ اتضحت لهم بشاعته وأنه ليس صديقا لهم كما يدعى^(١) . وهكذا أدت سياسة الاحتلال فى النهاية عند قيام الحرب العالمية الأولى الى تحويل الفلاحين الى طبقة متدمرة اجتماعيا وسياسيا . وقد زادت سياسة الاحتلال خلال الحرب من هذا التذمر . فأعطت السلطات العسكرية الأولوية المطلقة لمطالبات الحرب واستولت على الكثير من محصولات الفلاحين ومواشيهم ودوابهم ولم تعوضهم عنها بالتعويض المناسب ، فى الوقت الذى أدت فيه الاجراءات وظروف الحرب الى ارتفاع الأسعار . وكونت السلطات العسكرية فرقا من العمال وفرقا للنقل بالدواب لمساعدة قواتها المحاربة ، وجمع الفلاحون بالاكراه لهذه الفرق فيما عرف بالسلطة . وقد مات منهم

(١) عن دنشواى واحداثها راجع : محمد جمال الدين المسدى ، دنشواى ، مطبوعات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

الكثيرون في ميادين الحرب في « الشرق الأوسط » وأوروبا • وفي عام ١٩١٦ كان ينتظم في هذه الفرق حوالي عشرة آلاف في فرنسا وثمانية آلاف في العراق • وفي عام ١٩١٨ كان هناك مائة وخمسة وثلاثون ألفا في سورية ، مما يوضح ضخامة الأعداد التي جمعت • وتلك أعباء وقع معظمها على الفلاحين الفقراء وقد اقترنت في أذهانهم بالاحتلال وعلان الحماية •

وهكذا تعرض الفلاح المصري لضروب من الذل أعادت الى ذهنه ذكرى المظالم التي عاناها أيام الحكم التركي القديم • وما أن اندلعت ثورة ١٩١٩ حتى اندفع الفلاحون تلقائيا الى المساهمة فيها مع باقى طبقات الشعب • وقد دعمت ثورتهم مختلف مديريات القطر • وكان أهم ما قاموا به مهاجمة محطات السكك الحديدية وقطع الخطوط الحديدية وأسلاك المبرق والتليفون واتلاف الطرق • وقد أصابوا ٦٣ محطة سكة حديد وقطعوا الخطوط الحديدية في ٢٠٠ نقطة ، وكان هدفهم من ذلك شل حركة المواصلات وتعويق حركة القوات البريطانية • وقام الفلاحون أيضا بمهاجمة مراكز البوليس والاستيلاء على ما بها من سلاح ، وبمهاجمة القوات البريطانية وبخاصة في مديرية أسيوط • وكانت معارك الفلاحين في أسيوط وحولها ضد القوات البريطانية من أمجد معاركهم • فقد هاجم الثوار القوات البريطانية في أسيوط واضطروها الى اتخاذ موقف الدفاع رغم ما تكبدوه من مئات القتلى والجرحى • وتوالت النجذات البريطانية بسرعة ، فوصلت طائرتان حربيتان أمطرتا الثوار وابلا من القنابل ، وسارت النجذات من القاهرة في البواخر النيلية ، فهاجمها الآلاف من الفلاحين على ضفاف النيل في مركز ديروط^(١) • ورغم أن المدافع الرشاشة حصدت منهم عدة مئات فقد تكرر الهجوم •

بدأ اشتراك الفلاحين في الثورة في ١٢ مارس ، ثم خرجوا منها بسرعة بعد حوالى أسبوعين • ويرجع ذلك الى عدة عوامل منها ضعف تسليح الفلاحين ، فقد كان المصريون ممنوعين بمقتضى القانون من حمل السلاح الا بترخيص • وكان الفلاحون يفتقرون الى قيادة عسكرية وسياسية توجه عملياتهم وتنظمها • يضاف الى ذلك كثرة عدد القوات البريطانية في مصر منذ قيام الحرب ، والوسائل الوحشية التى لجأت اليها السلطات العسكرية للقضاء على ثورة الفلاحين فقد سيرت الفرق العسكرية والقطارات الحربية المسلحة والسفن المحملة بالجند والمدافع وأرسلت الطائرات للقضاء على الثورة • واتبعت تلك القوات تجاه القرى الثائرة أو التى يقع بالقرب منها اعتداء على السكك الحديدية ، اتبعت سياسة النهب والحرق والاعتداء على النساء وجلد الرجال وقتل من يبدى أية مقاومة لتلك الاجراءات • ومن البلاد التى ارتكبت فيها تلك الفظائع العزيزية والبدرشين ونزلة الشوبك بالوجه القبلى، وميت القرش وتفنها الأشراف وكفر الشيخ بالوجه البحرى ، كما أنهم فرضوا على قرى مركز كفر الشيخ أن تقدم كل منها عددا محددا من رجالها يجلد كل يوم زيادة في الاذلال والتنكيل •

ومن العوامل التى أدت الى سرعة خروج الفلاحين من الثورة تخوف قياداتها منهم • فلقد حملت ثورتهم مضمونا اجتماعيا الى جانب المضمون السياسى ، فلم يصبوا نقيمتهم على الأجانب المحتل فقط ، بل صبوها أيضا على الملكيات الكبيرة • وكانت قيادة الثورة حينئذ في أيدي كبار الملاك الزراعيين من أعضاء حزب الأمة السابق ومن المتعاطفين

(١) انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسى ،

معهم ، أى أنها قيادة وطنية فى اتجاهاتها السياسية رجعية فى اتجاهاتها الاجتماعية • وقد خشوا أن تتحول ثورة الفلاحين الى ثورة اجتماعية تطيح بهم ، بدل أن تلزم طريق الثورة السياسية المرسوم • ومن أدلة الخوف من ثورة الفلاحين تلك الحكومات المحلية والمجالس التى قامت للمحافظة على الأموال والأموال والأرواح •

كانت ثورة ١٩١٩ أول ثورة فى تاريخ مصر الحديث على النطاق القومى ، ولو لم يشترك فيها الفلاحون والعمال لانقلبت الى حركة مقاومة عادية محدودة يحمل لواءها الطلبة وحدهم ولما كان لها أثر كبير. ولكن ثورة الفلاحين بانتشارها فى معظم بلاد القطر ، وبأعمال العنف التى صاحبته ، أكسبت ثورة ١٩١٩ الطابع القومى وطابع القوة الايجابية ، وتلك عوامل أقنعت بريطانيا بقوة الثورة والتأييد الذى تجده بين جميع طبقات الشعب ، وبخاصة بين غالبية الشعب من الفلاحين • ولو تيسر لثورة الفلاحين أن تستمر لأمكن لثورة ١٩١٩ أن تحقق كثيرا من النتائج فى المجالين الخارجى والداخلى ، ولتغيرت قيادة تلك الثورة ، واكتسبت هضمونا اجتماعيا ، ولحق الفلاحون بعض المكاسب ، أما خروجهم المبكر بالاضافة الى خروج العمال ، فقد حرم ثورة ١٩١٩ من قاعدتها العريضة ومن النشاط الايجابى الذى ميز أدوارها الأولى وعادت الى طريق المقاومة السلبية من اضرابات ومقاطعة وهو الطريق الذى رسمته زعامتها منذ البداية « السعى الى الاستقلال بالطرق السلمية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا » • ولما كانت تلك الوسائل محدودة النتائج فقد تحتم السعى الى الاتفاق مع المحتل وبدأت الحركة الوطنية تدور فى حلقة المفاوضات المفرغة حتى عام ١٩٣٦ وبعدها • ومن الناحية الداخلية فان خروج الفلاحين والعمال من الثورة أهسح المجال أمام الطبقة البورجوازية بشقيها فى الريف وفى المدن بالاستئثار بالمكاسب بحيث خرج الفلاحون والعمال صفر اليدين دون أن يحققوا أية مكاسب تذكر مقابل ما بذلوا من تضحيات •

العمال :

تعتبر الطبقة العاملة المصرية من القوى الاجتماعية الجديدة في مصر^(١) . فلقد كتب كرومر في تقريره عام ١٩٠٥ يقول : « بأن الصنائع التي اشتغل الوطنيون أنفسهم بها قرونا طويلا آخذة في الانقراض . . ان التزامواى يحل محل الحمير لنقل الركاب وبانقراض ركوب الحمير تنتفض صناعة السروج وتوابعها ومنذ قل استعمال البلاط البلى لتبليط أراضى الغرف وأصبح يصنع من الخشب أخذت صناعة الحصر تنقرض أما صناعة النسيج ففى انحطاط . . والمنسوجات الأوروبية تحل محل المنسوجات الوطنية » وفى هذه الظروف المتغيرة صدر قانون ٩ يناير عام ١٨٩٠ بتقرير حرية العمل والصناعة ، ففضى بذلك على الطوائف الحرفية نهائيا . وكانت تصفية نظام الطوائف كنظام مركزى فى الكيان الاقتصادى من أهم العوامل التى أزاخت من الطريق عقبة أمام الاستثمارات الرأسمالية الواسعة ، التى تعتبر بحق السبب فى ظهور الطبقة العاملة المصرية الحديثة .

ونتيجة لكل هذه التطورات شهدت مصر فى الخمسة عشر عاما السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى حركة عمالية على درجة طيبة من الوعي ، ساعدت على قيامها الظروف السيئة التى كانت تعمل فيها الطبقة العمالية ، كما ساعد عليها وجود عدد كبير من العمال الأجانب بين العمال المصريين ، وكذلك اتجاه الحزب الوطنى نحو تنظيم صفوف العمال والصناع فى نقابات للاستفادة بهم فى الصراع ضد الاستقلال . ومنذ أوائل القرن العشرين كانت المشروعات الحديثة قد أخذت تنتشر

(١) عن نشأة هذه الطبقة وتطورها أنظر : أمين عز الدين ، تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩١٩ ، رؤوف عباس حامد ، تاريخ الحركة العمالية فى مصر من ١٨٩٩ الى ١٩٥٢ .

في مصر ، وكان من أهم تلك المشروعات شركات السجائر والسكر وطحين الأقطان والثرام والغاز ، فضلا عن بعض المحال التجارية الكبيرة ، وبعض مشروعات حكومية هامة أخصها السكك الحديدية . وقد ترتب على ذلك ازدياد عدد العمال المتسجلين في تلك المشروعات تدريجيا ، وسعورهم بأنهم يكونون طبقة كبيرة متميزة عن عمال الحرف الصغيرة .

وقد خضعت هذه الطبقة الوليدة لظروف معيشية سيئة . فقد كانت أجورهم ضئيلة ، وساعات العمل طويلة ومرهقة ، ولم يكن ثمة ما يؤمنهم ضد ما يتعرضون له من مخاطر اصابات العمل ، والمرض والشيخوخة وغير ذلك . وفي الواقع أنه ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، لم يكن بمصر تشريع صناعي لتنظيم أمور العمال ، من حيث الأجور وساعات العمل وظروفه ، والعلاقة بين العمل ورأس المال . ولهذا شعر العمال بوجوب تضامنهم والمدافعة عن حقوقهم . وكان بعض هؤلاء العمال من الأجانب ، وكانوا يعلمون مبلغ ما يفيد العمال في الخارج من النقابات ، فكونوا مع اخوانهم المصريين نقابات خاصة بهم .

وقد سجل عام ١٨٩٩ بداية الصدام بين البروليتاريا أو الطبقة العمالية المكونة من عناصر مصرية وأجنبية ، وبين الرأسمالية الأجنبية المستغلة . ففي هذا العام أضرب عمال مصانع السجائر بالقاهرة ، وقاموا بمظاهرات أمام مبنى الحكومة واصطدموا مع البوليس ، واستطاعوا في النهاية أن يحملوا أصحاب الأعمال على رفع الأجور وتحديد ساعات العمل . وقد حاولوا تأليف نقابة لهم على أثر اضرابهم هذا ، ولكن التوفيق لم يلزمهم . فعادوا فأضربوا مرة ثانية في عام ١٩٠٣ . وفي عام ١٩٠٨ ، عندما تهدد مصالحهم بالخطر بعد أن عمدت الشركات الى استخدام الآلات مكان العمل اليدوي ، قاموا باضراب آخر ، ونجحوا هذه المرة في تأليف نقابة لهم في أكتوبر من نفس العام . وقد

اقتدى سائقوا ترام القاهرة بعمال السجاير وأنشأوا نقابتهم في عام ١٩٠٨ ، لكنها ظلت زمنا اسما على مسمى ، لتهديد الشركة بالفصل للمنضمين للنقابة • ثم كونت طوائف أخرى من العمال والمستخدمين نقابات لها ، ومن أمثلة ذلك نقابة مستخدمي المكاتب ، ونقابة كتبة المحامين الأهلية ، ونقابة كتبة المحامين المختلط ، ونقابة مستخدمي المحاكم المختلطة • الخ •

وعندما أخذ الحزب الوطني ، تحت زعامة محمد فريد ، في بث الوعي بين العمال وتكوين رأى عام بينهم عن طريق تأسيس نقابات للعمال والصناع ، أنشأ بيولاقي في عام ١٩٠٩ نقابة عمال الصنائع اليدوية ، وما لبثت أن أنشئت على غرار هذه النقابة نقابات أخرى لعمال الصنائع اليدوية في الاسكندرية والمنصورة وغيرها • وكانت هذه النقابة أهم النقابات العمالية قبل الحرب العالمية ، وهي نقابة مصرية صميمة ، وكانت أغراضها طبقا للائحتها ، تنحصر في السعى الى تحسين حال أعضائها المادية والأدبية ، وبذا كانت أغراضها تعاونية صرفة ، فلم يكن من مقاصدها — على الأقل طبقا لنصوص تلك اللائحة ، المدافعة عن مصالح العمال ازاء أرباب الأعمال على نحو ما تفعل النقابات العمالية الحققة ، لكن الظاهر أن هذه النقابة كانت تعمل سرا لهذا الغرض ، بدليل الصلة الوثيقة بين نشاطها وبين الاضراب الكبير الذي أعلنه بعض أعضائها من عمال السكك الحديدية بالقاهرة في أكتوبر عام ١٩١٠ • وعلى ذلك فقد كان هناك وعى نقابى يشتد في صفوف العمال في السنين السابقة للحرب العالمية الأولى ، وشعور بالظلم والاستغلال تفيض به نفوس هذه الطبقة ، واحساس بالقوة يتمثل في الالتجاء الى الاضراب لتحقيق المصالح والأهداف •

وهكذا انتعشت حركة الطبقة العاملة المصرية في الفترة من ١٩٠٧

أنشط الأحزاب الوطنية وأكثرها عداوة للاستعمار وأقدرها على الاتصال وتحريك العمال والفئات الشعبية الأخرى • وقد قامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقالات واسعة ضد رجال هذا الحزب ، كما هاجمت أُنديته العمالية ومدارس الشعب التي أنشأها للعمال ، وضبطت أوراقها ودفاترها وسجلاتها •

وباعلان الحرب اشتدت وطأة الحياة على أبناء الطبقة العاملة نتيجة للغلاء وارتفاع أسعار السلع الأساسية والضرورية • فقد ارتفعت أسعار الذرة بنسبة ٨١٪ والأرز ٧٢٪ والفول ١١٤٪ والقمح ١٣١٪ والسكر ١٩٤٪ والبتروول ١٠٣٪، وبلغ سعر الفحم تسعة أمثال ما كان عليه قبل الحرب • وفي الوقت الذي كان العمال يعانون هذه الصعوبات، ظهرت حركة بين أصحاب الأعمال (الأجانب والمصريين) وخاصة في المهن والصناعات التي تأثرت بالحرب في سنواتها المبكرة ، تستهدف خفض الأجور وتوفير العمال • وقد أدت هذه الحركة — ضمن عوامل أخرى — (مثل عرقلة حركة التجارة الخارجية ، ورحيل بعض أصحاب الأعمال من الأجانب وتصفية أعمالهم ، ووقف مشروعات البناء والتشييد) الى ظهور البطالة واستفحالها بين العمال الوطنيين والأجانب على حد سواء، وكانت صناعة السجاير — بالذات — من الصناعات التي تأثرت كثيرا لوقف تصدير منتجاتها من ناحية وصعوبة استيراد الكميات الكافية من الدخان لانتاجها •

ولم تكن القوانين الاستثنائية ، وارتفاع تكاليف المعيشة ، وشبح البطالة هي الحصيصة الوحيدة للحرب أو سمة الظروف التي خلقتها وطحنت بها الطبقة العاملة المصرية • لقد كان ينتظر هذه الطبقة فوق كل ذلك الكثير من الأحداث والمشاق بسبب الحرب • ولعل أبشع ما أصاب

الطبقة العاملة — والفلاحين طمعا — خلال سنوات الحرب هو حشدهم جماعات وقطعانا في « فرقة العمل المصرية » أو ما أطلق عليه العامة تعبير « الشغل في السلطة » . ولقد تشكلت هذه الفرقة مع بداية الحرب وتحرك الحملات التركبة في اتجاه قناة السويس (فبراير ١٩١٥ ثم أغسطس ١٩١٦) وذلك لسد حاجة القوات البريطانية الى الأيدي العاملة لاستخدامها في الأعمال المدنية وأعمال الانشاء الضرورية للجهود الحربية مثل تعبيد الطرق ومد خطوط السكك الحديدية وحفر الآبار والخنادق وإقامة الاستحكامات ومد أنابيب المياه وطمرها تحت الرمال ونقل أدوات التلغراف والتلغراف والمهمات والذخائر .

ولم يكن لسياسة القهر التي مارستها سلطات الاحتلال البريطاني ضد الشعب المصري خلال سنوات الحرب أن تستمر طويلا دون رد فعل قوى لمواجهتها . ولما كان نصيب الطبقة العاملة المصرية من اجراءات القهر والاستغلال أكبر نصيب ، فمن الطبيعي أن نتوقع أن تكون الطبقة العاملة أول من يبكر الى الانتفاض والحركة . صحيح أن الأمة تحركت بكل فئاتها في مارس عام ١٩١٩ ، ولكن اذا كانت هذه الحركة — كما يتفق المؤرخون — بعيدة الجذور في تاريخنا المعاصر فان ظروف القهر والاستغلال الاستعماري — طوال سنوات الحرب كانت مشعل انفجارها واندفاعها . وما ان لاحت بشائر السلام وانتقل مسرح العمليات الحربية من منطقة القتال وسيناء الى فلسطين ، وخفت يد السلطات العسكرية نسبيا عن الشئون اليومية للحياة في القاهرة والاسكندرية ، حتى بدأ عمال المسجيرات يعودون رويدا رويدا الى ممارسة أساليب العمل الجماعي للدفاع عن مصالحهم ولرفع بعض ما حل بهم من حيف أصحاب الأعمال . وفي فبراير عام ١٩١٨ أعلن عمال الدخان والمسجيرات في الاسكندرية الاضراب العام ، وأصدر العمال منشورا الى الجمهور يشرحون فيه وجهة نظرهم جاء فيه :

« كنا والسلام يبتسم للعالم والخير يتدفق عليه نتناول أجورا تكاد لا تكفى احتياجاتنا ، وعندما دهمتنا هذه الحرب وما جرت من غلاء في المعيشة ، قلنا سحابة صيف ثم تنقشع ، اتخذنا لها العدة من اجهاد الجسم واتباع التقشير والاكتفاء بما هو دون الضروري ، آملين انفراج الأزمة ، ولكن لم تزال الحال في اشتداد والغلاء في اطراد وازدياد حتى ضاق بنا الذرع • هذا ما حدا بنا الى الامتناع عن العمل ، ومن أجل هذا قمنا نطالب بزيادة الأجر ، فما لبثنا أن سمعنا من أصحاب معاملنا عندما توسط سعادة محافظتنا في الأمر حججا نوردتها ليطلع عليها الجمهور ويعلم منها مبلغ تعنتهم ، مفنديين كل اعتراض من اعتراضاتهم بأدلة وجاعلين مصلحتنا في مؤخرة مصلحتهم فتمثل أمام المطلع على هذا المنشور الحقيقة كما هي » •

ولقد كان اضراب عمال السجاير أول اشارة للعودة الى أسلوب العمل الجماعى المنظم الذى حظرت ظروف القهر الاستعمارى والعسكرى استخدامه ، فلم تلبث الحركة أن امتدت الى عمال الترام ، وعمال السكك الحديدية وعمال المياه وعمال المطابع والمحلات التجارية في القاهرة والاسكندرية • وبلغت الحركة ذروتها في الشهور المبكرة من عام ١٩١٩ قبيل الانفجار الثورى في مارس عام ١٩١٩ • ولم تكن حركة تجديد العمل الجماعى قاصرة في أهدافها على تحسين شروط العمل ، وانما اتجهت في الوقت ذاته — بوضوح أكثر — نحو هدف احياء التنظيم النقابى وتجديد نشاطه مع التطلع للحصول على الاعتراف القانونى بالوجود النقابى • وبذلك يمكننا أن نميز في هذه الحركة اتجاهين بارزين: اتجاه نحو انشاء النقابات المفردة والآخر نحو احياء نقابة الصنائع اليدوية التى تحملت أكبر الخسائر بسبب الحرب ، وكان ارتباطها بالحزب الوطنى من العوامل المشددة لتعريضها لقسط أكبر من طغيان سلطات

الاحتلال • ثم أتاح ظروف الانفجار الثورى (١٩١٩) الفرصة للطبقة العمالية للقيام بالمزيد من النشاط فى الحركة العمالية • وفى أحضان هذا المد الثورى تم تأليف عدد كبير من النقابات يقدرها لا كير فى كتابه « الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط » — استنادا الى الاحصاءات الرسمية — فى الفترة ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢١ بنحو ٣٨ نقابة فى القاهرة و ٣٣ فى الاسكندرية و ١٨ فى منطقة القتال •

ولقد دلت هذه الأحداث والتيارات بما شملته من بعث العمل الجماعى من أجل تحسين شروط العمل وتجديد التنظيم النقابى على مدى عمق الطاقات المكبوتة فى صميم الطبقة العاملة المصرية وقدرتها على المبادرة الى الحركة والنضال فور انتهاء الحرب • ولكن الطبقة العاملة فى هذه الفترة كانت لا يزال يشغل كاهلها الكثير من آثار القهر التى تعرضت له طوال سنوات الحرب • ولهذا فقد جاءت مطالبها — فى الأغلب والأعم — مطالب مباشرة لا تكاد ترقى عن الأمل فى تحسين متواضع وعاجل فى الأجور • وخلت المطالب الجديدة من اللمحات الرائعة التى طالما ظهرت فى اضرابات ما قبل الحرب مثل مطلب التعويض عن اصابة العمل ومكافأة نهاية الخدمة واللجان المشتركة لتسوية الشكاوى والاعتراف بالوجود النقابى • ولقد كانت الطبقة العاملة بحاجة الى قيادة واعية — وربما قيادة موحدة أيضا — لتبدأ السير بها لا من حيث تركتها سياسة القهر الاستعمارى خلال الحرب ، وانما من المواقع المتقدمة التى وصلت اليها عام ١٩١١ أو بعد ذلك بقليل •

وجملة القول أن الطبقة العاملة المصرية كانت بحاجة الى صياغة مطالبها الأساسية الشاملة بدلا من الجرى وراء مطالب جزئية مباشرة هنا وهناك • ولا نحسب أن القيادات الأجنبية التى عاودت نشاطها النقابى بعد الحرب ، كانت جديدة بتحمل هذه المسئولية فقد اتجهت هذه

القيادات نحو التجمع في مواقع معينة ، وشغلتها مهمة الحصول العالين على مكاسب مباشرة ، عن التفكير الشامل في المطالب الأساسية للطبقة العاملة . ولا غرو فقد كان التكتل العنصرى أو القومى غالباً ما يحكم حركتهم ويعجز عن النظر عبر حدوده ، فهناك مطالب للعمال الأرمن ، وأخرى لعمال الايطاليين وثالثة للعمال اليونانيين وهكذا . ولهذا كان من المحتتم أن تقع المسئولية على عاتق رجال الحزب الوطنى العاملين في نقابة الصنائع اليدوية . وكان يؤهلهم لحمل هذه المسئولية ما عرف عنهم من حماس وطنى ، فضلا عن نظرتهم الشاملة الى التنظيم النقابى والمشكلات العمالية . وكما تصدى قادة نقابة الصنائع اليدوية في الاسكندرية لاتجاهات النقابة المنفردة ، فانهم تصدوا أيضا لصيانة المطالب الأساسية الشاملة للطبقة العاملة . وأسفرت جهودهم عن ميلاد وثيقة تاريخية على جانب كبير من الأهمية نشرها بعنوان « مشروع قانون لحماية العمال » (٢ مارس ١٩١٩) ، والبسلاذ على مشارف الانفجار الثورى^(١) .

اذن دخل العمال المصريون أحداث ثورة ١٩١٩ حاملين معهم مطالبهم الأساسية وقضاياهم القديمة والجديدة كما صورتها هذه الوثيقة التاريخية واندفعوا للمشاركة في الثورة لا باعتبارها عملا وطنيا وثوريا فحسب ، ولكن لأنها أطلقت لهم فرص العمل الجماعى من عقالها وجعلت من سلاح الأحزاب — الذى كان سلاحا نقابيا — أداة من أدوات العمل الثورى الوطنى . ولقد أحييت أحداث ثورة ١٩١٩ في نفوس العمال ذكريات النضال القديم من خلال اضرابات الترام والسكك الحديدية في سنوات ما قبل الحرب . كما أحييت بالنسبة للعمال العائدين من فرقة

(١) قامت ثورة ١٩١٩ يوم ٨ مارس أى بعد نشر الوثيقة بنحو اسبوع .

العمل المصرية — ذكريات الاهانة والاستغلال والاذلال فى سيناء وفلسطين وغاليبولى وفرنسا والعراق ، وحفزت فيهم الرغبة للخلاص من تبعة الاستعمار • ودخل العمال ميدان الثورة وهم مؤمنون بأن انتصار العمل الوطنى ونيل الاستقلال كفيلا بتحقيق مطالبهم وحل قضاياهم ، وبهذا نشروا بذور المضمون الاجتماعى على أرض ثورة ١٩١٩ • ولكن لم تخرج الطبقة العامة على الاطلاق بمكاسب من هذه الثورة ، بل سرعان ما فرضت البورجوازية المصرية حمايتها على الحركة العمالية •

المثقفون (أو الانتلجنسيا) :

اتجه البعض الى تسمية ثورة ١٩١٩ « بثورة الأهندية » تقديرا لدور الطبقة المثقفة فى الثورة • والطبقة المثقفة الثورية التى نشير اليها هنا والتى تحملت عبء ثورة ١٩١٩ كانت من أبناء الطبقة المتوسطة من أهالى المدن والقرى بصفة أساسية ، أما متقفو طبقة كبار ملاك الأراضى فقد اقتصر دورهم على نشر الأفكار القومية والعربية فى مصر ، أى على التمهيد للثورة بنشر الأفكار الليبرالية ، اذ بعد تطور الأحداث فى مارس ١٩١٩ ، وظهور اتجاهات اجتماعية الى جانب الاتجاهات السياسية ، و « المطالبة بالقوت الى جانب المطالبة بالاستقلال » ، خشى هؤلاء اشتداد الجانب الاجتماعى فى الثورة ، وهو موقف ينبثق عن موقف طبقتهم العليا ومن الرغبة فى المحافظة على مصالحها • وتوقفوا عن مساهمة الركب الثورى ، وعملوا على الالتقاء مع الانجليز عند منتصف الطريق • ومن ناحية أخرى ، يصعب القول بوجود مثقفين وقتذاك ينتمون الى الطبقة الدنيا — العمال والفلاحين — وان وجد بين مثقفى تلك الفترة من تبنى قضايا هذه الطبقة • فقد كان العمال والفلاحون أعجز ماديا عن تعليم أبنائهم نظرا للظروف التاريخية التى مرت بسياسة

التعليم في مصر ، وخاصة منذ الاحتلال الانجليزي للبلاد في عام ١٨٨٢ ، الذي عمل على محاربة التعليم باغلاق المدارس وانقاص ميزانية التعليم ، مع تحديد مهمة التعليم بتخريج الموظفين فقط ، وهى السياسة التى ارتبطت باسم «دنلوب» المستشار الانجليزي لوزارة المعارف • واذا قيل أن بعض أبناء القرى قد تمكنوا من التسرب الى دور العلم في تلك الفترة ، فانه يمكن الرد بأن هؤلاء كانوا يفدون أساسا الى الأزهر ومعاهده لرخص التعليم به ، وحتى هؤلاء فكانوا من أبناء الطبقة المتوسطة في الريف الذين يتمكنون من الاستغناء ماديا عن أبنائهم في فلاحه الأرض الى جوارهم • وهكذا اذا سلمنا بأن المثقفين الذين حملوا عبء ثورة ١٩١٩ كانوا أساسا من أبناء الطبقة المتوسطة في المدن والريف فيجدر الالمام سريعا بطبيعة تكوين هؤلاء المثقفين وظروف نشأتهم وذلك لابرار حقيقة المسيرة التى اختطوها لأنفسهم أثناء الثورة وما بعدها •

لقد كان ليل محمد على الى الاقتباس من الغرب عند تأسيس دولته الجديدة أثره في وضع البذور الأولى لفئات المثقفين ، وذلك نتيجة اقامة المدارس على الأساس الغربى وارساله البعثات الى أوروبا • ولكن نمى الاتجاه العلمانى على حساب التعليم الدينى ، نتيجة عدم اهتمام الدولة وقتذاك بتطوير الأزهر ، ولوقرف بعض رجالات الأزهر موقف الجمود أمام التيارات الغربية الحديثة التى غزت البلاد ، وأخيرا لاعتماد أجهزة الدولة التى كانت فى اتساع مطرد على خريجي المدارس الأميرية الحديثة مما كان يفتح مجال التوظيف أمام هؤلاء الخريجين • وربما أدى فتح هذه المدارس الى خلق « ثنائية فكرية » بين مدرسة الأزهر والمدرسة الجديدة في التعليم ، ولكن استطاعت الطبقة الجديدة أن تنتزع القيادة الفكرية من رجال الدين ، وساهمت بالنصيب الأكبر في قضايا التغيير

الاجتماعى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وفى تحرير المرأة والحياة النيابية •

ولم يكن نمو المثقفين أمرا عدديا وعلميا فحسب ، بل انهم اكتسبوا شحنة ثورية كبيرة خلال النضال السياسى والاقتصادى الطويل الذى مروا به حتى اندلاع ثورة ١٩١٩ • فأسرة محمد على وان كانت قد استعانت بهذه الطبقة فى ادارة الدولة ، الا أن عناصر الأتراك الشراكسة ظلت تحتل المناصب الرئيسية فى أجهزة الدولة من محمد على الى اسماعيل ، ولهذا نشأت بين طبقة المثقفين المصريين وبين طبقة الأتراك والشراكسة ، منافسة شديدة كانت فى مقدمة العوامل التى حركت ثورة ١٨٨١ — ١٨٨٢ • وفى أوائل عهد الاحتلال البريطانى احتجبت هذه الطبقة اجتماعيا وراء ثلاث فئات استولت على أهم المناصب وأعلها نفوذا فى الدولة ، وأكبرها أجرا ، وهم الأجانب والسوريون (العناصر الشامية) والانجليز • وأما الأجانب ، فقد كانوا بحكم تركز النشاط الاقتصادى فى مصر فى يد العناصر الأجنبية ، يفضلون عن المصريين فى الشركات والمصانع على وجه الخصوص ، ويحتلون فيها المناصب العليا والوسطى ، ويترك للمصريين الفتات • وكان هؤلاء الأجانب يجدون الحماية الكاملة فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية ، كما كانوا يجدون الاعتراف الكامل بالوضع الذى صار لهم فى مصر من السياسة الانجليزية •

وكانت الفئة الثانية التى حجبت الطبقة المثقفة فى مصر هم السوريون • وكان السوريون وخاصة المسيحيين ، يكونون فى مصر جالية على درجة كبيرة من النفوذ ، ولم تكن هذه الجالية تستمد أهميتها من عدد أعضائها ، بل كانت تستمدتها من المراكز التى كان يشغلها أفرادها فقد كان معظم أفراد الطبقة العليا من هذه الجالية ومن كبار رجال الطبقة

الوسطى فيها من الموظفين • وكان السوريون قد بدأوا يحتلون الوضع الذى صار لهم فى مصر عندما بدأ اسماعيل فى صبغ الادارة المصرية بالصبغة الأوروبية ، فقد أخذ الطلب يزداد على الموظفين الذين يعرفون اللغتين العربية والفرنسية ، ويملكون القدرة على استيعاب طريقة الادارة الأوروبية وتمثيلها فى مصر • ولما عجز عدد المصريين المثقفين ثقافة أوروبية عن سد الحاجة ، التجأ الى السوريين ، الذين سرعان ما نجحوا فى تصدر المناصب الكبرى بحكم طموحهم ، وامتلاكهم خاصة التلاؤم مع البيئة فى المجتمعات التى هى خليط من كل الأجناس • وعندما احتل الانجليز مصر وتولوا ادارة شؤونها ، ساعدت الظروف على احتضانهم للسوريين^(١) • فقد رأوا أنهم لا يستطيعون الاعتماد على المصريين من المسلمين بحجة أنهم لا فائدة منهم فى ذلك الوقت ، ورأوا أن الأقباط لا يفضلون المسلمين الا فى القليل ، ومن ثم فلم يبق أمامهم سوى السوريون •

وكانت الفئة الثالثة التى حجبت الطبقة المثقفة فى مصر عن المراكز والمناصب هم الانجليز أنفسهم • وكانت السياسة الانجليزية فى أوائل عهد الاحتلال قد قامت على استخدام عدد معين من الموظفين المنتقنين ليشيروا ويساعدوا ، وخصوصا فى دوائر المالية والرى • ثم أضيف اليهم مستشار قضائى ومستشار للمعارف وبعدها مستشار للمداخلة وجماعة من المفتشين للأقاليم • على أنه باستمرار الاحتلال ، وزيادة إيرادات مصر ، اتسع نطاق الوظائف فى حكومتها كثيرا ، وفى نفس الوقت لم يكن هذا التوسع لمصلحة العنصر المصرى ، فقد زاد عدد الموظفين

(١) انظر : محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ،

البريطانيين زيادة مضطردة ، وأغفل المبدأ القاضي بأن يكون غرض الادارة تدريب المصريين واعدادهم لتدبير شئونهم بأنفسهم • لهذا أخذ الاستياء ينمو ويزيد ، ورأى المصريون الذين طال اختبارهم للوظائف في حكومتهم ، واتصفوا بالكفاءة ، أنه قد قضى على ترقيتهم التي أسمى المناصب في حكومتهم ، بعد النظام القاضي بأن المنصب الذي يتقلده غير مصرى لا يتقلده مصرى اذا خلا ، بل يتقلده غير مصرى على الدوام • وواضح أن الاحتلال البريطاني كان يعمل عامدا على ابقاء المصريين في حالة من التقصور والعجز والاعتماد على الانجليز في القيام بشئون الوظائف الهامة • ذلك أن سياسة التعليم ، التي كانت تجرى على يد الاحتلال ، لم يكن من شأنها في الواقع أن تفضي الى تخريج كفاءات هامة تسد حاجة البلاد • ولقد كان الغرض من ذلك أن يجدد الانجليز على الدوام الذريعة لشغل الوظائف العليا بالعناصر الانجليزية ، ومن ثم يسيطرون تماما على شئون البلاد •

وعلى كل حال ، فقد كانت فترة الحرب العالمية الأولى محنة للطبقة الوسطى المثقفة • ففي الوقت الذي كانت قطاعات أخرى من الشعب تستفيد من حالة الحرب في الاثراء ، كانت هذه الطبقة تعاني أسوأ آثار الحرب الاقتصادية ونتائجها • فان ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية ارتفاعا متواليا لم يسبق له مثيل وخصوصا أسعار الحبوب الغذائية والمنسوجات والوقود ، وكذلك ارتفاع أجور المواصلات ، لم يصحبه في نفس الوقت ارتفاع مماثل في دخل أصحاب المهن والموظفين • ولقد عمدت الحكومة الى منح الموظفين علاوة غلاء المعيشة ، ولكنها من ناحية أخرى ، رفعت أجور النقل بالسكك الحديدية ٥٠٪ على زيادتها السابقة فبلغت الزيادة ١٠٠٪ •

على أن انتهاء الحرب العظمى كان ايذانا بازدياد متاعب هذه الطبقة،

ففى المدة ما بين ١٦ أغسطس عام ١٩١٨ وأول سبتمبر عام ١٩١٨ ، تقدم للقومسيون الطبى فى لندن مائة وثلاثون شابا انجليزيا من راغبى التوظيف فى مصر ، وقد نجح هؤلاء جميعا ، ووفد هذا العدد الكبير على مصر حتى اضطرت الحكومة الى ايجاد أقسام جديدة فى مصالحها لاستيفائه . وقد نشر الأستاذ فكرى أباطة فى ذلك الحين مقالا أبدى فيه تخوفه من ازدياد عدد الموظفين الانجليز فقال : « وفد علينا هذين اليومين ، جيش جرار من شبان الانجليز ، زاحمنا حتى فى أصغر وظائف مصرنا العزيزة وسارت حكومتنا مع الوافدين على النصف الثانى من المبدأ المشهور أحرار فى بلادنا — كرماء لضيوفنا فألحقهم بالوظائف الفنية وغير الفنية ، وترتب على هذا خروج عدد عديد من الموظفين المصريين ، فالتجئوا للمحاكم طالبين العدل والانصاف ، وكان دفاع الحكومة ، ولايزال ، ملخصا فى كلمتين : رفتاه للاستغناء ، ولو أنصفت لقاتل رفتاه للاستبدال » .

وهكذا يتضح جليا أن سياسة الانجليز نحو الطبقة الوسطى المثقفة لم تدع لهذه الطبقة من سبيل سوى الاستمالة فى محاربة الاحتلال . وسنرى كيف أثر هذا على النشء من هذه الطبقة ، فبرز عنصر جديد من عناصر المقاومة الشعبية فى مصر وهم الطلبة . ولقد كان لهؤلاء تراثهم الشررى الزاخر بالتنظيم والمواقف ، الذى مكنتهم من تحمل الأعباء التى ألقىت على عاتقهم من حيث القدرة على تنظيم أنفسهم علنيا وسريا ، وعلى العمل فى وسط الجماهير . ففى عام ١٩٠٥ بدأت أول محاولة لتنظيم صفوف الطلبة والخريجين بانشاء نادى المدارس العليا ، ويعد هذا النادى مسئولا عن المظاهرات الوطنية التى شهدتها مصر حتى قيام الحرب العالمية الأولى . وفى ظل الظروف الاستثنائية التى فرضتها الحرب ، وتقبيد الحريات ، حمل الطلبة مسؤولية نشر الوعى السياسى والوطنى بين الأهالى وذلك من خلال مناقشاتهم لأوضاع الاحتلال

وأعوانه في البلاد • وكما كان القبض على سعد زغلول يوم ٨ مارس هو العامل المباشر لقيام ثورة ١٩١٩ ، فقد كان الطلبة هم الذين أطلقوا الشرارة الأولى لهذه الثورة ، وهم الذين فجروا الثورة عند باقى عناصر الأمة وفئاتها • ففي اليوم التالى للقبض على سعد زغلول ، تظاهر طلبة المدارس العليا وبعض المدارس الثانوية احتجاجا على اعتقال سعد ، وللمطالبة برفع الحماية • وعندما سرى خبر هذه المظاهرات ، أجمع الطلبة دون استثناء على التظاهر ثانية ، فخرجت مظاهرات تطوف أنحاء القاهرة في اليوم الثانى للثورة ، وهو اليوم الذى بدأ فيه اشتراك العمال في الثورة • وقد نظم الطلبة أنفسهم في لجان لتنظيم أعمالهم وتحركاتهم طوال مدة الثورة ، وكانت هذه اللجان تعمل بوحى من شعورها الخاص في المراحل الأولى للثورة ، وقبل أن تتصوى تحت لواء الوفد • ولتوضيح ضخامة حركة الطلبة يمكن القول أن عدد المعتقلين منهم في القاهرة عقب مظاهرة اليوم الأول فقط كانوا ثلاثمائة طالب ، كذلك بلغ عدد المعتقلين من طلبة المعهد الدينى في الاسكندرية وحدهم ٤١٥ طالبا •

ومن الفئات المثقفة أيضا التى اشتركت في الثورة أصحاب المهن الحرة • وكانت هذه الفئة من أخطر العناصر الثورية ، فكانت مكاتب المحامين خلايا للثورة تزخر بالحركة والنشاط • ولقد كان الأستاذ يوسف الجندى الذى أعلن استقلال اقليم «زفتى» أثناء الثورة أحد المحامين بهذا الاقليم • وقد اشترك المحامون في الثورة منذ يومها الثالث ، فقد اجتمعوا يوم ١١ مارس وأصدروا قرارا بالاضراب وتأجيل النظر في القضايا ، فوافق أغلب القضاة على التأجيل • وتبعهم المحامون الشرعيون فأضربوا في يوم ١٥ مارس وطلبوا تأجيل القضايا •

أما بالنسبة لموقف الموظفين من الثورة ، فرغم تأخر قيامهم

بالاضراب بالنسبة لباقي عناصر الأمة نظرا لوضعهم الاقتصادي ، فقد كان لاضرابهم أثر بالغ الخطورة على سلطات الاحتلال لتحكمهم في أجهزة الحكم ، ولأن هذا الاضراب كان يعنى انتقال هذه الأجهزة الى أيدي الثوار . ومن ناحية أخرى فلم يكن تأخر اضراب الموظفين يعنى عدم مشاركتهم في الثورة ، فقد سارع بعضهم الى تحرير العرائض وجمع التوقيعات عليها لرفعها الى السلطان احتجاجا على اعتقال الزعماء ولرفع الحماية ، كما قام البعض الآخر بالاضراب يوم ١٠ مارس . أما الاضراب العام لجميع الموظفين الذي استمر ثلاثة أيام فقد كان في أول أبريل بعد أن تسلموا مرتباتهم . وكان موقف الموظفين قد بدأ يتخذ شكلا حاسما منذ ٢٥ مارس عندما قرروا تأليف لجنة من الموظفين للتعبير عن موقفهم ازاء الأحداث وقتذاك . وقد أعيد تشكيل هذه اللجنة وزادت من أهميتها وعملها حتى أصبحت المسئولة عن اسقاط وزارة رشدي باشا الرابعة التي تألفت عند الافراج عن سعد وصحبه في ٧ أبريل . وقد تكررت هذه اللجنة من ٣٢ عضوا ، وسميت « لجنة مندوبي موظفي وزارات الحكومة ومصلحتها » . وعندما بدأ تعثر الثورة ، خرج الموظفون بسرعة ، ثم تحول أصحاب المهن الحرة الى أصحاب مطالب يطعون في مناصب الوزارة والبرلمان ، وبقي العنصر الأخير والثالث هو الطلبة .

وعلى أية حال لم تستطع الثورة أن تحقق شيئا مباشرا للعمال والفلاحين ، ولكن الأوضاع بعد تصريح فبراير عام ١٩٢٢ مكنت الوزارات المصرية المتعاقبة من تمصير الادارة المصرية تدريجيا ، ولاسيما وزارة سعد في عام ١٩٢٤ ، وكان ذلك لصالح المثقفين المصريين . ثم مكنت هذه الأوضاع الحكومات المصرية منذ عام ١٩٢٤ من التوسع في التعليم ، فزاد عدد الطلبة في المدارس في عام ١٩٢٤ الى ٣٢٤ ألف ، ثم الى ما يقرب من ٩٠٠ ألف في عام ١٩٣٣ ، كما زادت ميزانية التعليم بالنسبة الى الميزانية العامة من ٤٪ في عام ١٩١٩ الى ١٣٪ قبل الحرب

العالمية الثانية • وكان هذا مكسبا أيضا للمثقفين المصريين • وهكذا كانت طبقة المثقفين في طليعة الطبقات التي خرجت بمكاسب واضحة من الثورة •

وبرغم تعثر ثورة ١٩١٩ واختناقها فقد تمخضت عن تلك الثورة عدة نتائج هامة نجلها فيما يلي :

١ — استطاعت الثورة أن تلغى الحماية البريطانية عام ١٩٢٢ • حقيقة أن إلغاء الحماية لم يؤد الى الاستقلال الذي تطمح اليه المصريون بسبب التحفظات الأربع المصاحبة لإلغاء الحماية في تصريح فبراير عام ١٩٢٢ • ومع هذا فإن إلغاء الحماية أتاح فرصة للرأسمالية المصرية للتنفس السياسى وتمصير وظائف الدولة ، وفتح الباب أمام أبنائها للدخول ، كما أن مقاعد البرلمان والوزارات أفتاحت لها فرصة المشاركة في الحكم • وبذلك اتسم موقف الرأسمالية المصرية بسبب هذه المشاركة بطابع المهادنة أو المساومة •

٢ — كما أدى هذا الحد من التنفس السياسى للرأسمالية المصرية الى تأسيس بنك مصر ، كمؤسسة لتجمع الرأسمالية الوطنية في مواجهة الاحتكارات الأجنبية ، وان كان تطور بعض قطاعات من الرأسمالية المصرية في الفترة ما بين الحربين العالميتين ، سينتهى الى ظهور الرأسمالية الاحتكارية المصرية ، الأمر الذى سيخرج الرأسمالية المصرية بصفة عامة خارج معسكر الثورة الوطنية الديمقراطية •

٣ — كان اشتراك المرأة في ثورة ١٩١٩ علامة حاسمة في حركة تحرير المرأة المصرية التى بدأت في السنوات الأولى من القرن العشرين • غير أن هذا التطور في الحركة النسائية كان مشوبا بكثير من الشوائب، لأن الحركة النسائية بدلا من أن تتطور تطورا ثوريا حدث لها ما حدث

للحركة العمالية • وقد استخدمت الحركة النسائية في مصر لخدمة القصر والأحزاب الرجعية • كذلك عجزت الحركة النسائية المصرية بسبب طبيعة العناصر المسيطرة عليها ، من أن تتطور تطورا ثوريا نضاليا ، فظلت تنقسم بطابع الانحلال الى حد كبير ، والابتعاد عن مجال العمل الوطني السياسى ، وحصرت نشاطها في مجال الخدمة الاجتماعية ذات الطابع الاحسانى ، مما أدى الى تجميع حقيقة التناقضات الرئيسية بين الطبقات الشعبية والأرستقراطية المستغلة •

ولكن اذا كان الشعب المصرى قد فشل في تحقيق ما علقه على ثورة ١٩١٩ من آمال ، فان ذلك يرجع الى بعض الأسباب • السبب الأول كما يقول الميثاق هو « أن القيادات الثورية أغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى » • فثورة ١٩١٩ لم تكن ثورة اشتراكية اطلاقا ، كما أن طبيعة قيادتها لم تؤهلها للقيام بهذا الدور ، فهي ثورة التحرر الوطنى القائمة على فكرة التحالف بين الطبقات : وهى الرأسمالية المصرية والمثقفون والعمال والفلاحون ، والتحالف بقيادة الرأسمالية • ولقد خرج العمال والفلاحون دون مكاسب على الاطلاق من هذه الثورة ، ومن الواضح أن قيادة الثورة كانت حريصة على خروج هذين القطاعين من الثورة منذ البداية ، حتى لا تكتسب الثورة ذلك الطابع النضالى العنيف الذى اتخذته في مارس ، أو حتى لا يكون هناك احتمال تحول الثورة كلها من ثورة سياسية فقط الى ثورة سياسية واجتماعية معا • ولقد أثر خروج العمال والفلاحين على مسار الثورة كلها ، اذ جعل منها أو انتهت بها الى حركة سياسية أسلوبها في تحقيق الاستقلال أسلوب المساومة السياسية مع الاحتلال • حقيقة أن هذا التحول الجذرى في مجرى الثورة قد بدأ في عام ١٩٢٤ ، ولكن تحول الثورة من ثورة الى حركة سياسية مركزة في المدن أسلوبها مظاهرات الطلبة وتجمعات المثقفين ، هذا كنهه لا بد أن يحدد بخروج العمال والفلاحين من معسكر

الثورة رغم ارادتهم • ويقول الميثاق في هذا الشأن : « ان المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها • لكن القيادات التي تصدرت في مقدمة الموجة الثورية سنة ١٩١٩ باغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثوري لم تستطع أن تتبين بوضوح أن الثورة لا تحقق غاياتها بالنسبة للشعب الا اذا مدت اندفاعها الى ما بعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال ووصلت الى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية » •

ومن الأسباب التي أدت الى تحول الثورة ضد الانجليز الى حركة سياسية ، دستور ١٩٢٣ وما أدى اليه من نزاع بين الوفد وهو قيادة الحركة الوطنية من ناحية وبين السراي من ناحية أخرى • ودون شك كان لهذا الصراع دلالاته البالغة ، لكن الوفد لم يرفع أبدا شعار اسقاط السراي ، فلم يتطور هذا الصراع تطورا ثوريا ، بل بقى في اطار دستور ١٩٢٣ ، الأمر الذي جعل الحركة الوطنية دائما في موقف الضعيف العاجز عن حسم ذلك التناقض بين الحركة الوطنية والأسرة الحاكمة •

ومن ناحية أخرى لم يخدم الموقف الدولي الحركة الوطنية في مصر ، أو في غيرها من المستعمرات الآسيوية والافريقية ، فالدول الاستعمارية كانت في عنفوان قوتها • حقيقة لقد أدت ثورة أكتوبر ١٩١٧ الى ظهور الاتحاد السوفييتي ، الذي استطاع أن يقدم بعض المساعدات للحركات الوطنية في البلاد القريبة منه مثل تركيا والصين وايران ، ولكنه بسبب بعده عن مصر من ناحية ومشاكله الداخلية من ناحية أخرى، لم يتمكن من تقديم أية مساعدة للحركة الوطنية المصرية • وحتى اذا كان في امكانه ذلك ، فمن المشكوك فيه تماما أن قيادة ثورة ١٩١٩ كانت على استعداد لتقبل هذه المساعدة • قالوقد خلال عام ١٩١٩ كان يركز في

اعتماده دوليا على الولايات المتحدة الأمريكية وحدها * ومن هنا جاء نشاط الوفد لدى الدوائر الأمريكية الرسمية وغير الرسمية * فلما فشلت هذه المحاولات واعترفت الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر، كان سعى الوفد الى حل القضية المصرية في اطار التفاهم المباشر والضيق مع انجلترا وحدها وذلك هو الخط السياسى الذى ظل الوفد يتبعه حتى وقع معاهدة سنة ١٩٣٦ *

وعلى ذلك يجب أن نعتبر معاهدة ١٩٣٦ النتائج الطبيعية للخط الذى شاعت ثورة ١٩١٩ أن تسير عليه بالحاح * وكان توقيع معاهدة ١٩٣٦ من العوامل التى أضعفت الوفد ، فبدأ نفوذه فى السيطرة على الحركة الوطنية يتدهور * ولما كان الوفد يمثل بشكل رئيسى اتجاه ليبراليا بورجوازيا ، فان معاهدة ١٩٣٦ وتدهور نفوذ الوفد سيؤدى الى تيارات سياسية فى أقصى اليمين ذات الاتجاه الفاشستى مؤيدة من الرأسمالية الاحتكارية وتيارات سياسية فى أقصى اليسار ممثلة فى نشاط جماعات ماركسية متخبطة * ومنذ الحرب العالمية الثانية والحركة الوطنية المصرية عبارة عن محصلة التفاعل أو التناقض بين هذه الاتجاهات الثلاث السياسية والاجتماعية والاقتصادية : التيار الليبرالى البورجوازي التقليدى ممثلا فى الوفد فى الوسط ، وتيار فاشستى دينى ممثلا فى حركة الاخوان فى اليمين ، وتيار يسارى فى أقصى اليسار ممثلا فى جماعات ماركسية *

المراجع والمصادر

وثائق غير منشورة

1. British:

a) Foreign Office Papers (public Record Office, London):

F.O. 78 (Turkey: Egypt): General Correspondence.

F.O. 141 (Egypt): Consular Archives.

F.O. 142 (Egypt): Letter Books.

F.O. 146 (France): Embassy Archives: Correspondence.

F.O. 195 (Turkey): Embassy Archives: Correspondence.

Supplement to general correspondence:

F.O. 97/408 (1841 — 1848): Transit through Egypt.

Navigation of the Nile.

b) Palmerston papers: (Broadlands papers, National Register of Archives, London).

c) The India Office Records: Factory Records (India Office Library, London):

(Egypt and the Red Sea): Letters to the East India Company from the agent in Egypt:

— Vol. 10 (1834 — 38).

— Vol. 15 (1849 — 53).

2. French:

Archives du Ministère des Affaires Etrangères (M. A.
E.), Paris:

a) Egypte: Correspondance Politique des Consuls (C.
P.): Tomes 4-28.

Turquie: Correspondance Politique : Tomes 303-337.

b) Correspondance Consulaire et Commerciale:

Alexasdrie: Tomes 25-35 (1832-1859).

Le Caire: Tomes 27-30 (1833-1866).

وثائق منشورة

1. Documents Diplomatiques Français (D.D.F.) première série (1871-1900).
2. Hansard's Parliamentary Debates: 3rd Series.
3. Hurewitz, J. C., Diplomacy in the Near and Middle East, A documentary record: 1535-1914, Vol. 1, Princeton, N. J., 1956.
4. Nahoum, Haim, Recueil de Firmans Impériaux Ottomans adressés aux valis et aux Ekeuives d'Egypte, 1006 H - - 1322 H (1597 J.C. — 1904 J.C.) Le Caire, 1934.
5. Parliamentary Papers:
 - a) 1837, (539) VI: Report., on Steam Communications with India.
 - b) 1840, (277) xxi: Report on Egypt and Candia.
6. Royal Institute of International Affairs, Great Britain and Egypt: 1914-1951. Information Papers, No. 19, London, 1952.

الكتب العربية

- ١ — أحمد أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ •
- ٢ — أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٤٨ •
- ٣ — أحمد بن زنبيل الرمال ، تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر وأعمالها ، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ •
- ٤ — أحمد الدمرداشي ، كتاب الدرة المصانة في أخبار الكنانة في أخبار ما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا •
مخطوط من جزئين بالمتحف البريطاني بلندن •
British Museum. Ms. 10-73-4.
- ٥ — ا. ب. كلوت ، لمحة عامة الى مصر ، جزءان ، ترجمة محمد مسعود ، القاهرة (بدون تاريخ) •
- ٦ — أحمد رشاد ، مصطفى كامل — حياته وكفاحه ، القاهرة ، ١٩٥٨ •
- ٧ — أحمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ •
- ٨ — أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ •

- ٩ — أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا في عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ١٠ — أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ١١ — أحمد عرابى : مذكرات عرابى « كشف المستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية » ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ١٢ — أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد على ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ١٣ — أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ مصر من الحملة الفرنسية الى نهاية عصر اسماعيل (١٧٩٨ — ١٨٧٩) ، في كتاب المجلد في التاريخ المصرى ، نشر حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ، ١٩٤٢ .
- ١٤ — أحمد عزت عبد الكريم ، حركة التحول في بناء المجتمع القاهري في النصف الأول من القرن التاسع عشر في : مجلة المجلة ، العدد ١٤٩ ، القاهرة (مايو ١٩٦٩) .
- ١٥ — أحمد فتحى زغلول : المحاماة ، القاهرة ، ١٩٠٠ .
- ١٦ — أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ١٣ ، القاهرة ، ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م .
- ١٧ — أحمد لطفى السيد : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
- ١٨ — أحمد لطفى السيد : قصية حياتى ، العدد ١٣١ من كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

- ١٩ — أسد رستم : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ مجلدات ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٣٠ — ١٩٣٣ *
- ٢٠ — أسد رستم : بشير بين السلطان والعزير ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ *
- ٢١ — أمين عز الدين : تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩١٩ ، القاهرة ، ١٩٦٧ *
- ٢٢ — أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، بيروت ، ١٩٥٩ *
- ٢٣ — بدير كرابينيس : اسماعيل المفتري عليه ، ترجمة فؤاد صروف ، القاهرة ، ١٩٣٣ *
- ٢٤ — بولس قرالى : السوريون في مصر ، الجزء الأول ، مصر ، ١٩٢٨ *
- ٢٥ — تيودور روثستين : تاريخ المسألة المصرية من ١٨٧٥ الى ١٩١٠ ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، القاهرة ، ١٩٣٦ *
- ٢٦ — جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ، ١٩٥٠ *
- ٢٧ — جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ *
- ٢٨ — جمال الدين الشيال : رفاعه رافع الطهطاوى ١٨٠١ — ١٨٧٣ ، سلسلة نوابغ الفكر العربى رقم ٢٤ ، القاهرة ، ١٩٥٨ *
- ٢٩ — جمال الدين الشيال : محاضرات في الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامى الحديث ، السلسلة الثانية ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ *

- ٣٠ — جورج جندى و جاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ،
القاهرة ، ١٩٣٧ •
- ٣١ — ج • كريستوفر هيروالد : بونا بريت في مصر ، ترجمة فؤاد
أندراوس ، القاهرة ، ١٩٦٧ •
- ٣٢ — حافظ ابراهيم : ديوان حافظ ابراهيم ، الجزء الثاني ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م •
- ٣٣ — حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ — ١٧٩٨) ،
في ، كتاب المجلد في التاريخ المصري ، نشر حسن ابراهيم حسن ،
القاهرة ، ١٩٤٢ •
- ٣٤ — حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٦٥ •
- ٣٥ — حسين فوزى النجار : لطفى السيد والشخصية المصرية ،
القاهرة ، ١٩٦٣ •
- ٣٦ — حسين فوزى النجار : أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ، سلسلة
أعلام العرب رقم ٣٩ ، القاهرة ، ١٩٦٥ •
- ٣٧ — حسين فوزى النجار : على مبارك — أبو التعليم ، سلسلة أعلام
العرب رقم ٧١ ، القاهرة ، ١٩٦٧ •
- ٣٨ — حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، القاهرة ،
١٩٣٨ •
- ٣٩ — حيدر أحمد الشهابي : لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ، منشورات
الجامعة اللبنانية — قسم الدراسات التاريخية / ١٧ ، القسم
الثاني ، نشر وتعليق أسد رستم وفؤاد البستاني ، بيروت ،
١٩٦٩ •
- ٤٠ — خليل صبحي ، تاريخ الحياة النيابية في مصر ، الجزء السادس ،

- ٥٢ — عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ،
نشر أحمد زكي عطيه وآخرين .
- ٥٣ — عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين —
يوميات الجبرتي ، جزءان ، نشر محمد عطا ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٥٤ — عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٠ .
- ٥٥ — عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٥٦ — عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم
في مصر ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ .
- ٥٧ — عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ،
القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ٥٨ — عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية ،
القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٥٩ — عبد الرحمن الرافعي : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ،
القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٦٠ — عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ : تاريخنا
القومي في سبع سنوات : ١٩٥٢ — ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٦١ — عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد ، رمز الاخلاص والتضحية
(تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩) ، القاهرة ،
١٩٦٢ .
- ٦٢ — عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٦٣ — عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصري في القرن الثامن عشر ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

- ٦٤ — عبد العزيز الرفاعى : الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة ، القاهرة ،
٦٥ — عبد العزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، دراسة تاريخية
تحليلية ١٩١٤ — ١٩٢٣ ، القاهرة ، ١٩٦٧ •
- ٦٦ — عبد العزيز الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس ،
الاسكندرية ، ١٩٥٨ •
- ٦٧ — عبد العزيز الشناوى : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، سلسلة
أعلام العرب رقم ٦٧ ، القاهرة ، ١٩٦٧ •
- ٦٨ — عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر من
سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ ، القاهرة ، ١٩٦٨ •
- ٦٩ — عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى الى
حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ — ١٧٩٨) ، دمشق ، ١٩٦٦ •
- ٧٠ — عبد اللطيف حمزه : قصة الصحافة العربية فى مصر ، بغداد ،
١٩٦٧ •
- ٧١ — على الحديدى : عبد الله النديم خطيب الوطنية ، سلسلة أعلام
العرب رقم ٩ ، القاهرة ، ١٩٦٢ •
- ٧٢ — على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها
وبلاؤها القديمة الشهيرة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ هـ/
١٨٨٧ — ١٨٨٩ م •
- ٧٣ — عيسى اسكندر المعلوف : تواريخ الامبراطور نابليون بونابرت
باللغة العربية ولاسيما تاريخ نقولا الترك اللبنانى منها ، مجلة
المشرق ، ٢٩/ ١٩٣١ •
- ٧٤ — عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى ،
بيروت ، ١٩٦٦ •

- ٧٥ — فتحي رضوان : كفاحنا الوطني في نصف قرن ، القاهرة ، ١٩٤٧ •
- ٧٦ — فكرى أباطة : الضاحك الباكي ، القاهرة ، ١٩٥٨ •
- ٧٧ — الفيروز ابادى (مجد الدين) : القاموس المحيط ، الطبعة الخامسة ، شركة فن الطباعة ، القاهرة بدون تاريخ •
- ٧٨ — فيليب جلال : قاموس الادارة والقضاء ، ستة أجزاء ، الاسكندرية •
- ٧٩ — قانون نامة مصر : ترجمه وقدم له وعلق عليه دكتور أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ •
- ٨٠ — قسطنطين الباشا : محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر ، حريصا ، ١٩٣٠ •
- ٨١ — لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٩ •
- ٨٢ — محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الرابع والجزء الخامس ، تحقيق ونشر الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ •
- ٨٣ — محمد أنيس ، العالم العربى الحديث ، كتاب المجتمع العربى ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦٠ •
- ٨٤ — محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى في العصر العثمانى ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٢ •
- ٨٥ — محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ، القاهرة ، ١٩٦٢ •
- ٨٦ — محمد أنيس : « حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية » ، المجلة التاريخية ، ١٩٦٢ •

- ٨٧ — محمد أنيس والسيد رجب حراز : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها .
- ٨٨ — محمد توفيق البكرى : بيت الصديق ، مصر ، ١٣٢٣ هـ .
- ٨٩ — محمد جمال الدين المسدى : دنشواى ، مطبوعات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ٩٠ — محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٥١ — ١٩٥٣ .
- ٩١ — محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام النسيخ محمد عبده ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٧ .
- ٩٢ — محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٩٣ — محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفرانس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ٩٤ — محمد شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ، ١٧٩٨ — ١٨٠١ ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى (المقالة الأولى) ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ .
- ٩٥ — محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية ، ١٨١٢ — ١٩٣٦ ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٩٦ — محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح أحمد بن عبد الغنى بن على الاسحاقى ، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ، ١٣١١ / ١٨٩٣ — ١٨٩٤ .
- ٩٧ — محمد فريد أبو حديد : السيد عمر مكرم ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٩٨ — محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك ميثو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

- ٩٩ — محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ ، القاهرة ، ١٩٥٧ *
- ١٠٠ — محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨١١ ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٨ *
- ١٠١ — محمد كامل مرسى : الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ، القاهرة *
- ١٠٢ — محمد المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٩ م *
- ١٠٣ — محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة الزهية فى ولاية مصر القاهرة المعزية ، مخطوط موجود فى مكتبة البودليان Bodleian Ms. Pocock, 80.
- ١٠٤ — محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى : الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، مخطوط فى المتحف البريطانى بلندن تحت رقم British museum, Ms. 9973.
- ١٠٥ — محمد محمد توفيق : الحلقة المفقودة فى وثائق تاريخ مصر الحديث ، مجلة الهلال ، عدد مايو ويونيو ١٩٤١ *
- ١٠٦ — محمد محمد توفيق : الغاء نظام الالتزام فى عهد محمد على الكبير ، القاهرة ، ١٩٤١ *
- ١٠٧ — محمد محمد توفيق : مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثمانى فى مصر ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٣ *
- ١٠٨ — محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ،

الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٢ •

- ١٠٩— محمد محمود السروجي : مصر والمسألة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ •
- ١١٠— محمد محمود السروجي : الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ •
- ١١١— محمد محمود الصياد : جبره وجبرت ، فى كتاب عبد الرحمن الجبرتي — دراسات وبحوث ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ •
- ١١٢— محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ •
- ١١٣— محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ •
- ١١٤— محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره فى البلاد العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٦ •
- ١١٥— محمد مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس ١٨٥٤ — ١٩٥٦ ، الاسكندرية ، ١٩٥٦ •
- ١١٦— محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ •
- ١١٧— محمود الشرقاوى وعبد الله المشد : على مبارك — حياته ودعوته وآثاره ، القاهرة ، ١٩٦٣ •
- ١١٨— مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٨٩٨ •
- ١١٩— الميثاق الوطنى ، القاهرة ، ١٩٦٣ •
- ١٢٠— نجم الدين محمد بن بدر الدين الشافعى الغزى : لطف السحر

الكتب الأجنبية

- 1 — Ahmed, J.M., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, 1960.
- 2 — Addison, H., Thomas Waghorn and the Overland Route, Royal Central Asian Journal, April 1958, Pt. II.
- 3 — Albrecht-Carrie, R., A diplomatic history of Europe since the Congress of Vienna, London, 1961.
- 4 — Alexander, J., The Truth about Egypt, London, 1911.
- 5 — Anis, M., The development of British interests in the late 18th century ph. D. Thesis, Liverpool, 1951.
- 6 — Anonymous, The present crisis in Egypt in relation to Our Overland Communications, No. 1, London, 1851.
- 7 — Anonymous, The Egyptian Railway, or the interests of England in Egypt, London, 1852.
- 8 — Anonymous, Railways in Egypt; Communication with India, London, 1857.
- 9 — Ayalon, David, the historian al-Jabarti and his background, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XXIII, 2, 1960.
- 10 — Baer, G., A history of landownership in modern Egypt 1800-1950, London, 1962.
- 11 — Bulwer, H., The life of Henry John Temple, Viscount Palmerston, 3 vols., London, 1870-1874.

- 12 — Bullard, R.W., Britain and the Middle East. From the earliest times to 1963, London, 1964.
- 13 — Bréhier, L., L'Egypte de 1798 à 1900, Paris, 1901.
- 14 — Bainville, J., «L'expédition française en Egypte (1798-1801)», in Précis de l'histoire d'Egypte, ed. Mohamed zaKy el-Ibrachy, vol. III, Cairo, 1933.
- 15 — Blunt, W. S., The secret history of the British occupation of Egypt, London, 1923.
- 16 — Broadley, A.M., How we defended Arabi and his friends, London, 1884.
- 17 — Brockelmann Geschichte der Arabischen Litteratur, Zeiwter Band Leiden, 1949.
- 18 — Brockelmann Geschichte der Arabischen Litteratur, Zeiwter Band Leiden, 1949.
- 19 — Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Supplement Band, Zeiwter Band, Leiden, 1938.
- 20 — Cardin, Journal d'Abdurrahman Gabarti pendant l'occupation française d'Egypte, suivi d'un précis de la même campagne par Mou'Allem Nicolas el-Turki secrétaire du prince de Druzes, Paris, 1838.
— Cardin A., Expédition française en Egypte, Par Muo'Allem Niccolas el-Turki, Paris, 1838.
- 21 — Charles-Roux, F., Autour d'une route, L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au XVIIIème siècle, Paris, 1922.

- 22 — Charles-Roux, F., Les origines de l'expédition d'Egypte, Paris, 1910.
- 23 — Charles-Roux, F., L'Egypte de 1801 à 1882, vol. VI in Histoire de la nation égyptienne, ed. Gabriel Hanotaux, Paris, 1936.
- 24 — Cromer, Lord, Modern Egypt, 2 vols., London, 1908.
- 25 — Cromer, Lord, Abbas II, London, 1915.
- 26 — De Forbin, Voyage dans le Levant, Paris, 1819.
- 27 — Dodwell, H., The founder of modern Egypt: A study of Mohammad Ali, Cambridge, England, 1967.
- 28 — Douin, G., Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807), Société royale de géographie d'Egypte, publications spéciales, Cairo, 1926.
- 29 — Douin, G., Histoire du règne du Khédive Ismail, Tome I, Rome, 1933.
- 30 — Dozy, R., Supplément aux dictionnaires Arabes, 3 éme. édition, Leyde, Paris.
- 31 — Driault, E., La Question d'Orient, Paris, 1912.
- 32 — Driault, E., Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814). Société royale de géographie d'Egypte. publications spéciales, Cairo, 1925.
- 33 — Driault E., La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan (1814-1823), Société Royale de Géographie d'Egypte, Cairo, 1927.

- 34 — Freycinet, C. de, *la Question d'Egypt*, Paris 1904.
- 35 — Ghorbal, S., *The beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemet Ali*, London, 1928.
- 36 — Goldschmidt, A., *The Egyptian Nationalist Party: 1892-1914*, in P.M. Holt (ed.) , *Political and social change in modern Egypt*, London, 1968.
- 37 — Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, *Islamic society and the West*, Vol. I: *Islamic society in the eighteenth century*, 2 parts, London, 1950-1957.
- 38 — Guémard, G., *Histoire et bibliographie critique de la Commission de Sciences et Arts et de l'Institut d'Egypte*, le Caire, 1936.
- 39 — Haddad, Georges M., *The Historical Work of Niqula el-Turk 1763-1828*, *Journal of The American Oriental Society*, Vol. 81, No. 3, (Aug.-Sept., 1961).
- 40 — Heyworth — Dunne, J., *An introduction to the history of education in modern Egypt*, London, n.d. (1938).
- 41 — Holt, P.M., *Egypt and the Fertile Crescent: 1516-1922*, London, 1966.
- 42 — Holt, P.M. (ed.), *Political and social change in modern Egypt: historical studies from the Ottoman conquest to the United Arab Republic*, London, 1968.
- 43 — Holt, P.M., *The pattern of Egyptian political history from 1517 to 1798*, in *Political and Social change in modern Egypt*, ed. P.M. Holt, London, 1969.

- 44 — Holt, P. M., A modern history of the Sudan, London, 1961.
- 45 — Hallberg, C.W., The Suez Canal: its history and diplomatic importance, New York, Columbia University Press 1931.
- 46 — Hoskins, H.L., British routes to India, New York, 1928.
- 47 — Hourani, A., Arabic thought in the Liberal age: 1798-1939, London, 1962.
- 48 — de la Jonquière, A., L'expédition d'Egypte, 5 Vols, Paris, 1900.
- 49 — La Jonquière, C., l'Expédition d'Egypte, 1798-1801, Paris, 1899-1907, T.III.
- 50 — Landau, J., Parliaments and parties in Egypt, New York 1953.
- 51 — Lesseps, Ferdinand De, Lettres, journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez, 5 Vols. Paris, 1875-81.
- 52 — MacCoan, C., Egypt as it is, London, 1877.
- 53 — Marlowe, J., Anglo-Egyptian relations : 1800-1953, London, 1954.
- 54 — Marlowe, The making of the Suez Canal, London, 1964.
- 55 — Moreh, S., Reputed autographes of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems, B.S.O.A.S., Vol. XXVIII, 1965.

- 56 — Napoléon I^{er}. Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798-1799, Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictées par lui-même à Sainte Hélène et publiées par le général Bertrand, Paris, 1817.
- 57 — Nakoula el-turk, Histoire de l'Expédition des Français en Egypte, publiée et traduite par M. Desgranges Aine, secrétaire interprète du roi, Paris, imprimée par autorisation du roi à l'imprimerie royale, M D C C C XXXIX.
- 58 — Nicolas Turk, chronique d'Egypte 1798-1804, éditée et traduite par Gaston Wiet (le Caire, 1950).
- 59 — Ninet, J., Arabi Pacha, Paris, 1882.
- 60 — Omar, O.A., Reassessment of Abbas Hilmi I, Viceroy of Egypt (1848-1854), Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XXIV, 1970, PP. 1-29.
- 61 — Owen, R., The influence of Lord Cromer's Indian experience on British policy in Egypt: 1883-1907, St Antony's Papers, No. 17, Middle Eastern Affairs, 4, 1965.
- 62 — Rifaat, M., The awakening of modern. Egypt, London, 1947.
- 63 — Rivlin, H.A.B. The agricultural policy of Muhammad Ali in Egypt, Cambridge, Mass., 1961.
- 64 — Sabry, M., L'empire Egyptien sous I-mail et l'ingérence Anglo-Fraîçaise: 1836-1879, Paris, 1933.

محتويات الكتاب

أهداء هـ
مقدمة ز

القسم الأول

مصر العثمانية

(١٥١٧ — ١٧٩٨)

الفصل الأول : دراسة عن بعض مصادر تاريخ مصر الحديث ٣ — ٩٩
الفصل الثاني : النظام الإدارى والمالى فى ولاية مصر العثمانية ١٠١ — ١٦٧
الفصل الثالث : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى (١٧٩٨ — ١٥١٧) ١٦٩ — ١٩٦

القسم الثانى

مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين

الفصل الرابع: مصر فى النصف الأول للقرن التاسع عشر ١٩٩ — ٢٧٦
الفصل الخامس: علاقات مصر بالدولة العثمانية والغرب (١٨٤٨ — ١٨٧٩) ٢٧٧ — ٣٣٢
الفصل السادس : نمو الوعى القومى وقيام الثورة العرابية ٣٣٣ — ٤٠٥
الفصل السابع : الحركة الوطنية من الاحتلال الى الحماية ٤٠٧ — ٤٨١
الفصل الثامن : ثورة ١٩١٩ ٤٨٣ — ٥٢٠
المصادر والمراجع ٥٢١ — ٥٤٥
محتويات الكتاب ٥٤٧

دار نشر الثقافة بالاسكندرية

